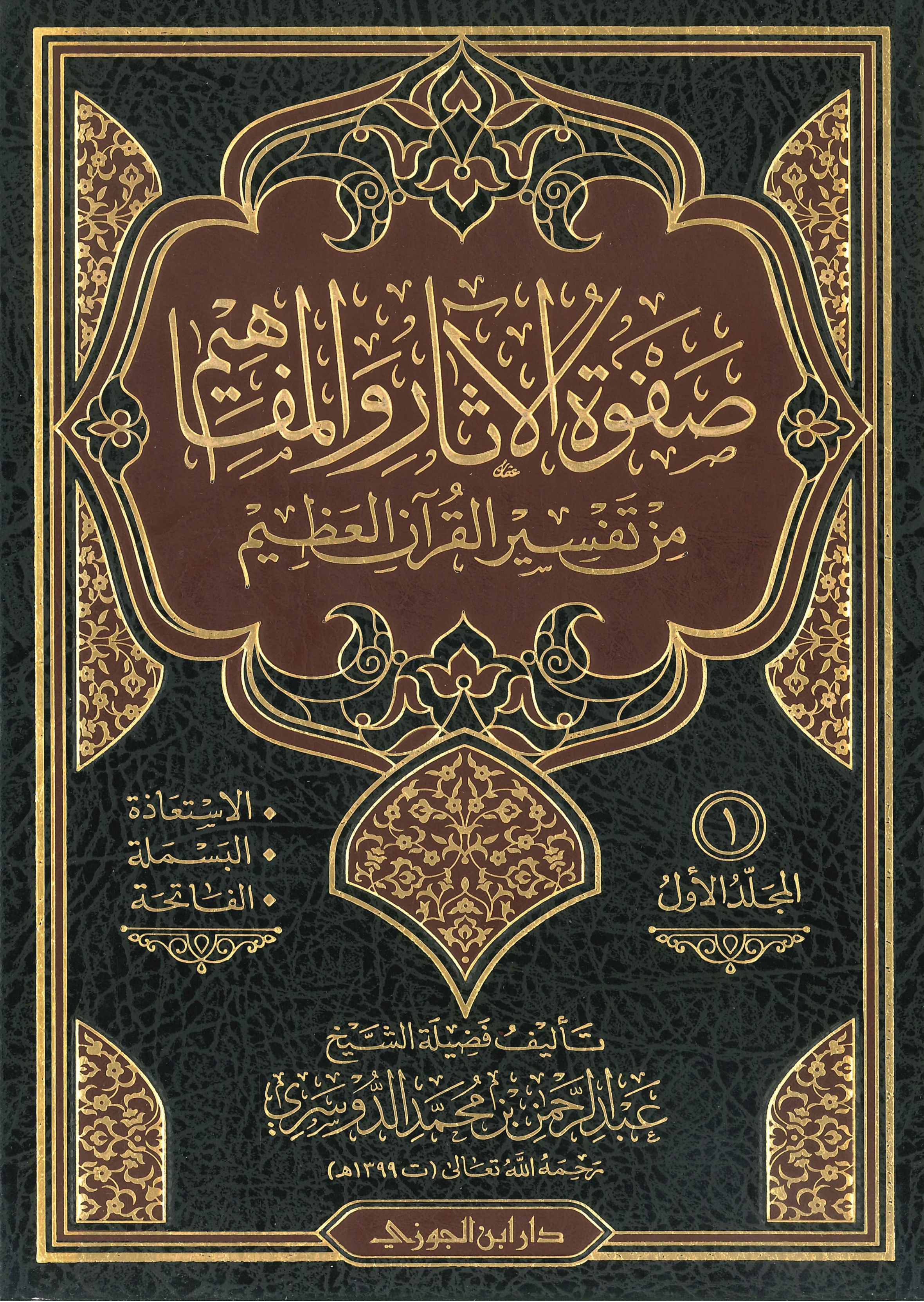
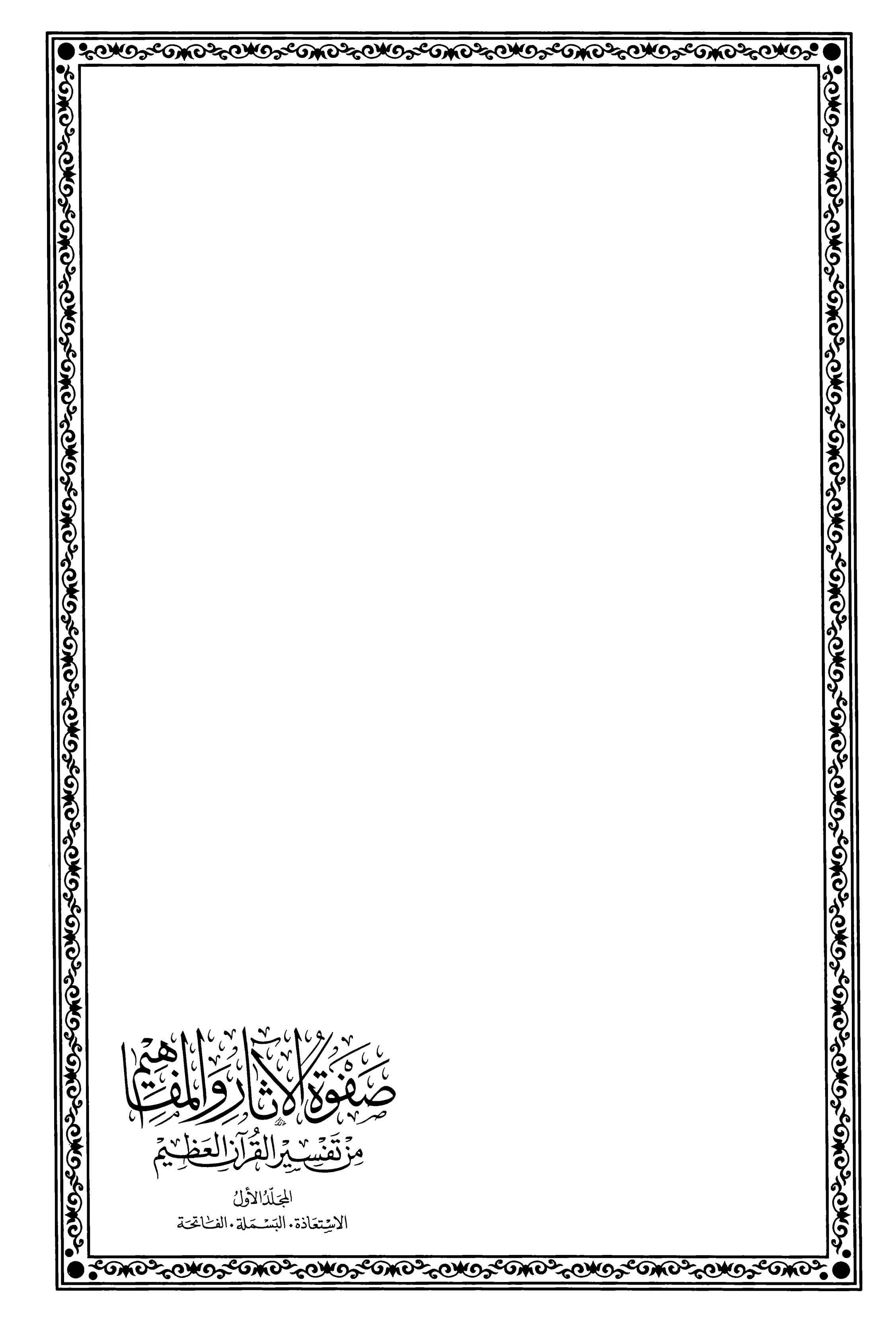


صفوة الآثار والمفاهيم
من تفسير القرآن العظيم
١
المجلد الأول
• الاستعاذة
• البسملة
• الفاتحة
تأليف فضيلة الشيخ
عبد الرحمن بن محمد الدوسري
رحمه الله تعالى (ت ١٣٩٩هـ)
دار ابن الجوزي


صفوة الآثار والمفاهيم
من تفسير القرآن العظيم
المجلد الأول
الاستعاذة . البسملة . الفاتحة

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدوسري ، عبد الرحمن محمد
صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم . / عبد الرحمن محمد الدوسري - ط ١ . - الدمام ، ١٤٣٩ هـ
٥٢٣٢ ص ؛ .. سم
ردمك : ٥ - ٣٥ - ٨٢٢٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - التفسير بالمأثور أ . العنوان
ديوي ٣٢ , ٢٢٧ ٩٣٠ / ١٤٣٩

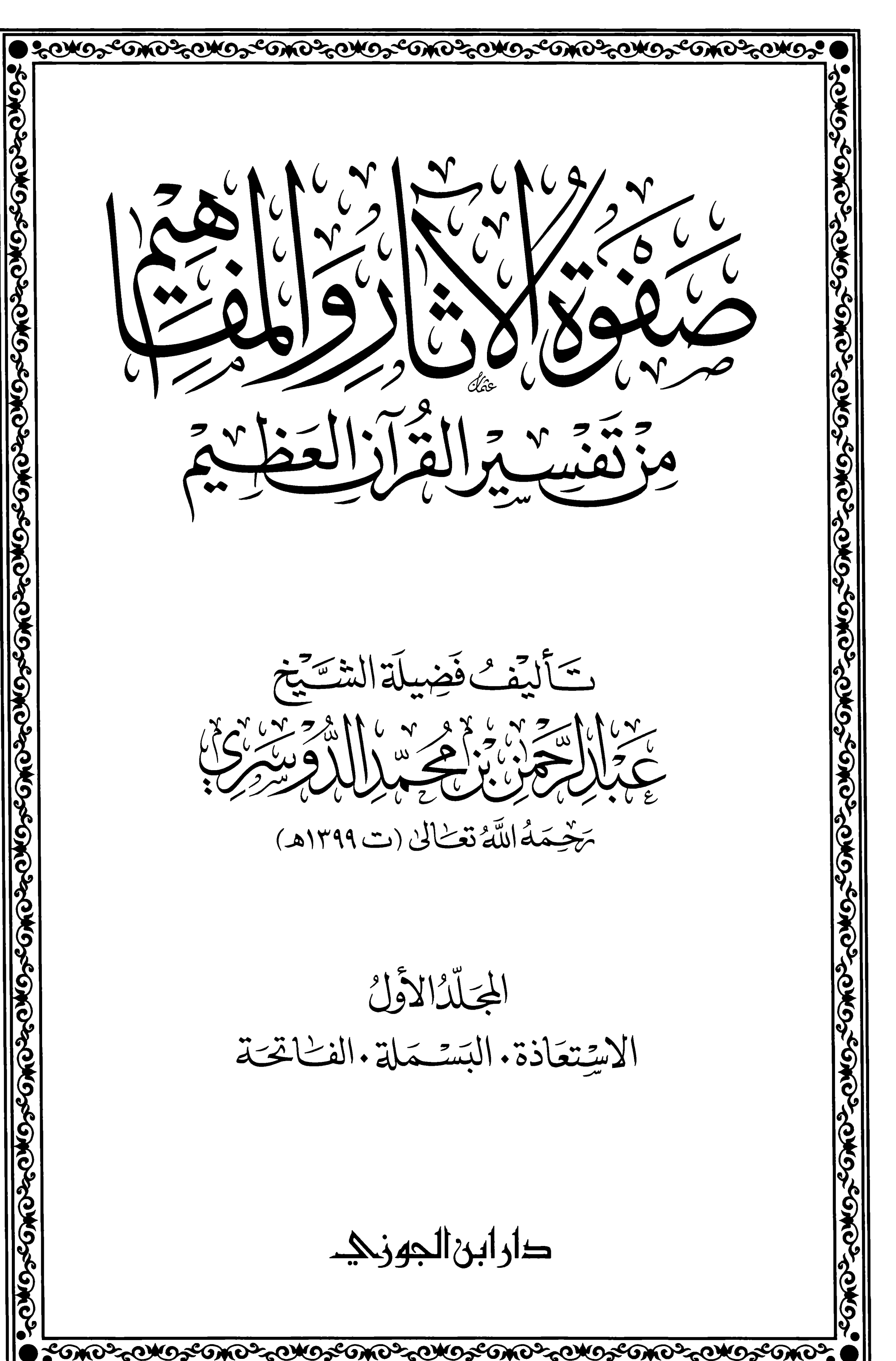
رقم الإيداع : ١٤٣٩/٩٣٠
ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٨٢٢٢-٣٥-٥

الطبعة الثالثة
(١٤٣٩هـ)



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية : الدمام - طريق الملك فهد - ت : ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣ ، ص ب : ٢٩٥٧
الرمز البريدي : ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي : ٨٤٠٦ - فاكس : ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس : ٢١٠٧٢٢٨
جوال : ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت : ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت : ٠١٢٦٨١٤٥١٩ - بيروت
هاتف : ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس : ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول : ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس : ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني :
aljawzi@hotmail.com-www.aljawzi.com



صفوة الآثار والمفاهيم

من تفسير القرآن العظيم

تأليف فضيلة الشيخ

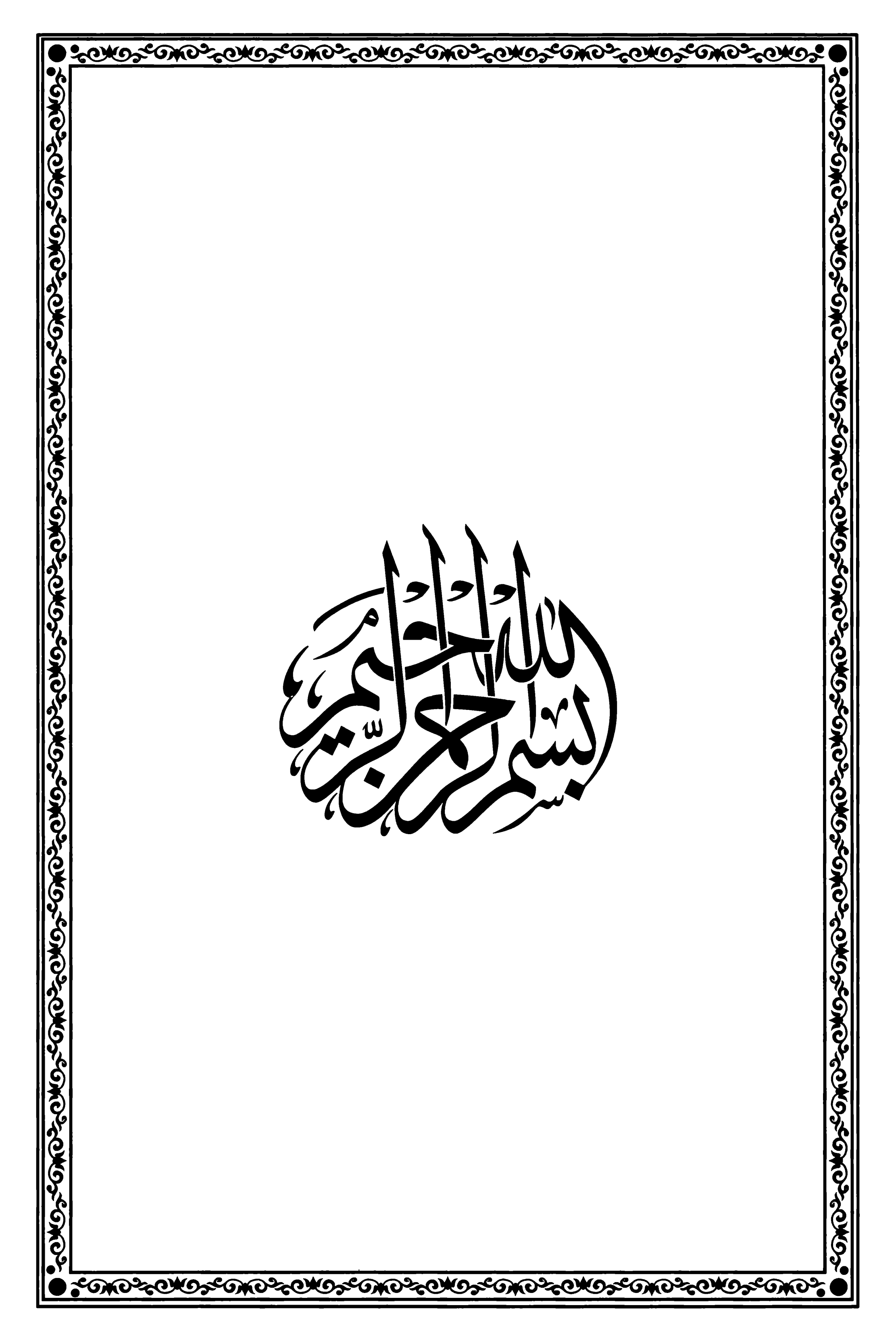
عبد الرحمن بن محمد الدوسري

رحمه الله تعالى (ت ١٣٩٩هـ)

المجلد الأول

الاستعاذة . البسملة . الفاتحة

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد بن عبداللَّه، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهٰذه هي الطبعة الثالثة لكتاب: «**صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**»، لوالدي الشيخ العلامة عبدالرَّحمٰن بن محمد الخلف الدوسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، طبعة جديدة ومميَّزة قامت بها مشكورة «دار ابن الجوزي» لكامل تفسيره، أسأل اللَّه تعالىٰ أن ينفع بها الجميع.

كما لا يفوتُني أن أشكر دور النشر التي قامت بطباعة ونشر الطبعات السابقة، وكذا أخص بالشكر فضيلة الشيخ القاضي بديوان المظالم د. عبدالمحسن بن عبداللَّه الزكري، لمراجعة هٰذه الطبعة الجديدة، واهتمامه الفعال بتراث الشيخ وما يخصُّه.

أسأله اللَّه أن يتقبل من الشيخ ومِن كل من ساهم في خدمة هٰذا الكتاب سابقًا ولاحقًا، وأن يتغمد الجميع برحمته ومغفرته، وأن يتجاوز عن تقصيرنا وتفريطنا.

واللَّهُ الهادي إلىٰ الصراط المستقيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

إبراهيم ابن الشيخ عبدالرَّحمن بن محمد الخلف الدوسري

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب وأهميته

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام المتقين، وعلىٰ صحابته الأبرار الطيبين، وعلىٰ من تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فمن دواعي سرورنا واعتزازنا أن نقدِّم للعالَم الإسلامي كتابًا من أهمِّ كتب التفسير في العصر الحديث، وهو كتاب «**صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**»؛ تأليف فضيلة الشيخ العلامة عبدالرَّحمٰن بن محمد الدوسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد سبق أن طُبع الكتاب منذ سنواتٍ في «دار المغني»، وهانحن نقدِّمه اليوم في طبعة جديدة وحُلَّةٍ قشيبة؛ سائلين اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يتقبَّله منَّا بقبول حسن.

ويمكننا ـ في هٰذه العُجالة ـ تلخيصُ أهم مميزات هٰذا الكتاب النفيس في العناصر التالية:

أولاً: سلاسة العبارة:

فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قريب العبارات، بعيدًا عن التشدُّق واستعمال الوحشي من الألفاظ، وهٰذا بلا ريب مما يشوِّق القارئ علىٰ قراءة كلام الكاتب؛ بل والمسارعة بإتمام ما يقرؤه في أيام متقاربة.

وحقيقةً فإن سهولة العبارة في كلام أيِّ مؤلف ـ لا سيما في العلوم الدينية ـ من أهم المطالب في العصر الحاضر، لتحبيب الناس في دين ربِّهم، ودعوتِهم العملية للإقبال عليه، والنهل من علومه الزاهرة، في الوقت التي تتكالب فيها الدنيا علىٰ تنفير الناس عن دينهم، والتمسُّكِ والاعتصام بعروته الوثقىٰ.

✍ ثانيًا: سلامة العقيدة:

فإن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان - بحمد اللَّه تعالىٰ - من أهل السُّنة والجماعة؛ أتباع المنهج السلفيِّ الصافي، الذي كان عليه نبيُّنا ﷺ وصحابته الكرام وأهل القرون المفضَّلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ وهٰذه نعمةٌ عظيمة علىٰ أهل التفسير خاصةً؛ ومن الدوافع التي تُطمئِنُ طالبي الحق إلىٰ صحة المنهج المتَّبع في تفسير كلام ربِّ العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأن المؤلف إذا كان فاسد العقيدة، حائدًا عن المنهج النبوي، فغالبًا ما يَصُبُّ سوءَ فهمه - خاصةً في آيات الأسماء والصفات - علىٰ كلام اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ، فيحمِّل آياتِه العظيمة ما لا تحتملُه، فيكون فِعلُه من باب تحريف الكلم عن مواضعه - عياذًا باللَّه تعالىٰ -.

✍ ثالثًا: التحقيق النفيس في المسائل الخلافية:

وهٰذا - أيضًا - من أعظم ميزات هٰذا التفسير العظيم؛ وهو ما سيدركُه القارئ الكريم حال مطالعة هٰذا السِّفر النفيس؛ فسوف يجد نفسًا طويلًا من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عديدٍ من المسائل الفقهية الخلافية، كان يعمل جاهدًا علىٰ تحقيق الحق فيها من خلال الرجوع لأقوال فقهاء الإسلام، والإلمام بأقوالهم، ثم عرض الراجح - الذي ترجح عنده - من خلال الأدلة النقلية والعقلية الصحيحة. ولو أن هٰذا الكتاب تمَّ إلىٰ نهايته لكان له شأنٌ أعظم مما هو عليه في هٰذا العصر، لٰكن قضىٰ اللَّه تعالىٰ وقدَّر أن تُوافيَ المؤلفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ منيَّتُه بعد ختام تفسير سورة «المائدة» فقط، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب].

✍ رابعًا: الدفاع عن الإسلام ضد المذاهب الهدَّامة:

وحقيقةً فإن هٰذا الأمر من أعظم ما يميِّز هٰذا التفسير القيم؛ ويكفي القارئَ الكريم أن يتصفَّح جزءً واحدًا ليرىٰ الغيرة والحمية المحمودة للَّه تعالىٰ ورسوله ﷺ ودينه العظيم من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضد

تحريف الكفار والملحدين من ناحية، أو تأويل ضُلَّالِ المبتدعين من ناحية ثانية، أو انتحال الممسوخين - الذين رمَوا بأنفسهم في أحضان الغربيين الماكرين - من ناحيةٍ ثالثة؛ هٰؤلاء جميعًا الذين - بالرغم من افتراق مناهجهم - إلَّا أنهم يجتمعون علىٰ هدفٍ واحدٍ، وهو إخراج دين اللَّه ﷻ عن صفائه وطهارته التي نزل بها من عند اللَّه تعالىٰ، ومحاولةِ طمس معالمه النيِّرة التي تُحبِّبُ فيه العقلاء والمنصفين؛ إلَّا أن أولٰئك المفسدين جدُّوا وجاهدوا في تشكيك الناس في هٰذه النعمة العظيمة - دين الإسلام -، وألقَوا بشبهاتهم الظَّلْماء ليَصِيدوا بها مَن لا يرجون للَّه تعالىٰ وقارًا؛ فوقف لهم المؤلف رحمه الله وقفةَ الأسود الزائرة، وكشف كشفًا جليًّا عن مكرهم وكيدهم الدائب بالإسلام، وحذر المسلمين المتقين من الانخداع بتلبيساتهم، والاغترار بزخارف أقوالهم؛ وذٰلك ببيان مراميهم الحقيقية التي تختفي وراءَ الألفاظ المنمقة التي يُخدَعُ بها السُّذَّج، أو أصحابُ القلوب الخاوية من تقوىٰ اللَّه تعالىٰ ﷻ لقائه.

وبهٰذا يُعدُّ هٰذا التفسير القيم من أهم المراجع في الدفاع عن الإسلام، وبيان صفائه ونقائه وطهارته وسموِّه، وأحقيته وحده - دون كلِّ ما سواه - لقيادة البشرية الحاشرة إلىٰ برِّ الأمان.

خامسًا: الجمع في الاحتجاج بين النقل والعقل:

وتلك من أعظم مزايا أهل السنة والجماعة - كثَّر اللَّه جمعهم، وكَبَت عدوَّهم -؛ فإن الإسلام العظيم لا يخالفُ العقلَ السليم، بل ينمِّيه ويرقِّيه ويُعلي من شأنه، ويسدِّدُ رؤيته نحو الحق والخير والنور. ويُخطئُ من يعتقد أن الإسلام ينافي العقلَ، أو أنه يَحجُر عليه التفكير والسعي إلىٰ المعالي؛ لٰكنَّ الإسلام - كما سلف - يُسدِّد طريق العقل، ويُنير بصيرته، ويعرِّفه كيفية السير علىٰ الطريق الصحيح في النظر والتفكير والتأمل الذي يقوده إلىٰ سعادة الدنيا

ونعيم الآخرة.

وقد سار المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ هٰذا المنهج النظيف في مناقشاته العلمية ـ خاصةً مع خصوم الإسلام ـ، فكان يردُّ عليهم بالحجج الشرعية، مضيفًا إليها الحججَ الصحيحة العقلية، التي تجعل المخالف يُذعن إلىٰ الحق ـ لو كان يريدُه ويبتغيه ـ، أمَّا أهل المكابرة فلا ينفعُ معهم لا هٰذا ولا ذاك، وإنما وظيفة العالِم والداعية أن يقيم الحُجَّة ـ كما أمره ربُّه تعالىٰ ـ لمن يريد الحق ورضا اللَّه تعالىٰ، أما التوفيق للهداية فإنما هي بيده سبحانه وحده. وهٰذا ما فعله المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مناقشاته، وأدلىٰ بدلوه الطِّيب فيما ناقش فيه هٰؤلاء حول الإسلام، لِيَحِقَّ عليهم بعد ذٰلك قول رب العالمين: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فتلك ـ أيها القارئ الكريم ـ أهمُّ ميزات هٰذا التفسير النفيس، ولا شك أن المطالع والمتعايش معه يرىٰ الكثيرَ مما لم نذكره في هٰذه العُجالة؛ التي غرضها: «لفتُ النظر» إلىٰ أهمية وقيمة هٰذا الكتاب النفيس. واللَّهُ المستعان.

✍ عملنا في هذه الطبعة:

يمكن إجمالُ عملنا في هٰذه الطبعة الجديدة في النقاط التالية:

١ ـ إخراج الكتاب في حُلَّةٍ قشيبةٍ، وثوبٍ نفيس، يُمتِعُ القارئ، ويشرحُ صدره لمطالعته والوقوف علىٰ غُرره ونفائسه. ولا شك أن إخراج الكتاب الإسلامي في صورة تُبهج النفوس مما يشرح الصدور لاقتنائه والإفادة مما فيه من علوم الشريعة المطهَّرة.

٢ ـ تلافينا العديدَ من التحريفات والتصحيفات والسَّقط الموجود في النسخة المطبوعة، وهٰذه الإصلاحات بعضُها كان واضحًا يُدرك بأدنىٰ نظر وتأمل، وبعضُها كان بالرجوع إلىٰ المصادر التي رجع إليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نقل الكلام عمن سبقوه أو عاصروه.

٣ ـ أتممنا تخريجَ الأحاديث النبوية في جميع أجزاء الكتاب، والتي كانت توقفت في النسخة المطبوعة عند المجلد الخامس، في حين أُهمل تخريج بقية الأحاديث في الأجزاء الأربعة الأخرىٰ، فأتممناها في هٰذه الطبعة ـ بحمد اللَّه تعالىٰ ـ.

٤ ـ قمنا بمراجعة الكتاب عدة مرات لنتلافي ـ قدر الطاقة ـ ما قد عساه أن يقع من تصحيف.

ولا ندِّعي ـ بعد كلِّ هٰذا ـ الكمال في عملنا، أو أنه لا عرضة فيه للنقص أو الخطأ أو السهو والنسيان، بل لابد ـ مهما بذل الإنسان الجهد في العمل ـ من صدور مثل هٰذه السلبيات؛ فقد أبىٰ اللَّه تعالىٰ أن يكون الكمال إلَّا لكتابه العظيم. ونحن عازمون ـ بعون اللَّه تعالىٰ وتوفيقه ـ في «دار ابن الجوزي» علىٰ مراجعة الكتاب والنظر فيه مرةً أخرىٰ بعد طباعته، لتكون الطبعاتُ القادمة في صورة أقرب وأسدُّ ـ إن شاء اللَّه تعالىٰ ـ.

وفي الختام: فما كان من توفيق في هٰذه الطبعة، فهو مِن منَّة أرحم الراحمين ﷻ علينا، وما كان فيه من زلل أو خطأٍ فهو بذنوبنا وتقصيرنا، ويعفو اللَّهُ تعالىٰ عن كثير.

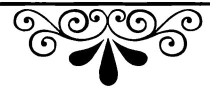
والمأمول من القارئ الكريم أن يوافينا بملاحظاته حول ما قد يتبدىٰ له في عملنا لنستدركه في الطبعات القادمة ـ إن شاء اللَّه ـ.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين، وصلىٰ اللَّه وسلم وبارك علىٰ الحبيب محمد، وعلىٰ آله وصحابته والتابعين لهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين.

الناشر



باب الاستعاذة



📖 «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»:

«أعوذ»: أي: ألوذ، وألتجئ، وألتصق بجناب اللّٰه تعالىٰ، والعَوذ، والتعوذ، والاستعاذة بمعنىٰ واحد.

وذكر العلماء لذلك خمسة أركان، نلخصها فيما يلي:

أولًا: الاستعاذة:

وهي الاحتراز من شر الوسوسة التي كأنها حروف خفية تدق علىٰ قلب الإنسان أو كهمزات يقذف بها شياطين الجن علىٰ الخواطر تتأثر بها المشاعر والجوارح، وهمسات يقذف بها شياطين الإنس بأساليب شتىٰ؛ لفتنة من يريدون فتنته.

ثانيًا: المُستعيذ:

وهو الذي عرف نفسه أنه عبد مربوب، فالتجأ إلىٰ ربه وخالقه القادر القاهر الغالب أن يمنعه مما لا طاقة له بشره، ولا يقدر علىٰ التخلص منه إلا بمعونته وعصمته، إذ لا تُتصور الاستعاذة بخلاف ذلك.

ثالثًا: المُستعاذ به:

وهو الركنُ الأعظم في الاستعاذة، وذلك ألّا يُستعاذ إلّا باللّٰه، وبأسمائه الحسنىٰ، وصفاته العلىٰ، وكلماته التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، بل يستحيل أن يعرض لها مانع أو عائق، ومنها ما نصت عليه هذه الآية: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]، فالاستعاذة بغير اللّٰه شرك.

رابعًا: المُستعاذ منه:

وهو الشيطان علىٰ اختلاف أجناسه وأنواعه من الجن والإنس ـ كما سنفصلها ـ لدفع شره الحسي والمعنوي، وتطهير القلب من أنواع فتنته، كي لا تتحرك الجوارح، أو تنطلق بما يخالف أمر اللّٰه من كل

شيء، إذ به الاستعاذة ﷻ علىٰ تحقيق عبوديته، والتشرف بتنفيذ حكمه وشرعه، والاستعاذة من شر ما يعوقه ويغويه، كما أرشد إلىٰ ذلك في فاتحة كتابه وفي خاتمة سورة «الناس» بأكمل أنواع الضراعة وأعظمها.

خامسًا: المطالب التي من أجلها يُستعاذ، وهي نوعان:

أحدهما: طلب دفع جميع الشرور الروحانية والجسمانية مما يحصل به السلامة من جميع أنواع الفتنة: المادية أو الروحية، فتنة الشبهات أو الشهوات، وكلها أمور غير متناهية ولا مأمون عليها، فيجب علىٰ الإنسان أن يكون مجاهدًا نفسه عنها للَّه وفي اللَّه ـ دائمًا وأبدًا ـ فيما يقدر عليه، ويستعيذ به مما لا يقدر عليه؛ ليحصل منه علىٰ العصمة، ويحصل له العون والمدد الروحي الذي يحصنه ويقوي معنويته، وينور بصيرته، بسبب ما تلبس به من التقوىٰ، فلا يضره عدوه في دينه أو بدنه أو ماله، ولا يصده عن فعل ما يلزمه من حق ربه.

وثانيها: طلب العون من ربه علىٰ أداء ما أوجب عليه في هذه الحياة من أن يكون هاديًا مهديًا، محافظًا لحدود اللَّه، معظمًا لشعائره، حاملًا لرسالته، ساعيًا في إصلاح ما أفسده المبطلون في أرضه علىٰ ضوء الوحي الذي ورثه من نبيه ﷺ الذي هو مسؤول عنه ومعاقب علىٰ التفريط فيه بشتىٰ العقوبات العاجلة والآجلة، فهذا بعض مدلول الاستعاذة باللَّه من الشيطان الرجيم.

شياطين الجن والإنس:

وليعلم أن «الشيطان» ليس متصوَّرًا معناه علىٰ إبليس وذريته؛ بل هو اسم جنس لكل متمرد عارم عاتٍ من الجن والإنس والدواب، ولكل من تعاون مع إبليس وكان من جنوده في الإغواء وتحبيذ المنكر والفحشاء، والصد عن سبيل اللَّه، والدعوة إلىٰ الطريق الباطل؛ بأي أسلوب، وتحت أي شعار أو مذهب، فالشيطان في لغة العرب مشتق من «شطن» أي: بعُد بطبعه وسلوكه أو مذهبه؛ فمن ابتعد بشيء من

ذلك عن سائر بني جنسه فهو شيطان، لا سيما إذا كان فيه شيء من الطغيان أو الاستعلاء والاستكبار، ومن هذا النوع إبليس، ومن اقتفىٰ أثره وورث طباعه من الجن والإنس، ومن ابتعد عن الخير المألوف بفسقه أو فجوره، وكان ساعيًا أو مرغبًا بضده؛ فهو شيطان مهما كان جنسه وصفته.

قال سيبويه: العرب تقول: «تشيطن فلان»: إذا فعل فِعلَ الشياطين، ولهذا يسمىٰ «شيطانًا» كلُّ من تمرد من جني وإنسي وحيوان، وقد نزل عمر عن البِرْذون[1] الذي أركبوه إياه قائلًا: «ما حملتموني إلا علىٰ شيطان؛ ما نزلت عنه حتىٰ أنكرت نفسي»؛ قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وكل من حاول فتنة أمة محمد ﷺ وأمم الأنبياء قبله عما شرع اللَّه لها علىٰ ألسنتهم فهو شيطان؛ لمفارقة أخلاقِه أخلاقَهم، وابتعاد مذهبه وذوقه عن مذهبهم، فهو من أعداء الأنبياء إلىٰ يوم القيامة، يقول العربي: شطنت داري عن دارك: إذا بعدت.

قال النابغة الذُّبياني:

نأت بسعاد عنك نوىً شطون ... فبانت والفؤاد بها رهين

وقال أمية:

أيما شاطن عصاه عكاه ... ثم يُلْقَىٰ في السجن والأغلال

من: «شطن يشطن فهو شاطن»، إذ لو كان من «شاط ـ يشيط» لقال: أيما شائط.

وقال غيره:

أتقبل عذر الصبِّ أم أنت عاذلُه ... لذِكرِ حبيبٍ عنه شطَّت منازله

---

(١) البِرذون: نوعٌ من الخيول الفارهة.

فكل شاطن عاص مبتعد عن وحي اللَّه، ساع لإبعاد الناس عن شرعه وحكمه، عامل علىٰ إغوائهم وإغرائهم، أو متسلط بقهرهم علىٰ سلوك الباطل فهو شيطان، وأشد منه شيطنةً من يرهق الناس بالقتل والتعذيب؛ ليتبعوه علىٰ مذهبه ويتَّحِدوا معه في هدفه، كطغاة الشيوعية ورؤساء الإلحاد الذين تقبلوا مذاهب اليهود، وأبرَزَهم الاستعمارُ بين شعوبهم بأنواع حيله ومكره وشعاراته الدجلية؛ التي يغزو بها القلوب ويفسد العقيدة الإبراهيمية؛ فإنه يزيد علىٰ إبليس في الشيطنة؛ لأن إبليس قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، وقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء].

وهذا الشيطان المتسلط من الإنس علىٰ بني جنسه لم يقتصر علىٰ الإغواء كإبليس، ولكنه تسلط بجميع أنواع الفتنة والإرهاق؛ يريد إغواء الجميع وإضلالهم واحتناكهم كاحتناك الجراد للزرع، واحتناك اللجام للفرس، حيث لا يدع أحدًا ينطق إلا ما يوافقه، ولا يسعىٰ إلا بما يهواه، فهو من جهةٍ فِيهِ يزيد علىٰ إبليس بتزيين الشر والإغراء علىٰ السوء والفحشاء والمنكر، وتحبيب ذلك بالأساليب الموافقة لكل عصر، والداخلة في ذهن كل واحد بحسبه، وهو من جهة أخرىٰ أشد نكايةً من إبليس الذي لا يقدر إلا علىٰ الوسوسة والتمثل بغيره من أعوانه، فهذا من جنده المنفذين لخططه، المنطلقين في خدمته ومرضاته، وبالطبع ليس للسلطان قيمة بلا جنود، فهذا الذي نصَّب نفسه ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ جنديًّا لإبليس؛ يزيد شره عليه؛ لما يعمله من التسلط وتجنيد القوىٰ المادية والأدبية والمعنوية؛ مما يعظُم به ضرره ويشتد خطبه ـ والعياذ باللَّه ـ، فما أجمع حِكَمَ اللَّه للخير!! وأبلغ كلامه في الإرشاد والابتعاد عن الشر!! إذ قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل]، ولم يقل: «استعذ من إبليس»، لكثرة أجناس الشياطين وأنواعهم، الذين يصدون عن سبيل اللَّه، ويلبسون الحق بالباطل، ويحرفون الكلم عن مواضعه، وينفثون في صدور الناس خلاف

الحق، ويشغلونهم عن قراءة القرآن ويَلغَون فيه، ويصرفونهم عنه بتسخير جميع الوسائل الملهية التي يضيعون فيها أوقاتهم، ويحملونهم أن يتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، وقد ورثوا ذلك من أئمة الكفر كابرًا عن كابر، إذ حكىٰ اللَّه عنهم أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت].

وما أكثرَ أعداء الرسل من شياطين الإنس الذين ظهروا في كل عصر وبلد وفي كل فترة ـ وهم أشد ضررًا من شياطين الجن ـ !! كالفراعنة ومن علىٰ شاكلتهم من فلاسفة الإغريق والرومان، وملاحدة اليهود المتنوعين ممن ظهر قبل البعثة المحمدية وبعدها ممن علىٰ عهده ﷺ كأئمة الكفر من قريش ويهود وغيرهم، كرأس المنافقين عبداللَّه بن أُبيٍّ بن سلول، ومن علىٰ نَهجه من المرجفين في المدينة، وممَّن خرج بعد موت النبي ﷺ يدس ضد الإسلام الدسائس ويحيك المؤامرات، كعبداللَّه بن سبأ، وميمون بن القداح وأعوانهما ومن علىٰ شاكلتهما من الطواغيت، الذين ينشرون المبادئ الهدامة والنظريات المضللة والفرقة لصفوف الأمة؛ تحت شعار مذهب، أو حب أسرة، أو دعوىٰ خلافة أو مهدوية، سواء كانوا من علماء السوء، أو رؤساء الفتنة والضلال، وهم يستغلون الدين تارةً، والمادية تارةً، وعصبية الجنس تارةً، وتقديس الوطن تارةً، ودعوىٰ الحضارة والتطوير تارةً، والفلسفة وعلوم النفس تارةً، حسب ما يلائم الأوضاع والبيئات، ويلبسون الحق بالباطل بأروع فنون الجدل؛ لترويج مذاهبهم وتنفيذ مقاصدهم بشتىٰ الوسائل والأساليب، ويسلكون لكل طبقة مسلكًا، ويلبسون للناس الأثواب المتنوعة من الدجل والتقشف، أو من العبادة والتصوف، أو دعوىٰ محاربة الأعداء وتحرير الأوطان، أو دعوىٰ الباطنية، أو محبة الأسرة الفلانية، أو النِّحلة الفلانية، أو نشر الطريقة التَّيجانية، أو الرفاعية، أو الحلولية، أو الاتحادية، أو النقشبندية، أو البابية، والبهائية، أو الإسماعيلية، أو القاديانية، أو غيرها كأنواع القبورية، أو المذاهب العصرية التي نبشها

ملاحدة اليهود والنصارىٰ من قومية وبعثية وشيوعية واشتراكية، ونحوها من رواسب المزدكية والماركسية، أو دعوىٰ رفع الظلم والاستغلال ـ إفكًا وزورًا ـ ونحوها، مما أظهروا من كل ما هو مخالفٌ ملةَ إبراهيم وشريعةَ سيد المرسلين ـ عليهما الصلاة والسلام ـ علىٰ أيدي من وصفهم المصطفىٰ ﷺ بأنهم: «**يَلبَسون للناس جُلودَ الضأن من اللين، ألسنتُهم أحلىٰ من السُّكَّر، وقلوبهم قلوبُ الذئاب**»[(١)].

فهذه النِّحَل كلها ـ ما خرج منها وما سيخرج ـ من وحي شياطين الجن والإنس، وهي مهما اتسمت بسمة الدين، أو المادة، أو العصيبة الجنسية، أو الوطنية، أو تستَّرت باسم الطب والفلسفة ـ وما إلىٰ ذلك ـ، فكلها منشؤها السياسة الفاجرة الماكرة بالدين وأهله؛ ليجعلوهم شيعًا وأحزابًا متناحرة، ولو جهل بعضُ حَمَلَتِها من أعوان الشياطين ذلك، فإن المؤسسين لها في الأصل هذا قصدُهم، ولهم غايات من وراء ذلك حملتهم عليها حاجاتٌ في صدورهم، فاندفعوا إلىٰ ما يريدون بكل حماس، واتبعهم كل موتور، ومن يرىٰ أنه مكبوت، أو قلبه ملتهبٌ بالحقد علىٰ منافسيه، أو من هم أعلىٰ منه، وساعدهم المرتزقة والفوضوية ـ الذين هم أتباع كل ناعق ـ.

فهكذا كثرت سبل الشياطين، واتُّبِعَت، وقل سالكو الصراط المستقيم بسبب فتنة أولئك، ولم يكتف اللّٰه بأمره عبادَه بالاستعاذة من جنس الشيطان، بل أخبرهم بطرق الشياطين ومصائدهم وخطواتهم، مبتدئًا في إخبارهم بقصة إغواء كبيرهم وأستاذهم إبليس للأبوين آدم وحواء، كيف دلاهما بغرور، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف].

فورثة إبليس سلكوا طريقته في تغرير بني آدم، وإغوائهم علىٰ الشر، وتحبيب الرذيلة، وهجر الفضيلة باسم: «التقدم»، و«الحرية»، و«المدنية

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٤).

والحضارة»، وتحبيب خيانة اللَّه، واطِّراح دينه، ونبذ كتابه بدعوىٰ: «التحرير»، و«التطوير»، و«مسايرة الركب»، و«الزحف المقدس»، و«الوعي»، و«عدم الجمود والتخلف»، و«التمسك بأسباب الرقي والخلود»... وما إلىٰ ذلك من الألفاظ الرنانة والمظاهر الخلابة، التي ما هي في الحقيقة إلا استدراك علىٰ اللَّه تعالىٰ، واستهانة بعزه، وجحود بعلمه وحكمته؛ بل زادت فتنتهم ووسوستهم علىٰ قائدهم ورائدهم إبليس؛ بأن زعموا أن من لم يسلك خططهم متخلف رجعي يريد إرجاع عقارب الساعة إلىٰ الوراء! أو عميل أو مستغل! ونحو ذلك مما هم به ألصق، والذي مسخ شخصيته بالانقياد لهم يصفونه بـ«الوطني المتحرر»، والخائن لعهود اللَّه الفطرية والخلقية والشرعية، الناقض يديه من بيعته، يصفونه بـ«الحر الأبي الشامخ الرأس»... وهكذا دواليك.

ويغرون الناس بدعوىٰ الإصلاح، وتأمين الخبز، وضمان العمل، وتحرير المرأة، والتكافل الاجتماعي، ونحو ذلك مما لا يتحقق علىٰ الوجه الصحيح المعقول المقبول إلا باتباع الإسلام وتحكيم الشريعة.

وكذلك أخبر اللَّه عباده عن الشياطين أن طبيعتهم الاستكبار والفخر، وطلب العلو في الأرض، ورفض كل ما لا يصدر علىٰ أيديهم ـ وإن كان صحيحًا نافعًا ـ؛ فالشيطان والطاغي يعادي الحق إذا صدر علىٰ غير يديه، وأن من طريقتهم الأمر بالسوء ـ علىٰ اختلاف أنواعه ـ، وتحبيب القمار والفحشاء بكل وسيلة، والحض علىٰ المنكر بجميع أنواعه، والقول علىٰ اللَّه بغير علم والإشراك به، كما فصل ذلك في سورة البقرة والأعراف والنور وغيرها، وليس الإشراك باللَّه مقصورًا علىٰ عبادة صنم.

وها نحن نرىٰ شياطين الإنس والجن في هذا الزمان ـ يسمون الفساد: «إصلاحًا»!! والمؤامرات والفتن ونقض العهود: «تحررًا»!! وخيانة اللَّه بنبذ ملة إبراهيم: «وطنيةً»!! وارتكاب الفواحش: «مدنية»!! والدياثة والقوادة: «حضارةً وتطورًا»، واطراح الدين ونبذ القرآن: «رقيًّا»، و«مسايرةً للزمن»! وهكذا مما تلوكه شياطين الإنس بألسنتها في الأندية والإذاعات،

وتسطره في الكتب العصرية، والنشرات الدورية، والصحف التي تفاقم شرها؛ فما أحرىٰ المؤمن بكثرة الاستعاذة باللَّه من جنس الشيطان الرجيم، القاعد لعباد اللَّه بالمرصاد القائل: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

فلقد تفاقم شرُّ جنس الشيطان، وكثرت جنوده وأولياؤه، وعمت فتنتهم وأضرارهم في هذا الزمان، بحيث تفننت شياطين الإنس بأنواع الصد عن سبيل اللَّه في جميع وسائل الفتنة، والقعود للناس بكل صراط ومرصد، وسيطرتِهم علىٰ أغلب المرافق ليخرجوهم إليهم، ويوعدوهم بالشر، ويلعبوا بعواطفهم، ويتاجروا بعقولهم بالدجل السياسي، والتمويه الفكري، وبلبلة الخواطر، وقلب الحقائق، وتنويع الباطل، وتوزيعه بشتىٰ الزخارف والألوان.

وقد قرر العلماء أن: «الساكت عن الحق شيطان أخرس، والناطق بالباطل والساعي فيه شيطان ناطق»، فالمثبط والمعوِّق للناس عن الأمر بالمعروف وإنكار المنكر هو شيطان بأي دعوىٰ ادعىٰ، وبأي ثوب ظهر، وكذلك من يحبب إليهم الرذيلة ويمدحها بالأسماء المصطلحة الحديثة، أو يعمل علىٰ إزالة الحياء من المجتمع بأي وسيلة هو شيطان، سواء ظهر في ميدان التعليم أو الإذاعة أو الصحافة والنشر، فالصحافي الذي ينشر ما يخالف الملة الإبراهيمية والشريعة المحمدية هو شيطان؛ حتىٰ ولو نشر قول من يرد عليه بحجة الحرية؛ لفتحه الجدل في آيات اللَّه، قال تعالىٰ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤].

وكذا من ينشر ما يفسد الأخلاق ويذهب بالمروءة والحياء؛ فإن كان داعيةً محبذًا لما ينشره، قائمًا بتقريره وتركيزه؛ فهو ـ مع شيطنته ـ يعتبر «طاغوتًا»؛ لإحلاله الغي محل الرشد، والفساد محل الصلاح.

كما أن من أعظمهم شيطنةً وخبثًا علىٰ الإطلاق: من يعمل علىٰ إزاحة الناس عن ملة إبراهيم وشريعة محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ،

إذ هو مبدل لكلمات اللَّه محرف لها، وكذا من يغري الناس ـ بقوله أو فعله ـ علىٰ تقليد أعداء اللَّه ورسله في أزيائهم وأخلاقهم وأعيادهم ومراسيمهم، مطرحًا سنة المصطفىٰ وأصحابه وأتباعهم؛ لأنه يقول بلسان حاله أو صريح مقاله أو سوء خصاله لمن قلدهم من الكفرة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء].

فجميع ما ذكرناه من أنواع الشياطين، سواء كان من أهل الحكم، أو الموظفين، أو الصحفيين، أو أساتذة التعليم والتوجيه، أو أهل المكتبات؛ لابتعادهم عما فطر اللَّه الخلق عليه من ملة إبراهيم، وعمله علىٰ إبعاد الناس عن شريعة ربِّهم، فما أكثر الشياطين الذين يعملون في أغلب هذه الميادين! أعاذنا اللَّه منهم.

و«**الرَّجيم**» علىٰ وزن «فعيل» بمعنىٰ «فاعل» أي: يرجم الناس بالشر من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون في الغالب، فهو رجيم يزين لهم الشر ويغريهم علىٰ ما يقعون بسببه في طرق الرجم والهلاك الحسي والمعنوي، فوساوسه وهمزاته ـ التي يندفع الناس إليها بتدليس أعوانه في كل زمان ومكان ـ ظاهرها الرحمة وباطنها وعاقبتها العذاب والرجم والبؤس المطبِق، كما يشاهده الناس من آثار المؤامرات والانقلابات والدسائس والهمز واللمز والتهارط بقبيح القول.

وقيل: «رجيم» بمعنىٰ «مفعول»؛ فهو مرجوم بجميع أنواع الرجم قولًا وفعلًا، مرجوم بالشهب عند استِراق السمع، وذلك شيطان الجن، أما شيطان الإنسان فهو مرجوم بالكلام عند استماعه ما يكره الناس، أو تسجيله المساوئ، ومرجوم بالعذاب وشدة النقمة منهم، وسوء مغبةِ الفتنة، وكثرة الشقاق، فهو رجيم من كلا المعنيين علىٰ الاشتقاقين، والجميع منهم مرجوم بالرد عن القبول والطرد عن رحمة اللَّه، فقوله ومذهبه مردود ـ وإن اغتَر به بعض من تقبَّله بادئ الأمر ـ، وهو مرجوم بالسوء من القول في كل المجتمعات الصالحة، وإن خفي أمره في بادئ ظهوره كانت عاقبته الرجم واللعنة، فحاصلُ الرجم «الرمي»؛ سواء

بالقول أو الفعل.

ومن الرجم بالقول قول أبي إبراهيم: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]؛ فالشيطان بجميع أنواعه ـ مهما ظهر ويظهر إلىٰ يوم القيامة ـ يكون مصيره الرجم المعنوي والطرد من رحمة اللَّه بجميع معانيها ومبانيها، فهو طريد عن الخير، ولذا تجد شيطان الإنس مرهقًا متعبًا يلهث كما يلهث الكلب؛ لنشر دعايته، وينفق الأموال الطائلة للصد عن سبيل اللَّه؛ فتكون عليه حسرة لانقلابها في غير صالحه؛ وانعكاس أعماله ومقاصده ضده، ولو فتح اللَّه عليه بادئ الأمر شيئًا استدراجًا له ومكرًا به، وعقوبة للمفتونين الذين افتُتنت قلوبهم به؛ فعاقبته السوء، وعاقبتهم الدوران معه في حلقةٍ مفرغة، يضيعون بها جهودهم وأوقاتَهم بلا طائل، فما يطمع فيه من وحدةِ أعوانه ينقلب زيادة في الفرقة والشقاق، وما يطمع فيه من زيادة كسب الأصدقاء ينقلب عداوةً ضاريةً، وما يطمع فيه من السعادة والرفاهية له ولأتباعه ينقلب بؤسًا وشقاوةً، وما يطمع فيه من بسط النفوذ والسيطرة ينقلب إلىٰ سوء الهلكة، والإتباع باللعنة في التاريخ، كما جرىٰ لكل شيطان من عهد «ابن سبأ» وأضرابه إلىٰ «هتلر» و«موسيليني» ومن علىٰ شاكلتهما ممن ظهر أو أبرزه الاستعمار في كل أمة إلىٰ يوم القيامة من أبيض وأسود وأحمر وأصفر.

وكل شيطان من الثقلين فهو مطرود من رحمة اللَّه عن نيل السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، ففكر في ذلك تجده واضحًا ملموسًا من حال كل شيطان، وإن راج مذهبُه علىٰ كثير من الأغمار الذين لا حظَّ لهم من الاطمئنان لما نزل من الحق، أو حصل له جولة في بادئ أمره، أو تسلط علىٰ قومه بقوة بطشه، أو حنكة مكره؛ فإنه سينقلب إلىٰ العكس، وينكشف أمره حتىٰ يكون مرجومًا بكافة أنواع الرجم كالكذابين الماكرين الذين طلعوا علىٰ الناس بين الحين والحين في أصقاع الأرض.

فكن ـ أيها المسلم ـ علىٰ يقظة وحذر بما يقذف به إليك سرًّا وجهرًا، ظاهرًا وباطنًا، واجعل كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ هما الميزان

الذي تزن به كل شيء. وإذا أعجبك كلام أحد، أو تبجحه بدعوىٰ الإصلاح والتحرير والكفاح، أو أدهشك ما حصل عليه من نجاح، أو ظهر علىٰ يديه من خوارق، فلا تجعل له في قلبك مجالًا حتىٰ تنظر في سيرته وأعماله، وتقارن ما يقول بما يفعل:

فإن كانت أعماله علىٰ وفق كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ، ورأيته حاملًا رسالة اللَّه، آخذًا بكتابه، عاملًا لنصرة دينه وقمع المفتري عليه، مدافعًا عن قضايا المسلمين في كل قطر، فذلك من حزب اللَّه، يجب عليك موالاته، ولو حصل منه بعض الذنوب ـ التي لا يستحلها ولا يحض عليها ـ؛ لأن العصمة ليست مشروطة ـ بل مستحيلة ـ.

وإن رأيت أن أحواله وأعماله كحال المنافقين التي كشفها اللَّه في القرآن، وأن ما يدعيه مجرد مزاعم يتاجر فيها بعقول الناس ويلعب بعواطفهم، وأن أعماله ومبادئه مستمدة من مذاهب ومبادئ ملاحدة اليهود والنصارىٰ في الشرق والغرب، فذلك شيطان من جند إبليس وأئمة الكفر ودعاة الضلال، مهما كبرت مكانته، أو كثرت كتبه ومقالاته، أو انتشرت جولاته وكثر أتباعه والمجنَّدون لمبادئه؛ فإن اللَّه يقول: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقد جرىٰ للمختار بن عبيد الثقفي الكذاب ما جرىٰ، وراج أمره بحجة الأخذ بالثأر؛ حتىٰ كشفه اللَّه وأهلكه وأخزاه، وجرىٰ من أبي مسلم الخراساني ما أنجح خطته، ثم أهلكه اللَّه علىٰ يد الذين سعىٰ من أجلهم، وجرىٰ من فتنة العُبيديين الباطنيين والقرامطة في مصر والشام والأحساء والحجاز ما جرىٰ، حتىٰ ادعىٰ بعضهم الألوهية، وقَتَل الحُجَّاج، وصعد الكعبة صارخًا بأنه اللَّه الذي يحيي ويميت، فسلط اللَّه الآكلة في جسده، حتىٰ هلك شر هلكة. وجرىٰ من النصيرية وطغاة المبتدعة الذين صاغتهم سياسة اليهود الماكرة فظائع عظيمة، كشف اللَّه غمتها وأراح أهل دينه منهم، ثم تنوعت أساليب سياستهم في القرون الأخيرة بأنواع الغزو الثقافي الفكري، فنبشوا النعرات القومية في أنحاء «أوربا»،

وركزوا جهودهم في «تركيا»؛ لنبش القومية الطورانية، التي بسببها تنكَّر حكامها الجدد للإسلام والمسلمين عامة والعرب خاصة؛ مما سهل لليهود وأذنابهم من النصارىٰ وتلاميذهم بث النعرة العصبية في العرب، ونشرها في وقت سريع، فأحدثوا تحت شعاراتِها كثيرًا مما يهدم ملة إبراهيم، ويناقض الشريعة المحمدية، ويمزق القرآن تمزيقًا معنويًّا، فحصل من جراء ذلك في «تركيا» - وغيرها من بلاد المسلمين - شر كبير، وفتنة تتغلغل إلىٰ أكثر الأدمغة، بسبب ما جرىٰ بعد عام (١٩١٤م) من مؤامرات الصهاينة علىٰ أيدي الدول الظافرة، وإبرازهم ما شاؤوا من تلاميذهم وأفراخهم.

نقتصر من ذلك علىٰ ذكر الطاغية «كمال أتاتورك»؛ الذي تحمل المستعمرون في إبرازه لتضليل الأمة شائعة الذل والهزيمة المفتعلة، عسىٰ أن ينتبه القراء للقياس الصحيح الذي يميزون به بين الحق والباطل، ويدركوا مدىٰ مكر المستعمرين وتهويلهم لإبراز من أرادوه صنيعةً لهم من أبناء المسلمين؛ ليفعل بهم الأفاعيل، التي لم يفعلها الاستعمار في أي مكان، وليعرفوا كيف أن الدول الشيطانية تصبر علىٰ شتم صنيعتها؛ بل توعز له بذلك، وقد يظهرون عداوته وعمل مؤامرة صورية ضده؛ ليغرسوا حبه في قلوب شعبه، حتىٰ يتسنىٰ له تنفيذ خطط الكفر في مجتمعه، وما أكثر أحابيل اليهود والمستعمرين - التي لم تقتصر علىٰ شعب أو أمة أو قارة من القارات -، فإنهم يجمعون بين المتناقضات، فينبشون مذهب «مزدك» اليهودي الشيوعي القديم في «روسيا» علىٰ يد خلفه اليهودي «كارل ماركس»، ويغرزون المذاهب الرأسمالية في الأمم الأخرىٰ، كما يعبثون في الناس من جهة الاتصال، ومن جهة العقائد والأخلاق؛ بحيث لا يقتصر علىٰ جبهة دون جبهة؛ بل يركز مذهب «داروين» - ونحوه -، ومذهب «فرويد» ونحوه من اليهود ذوي الخطط الماسونية، التي نرىٰ أن أشراك مؤامراتها وأحابيلها أشد تأثيرًا واصطيادًا من «الأخطبوط» في الأخلاق والعقائد، وسائر ميادين الحياة الاقتصادية

والروحية والثقافية والاجتماعية، حتىٰ حصل لهم من هذه النعرات والمذاهب الخطيرة إقامة دولة تخدم قضاياهم.

واللَّهُ ضَبَط صفات المنافقين وجنود إبليس من شياطين الإنس؛ بما هو مطَّرد ومخالف لوحيه وتنزيله، حتىٰ أخبر أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، فعليك ـ أيها المسلم ـ بمعاداة من هذه صفاته وإن قال ما قال، وادعىٰ ما ادعىٰ، فإنه من شياطين الإنس الذين هم أضر من إبليس أبي الجن وذريته.

وإذا كان اللَّه أمرنا بالاستعاذة من جنس الشيطان ـ من همزه ونفثه ونفخه ـ؛ ورفض خطواته عمومًا؛ فأمره يدل ـ بطريق أولىٰ ـ علىٰ معاداته ومنابذته في كل شيء.

فواجب المسلم أن يتعوذ باللَّه متبرئًا من الشيطان:

من «همزه» الذي يكون بالوسوسة، والإغراء علىٰ الشر بجميع الوسائل.

ومن «نفخه» الذي يكون بغرس الكِبْر؛ بأن يقذف في رُوع الإنسان أنه من نوع كذا، أو أنه من عنصر سام، فيلهب صدره بالقومية الفلانية والنعرة الفلانية، أو يطغيه بمركزه، فيجعله ـ بهذا أو ذاك ـ معرضًا عن الحق، ساعيًا بالباطل؛ كما وصف اللَّه بعضهم بقوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

ومن «نفثه» بالشعر والكلمات الرنانة المغرية علىٰ السير بالباطل والتمادي فيه؛ معتقدًا صوابه ونجاح طريقته، فإن أكثر ما تروج به مذاهب شياطين الإنس ومبادئهم، إما بالحديث المفتَرىٰ أو بالشعر المفتعل؛ لأن في الإفك قوة خبرية، وفي الشعر قوة عملية؛ إذ الإفك ـ من سائر الأكاذيب ـ فيه إضلال في العلم؛ بحيث يوجب اعتقاد الشيء علىٰ خلاف حقيقته، كما ابتلي الناس به في كل زمان، لا سيما زماننا الذي كثرت فيه وسائل انتشاره بسرعة فائقة.

والشعر يفيد إشعار النفس بما يحركها ـ وإن لم يكن صدقًا ـ؛ بل

غالبه المغالاة والكذب؛ فيورث محبةً أو نفرةً، أو رغبةً أو رهبةً؛ لما فيه من التخييل، ولذا كان الشعراء يتبعهم الغاوون؛ لأن الغي اتباع الشهوات، إذ الشعر يحرك النفس حركة الشهوة أو النفرة في الفرح أو الحزن بالشيء، وذلك هو الغي.

قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء].

ولقد تفاقم شرهم في هذا الزمان؛ حيث إن شياطين الإنس أراحوا الأبالسة وأراحوا طواغيت الاستعمار؛ بما عملوه من فتنتهم التي هي أشدُّ من القتلِ؛ لأنهم احتسَوا من قيح الاستعمار ودمه وصديده، فأخذوا يمجُّونه علىٰ القلوب الطاهرة التي جاءتها فتنتهم الخبيثةُ علىٰ فراغ أحدثه المفرِّطون في جنب اللَّه بعدم إشغالها بحمل رسالته وعمارتها بحبه، وإشعالها بنار الغيرة لدينه وحرماته، كما أن شياطين الإنس ـ أيضًا ـ تجرؤوا علىٰ ما لم يجرؤ كل مستعمر عليه قولًا وتنفيذًا وفتنةً، وشياطين الجن مهدوا السبيل لهم بإحراق ما قدروا علىٰ إحراقه مما في الإنسان من مواهب الخير، أو طمسها أو تصدئتها، حسب ما قدروا عليه منه، بحيث يكون قلبه غلفًا بذلك مما تقذف به شياطين الإنس وتحشوه من الباطل.

فأكثر ـ أيها المسلم ـ من الاستعاذة؛ متبعًا لها بالحذر واليقظة، والعمل الدائم لإعلاء كلمة اللَّه، وحفظ حدوده، وقمع المفتري عليه، وأشغل نفسك في جميع أوقاتك بطاعته، كيلا تجعل للشيطان مجالًا أو فراغًا ينفذ منه، فلا يحصل له عليك سلطان؛ لأن المعرض عن ذكر اللَّه ذكرًا حقيقيًّا، والمفرط في دينه تستولي عليه الشياطين من كل ناحية، كما سنفسره في موضعه ـ إن شاء اللَّه ـ.

وعليك بالصدق قولًا وعملًا؛ فإن من استعاذ باللَّه صادقًا أعاذه وأجاره، كما أعاذ مريم عليها السلام وذريتها لَمَا صدقت أمُّها ـ امرأة عمران ـ باستعاذتها.

والشيطان عدو للمسلمين بجميع أنواعه ـ من إبليس وذريته، إلىٰ كافة جنوده من شياطين الإنس ـ؛ فعلىٰ المسلم مجاهدتُهم وعصيانهم في كل أمر من إلحاد، أو تشكيك، أو إغراء علىٰ المعاصي وتحبيب للفواحش والقمار والإسراف، أو تثبيط عن الطاعة وحمل الرسالة والأمر بالمعروف، وسائر ما يقطع المسلم عن اللّه.

ولا تكترث بما يصيبك؛ فقد أخبرنا مولانا أنه يَبتلي عباده ويزلزلهم بأنواع الفتن؛ ليختبرهم ويمحص قلوبَهم؛ كما في الآية (٢١٤) من سورة «البقرة»، والآية (١٥٤) من سورة «آل عمران»، وقال في سورة محمد: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد].

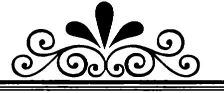
ورویٰ الترمذي ـ مرفوعًا ـ: «**إن اللَّهَ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا ومن سَخِط فله السُّخط**»[1].

وتكلمت علىٰ الحكمة من هذا في كتاب سميته: «الحق والحقيقة من كلام خير الخليقة» بما لعله لم يسبق له مثيل في موضوعه.

وقد أخبر النبي ﷺ أمته بغالب ما يجري عليهم من الفتن إجمالًا، وما يعرض لهم فيها من الشبهات التي تجعل أحدهم يصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا، وأخبرهم بالدجاجلة الكذابين والمسيح الأعور الدجال، وأمر بالابتعاد منه مخبرًا أن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه لمؤمن فيتبعه بسبب ما يعرضه من الشبهات، ولكن الاعتصام بحبل اللّه المتين ـ الذي هو كتابه المبين ـ، والاطمئنان الكامل لوعده ووعيده، وقوة الإيمان بالغيب والإخلاص، والصدق للّه في العمل، والاستقامة عليه، وقوة الرجاء فيما عنده، يكون المؤمن بها قويًا في ذات اللّه، متصلبًا غاية التصلب علىٰ الحق، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران].

❁ ❁ ❁

(١) رواه أحمد (٥/٤٢٧)، والترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١).



باب البسملة



✍ **البدء بـ«اسم الله»:**

«بسم اللَّه»: أي: ابتدئ بكل اسم للَّهِ تعالىٰ؛ لأن لفظ «اسم» مفرد ومضاف، فيَعمُّ جميع أسماء اللَّه الحسنىٰ.

وللعلماء فيه تقديران كلاهما صحيح:

فمن قدَّر بالاسم؛ فتقديره: «باسم اللَّه ابتدائي»؛ آخذًا ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١].

ومن قدَّره بالفعل؛ فلقوله تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]، لأن الفعل لابد له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره بحسب الفعل الذي سَمَّيت قبله[١]، فالمشروع ذكر اللَّه عند الشروع في أي شيء ـ كما سيأتي بيانه ـ.

و«اللَّه» هو المألوه المعبود المستحق الإفراد بالعبادة؛ لما اتصف به من صفات الألوهية ونعوت الكمال والجمال، وما أفاضه من سوابغ النعم[٢] والأفضال. وهو لفظ الجلالة؛ لا ينبغي لأحدٍ سواه لفظًا ولا معنىٰ، إذ جميع صفات اللَّه الحسنىٰ صفاتٌ تجري علىٰ هذا الاسم العظيم؛ فلذا قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وسنبين ـ إن شاء اللَّه ـ حقيقةَ أن كل من عظَّم مخلوقًا واستجاب لدعايته، واستحسن ما يصدر منه ـ دون عرضه علىٰ ما جاء من اللَّه ـ فهو ملحد في أسمائه، ويجب أن يعامَل كما أمر اللَّه.

و«الرَّحمٰن الرحيم»: اسمان دالان علىٰ أنه تعالىٰ ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمَّت كل حي، وقد كتبها اللَّه للمتقين المتبعين ما جاء به الرسولُ النبي الأمي محمد ﷺ، كما نص علىٰ ذلك

---

(١) رجح الشيخ ابن تيمية تقديره: قراءتي باسم اللَّه، وذبحي باسم اللَّه، ونحوه، أو: أقرأ وأذبح وأفعل كذا باسم اللَّه؛ لأن الفعل كله مفعول باسم اللَّه، وليس مجرد ابتدائه.

(٢) السوابغ: **الواسعة**.

في سورة «الأعراف»[١]، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيبٌ منها اقتضته حكمته في الكون.

ولا ينكَر اشتقاقُها من «الرحمة»؛ لحديث عبدالرَّحمن بن عوف أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**قال اللَّهُ: أنا الرَّحمن؛ خلقتُ الرحم، وشققتُ لها اسمًا من اسمي، فمَن وصلها وصلتُه، ومَن قطعها قطعتُه**»[٢].

قال ابن كثير: وهذا نصٌّ في الاشتقاق؛ فلا معنىٰ للمخالفة والشِّقاق.

وقال العلامة المودودي ـ في كون صيغة «الرَّحمن» في اللغة العربية من صيغ المبالغة ـ: «ولكنَّ رحمة اللَّه علىٰ عباده ورأفته بمخلوقاته أعم وأشمل من أن تعني في وصفها صيغةً واحدةً من المبالغة مهما اشتدت، ولذلك جيء بعد «الرَّحمن» بكلمة «الرحيم»».

ومن أمثلة هذا الوصف المصادف في كلام الناس قولهم: «أبيض يقق» للشديد البياض، و«أحمر قانٍ» للشديد الحمرة، و«السخيُّ المِعطاء» للكثير الجود، و«الطويل العنق» للمُفرط في الطول، وكل ذلك لإتمام الوصف واستيعاب النعت.

وعلىٰ القارئ أن يعلم أنه من الأصول المتفق عليها عند سلف الأمة وأئمتها المعتبرين: الإيمانُ بأسماء اللَّه وصفاته وأحكامهما، فيؤمنون ـ مثلًا ـ بأنه رحمٰن رحيم ذو الرحمة التي اتصف بها المتعلقةِ بالمرحوم، بلا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل، فلا يلتفتون إلىٰ مَنشئها في المخلوق، ويقيسون عليه الخالق؛ كما هي عادة خَلَفِ السوء الذي اضطرتهم هذه العادةُ المبتدَعةُ إلىٰ أن يسطُوا علىٰ أسماء

---

(١) كما في تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١/١٩٤)، وأبو داود (١٦٩٤).

اللَّه تعالىٰ وصفاته بالتأويل الذي يؤولُ إلىٰ التعطيل ـ والعياذ باللَّه ـ؛ فجميع النعم أثرٌ من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء، يقال في «العليم»: إنه عليم ذو علمٍ يعلمُ به كل شيء، «قديرٌ»: ذو قدرةٍ يقدر علىٰ كل شيء.

وبتوفيق اللَّه للسلف لهذه القاعدة عصمهم مما وقع به الخلف في شقاق بعيدٍ اشتغلوا به عن عبث الحكام، فعطَّل أكثرهم العمل بمدلول سورة «العصر» لتناحُرِ بعضهم مع بعض فيما جرَّته عليهم القواعدُ الفاسدة، التي ليس لها أصلٌ إلا في المنطق اليوناني، الذي هو قولٌ علىٰ اللَّه بغير علم، فهو من وحي الشيطان الذي فرح به السلاطينُ، وعملوا علىٰ ترويجه؛ ليضربوا العلماء بعضَهم ببعض، فيتفكهوا عليهم ويُسخِّروهم، فينصروا من يخدم رغباتِهم، ويتمشَّىٰ مع سياستهم، وهو أول انخذال لرجال الدين دبَّره الخليفة «المأمون» بمكره الملعون، فنجىٰ اللَّه من اتقاه بتحكيم وحيه وهُداه، وذلك من بعض إظهاره لنوره.

وفي البدء بالبسملة أدبٌ كريم من اللَّه لنبيه ﷺ ولأمته؛ كما يفيد ذلك في ابتداء الوحي إليه بقول ربِّه له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق].

وهذا الأدب يتفق مع قاعدة الدين الحنيف من التعلق باللَّه وحده، والتبرُّك باسمه عمن سواه، وحصرُ التعظيم لجنابه جَلَّ وَعَلَا، دون التفاتٍ إلىٰ ما سواه بشيء من ذلك، فلا يجوز ـ بعد هذا التعليم ـ أن يُبدأ بغير اسمه تعالىٰ في أي مهمةٍ وفي أي كتاب، لا باسم السلطان الفلاني، ولا باسم الرئيس، ولا باسم الملك، ولا باسم الأمير... ونحو ذلك من عادات المتعلقين بالأشخاص، والمقدسين للمادة والأوطان؛ إذ اللَّه رب الكل، وفاطر الكل، والمهيمنُ علىٰ الكل، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

ففي بدء «بسم اللَّه» إشعار بأن هذا الكتاب العزيز ـ الذي يهدي للتي هي أقوم ـ مدارُ هدايته علىٰ الإخلاص للَّه والتعلق بجنابه العظيم،

وأنه منافٍ لدقيق الشرك وجليله، ولا يُقبل من عباد اللَّه اتخاذ ندٍّ من دونه، في أي مظهر من مظاهرهم، أو سريرةٍ من سرائرهم، وذلك هو ركيزة الإيمان بالغيب الذي هو أصل الخير ومصدرُ الهداية، والانتفاعِ بالتذكرة، الذي بدونه لا ينتفع الإنسان بحواسه، كما سيأتي توضيحه ـ إن شاء اللَّه ـ.

ومع ما في ذلك من «براعة الاستهلال» في بديع الكلام؛ فإنها ـ أيضًا ـ تركِّز معتقد «الرحمانية» وكون اللَّه جَلَّوَعَلَا هو «الأول والآخر».

وقد ورد في الحديث: «**كلُّ أمر ذي بالٍ لا يُبدَأُ بـ«بسم اللَّه» فهو أبتر**»[1]، أي: أقطع، فهو أبترُ من البركة، أو من حسن العاقبة، أو من كمال المنفعة، حسبما شاء اللَّه فيما يجريه علىٰ المعرضين عن ذكره وشكره من العقوبات القدَرية المتنوِّعةِ الكثيرة التي لا تحيط بها العقول.

وفي البداءة بذكر اسم اللَّه في كل قول وفعل وحركة وأخذٍ ورد، يتحصن العبد المؤمن بلفظة الجلالة من شر ما خلق اللَّه، وذرأه وبرأه وقدَّره وسلطه، كما تحصل البركة الحسية والمعنوية بذكره العظيم حسب قوة إيمان الذاكر ويقينه، فذكر اللَّه مَطردةٌ للشيطان، وبه تحصل الحيلولة بينه وبين ما يريد من مشاركته للناس في الأموال والأولاد؛ كما سلطه اللَّه علىٰ غير عباده المخلصين.

وقد اختَلف العلماء كثيرًا في البسملة: هل هي آية من القرآن، أو من كل سورة، أو من الفاتحة فقط، أو ليست منها ولا من غيرها؟.

وأقرب الأقوال إلىٰ الصواب ـ حسب النصوص ـ: أنها ليست آيةً من الفاتحة ولا غيرها، وإنما هي آية من القرآن فاصلةٌ بين كل سورتين، كما أنها بعضُ آية من سورة النمل.

[اختلاف العلماء حول اشتقاق البسملة]:

وكذلك اختلف أهل العربية في اشتقاقها:

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٥٩)، وأبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٢٥٥).

فعند البصريين: مشتقٌّ[١] من السمُوِّ، ولامه محذوفة.

أما عند الكوفيين فهو مشتقٌّ من السِّمة، وهي العلامة؛ ففاؤه محذوفة.

والمرجح عند المحققين قول الكوفيين؛ لأن الاسم علامة علىٰ المسمىٰ.

✍ [**الحكمة في تقديم «الرحمن» على «الرحيم»**]:

وقد ذكر بعض المفسرين أن تقديم «الرَّحمن» علىٰ «الرحيم» لوجهين:

أحدهما: اختصاصه باللَّه.

والثاني: جريانه مجرىٰ الأسماء التي ليست بصفات، واللَّه أعلم.

❊ ❊ ❊

---

(١) يعني «الاسم».



تفسير
سورة الفاتحة



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناءٌ أثنىٰ به اللَّه علىٰ نفسه، وفي ضمنه أمرُ عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: «قولوا: الحمد للَّه»؛ فالحمد ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنىٰ، بما أنعم علىٰ عباده من نعم لا يحصيها غيره، وبما بسط لهم من الرزق وسخر لهم جميع الكائنات من غير استحقاق منهم لذلك.

والألف واللام في «الحمد» لاستغراق جميع المحامد وصنوفها للَّه، فما من حمدٍ واقع أو مفروض ـ منذ البداية حتىٰ النهاية ـ يصرفه أحدٌ إلىٰ أحد إلا وينصرف إلىٰ اللَّه، إذ هو أهله؛ لأنه معطي الجميل ومعطِّفُ أهل الفضل لفعل الجميل.

ثم إن معنىٰ «الحمد» في الاصطلاح هو معنىٰ «الشكر» في اللغة، ومعنىٰ الشكر في الحقيقة هو: صرف العبد جميع ما أنعم اللَّه به عليه إلىٰ ما خلقه لأجله، من جميع الجوارح والحواس والآلات والقوىٰ، وكافة النعم والأموال، فيحسُن التصرف فيها باستعمالها في طاعة اللَّه، ونشر دينه، وإعلاء كلمته، وقمع المفتري عليه، إذ يتضمن مدلولَا «الحمد والشكر» القيام بجميع أنواع العبودية المرضية للَّهِ؛ ففي قَرْنِ الحمد بلفظة الجلالة الكريمة هذه الدلالة العظيمة، فمن لم يقم بذلك لم يكن حامدًا ولا شاكرًا علىٰ الحقيقة، إذ مجرد النطق لا يفيد، ومن قصَّر في أنواع العبودية كان مقصرًا بحمد رب العالمين بقدر ذلك.

و﴿الْعَالَمِينَ﴾: هم مَنْ سوىٰ اللَّه؛ فكل من سوىٰ اللَّه تعالىٰ فهو عالَمٌ ـ بفتح اللام ـ، ومن هنا قالوا بعموم مدلولهم جميع أجناس المخلوقات، فمعنىٰ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سيدهم المربِّي لهم الذي رباهم بنعمته:

١ ـ تربيةٌ خَلْقيةٍ؛ يكون بها نموُّهم وكمالُ إحساسهم وقواهم النفسية والعقلية.

٢ ـ تربيةُ هداية فطرية؛ لكل نفس ما يلائمها من طلب نفع، أو مكافحة ضرر.

٣ ـ تربيةُ هدايةٍ شرعية لأهل الإدراك منهم لما يسعدهم في دنياهم وأخراهم، وذلك بما يوحيه إلىٰ أفراد منهم بدينه القويم، وتشريعه النافع، ومن هنا قال من قال بقَصْر معنىٰ «العالمين» علىٰ أهل الإدراك من الجن والإنس والملائكة.

والتعميمُ بجميع المخلوقات هو الأولىٰ؛ لورود النصوص القرآنية بتسبيح كل شيءٍ وسجودِ كل شيء للَّهِ ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل].

٤ ـ رباهم تربيةً معيشيةً؛ بتسخيره لهم كلَّ دابة ومادة، وتيسير أرزاقهم حسب تقديره الأزلي، وإنعامِه عليهم بالنعم التي لا يمكن لهم البقاءُ بدونها، ولذلك استَحق جميع المحامد بحيث إن أي حمد يتجه إلىٰ محمودٍ ما فهو للَّه تعالىٰ؛ سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه؛ لأنه مصدرُ جميع الوجود والفضل والنعمة والمعروف والإحسان، فلهذا ثنَّىٰ السورة بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأن تربيته للعالمين بأنواعها المتقدمة ليست لحاجةٍ به إليهم قطعيًا، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه؛ لأن ربوبيته ليست مقصورةً علىٰ القهر والعزة والجبروت، بل فائضةً بالرحمة واللطف والإحسان، فهو الرَّحمن المنعم بجلائل النعم كالسماوات والأرض وما بثَّ فيهما من دابة ومادة، وما سخَّره من شمس وقمر وأفلاك، وما وهبه من نعم وصحة وعقل.

وهو «الرحيمُ» بدقائق النعم؛ كسواد العين، وتلاصق شعرات أهدابها المانعة من دخول كل ما يؤذيهما؛ مع كون النور يُلمح من خلالها.

وهو «الرحيم» الذي اقتضت رحمته وحكمته أن يجعل ماء العينيين مالحًا؛ ليَحفظ شحمهما من الذوبان، وجعل ماء الأذن مُرًّا؛ ليمنع الذباب وسائر الحشرات من الولوج فيها لصعوبة خروجه منها، ودقةِ إيذائه إذا بقي فيها، وجعل ماء الأنف لزِجًا ومسالكه ملتوية ليتقمع الداخل

المؤذي، ويطيب التنفس، وتُرهف حاسة الشم، وجعل ماء الفم حلوًا رائقًا ليطيب للإنسان بما يمضغه من الطعام، كما جعل في اللسان أجهزةً دقيقةً كثيرةً جدًّا لتمييز التذوق، وجعل في الفم نفسه أجهزةً لحسن الابتلاع واتقاء الضرر.

وهو «الرحيم» الذي جعل الليل والنهار؛ هذا صالح للسكن، مفيد نومه صحيًّا، وهذا للعمل واكتساب الرزق، كما يأتي توضيح ذلك في سورة «القصص» ـ إن شاء اللَّه ـ.

ثم هو «الرَّحمن»: ذو الرحمة العامة الشاملة لجميع الخلق، حتىٰ الكافر والفاسق والمتمرد، وهو «الرحيم» ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين كما نص علىٰ ذلك في الآية (١٥٧) من سورة «الأعراف»[(١)]، كما سنوضحه ـ بحوله تعالىٰ وقوته ـ.

وهو «الرَّحمن الرحيم» في خلقه وتكوينه، وحسن تصويره، وقسمته للأرزاق، وتشريعه لخلقه من الدين ما يحرِّرُ نفوسهم ويزكيها، وتشريعه لهم من الأحكام ما يحصل به عموم الرحمة والسعادة والرفاهية والأمن والعيشة الراضية في الدارين، فتحليله رحمة، وتحريمُه رحمة، وعزيمتُه رحمة[(٢)]، ورخصته رحمة، وعقوباته رحمة، ومصائبه وبلاياه رحمةٌ ظاهرة لمن تدبرها، وخافيةٌ لمن عمي أو غفل عنها؛ فهو «الرَّحمن الرَّحِيمِ» البالغ في الرحمة غايتها، والذي هو أرحمُ بخلقه من الوالدة بولدها.

و اعلم أنه لا ينافي عموم رحمته ما يُجريه علىٰ خلقه من النكبات التي هي عقوباته القدرية، ولا ما يفرضه عليهم من العقوبات الشرعية، فإنها كلها رحمةٌ وعدل اقتضته حكمته تأديبًا للجناة رحمةً بهم، وبمن

---

(١) الظاهر أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أراد الآية (١٥٦)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف].

(٢) **العزيمة**: ما ألزم اللَّهُ به عباده وأكده عليهم، بخلاف الرخصة.

جنوا عليه، وإيقاظًا للعصاة الذين فرطوا أو أعرضوا عن هديه، وقد يسلِّط أعداءه علىٰ بعض المسلمين المتعبدين ببعض الشعائر، وهم مهملون لبعضها أو للمهمِّ فيها، كالتواصي بالحق، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، الذي من موجباتِها: الأمرُ بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهادُ لإعلاء كلمة اللَّه، وكبتِ المنكرين له في صحفهم وكتبهم الخبيثة، الطاعنين في دينه، المحادين له ولرسوله، بتحبيب الكفر والفسوق والعصيان في كتبهم وصحفهم، التي لا يجوز للمسلم أن يَسمح بها أو يتسع صدره لانتشارها في بلاده؛ كيلا يَحرمَه اللَّه من رحمته الواسعة؛ لأنه أقسم بحصول الخسران لمن لم يتصف بذلك من بني الإنسان، فكيف يطمع بدوام رحمة اللَّه وشمولها من لم يغضب للَّه، ومن لم يتمعَّر وجهه فيه، ولم يحقق محبته بموالاة أحبابه ومعاداة أعدائه، والبراءة منهم، وممن تنكَّب[١] عن الهدىٰ، ويعمل علىٰ أَطْرِه علىٰ الحق أطرًا[٢].

«هذه الأمور العظيمة» التي تستلزم لصاحبها العزم علىٰ الجهاد، وإعداد المستطاع من كل قوةٍ لازمةٍ ملائمةٍ يتمكن بها من قمع المفتري علىٰ اللَّه، والمعرِضِ عن سبيله، أو المتعرضِ له بالصد عن الحق والإغراء والفتنة، يسدُّ بذلك الفراغ والثغور، التي ينفذ منها المبطلون من الأحزاب المغرضة المنحرفة، وذوي المبادئ الهدامة، التي تفاقم شرها في هذا الزمان، وطم سَيلُها[٣] الوَعرَ والسهل، والتي تلبس في كل زمان زيًّا خاصًّا بسبب تفريط المسلمين في هذه الأصول العظيمة، لما انطفأت جمرةُ الغيرة من قلوبهم، وعكفوا علىٰ خرافاتٍ وأوضاع ما أنزل اللَّه بها من سلطان، أو اكتفوا بفعل بعض الشعائر التي يأتون بها خاليةً من الحب والتعظيم لرب العالمين، فأصبحوا بذلك عرضةً للعقوبات

---

(١) تنكَّب: حاد وانحرف.
(٢) الأطر: الأرغام.
(٣) أي: أغرق ما أتىٰ عليه.

القدرية التي سنفصلها في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، وخسروا النصيب الأوفر من رحمة اللَّه التي خصصها في سورة «الأعراف» للمؤمنين المتبعين القائمين بنصرة دينه، فرحمتُه الكاملة الشاملة لا تُنال بدون ذلك، ومن طمع بها دون أن يسلك مسالكها من تحقيق التقوىٰ والاخذ بالأسباب الواقية؛ فهو العاجز الذي يتمنىٰ علىٰ اللَّه الأماني.

واللَّهُ كتب علىٰ نفسه نصرةَ المؤمن والدفاعَ عنه، والانتقام من المخالفين بشتىٰ أنواع العقوبات، وقد يُنجِّي بعض الناس مع ما بهم من البدعة التي تأوَّلوها بنيةٍ حسنة، لثباتِهم علىٰ ما هم فيه احتسابًا، وإنفاقهم المال في سبيله لعدم وجود من يوجههم إلىٰ الحق. واللَّهُ يعامل عباده بحسب نياتِهم وقوة غيرتِهم نحوه، ومدىٰ اندفاعهم لطاعته وحفظ حدوده، وقد يرىٰ الطبيبُ الماهر قطع عضو، أو قلع سِن؛ فيكون ذلك رحمةً لصاحبه وإصلاحًا لحاله ـ وللَّه المثل الأعلىٰ والحجة البالغة ـ. وسنزيد الموضوع توضيحًا عند الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ﴾ [البقرة: ١٥٥] ـ إن شاء اللَّه تعالىٰ ـ.

ثم إن «الرَّحمن الرَّحِيمِ» جَلَّ وَعَلَا إذ يعاقب أصحاب المخالفات في الدنيا ويسلطُ عليهم أعداءهم، ولا يبالي بهم في أي وادٍ هلكوا، فإنه لا يضيع من حسناتِهم شيئًا في الدار الآخرة، إذا خَلصت من نوائب[1] الشرك، وقد يضاعفها لهم بصبرهم أو بأسباب أخرىٰ.

ومن تمام رحمته أن اختُص بالمُلك والحُكم وحده في دار الجزاء، فهو «مالكُ يومِ الدِّينِ»؛ إذ لو جعل الأمر هناك إلىٰ سلاطين البشر ورؤسائهم ووزرائهم ومديريهم كما في الدنيا، لحصل الجور والمحاباة، وكثرت الأَثَرةُ والأنانية، ولم يدخل الجنة سوىٰ عددٍ من محسوبيهم، وقذفوا بسائر الخلق في الجحيم، ولكنَّ رب العزة جَلَّ وَعَلَا اختص بالحُكم

(١) كذا في المطبوع، ولعل الأصح: «شوائب».

في ذلك ليحقق رحمته وعدله وجزيل فضله، فلا تُظلم أوتُهضم نفس شيئًا ـ وإن كان مثقال ذرة ـ.

ولاطمئنان المؤمنين بالغيب لأحكامه في الآخرة رخُصت عليهم نفوسهم وأمولهم في ذات اللَّه، فاتصفوا بأشرف السجايا وأكرم الخصال، وسارعوا في الخيرات، وأقدموا وتنافسوا علىٰ الجهاد، فنالوا النصر والسؤدُد[1] في الدنيا حيث حقت عليهم كلمة ربهم الحسنىٰ، ورحمته الواسعة، وسينالون الجزاء الأوفىٰ في الدار الآخرة، ومن عداهم انعكست أحوالهم بتفريطهم في جنب اللَّه، وعدم قيامهم بواجبه.

و«الدينُ» هنا[2] يطلق لغةً علىٰ «المكافأة والجزاء»، وقد ورد الأثر: «**كما تَدين تُدان**»[3]، ويطلق علىٰ «الطاعة والإخضاع والسياسة»، ويقال: «دانه وتولىٰ سياسته»، ويُطلق علىٰ «الشريعة وما يؤاخذ العباد به من التكاليف».

وقد قرئ: «مَلِكِ يوم الدين» بوجوه كثيرة، إلا أنها شاذة، وهي علىٰ طريقة الاتساع، وبها يجري الظرف مجرىٰ المفعول به؛ فيكون معناه علىٰ الظرفية أي: المُلك في الدين، ويجوز أن يكون المعنىٰ: «مَلِكَ الأمور يوم الدين»؛ فيكون فيه حذف، أما علىٰ القراءة المشهورة ـ عند عاصم والكسائي وغيره ـ فتقديرها: «مالكُ الأمر يوم الدين»، أو «مالكُ مجيء يوم الدين».

وبصفتها تقتضي حذفًا، فإن قراءة «ملك يوم الدين» أبلغُ في المعنىٰ، وأرجح من حيث الدلالة اللغوية؛ لأن «المَلِك» أعظم من «المالك»؛ إذ قد يوصف كلُّ واحد بالمالك لماله دون المَلِك؛ فإنه سيد الناس.

ولها تأييدٌ ثالث من القرآن؛ وهو قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

---

(١) **السؤدُد**: الشرف والعلو.

(٢) يعني في قوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٣٥٠).

وعلىٰ كل حال بقراءة ﴿ مَلِكِ ﴾ تعطي المراد ـ أيضًا ـ، وتخصيصه تعالىٰ لنفسه الحكمَ في الآخرة نعمةٌ عظيمة يشكره عليها العارفون لضبط الجزاء أولًا، ثم يشكرونه لمضاعفة الأمر ثانيًا ـ كما سيأتي في بحث الشكر ـ. وأيضًا فتخصيصه لنفسه الحكم في الآخرة هو المشجع للمؤمنين بالغيب علىٰ تحقيق عبوديته والاستعانة به والتفاني في ذلك.

ولذلك أرشدهم ـ في هذه السورة الكريمة ـ إلىٰ حصرها له حيث قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؛ بتقديم المفعول[1]، وتكريره للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، ولا نتوكل إلا عليك، والدين كله يرجع إلىٰ هذين المعنيين؛ وذلك لأمور:

معاني العبادة والاستعانة:

أحدها: أن العبادة هي كمال الطاعةِ والانقيادِ لأوامر اللَّه، والانتهاء عن زواجره، والوقوف عند حدوده، وقبولُ جميع ما ورد عنه علىٰ لسان نبيه ﷺ؛ دون رد شيءٍ من ذلك أو إلحاد فيه.

ثانيها: أن التذلل والخشوع فيها ناشئٌ عن حب وتعظيم، فمن خضع لأحد ـ مع بغضه له ـ لا يكون عابدًا له، ومن أحبه ولم يخضع له بالقبول والانقياد لم يكن عابدًا له ـ أيضًا ـ؛ كمحبة الإنسان لوالده أو صديقه، إذ لابد أن يقترن الحب بالتعظيم ليحصل الخضوع والانقياد، فلو حصلا بسبب الخوف والإرهاب لا يكون عبادة، ومن هنا وجبت محبة اللَّه ورسوله وتعظيمها، وتقديم محبتهما علىٰ كل شيء.

ويشهد لذلك حديثُ عدي بن حاتم المشهور في الصحاح والمسانيد؛ حيث نص الرسول ﷺ أن موافقة النصارىٰ لأحبارهم ورهبانهم فيما يشرعونه عبادةٌ لهم ـ وإن كانوا لا يحسِبونه ولا يعتقدونه عبادة[2] ـ، واللَّه سبحانه يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ

---

(١) يعني قوله: ﴿ إِيَّاكَ ﴾.

(٢) انظر الحديث الذي رواه التِّرمذي (٣٠٩٥).

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ثالثها: مِن ألزم وأعظم أنواع العبودية أخذُ القرآن بقوة، وذلك بالعمل بما فيه، وإقامةِ حدوده، دون الاقتصار علىٰ إقامة حروفه ـ كما هي الحال عليه في هذا الزمان ـ، وألا يُسطىٰ علىٰ نصوصه بالتأويل أو التحريف.

رابعها: «العبادة» اسم جامع لما يحبه اللَّه ويرضاه، وتعني: العملَ وفق شريعته وطبق حدوده؛ فمن شُرِع له من الدين ما لم يأذن به اللَّه، أو قلد متبوعًا محبوبًا فيما استهواه؛ فليس عابدًا للَّهِ؛ كما يفيدُ معنىٰ الحصر في الآية(١)؛ بل هو عابد للطاغوت المفتئت علىٰ حكم اللَّه.

خامسها: من ترك العمل بشعائر الإسلام؛ معتمدًا علىٰ مجرد لفظ الشهادتين فهو مشركٌ عابدٌ للهوىٰ والشيطان؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ﴾ [يس: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

سادسها: جميع أنواع العبادة ـ التي سنفصِّلها في تفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]؛ من خوف ودعاء وخشية ورجاء واستعانة واستعاذة ـ لا يجوز شيء منها لغير اللَّه، وهو(٢) مصادم لمقصود اللَّه في حصره ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ كما أنه شرك مخلٌّ بمدلول الشهادتين.

سابعها: إقامة الحدود، والحكمُ بما أنزل اللَّه، من لوازم عبوديته سبحانه، وهما من صميم العقيدة؛ لأن من عطَّل حدود اللَّه، أو لم يحكم بشريعته فقد ابتغىٰ غير اللَّه حكمًا، فإن ادعىٰ عدم صلاحيتها للعصر، فإنه طاغوت تجب منابذته حتىٰ تكون عبوديةُ اللَّه مرتكِزةً علىٰ أصل صحيح.

---

(١) يقصد بالحصر قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾.

(٢) أي: صرفُ بعضها لغيره تعالىٰ.

ثامنها: لُباب العبودية: الحب في اللَّه، والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه والمعاداة فيه، فلا تجوز محبةُ شخص إلا في ذات اللَّه، ولأن حاله موافِقةٌ لكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ.

تاسعها: رُوحُ العبودية التواصي بالحق والتواصي بالصبر، ومن مقتضياتِهما الأمرُ بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقمعُ المفتري، فمن تخلىٰ عن ذلك ولم يفعل قدرَ المستطاع فقد أخل بعبودية رب العالمين.

عاشرها: من تمام عبودية اللَّه سبحانه: نصرةُ المظلوم، وردع الظالم ـ مهما كان نوع ظلمه ـ، وأطرُه علىٰ الحق أطرًا[1].

حادي عشرها: من العبودية الأخذُ بالأسباب التي أمر اللَّه بها؛ من النشاط في العمل، والسعي لطلب الرزق، وبذلُ أقصىٰ الجهد في الاستعداد بالقوة، وتسخير كل ما في الكون ليعين المسلمين علىٰ التواصي بالحق وقمع المفتري، وإقامة الجهاد، وكما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فالتوكل مقرونٌ بالعبادة؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣] اهـ.

ثاني عشرها: ذروة سنام الدين وعبودية رب العالمين: الجهادُ في سبيل اللَّه، ولإعلاء كلمة اللَّه؛ إذ لا يمكن الانتصار للَّه ودحض المفترين إلا به، ومن لم يجاهد ولم يحدِّث نفسه بالجهاد مات مِيتةً جاهلية، وحق عليه غضب اللَّه وذلته في الحياة الدنيا.

ثالث عشرها: عبوديةُ رب العالمين لا تسمح للعابد إقرار المفتري علىٰ اللَّه ورسوله من كل ملحدٍ أو مبتدع، فضلًا عن موالاتهم ـ والعياذ باللَّه ـ باسم «القومية» أو «الوطنية» ونحوهما.

---

(١) ولا يخفىٰ أن ردع الظالم مشروط بالقدرة من ناحيةٍ، والموازنة بين المصالح والمفاسد من ناحيةٍ أخرىٰ، وتفصيل ذلك في أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابع عشرها: تقتضي عبوديةُ اللَّه ﷻ علىٰ العابد الحقيقي: أن يعتبر نفسه خليفةَ اللَّه في أرضه، مسؤول عما يُجريه فيها أعداؤه من الفساد والخبث، فيسعىٰ لإزالته ببذل أقصىٰ مجهوده، ويستغل جميع الطاقات من أجل ذلك، فمن اقتصر علىٰ ركعاتٍ يصليها وأدعيةٍ يرددها، وسَبْحَةٍ يعلقها، لم يقم بواجب العبودية؛ لأنه ترك المشاقِّين للَّه ورسوله يَسرَحون ويمرحون.

خامس عشرها: علىٰ عابد الرَّحمن أن يعرف نفسه حقَّ المعرفة، وأن يعرف دوره وواجبه في هذه الحياة، فلا يعيش في مجتمعه مقلدًا ومسايرًا، ولا تابعًا مسالمًا، بل يكون قائدًا متبوعًا آمرًا وناهيًا، يفرض عقيدته ومبدأه حيث حل.

سادس عشرها: تحقيقُ عبودية اللَّه والاستعانة به من كافة الوجوه، فتحرَّرُ النفوس من رق العبودية لغير اللَّه من كل سلطانٍ وهمي، وتسمو بعقله عن الخضوع لتُرَّهات القُبوريين والمشعوذين، وتعصمها من همزات شياطين الجن والإنسان، وتنقذُها من مكر الدجاجلة المضللين المهرجين؛ لأنها ـ بإذن اللَّه ـ تُكسب العبد فرقانًا يميز به بين الحق والباطل، ويعرف به دعاةَ الرشد من دعاة الغي الذين تفاقم شرهم.

سابع عشرها: عبوديةُ اللَّه المرضية تستلزم الإخلاص له والصدق معه ببذل جميع مجهوده وطاقته في ذات اللَّه، وتكريس جميع أوقاته في النصح له ولرسوله وعباده المؤمنين من آمرٍ ومأمور وسيدٍ ومسود، بلا كسل ولا جُبن أو فتور، ليَصدُقَ القسَمُ الإلهي في سورة «العصر»، وأن يكون مخلصًا في حركاته وسكناته كلها.

ثامن عشرها: عبودية اللَّه المرضية تقتضي حسن المعاملة للخالق والمخلوق؛ فيعامل اللَّه ويراقبه حق المراقبة كأنه يراه؛ ليرقىٰ بذلك إلىٰ درجة الإحسان، وينال حظَّ المحسنين، ويحسن معاملة الخلق ـ أيضًا ـ، بما يحبُّ أن يعاملوه به ليحقق الإيمان، ويكون أسوةً صالحةً مؤثرة في

دعوته، نافعًا لأمته، ويكون كل فرد منها مواطنًا صالحًا، فيتحقق لها الوئامُ والكرامة.

تاسع عشرها: العبودية ـ بمعناها الصحيح ـ تسمو بالذات إلىٰ أشرف الغايات، وتُكسب صاحبها عزةً معنويةً، وصلابةً في دين اللَّه، بحيث لا يستطيع الولاةُ أن يشتروه بموائدهم وخِلَعِهم[١]، ولا أن يخضعوه بسياطهم؛ لأنه قوي الإيمان، زكيُّ الجنان، مترفعٌ عن المادة، شعاره شعار الأنبياء: «**اللَّهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة**»[٢].

العشرون: القيام بواجب العبودية يحقق لصاحبه الصلةَ الروحية باللَّه ورسوله؛ فلا يُزحزح عقيدتَه هديرُ أصحاب القوميات الذين غيروا كلام اللَّه وبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم، فبدَّلوا حبَّ اللَّه ورسوله بحب الوطن، وبدلوا تقديس حدود اللَّه وشعائره بتقديس حدود الوطن ومصالحه، حتىٰ تبجحوا بأكل السحت تكثيرًا للثروة القومية، وبمسارح اللَّهو ونوادي الإثم والمنكر وبلاجات[٣] الخلاعة، زعمًا للحضارة الخاطئة المعكوسة الممجوجة من قَيح الاستعمار ودمه وصديده، بل حضارته حضارةٌ صحيحة عُجنت مع اسم اللَّه ومراقبته، وقامت علىٰ أساس الإيمان والطابع الديني المطهِّر للأخلاق، الحافظ للأموال، المبارك في الأوقات والأعمال.

الحادي والعشرون: تحقيقُ عبودية اللَّه ﷻ يتكون منها شعوبٌ وفصائلُ أعزَّةٌ علىٰ الكافرين؛ تجدهم أمامهم أشداء في صلابة الحديد، لا تلين لهم قناةٌ مهما بلغوا عددًا وعُدةً، بينما تجدهم أذلةً علىٰ إخوانهم المؤمنين رحماءَ بينهم، متسابقين إلىٰ منفعةِ بعضهم بعضًا، فهم في

---

(١) **الخِلَع** ـ بكسر الخاء ـ: جمع «خِلعة»، وهي ما يخلعه الملك علىٰ من يرضىٰ عنهم من أموال ومتاع.

(٢) رواه البخاري (٦٤١٣).

(٣) كتبها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالحروف العربية، وهي كلمة أعجمية، ويقصد بها: الشواطئ.

ذات اللَّه للمؤمنين كنعومة الحرير، وكالغيث السحِّ الغدق[1]، وعلىٰ أعداء اللَّه شدادٌ غلاظ لا يقبلون صرفًا ولا عدلًا ممن لا يَدين دين الحق، وعلىٰ العكس تجد الذين لم يحققوا عبودية اللَّه وفق شرعه يظاهرون النصارىٰ والملاحدة، ويتوددون إليهم، ويسخَرون بالمسلمين، ويرمونهم بكل نقيصة.

الثاني والعشرون: عبودية اللَّه تحقق لمن قام بها الرشدَ والصلاح والفلاح والوحدةَ الصحيحة المشبَّعةَ بروح المودة والإخاء التام، ومن استنكف عن عبوديته، وتنكَّب عن شريعته فقد سَفِه نفسه، ووقع في خسران مبين وشقاق بعيد، كما نرىٰ أصحاب المبادئ والنظريات المنحرفة عن شرع اللَّه، وقعوا في ذلك، وحق عليهم وعيد اللَّه بقوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فحصر أحوالهم بالشقاق تارةً، وبالسفاهة تارة، وبالخزي تارة، وبالكبت والذلة تارة، فجميع أنواع الوعيد في القرآن متحقق فيهم، ولكنهم يغالطون ويَقلِبون الحقائق.

الثالث والعشرون: تحقيقُ العبودية يكوِّنُ منه معسكرٌ واحد يقف لإعزاز كلمة اللَّه كأنه بنيانٌ مرصوص، فيمضي بمحبة اللَّه ونصرته وتأييده بجندٍ من عنده لاهتدائه بتحقيق العبودية؛ إلىٰ غضِّ النظر عن الخلافات الجزئية، وطُهره من الأثرة والأنانية، فهو أعظم حرمةً عند اللَّه من السماء التي زيَّنها بالنجوم، وحفظها من كل شيطانٍ رجيم.

الرابع والعشرون: للعبادة الصحيحة ـ المطابقة لهدي اللَّه ـ أثرٌ عظيم في تقويم أخلاق القائم بها، وتطهير نفسه من الإعجاب والكبر والسخرية بالغير واحتقاره، والإفكِ والغيبة والنميمة، كما تزكيها من جميع أنواع الشرك والانصياع إلىٰ المبادئ الوثنية المادية التي ظهرت علينا بأسماءَ محببةٍ من قومية ووطنية وشيوعية واشتراكية، كعِجل بني إسرائيل المصُوغ، ولكنها يبدو زيفُها بأدنىٰ نقد، ويَظهر فسادها وعدم جدواها

---

(١) **السَّح الغدِق:** المتتابع الغزير.

بأدنىٰ حادثةٍ؛ لأنها لا تحل مشكلة، ولا تُحرز نصرًا إلا بانضمام غيرها إليها.

الخامس والعشرون: من لوازم العبودية ألَّا يتقدم المسلم بين يدي اللَّه ورسوله بأي تشريع يخالفُ الكتاب والسنة ـ مهما كان وحيث كان ـ، ولا يقبل ذلك من أحد، ولا يقر أحدًا عليه؛ بل ينكره بحسب استطاعته، ويتقرب إلىٰ اللَّه ببغض صاحبه، وتكريس جهوده للرد عليه ومعارضته بشتىٰ الطرق والأساليب، نصرةً للَّه ورسوله؛ دون مبالاة بالدنيا وزينتها؛ فإن من الإيمان الفرار بالدين من الفتن.

السادس والعشرون: من لوازم العبودية ودلائل إخلاصها: القيام بتبليغ الدعوة الإسلامية في سائر الآفاق ـ بحسب استطاعته ـ، وتفهيم كتاب اللَّه لأسرته وعشيرته، كي يقوموا بواجبهم معه، وألَّا يألوا جهدًا في نشر الإسلام غير مبالٍ بالمصاعب والتكاليف؛ كي يحسن التصرف بوراثة محمد ﷺ في حمل رسالته ويكون له أحسن خليفة. ألا ترىٰ أنه بتجميد المسلمين لرسالتهم شغَّل أعداؤهم الفراغ الذي أحدثوه، فجندوا عشرات الآلاف من المبشرين ومِثلهم من الملاحدة لنشر المسيحية الكاذبة والإلحاد، ففتنوا أولاد المسلمين وأشغلوهم بالملذات والأباطيل حتىٰ جعلوهم كالأنعام! وما الذنب إلا ذنب المسلمين الجامدين القاعدين عن رسالتهم، الواثقين بأعدائهم؛ حيث يتسابقون إلىٰ إدخال أولادهم المدارس التي يدرس بها خريجو مدارس فرنسيس وأفراخ الإفرنج، فهل فاقدُ الشيء يعطيه؟!! وهل يرجون من شجر الحنظل رمانًا أو برتقالًا؟! أم أنهم لما نسُوا اللَّه فأنساهم أنفسهم؟ فعلىٰ عباد اللَّه الانتباه للواقع السيئ من جديد؛ ليصححوا دينهم ويحققوا عبوديتهم للَّه.

حبُّ اللَّهِ ورسوله:

السابع والعشرون: كمالُ العبودية ولبابها: أن يكون اللَّه ورسوله أحب

إلىٰ العبد مما سواهما، فلا يفضِّلُ علىٰ طاعة اللَّه وابتغاء مرضاته أولادًا ولا أبًا ولا أمًّا ولا إخوانًا ولا أزواجًا ولا عشيرةً ولا موطنًا ولا مالًا ولا عقارًا ولا ضيعةً، فتفضيل شيء من ذلك علىٰ مرضاة اللَّه ومحبته والجهاد في سبيله مخلٌّ بالعبودية، وسالب الإيمان أو مُضعِفٌ له بحسبه؛ وذلك أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبةُ في القلب قوي انطلاقه لمرضاة محبوبه، فإذا كانت المحبةُ للَّه تامةً استلزمت إرادةً جازمةً في بذل الوسع لتحصيل محبوب الحق ﷻ، ودفع ما يكرهُه، والزهدِ والمعاداة لما يصده عن ذلك، فإذا ترك العبدُ ما يقدر عليه من الجهاد، كان دليلًا علىٰ ضعف محبته للَّه ورسوله في قلبه وإيثاره ما سواهما مما تقدم، فالحب خيرُ حاجز للقلب، وخير حارس له، إذا احتل قلبًا وشغله ومنعه من أن يغزوه، أو يكون كالغصن تُميله الأهوية فيكون لعبةً للعابثين، وعبدًا للأطماع والشهوات؛ لأنه لابد للمرء أن يستعبده شيءٌ من المحبوبات من شهوة حيوانية، أو مال، أو رئاسة، أو عصبية، أو مذهب من مبتكرات أهل هذا الزمان، وذلك إذا شَغَر قلبه من حب اللَّه.

قال الشيخ ابن تيمية: «إن المحبوبات لا تُنال ـ غالبًا ـ إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبةً صالحةً أو فاسدة، فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضررٍ يلحقهم في الدنيا؛ مع ما يصيبهم من الضرر في الآخرة، فالمحب للَّه ورسوله إذا لم يتحمل ما يتحمَّلُه المحبون لغير اللَّه في حصول مطلوبهم، دلَّ ذلك علىٰ ضعف محبةِ اللَّه؛ إذا كان ما يسلكه أولئك هو الطريق الذي يشيرُ به العقل، ومن المعلوم أن المؤمن أشد حبًّا للَّه...».

ومَن أضل ممن أشقىٰ نفسه وأفناها في حب غير اللَّه، فجعلها عُرضةً للعقوبات في الدنيا والآخرة، وخسر العزة والثواب؟ ومحبة اللَّه لا تكون إلا بمحبةِ ما أحب وتحقيقه، وكراهةِ ما كرهه من متلبِّسٍ بكفر أو فسوق أو عصيان، ومعاداته والسعي لإزالته، ولا يكتفي فيها بأصل

الحب، بل لابد أن يفضله على غيره، ولو حقق المسلمون هذه القاعدة لما ذلوا؛ بل كانت لهم السيادة وتحققت لهم القيادة.

الثامن والعشرون: ليس بين الحق والباطل طرفٌ ثالث مقبول للَّهِ؛ فقد حصر اللَّه الضلال فيما سوىٰ الحق بقوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، فالمعرضُ عن اللَّه لابد أن ينصرف قلبه إلىٰ غيره، وفاقد الحب الصحيح لابد له من الحب الفاسد المفسِد لقلبه المخرِّب لضميره، المتلف لمهجته، الضار بأسرته وأمته، كما هو مشاهد محسوس، فإن المعرضَ عن عبادة اللَّه يستعبده ما سواه من مطامع الدنيا وشهواتها، ويُفني عمره في اتباع الأذواق والمواجيد المتلونة التي لا يستقر لها قرار، ولا يتحقق فيها أمن ولا راحة، فبخروج الناس من عبودية إلهٍ واحدٍ فرد صمد، وقعوا تحت استرقاق آلهةٍ كثيرة، وفرضت عليهم أهواؤهم الإلحادية تضحيات وخسائر لا يكلفهم بها الرَّحمن الرحيم، فعاشوا ويعيشون في جحيم من الاضطرابات والتخليط، بل في جحيم من الأنانية المستمرة التي تحملوا أهوالها من همزات الرؤساء الماديين وقلاقلهم، مهما حصروا إيمانهم في رئيس أو جماعة أو أمة أو دولة أو مذهب فاشي أو سواه من الفلسفات المؤدية إلىٰ الولاء الجماعي لطاغية يتحكم في الشعوب وباسم الشعوب، فيعرضها للويلات، ويسوقها للمجازر، فقد أثبت الواقع أن الولاء الجماعي كلَّف الناس مثلما كلفهم الهوىٰ الفردي من شطط، فما أعظم خسارة العالم بانحطاط المسلمين وابتعاد العرب ـ خاصةً ـ عن حمل رسالة رب العالمين.

التاسع والعشرون: من أجل ذلك كانت عبودية اللَّه المرتكزة علىٰ وحيه وهداه تستلزم الكفر بالطاغوت، فنص اللَّه نصًّا قاطعًا علىٰ الكفر به، فقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

و«الطاغوت» اسم جنس يعم كل ما يُطغي البشرَ عن الحق من أي مبدأ كان وأي طريقةٍ وأي شخص يرتكز نفسه بفلسفاتٍ أو شعارات مناقضة لملة إبراهيم، ومخالِفةٍ لحكم اللَّهِ ورسوله في أي نوع من الأنواع، وسُمي «طاغوتًا» لإطغائه البشر[١] عن طريق العبودية الصحيحة للَّه، وتعلقهم بشخصيته هو، وإخضاعهم لإرادته ـ دون هدىٰ اللَّه ـ قهرًا أو دجلًا وتضليلًا؛ كما هو المشاهد في هذا الزمان الذي تفنن فيه تلاميذ الإفرنج ببلورة الأفكار والجناية علىٰ العقول.

والطغيان في اللغة: مجاوزة الحد، فكل من جاوز حده في المعصية والضلال فهو طاغٍ، يقال: «طغىٰ السيل، وطغىٰ الماء»، فالرجل الذي يُطغي الناس عن هدي رب العالمين بما يلقيه عليهم من فتنة الشبهات والشهوات، باسم جنس أو وطن أو مبدأ أو تقدم أو حضارة أو تحرر ـ وما إلىٰ ذلك من الأسماء الفاتنة الخلابة ـ؛ فهو طاغوت، وإنما قُرن الكفر بالطاغوت مع الإيمان باللَّه، لأن الطاغية ـ بمكره وعظيم دجَله ـ يسترق القلب الذي هو الملك في الإنسان، فيجعله مستعبدًا متيمًا لغير اللَّه؛ بخلاف الظالم الغشوم الذي يسترقُّ البدن، ولا يؤثر في القلب إلا بالامتعاض الجالب للأنقاض، فعبودية القلب وأسرِه هي التي يترتب عليها الثوابُ والعقاب.

ولا نجاة اليوم من همزات شياطين الإنس وطواغيتهم، إلا بتحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، بجميع معانيها ومبانيها، لا سيما في هذا العصر، عصر التهريج[٢] والتلبيس والمغالطات التي تحملها أمواج الأثير[٣] في الإذاعات، وتبثُّها دُورُ الطبع والنشر من كل حدب وصوب،

---

(١) فالطغيان ـ لغةً ـ يعني مجاوزةَ الحد ـ كما سيوضح المؤلف قريبًا ـ.

(٢) **التهريج**: السفاهة واتباع الباطل.

(٣) **الأثير**: وسطٌ افتراضيٌّ يعمُّ الكون ويتخلَّل جميع أجزائه، وُضِعَ لتعليل انتقال الضَّوء أو الصَّوت أو الحرارة في الفراغ، كما يقال: «نقلت وقائع المؤتمر عبر موجات الأثير»، أول: «علىٰ جناح الأَثير»: بواسطة المذياع أو الرَّاديو =

ممن غايتهم العلو في الأرض واللعب بمقدرات الشعوب تحت ستار الأوهام والأباطيل، إذ مهمةُ الطاغوت ـ في كل زمان ومكان ـ الجناية علىٰ عقولهم حتىٰ يسخرهم لأغراضه، وقد وصفه اللَّه بأبشع وصف وأخبثه علىٰ جهة العموم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فالطاغوت بجميع أنواعه إذا رأىٰ أتباعه ومقلديه قد لاح لهم شعاعٌ من نور الحق يُفهمهم فساد ما هم عليه، بادر إلىٰ صرفهم عنه بما يلقيه دونهم من حُجب الشبهات وزخارف الأقاويل، التي يَلبِسُ بها الحق بالباطل، ويرمي ورثة الأنبياء والدعاة إلىٰ اللَّه بدائه هو؛ من عمالة الاستعمار، ومهادنة الصهاينة ـ مثلًا ـ، وبالرجعية والانتهازية، وأصحاب المؤامرات... وما إلىٰ ذلك من الألقاب التي تنفِّر عنهم العوام والمضبوعين[١] إيغالًا بالصد عن سبيل اللَّه بفلسفته الزائفة، فهنا تُشَانُ[٢] طواغيت الأرض في كل زمان ومكان، فقد حكىٰ اللَّه عن فرعون أنه قال لمن آمن بموسىٰ من السحرة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، فسمىٰ انقيادهم للحق «مؤامرةً علىٰ البلاد»! وانطلت هذه الفرية علىٰ أتباعه ومقلديه ـ مع بُعدها عن الواقع بعدًا عظيمًا ـ، وما ذاك إلا لاسترقاق الطاغية قلوب الناس وتخنيثه أدمغتَهم، وها هو التاريخ يعيد نفسه، ولشدة تأثير الطاغية علىٰ العقول، نص اللَّه في كتابه علىٰ أن الفتنة أشد من القتل وأكبر.

الثلاثون والحادي والثلاثون: بتحقيق عبودية اللَّه يهونُ علىٰ الإنسان نفسُه وماله في سبيل اللَّه، فينجو من الجبن والبخل اللذين استعاذ منهما رسول اللَّه ﷺ؛ لأنهما مصدرُ الذل والانحطاط الذي وقع فيه

= والموجات الكهربائيَّة. كذا في «معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٦١).

(١) **المضبوعين:** مَن أكلتهم الضباع، ويقصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من خدعتهم الحياة وأسقطتهم في أباطيلها، واللَّهُ أعلم.

(٢) **تُشان:** تفضح وتُعاب.

المسلمون اليوم لمَّا تلبَّسوا بهاتين الخصلتين الذميمتين، فلم يحققوا العبودية كما أمرهم اللَّه، إذ بتحقيقها يرتفعون عن البخل والجبن؛ فيقدرون علىٰ الوفاء بمبايعة اللَّه الذي اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فيتحقق عزُّهم، ويشمل حكمهم باللَّه جميع الأرض، وما أروعَ تصوير نبينا ﷺ لهاتين الخصلتين الممقوتتين بقوله: «**شرُّ ما أُوتي العبدُ: شُحٌّ هالع، أو جُبنٌ خالع**[١]»[٢].

فالشح يزرع الهلع والنهمة في القلب؛ بحيث يزداد بخله عند زيادة خيره وغناه، ويزداد جزعُه بأدنىٰ مصيبة، والجبن يزرعُ فيه الذلة والاستكانة لأي شيء، ويخلع منه العزةَ والطموح إلىٰ المعالي، وقد أثبتت جميع الوقائع التاريخية أن المقاتل دينًا طلبًا للجنة لا يهزمه أحد، فلا يُصدُّ عن وجه طلبه كما هو موقف المسلمين أمام الفرس والروم الذين كانوا يهزؤون من عددهم وعُدتِهم؛ لأن المحقق لـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، لا يغلبه أحد بإذن اللَّه، إذ يقاتل وفاءً بعهد اللَّه يبغي جنته ورضوانه، ناجيًا من الشح والجبن وسواه، غير مدفوع بأجرةٍ أو عصبية؛ فالفرق عظيم.

أما الذي يجتمع فيه الشح والجبن معًا؛ فليس محققًا عبودية اللَّه، وكيف يحققها مَن بخل بماله ولم يُجد بنفسه، إذ من لم ترخُص عليه نفسه في مرضاة محبوبه، لابد أن يرخُص عليه ماله، فلم يتأخر المسلمون ولم يغلبهم عدوُّهم إلا باجتماع هاتين الخصلتين اللتين لا يُنجي منهما إلا تحقيق العبودية.

الثاني والثلاثون: عبوديةُ اللَّه توجب علىٰ صاحبها القيامَ بجميع أنواع الصلاح والإصلاح، في كافةِ المرافق والشؤون الفردية والجماعية ـ دون أنانيةٍ أو محاباة أو مداهنة ـ، مراعيًا حدود اللَّه في التطوير والتنظيم ـ بدون إفراط ولا تفريط ـ؛ بحيث لا يخرجه ذلك عن اتباع ما

---

(١) أي: شحٌّ يبعثه علىٰ الهَلَع علىٰ ماله. وجُبنٌ يخلع قلبَه من شدة الخوف.

(٢) رواه أحمد (٢/٣٠٢)، وأبو داود (٢٥١١).

أُنزل إليه من ربه إلىٰ إلىٰ اتباع الملاحدة المتحلِّلين أو الطغاة الماكرين.

الثالث والثلاثون: عبودية اللَّه توجب علىٰ صاحبها الصدقَ في القول والعمل؛ بحيث لا يخالف الناسَ إلىٰ ما ينهاهم عنه، أو يأمرهم بما هو منسلخٌ منه، فيكون أضحوكةً ومثلًا سيئًا لعدوه وصديقه.

الرابع والثلاثون: عبوديةُ اللَّه الحقة تخلق وعيًا جماهيريًّا صادقًا لجميع أمم الأرض، تعي به واجبها نحو خالقها وبارئها ومصوِّرِها، المنعم عليها بكل شيء، المسخر لها كلَّ شيء، المنمِّي إحساسها إلىٰ كل شيء، فبهذا الوعي الصحيح تتكاثف قواها، ويجتمع شملها علىٰ تقوىٰ من اللَّه ورضوان، فيعيشون في إخاءٍ ورخاء؛ لا يفخر أحد علىٰ أحد، ولا يبغي أحد علىٰ أحد، بل يؤثر أحدهم أخاه علىٰ نفسه، ويتألم لألمه؛ فينصره ـ ولو مع بُعدِ داره ـ؛ لأن عباد اللَّه المؤمنين حقًّا ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ كالجسد الواحد، خلاف ما هم عليه الآن من تفككٍ لا تقبله عبودية رب العالمين.

الخامس والثلاثون: عبودية اللَّه الحقة توجب العملَ علىٰ بناء مجتمع إنساني علىٰ أساسِ دين اللَّه ونُظمه؛ وفق الدستور الذي شرعه في سورة «الحجرات» ـ خاصةً ـ وغيرها؛ مما أوحاه إلىٰ نبيه عامةً ليكفُل للإنسانية حقوقها، ولا يلعب بمقدَّراتها وعقولها، إذ من لم يعمل للإنسانية علىٰ أساس ما أُنزل إليه من ربه فهو مفتر يلعب عليها حتىٰ يسخِّرها كأنعام، أو يمزق وحدتها ويُغريها علىٰ التناحر؛ كما هو شأن طواغيت الأرض في هذا الزمان: من هدم الأخلاق، والقضاء علىٰ الفضيلة، وكبت الحريات، وشل حركة التجارة، والتحجير علىٰ الأعمال باسم بناء الوطن والاشتراكية... وما إلىٰ ذلك من تسخير الإنسانية والجناية علىٰ عقولها.

السادس والثلاثون: القيام بحق العبودية يوجب العمل المتواصل ـ بكل جد ونشاط ـ علىٰ تحقيق الوحدة الإنسانية جمعاءَ تحت إطار الدين؛ وفق قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾؛

إذ بتحقيق العبودية لا تنشأ العصبيات والقوميات المفرقة بين الأجناس والأقاليم، ولا الحدود المصطنعة، لأن كلمة التوحيد المستكملة لمعانيها يجب أن تشمل جميع الأرض، ولا يعلوها أحد، ولا تعترف بحدودٍ ولا تجزئة، فلا تحقق أمةُ القرآن معنىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حتىٰ يعملوا العملَ المتواصلَ لتكون كلمة اللَّه هي العليا في سائر المعمورة، لا يحول بينها حدودٌ ولا سدود، فأهل القرآن هم المسؤولون عن التقصير في ذلك، إذ لو ألهبوا حماسَ الشعوب بواجبهم الديني، ودفعوهم إلىٰ الاستعداد بكل قوة، وتسخير كل شيء فيها؛ لما استطاع أن يصدهم عن ذلك شيء.

السابع والثلاثون: علىٰ كل من أراد تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أن يعتبر الحرية حقًّا من حقوق اللَّه، لا يجوز له التفريط فيها ـ فضلًا عن التخلي عنها أو السماح لأحد باستلابها منه ـ؛ لأنه بفقد حريته لا يستطيع عبادة اللَّه علىٰ الوجه الأكمل؛ فكان مفرطًا في جنب اللَّه، ومن هنا وجب عليه أن يكون قويًّا آخذًا بجميع وسائل القوة، مستعدًّا للجهاد ومكافحة الأشرار، فإن لم تساعده البيئة علىٰ ذلك وجب عليه الهجرة إلىٰ بلدٍ يتمتع فيها بالحرية التي يستطيع معها القيام بحق اللَّه، كما هاجر الرسول ﷺ من أشرف البقاع وأحبِّها إليه ـ بأمر ربه ـ إلىٰ البلد التي استطاع فيها تحقيق دينه وإظهاره حسبما تقتضيه هذه الآية. ومن لم يتأس بنبيه ﷺ لم يصدق انتماؤه إليه حقيقةً، كالذين ارتبطوا بعجلة أعداء اللَّه، وتقبلوا أفكارهم، واستحسنوا نُظمهم، فقعدوا عن واجبهم وهو:

الثامن والثلاثون: الذي هو القيادة العالمية التي هيأتها البعثة المحمدية ونقلتها من بني إسرائيل إلىٰ أمة محمد، فمن تقاعس عن حمل أعبائها وعن السعي الحثيث لنيلها؛ فهو مقصِّرٌ في عبودية رب العالمين، فجميع الأمة مسؤولةٌ عن تفريطها بتلك القيادة التي خسر العالمُ كله بفقدانها العدلَ والإحسان، وتورط في جحيم المبادئ والنظريات الكافرة، وتخبط

في ظلمات الدجل والتضليل التي يبثها طواغيت الأمم من إذاعاتهم وصحفهم، وكان له أكبر نصيب من السوء والفرقة والتجزئة.

التاسع والثلاثون: عبودية اللَّه تعالىٰ لا تسمح أبدًا لأي مسلم أن يغير شيئًا عن أنظمة الفطرة التي فطر اللَّه الخلق عليها في سائر الميادين، ولا يقر أحدًا علىٰ ذلك ـ فضلًا من أن يَستحسن اتجاهه ـ؛ ذلك أن الإنسانية من أقدم العصور إلىٰ أحدثها تتقلب بين نظامين تعتبرهما أساسًا للحياة:

أولهما: نظام الفطرة النابض بحيوية الحق والخير، وهو الذي تؤيده التشريعات السماوية، وتقبله العقول المستقيمة ـ التي لم تتبلور بالأوهام والأضاليل ـ من العبادات القلبية والبدنية والمالية المقوِّمة لروح المجتمع والجالبة له رضا اللَّه، ومن الأخلاق الحسنة الفردية والعمومية الجالبة للصلاح والفلاح، ومن الروابط الأدبية والاجتماعية الماحقة للأثرة والأنانية، ومن حسن المعاملة والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ في المنازل والأسواق والأندية والمصانع وسائر الميادين، وتشكيل المحاكم والأحكام ونظم السِّلم والحرب، وفق ما شرعه اللَّه، مما يلائم تلك الفطرة، ولا يجلب ضررًا ولا ضرارًا بأحد في سائر التشريعات الاجتماعية والاقتصادية.

ثانيهما: ما يعارض هذه الأنظمة من نُظم الجاهلية أو مبتكرات أهل هذا الزمان؛ التي هي شرٌّ منها بكثير من التفسخ والانحلال الخلقي باسم «التقدم»، والتخنث والميوعة باسم «الحضارة»، وكبت الحريات بدعوىٰ «صالح الدولة»، أو الثورة وتقديس الأشخاص والتماثيل باسم «الفكرة» أو «المبدأ المنتحل»، وتعطيل ما أباحه اللَّه من الاكتساب ومحاربة الأغنياء، وتأميم أعمالهم بدعوىٰ «محاربة الاستغلال»، وتربية الناس علىٰ الإيمان بالمادة واستحلال ما لذ وطاب، فهؤلاء كالأنعام؛ بل هم أضل سبيلًا.

فمن استحسن هذا النظام الحيواني المرتكز علىٰ المادة بجميع أنواعها؛ فهو مجانب لعبودية اللَّه، وعابدٌ لشيطانه وهواه، ومن حمل الأمة علىٰ ذلك ودعا إليه فهو محادٌّ للَّه ورسوله؛ يجب علىٰ عباد اللَّه بغضُه ومنابذته؛ لأنه يريد أن يُركسَ الناس في جاهليةٍ أفظع من الجاهلية الأولىٰ.

الأربعون: عبودية اللَّه توجب علىٰ صاحبها الاستجابةَ لجميع نداءات اللَّه في كتابه العزيز ـ علىٰ اختلاف أنواعها وأساليبها ـ دون إهمال شي منها أو التراخي فيه، وهي تقربُ من مئةٍ وثلاثة وعشرين نداءً:

بعضها بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

وبعضها: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾.

وبعضها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

فمن لم يستجب لكل نداءٍ يناديه به ربه فليس محققًا للعبودية المطلوبة في هذه الآية، وكيف يكون عابدًا للَّه من لا يستجيب له وهو يدعوه لما يحييه حياةً طيبةً في الدنيا، وينجيه في الآخرة من العذاب؟! لا شك أن من لم يستجب لنداءات ربه عاصٍ له، مناقضٌ في سيرته لجميع مدلول سورة الفاتحة؛ من حبه، وتعظيم أسمائه، والتعلق به، والقيام بشكره وحمده، والإيمان ببعثه وحسابه، ورجاء رحمته، والخوف من عذابه، والقيام بأوامره، واجتناب نواهيه، فأصبح غيرَ محقِّق لعبوديته المطلوبة فيها، وهذه أكبر بلية المسلمين، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر: ١٩]؛ فانصاعوا لنداء من يُهلكهم كالشاء تنصاع للجزار.

الحادي والثاني والأربعون: عبودية اللَّه توجب علىٰ العابد أن يجعل لقلبه هجرتين:

هجرة إلىٰ اللَّه؛ بِهَجر جميع ما نَهىٰ اللَّه عنه، والإقدام علىٰ ما أمر اللَّه به، رغبةً في وعده، ورهبةً من وعيده، وتعظيمًا لشأنه، وحبًّا للقائه بإخلاص وصدقٍ غير مشوبين بحاجةِ صدرٍ أو تحرج أو توجع، وأن

يتمسَّك بكتابه عملًا كاملًا وتبليغًا؛ لأن من لم يعمل بالكتاب لا يكون مقدرًا لرسل الكتاب، وأن يغضب لانتهاك محارمه ـ أَزيَدَ مما يغضب لنفسه لو أهينت كرامتُه ـ؛ فيستعد بكل مقدوره لنصرة ربه جَلَّوَعَلَا، واللَّه لا يخذله.

والهجرة الأخرىٰ: إلىٰ رسوله ﷺ بالتأسي به في كل شيء، وتقديم سُنته علىٰ كل شيء، وتحكيمها في كل شيء، وعدم الحكم عليها من أي شيء، فيدورُ مع قول اللَّه ورسوله نفيًا وإثباتًا، ولا يُقدِمُ علىٰ أمر من الأمور دون التقيد بها، ولا يرضىٰ عن أي نِحلةٍ[1] ورائدِها، أو عقيدةٍ وواضعها، أو مبادئ ومؤسسها، حتىٰ ينظر إلىٰ موافقتها ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ المأمور باتباعها في القرآن، ومطابقتها حكم الإسلام ـ أصلًا وفرعًا ـ، فينبذُ ما خالف الملة الإبراهيمية، والشريعةَ المحمدية، وينابذ من تصدىٰ لمخالفتها من أرباب تلك المبادئ والعقائد العصرية، ويَعتبر الداعيةَ إليها والمناصر لها طاغوتًا، لتجاوزه أمر اللَّه وحدوده، لا سيما إذا صد عن سبيل اللَّه بإلقاء الشبهات والأضاليل، أو أخرس الدعاةَ إلىٰ اللَّه بأي وجهٍ من الوجوه، فيكفر به الكفر الذي تستلزمه عبوديةُ رب العالمين، ويتبرأ منه ومن أحبابه ومناصريه، ليكون مهاجرًا إلىٰ ربه، متمسكًا بالعروة الوثقىٰ.

فالهجرة القلبية إلىٰ اللَّه ورسوله بالإخلاص والمتابعة فرضُ عين علىٰ كل شخص وفي كل زمان ومكان، وهي روح الدين وحقيقة الإيمان.

أما الهجرة البدنية فهي:

الثالث والأربعون: وهذه قد تجب مطلقًا، وقد تجب علىٰ شخص دون شخص، وفي وقت دون وقت، وفي مكان دون مكان، بحسب ما يترتب علىٰ الانتقال من الفائدة وعلىٰ عدمه من الفتنة، وفي وجوبها علىٰ

---

(١) **النِّحلة**: المذهب أو العقيدة.

التحتيم ثلاث حالات:

أحدها: أن يكون المسلمُ في مكان يُفتتن فيه عن دينه، أو لا يتمكن فيه من إقامته كما يعتقد، فيجب عليه الهجرة إلىٰ البلد الذي يعلم أنه يكون فيه أقومَ بحق اللَّه وأدومَ علىٰ عبادته، ويكون حرًّا في تصرفه وإقامة دينه؛ لأن عدم الهجرة يترتب عليها ما لا يُحصىٰ من المعاصي، بحيث يكون غير محقِّق لـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثانيها: احتياج المسلم إلىٰ معرفة الدين والفقه فيه، حيث عدم المرشدِ في مكانه، فيجب عليه الهجرة ليتلقىٰ ويتعلم ما جهله.

ثالثها: إذا كان هناك جماعةٌ أو دولةٌ للمسلمين ضعيفة يخشىٰ عليها من الانصهار في الكُتل والمبادئ المخالفة لما أنزل اللَّه، والانجراف في تيار الفسوق والإلحاد، وجب علىٰ عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يساعدوها ماديًّا وأدبيًّا ومعنويًّا، ويشدوا أزرها بكل وسيلة، فإذا توقفت نصرتها علىٰ الهجرة وجبت الهجرةُ إليها ـ حتىٰ علىٰ البعيد عنها ـ وجوبًا قطعيًّا لا هوادة فيه، وإلا كان راضيًا بضعفها، ومعينًا لأعداء الإسلام علىٰ إبطال دعوته، وخفض كلمة اللَّه، لأنه يجبُ علىٰ مجموع المسلمين السعي بكل مجهود لتكوين جماعةٍ أو دولةٍ قويةٍ تنشر دعوة الإسلام، وتقيم أحكامه وحدوده وتحفظ بيضته[1]، وتكون مأوًىٰ لأهله ودعاته، يجتمعون بها من البغي والظلم.

فمناصرتها والتهافت إليها بالهجرة من أوجب واجبات الدين؛ لأنها ـ بصدق عزيمتهم وقوة إيمانهم ـ تكون لهم مركزًا ونقطةَ انطلاق إلىٰ العز والسؤدد وإعلاء كلمة اللَّه، وبدونها يذوبون وينصهرون في المجتمعات الفاسدة، ويكون أولادهم عونًا لأعدائهم عليهم، لما يتلقَّونه في المدارس من الثقافة الاستعمارية.

---

(١) **بيضته**: جماعته. كذا في «تاج العروس».

الرابع والأربعون: العابد للَّه لا يُقدم علىٰ أي عمل يُنَحَّىٰ به الإسلام عن واقع الحياة، معتقدًا أنه عائق للحضارة والتقدم ـ كما يسميه تلامذة الإفرنج من أولاد المسلمين ـ؛ لأن في ذلك استدراكا علىٰ اللَّه ورسوله، واعتقادًا بعدم كفاية النصين، وتنديدًا بحكمة اللَّه وانتقادًا لشريعته، ولا يجوز له ـ أيضًا ـ إقرار أحد من الملاحدة العصريين علىٰ ذلك، ممن شاقوا اللَّه ورسوله باطراح وحيه وهداه، واتباع أساتذتهم من ملاحدةِ الشرق والغرب، فكانوا ورثةً لمن قال اللَّه فيهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء]، بل يبذل غاية جهده لصدهم وتحطيم آرائهم، وتطهير أدمغة الناشئة من سمومهم.

الخامس والأربعون: عبودية اللَّه تحتِّمُ علىٰ أهلها إسلاميةَ الحكم لا قوميته؛ وفق قوله تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]، فالعابد ـ حقًّا ـ تهديه بصيرته المستنيرة باللَّه إلىٰ أن انتحال القوميات فكرةٌ استعمارية كافرة، ركزها الطواغيت والمخدوعون بهم لفصل الدين عن الدولة، وإبعاد الإسلام عن ميادين التشريع والتنفيذ، ودفعه إلىٰ الوراء لينزوي في مسجد يُقفَلُ داخله، ويسمىٰ أهله: «ذوو[1] الأفكار المتخلفة»، ويقصر تذكاره بقراءة كتابه علىٰ المآتم، كما عملوا ذلك وساعدهم المتكلمون باسم الإسلام، وهم عبدة المادة والشيطان، وليسوا من عبادة الرَّحمن في شيء.

إن من يريد أو يعمل علىٰ إقصاء الإسلام وعزل القرآن عن الحكم ليس عابدًا للَّهِ، ولا مستعينًا به وفق هذه الآية؛ بل هو معينٌ علىٰ نفسه أعداءَ الإسلام الذين هم أعداؤه، فيكون خادمًا لأغراضهم المضادةِ للوحي من حيث يشعُر أو لا يشعر، وصَدَق اللَّه العظيم إذ يقول: ﴿وَمَن

---

(١) مبني علىٰ الحكاية في محل نصب مفعول به ثانٍ لـ«يسمىٰ».

يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. والعجب أن تلاميذ الإفرنج من أولاد المسلمين ـ أصحاب هذه النزعة ـ لا يبصرون نشاطًا لدول المسيحية التي أغرتهم بإبعاد دينهم عن الحياة في نشر دينها، بل لا يبصرون احتضانها «لإسرائيل» ـ التي هي دين ودولة ـ، ولكنهم لما نسوا اللَّه أنساهم أنفسهم فلا يُعتبرون.

السادس والأربعون: عبودية اللَّه تقضي علىٰ العابد ألا يقف بغير معرفة أحاديث المفترين، ولا يخضع لما سطَّروا في المذكرات أو في التاريخ فيبني عليه حكمًا علىٰ فردٍ أو جماعةٍ أو أسرة من الناس؛ لأن التاريخ ـ في كل الأزمان والعصور ـ يسيطر عليه ذوو السلطان والجاه والنفوذ، فيسخِّرون الأقلام لما يناسبهم، ويشترون الضمائر المقفرةَ من تقوىٰ اللَّه لصب الشتائم والقذف بكل تُهمة علىٰ من يعادونه ـ ولو كان صحابيًّا ـ، ويُسبغون المدح لسيدهم ومحبوبهم مهما كان، فالعابد للَّه لا يأخذ ما يسمعه أو يجده كقضيةٍ مسلَّمة؛ بل يمنعه دينه وعقله من قبول الأخبار عن أي شخص من عدوه، فيسلط عليها الأضواء من كل ناحية، ويكون منها في شك مريب، ولا يضفي ثوب القدسية علىٰ أحد خوفًا أو طمعًا، بل يحقق عبودية اللَّه؛ فلا يخاف في اللَّه لومة لائم.

السابع والأربعون: العابد للَّهِ حقًّا يكون معظِّمًا لشعائر دينه، مقدسًا لنظمه وتعاليمه، لا يصرفه عنها ـ أو ينفره منها ـ عبث العابثين من حكماء وعلماء يتلاعبون بالنصوص أو يتهاونون في تطبيقها، فيحمل الدين آثامهم، والدين موتورٌ بهم[1] كما وُترت بهم شعوب الأرض.

الثامن والأربعون: عبودية اللَّه لا تسمح للعابد بموالاة أي عدو للَّه ولو كان أقرب قريب، فضلًا عن موالاة المحادين للَّه ورسوله، من دول الكفر أو معتنقي المبادئ الإلحادية باسم التقدم في الحضارة أو الاقتصاد، فكل من يُلقي إليهم بالمودة أو يتفق معهم في ثقافتهم أو تشريعاتهم

---

(١) موتور: مصاب.

فهو خارج من عبودية اللَّه إلىٰ عبودية الطاغوت.

التاسع والأربعون: العابد للَّه لا يعمل علىٰ إذابة شخصية الأمة ومحوها بسبب مشيه في ركاب من أغروه أو غرروا به في دعاياتهم ودجلهم بالشغف بهم وتركيز محبتهم وتحبيب خططهم وأفعالهم دون عرضها علىٰ ما جاء من عند اللَّه، فيكون عابدًا للمادة وشياطين الإنس الذين ألسنتهم أحلىٰ من السكَّر، وقلوبُهم قلوب الذئاب.

الخمسون: عبودية اللَّه تقضي علىٰ أهلها ببغض الذين شرعوا ما لم يأذن به اللَّه في سائر النواحي، ممن يترسم[1] خطط الملاحدة والمستعمرين، ولا يتلفت إلىٰ هدي اللَّه ورسوله، وكذلك بغض من يعتقد أو يدعو لحصر الدين في نفوس المؤمنين كأفرادٍ؛ دون تدخله في مشاكل الحياة من حرب وسِلم وتحرر واستعمار، فبُغضُ هؤلاء من لوازم عبودية رب العالمين، ومنابذتُهم، وهتك أستارهم، وكشف حقيقتهم للناس: من الجهاد في سبيل اللَّه، أما موالاتهم وتحبيذ أفعالهم فهي محادةٌ للَّه ورسوله، صاحبها متجرد من ولاء اللَّه ورسوله، غير محقق للأمر.

الحادي والخمسون: الذي هو أن يجعل العابد غايته للَّه، وأمره كله للَّه أولًا وآخرًا، كما أنه من اللَّه وإلىٰ اللَّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق]، فمن لم يكرس جميع أوقاته في عبودية اللَّه ـ بشتي أنواعها ـ فهو معاكس لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، ولقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وهو إذا لم يَقدِرِ اللَّه حق قدره؛ فكيف إذا انضم إلىٰ تفريطه اعتقاد شيء من المبادئ العصرية السالفة الذكر، أو اعتقاد عدم جدوىٰ الشريعة في حل المشاكل، ونحو ذلك من الكلمات التي يطلقها تلامذة الإفرنج في وصية دين اللَّه تعالىٰ؟! فإنه خارج عن عبودية ربه إلىٰ عبودية من انصاع إليه وتقبل أفكاره؛ لأن أول فرض علىٰ عباد اللَّه

---

(١) يترسَّم: يتتبع.

كفرٌ بالطاغوت الذي يطغيهم عن أي نوع من أنواع العبادة، ومن هنا استلزمت عبادة اللَّه أمورًا كثيرةً سبق ذكر بعضها، ونذكر باقيها ـ إن شاء اللَّه ـ بإجمال واختصار، فمنها:

الثاني والخمسون: وهو أن عبودية اللَّه لا تسمح لأحد ما بإيمان عقائدي جديد مما ينادي به قومٌ من أبناء جلدتنا، تربوا في أحضان الاستعمار، وتتلمذوا علىٰ طغاته وملاحدته، فانطبعوا بثقافته، وشغفوا بمدنيته، وتنكروا لدينهم وكتاب ربهم، الذي أنزله ذكرًا لهم وشرفًا أيما شرف، فعَمُوا وصموا عن ذكرهم وشرفهم وهداهم، وأخذوا يطالبون الأمةَ ـ بإلحاحٍ ـ أن تسير سير الأوروبين، وتسلك طريقهم في الحضارة، خيرها وشرها، دون استثناء لما يكره منها أو يعاب، وأن تَهجر ـ إلىٰ غير رجعةٍ ـ شعائرَ دينها وإيمانها بالغيب، فلا تؤمن إلا بالمادة والعلم التجريبي؛ الذي فضحه مَهَرَةُ أهله باعترافهم بعجزه عن كشف كثير من الأسرار المحجوبة، وتفاقُمِ الخلاف بين أهله في الماديات، بحيث اعترف بعض أساطينهم أن بعض ما قرروه أصولًا غدًا افتراضًا واتفاقًا أو خيالًا، ونادىٰ منهم عددٌ غير قليل بإيجاب الإيمان بالغيب، والمضبوعون من أبنائنا لا يزالون في طغيانهم يعمهون، وكل مناداةٍ بإيمان بأي فكرة مادية أو عقائدية مخالفةٍ لوحي اللَّه فهي غيٌّ وضلال وظلم وظلمة، لا يسلكها عباد اللَّه الذين يرجون لقاءه.

الثالث والخمسون: إن عباد اللَّه لا يتبعون ما تتلوه شياطينُ الإنس وطواغيتهم من الولوع بالماديات، وقَصرِ النظر عليها، وتجنيد القوىٰ في سبيلها، وإشباع الرغبات من نيل الملذات الدنيوية كالأنعام، مما يبعد الإنسان عن رسالته الحقيقية في الحياة، ويجعله في أخس حالة، ويعرِّضُه للاضطرابات وويلات الحروب، لانحطاط أخلاقه بالتسفل إلىٰ المادة، وخراب ضميره بإضاعة ما للَّه من واجب العبادة.

الرابع والخمسون: عبوديةُ اللَّه توجب علىٰ أهلها ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ محاربةَ المكذبين للَّه ومقاطعتهم بكل ما أمكن، والتفريق

بينهم وبين الصالح من أهليهم والمسلم من أزواجهم، وأعظم أنواع المكذبين ممن يصرح بأن القرآن كتابٌ بالٍ رجعي لا يتمشىٰ مع حال العصر، أو أن التمسُّكَ به مدعاةٌ للتأخر والرجوع إلىٰ الوراء، أو أنه من تلفيق محمد، كما يقوله الموسومون بالألقاب العظيمة في هذا الزمان، وكذلك القائلون بأن الإسلام دينٌ طائفي لا يجوز بناءُ الحكم عليه، أو سنُّ الدستور والنظم علىٰ أساسه، ونحو ذلك مما يعتقده تلاميذ الإفرنج الذين تبوؤوا المناصب وهم من أولاد المسلمين، فجرُّوا علىٰ الإسلام وأهله وبالًا لم يذوقوه من الاستعمار[1]، ووصماتٍ فاجرة لم يجرؤ طغاة الاستعمار علىٰ التفوه بها.

فعبودية اللَّه توجب علىٰ أهلها بُغضَ هؤلاء ومعاملتهم بما تقدم ذكره، باعتبارهم محادين للَّه ورسوله، ومن يحبهم وينشرح صدره لما يصدر منهم أو يمشي في ركابهم ويخدم أغراضهم، فهو خارجٌ من عبودية الرَّحمن إلىٰ عبودية الطاغوت، منسلخٌ من ولاية اللَّه إلىٰ ولايته؛ لأن اللَّه وصف كتابه ودينه بالهدىٰ والنور والشفاء والحق والرحمة والعصمة من الضلال والشقاء، وأنه يهدي للتي هي أقوم، وأن ليس بعده إلا الضلال، فأيُّ محادةٍ للَّه ورسوله أعظمُ من عكس هذه الأوصاف الجليلة، والانحرافِ عن دين اللَّه ونبذِ كتابه، والتصريح بعدم صلاحيتهما، بل بضررهما في الحكم والسياسة، كما يتبجح به المثقفون بثقافة استعمارية، فالإسلام وأهله منكوبون بهم نكبةً لم يشهدها التاريخ من قبلُ أبدًا، فمن لم يتبرأ منهم ويسعَ لقمعهم وكشف حقائقهم؛ فليس من عبودية اللَّه في شيء؛ فكيف من يركن إليهم، ويتقبل ما يصدر عنهم؟!.

الخامس والخمسون: عبودية اللَّه وفق شرعه لا تسمح لأي فردٍ أو هيئة أو حكومةٍ ما، أن تعمل عملًا مخالفًا لشريعة اللَّه يُبهرَجُ فيه علىٰ

---

(١) الصواب أن يقال: «الاحتلال»، وليس «الاستعمار»؛ لأن الأخيرة من التعمير وبث الخير، وهو ما لم يفعله المحتلُّون في ديار المسلمين.

الناس باسم وطن أو شعب أو قومية أو كيان، أو محاربة استغلال ـ وما إلىٰ ذلك ـ؛ سواء في التطوير الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي مما يخرج فيه عن حدود اللّه التي حدها لعباده، فالمعتدي علىٰ اللّه بشيءٍ من ذلك نابذٌ لهذه الآية وغيرها وراء ظهره، متأسٍّ باليهود والنصارىٰ ـ الذين هم رؤساء هذه المذاهب ـ، والتصاقه بالعروبة مع مخالفته ما جاء به النبي العربي ﷺ جنايةٌ علىٰ العروبة ونزولٌ بها إلىٰ مكان سحيق.

السادس والخمسون: بتحقيق عبودية اللّه تتحقق المساواة الصحيحة بين أفراد الإنسانية، فيحصُل التمييز بين الخبيث والطيب، والمفسد والمصلح، والأمين والخائن، بحيث لا يرقىٰ هذا إلىٰ درجة هذا، ولا يُنزل بهذا إلىٰ ذاك، بل يسوَّىٰ بين الأمين والأمين، وبين الخائن والخائن، وبين المصلح والمصلح، وبين المفسد والمفسد، وبين المجرم والمجرم، كلٌّ علىٰ حسب ما اقترفه وجناه من خير وشر، مساواةً لا تمنع أن يكون فيها صغير وكبير أو فاضل ومفضول في سيرته وعمله، وإنما تمنعُ انقلاب أوضاع الناس؛ بأن يكون هذا سيدًا وهذا عبدًا، أو هذا ربًّا وهذا مربوبًا، أو أن تسخر الفوارق المادية لمسخ الطبيعة والقيم الإنسانية، تلك الفوارق التي نقلت الأوغاد أمجادًا، وتَهزأ بذوي السؤدد، وتملأ الأرض فسادًا بارتقاء المفسد إلىٰ درجة المصلح، والمجرم إلىٰ درجة المحسن، والخبيثِ إلىٰ رتبة الطيب، كما هي حال من لم يحققوا عبودية اللّه في هذا الزمان.

السابع والخمسون: بتحقيق عبودية اللّه يتيسر تحقيقُ الضمان الاجتماعي والعدالة الاجتماعية في جميع الأحوال والميادين، ويعين علىٰ ذلك جريانُ الأمور علىٰ وفق ما ذكرناه سابقًا من المساواة التي لا تتحقق إلا بتقوىٰ اللّه وانعدام الأنانية والمحسوبية؛ اللتين تفاقم شرهما في هذا الزمان، بحيث لا تُحصر الانتخابات للمشورة في أهل الثراء، ولا يفسح المجال في الوظائف والدواوين لأبنائهم من دون أبناء الفقراء،

ولا تُقتل معلومات قوم ومواهبهم علىٰ حساب قوم آخرين، بل تقدر الوجاهات والمناصب بحسب الأعمال والمواهب، ويُقمع الجشع، وتُمحىٰ الأنانية، فتتساوىٰ أقدام الأمة في الأعمال والواجبات، وتتهيأ جميعُ الوسائل والمعونات لاحتراف العاطلين في طلب الرزق من الأمة فيما بينهم بدافع ديني ابتغاء وجه اللَّه، دون الارتكان علىٰ الولاة الذين لو صلحوا لما استطاعوا علىٰ الإحاطة بكل شيء والاضطلاع بكل واجب، فالشعور بالمسؤولية أمام اللَّه يجب أن يشمل كل أحد تجاه الآخر؛ ليتحقق الضمان الاجتماعي، ويكونوا عباد اللَّه إخوانًا.

الثامن والخمسون: عبودية اللَّه توجب علىٰ أهلها ألَّا يعيشوا بإيمان أعزلَ أمام إلحادٍ مسلح، بل يسعون ـ غاية السعي ـ بكل مجهود ليكونوا أقوياء مسلحين بجميع أنواع الأسلحة الأدبية والمادية والمعنوية؛ ذوي خبرةٍ بفنون الحرب الباردة والكاوية؛ ليدفعوا الإلحاد في أي ثوب ظهر، ويقمعوا أهله باللسان والسِّنان، ويكسروا أسلحتهم، ويفضحوا فريقهم، وإذا برد سلاحهم لسبب من الأسباب وجب ألَّا تبرد ألسنتهم، ولا تجف أقلامهم، وإلا لم يحققوا عبودية اللَّه المنجيةَ لهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وسقطوا وانهزموا أمام كل مبطل.

التاسع والخمسون: عبودية اللَّه توجب علىٰ أهلها ألَّا يتخلفوا عن خوض معركة الدين ضد المنادين بانتهاء عصره، والراغبين في حصره داخل إطارٍ ضيق منعزل عن الحياة، وجعله رُوحانيًّا صوريًّا كما فعله أهل الحل والعقد في بعض الدول التي أغفلت في دستورها التنصيصَ علىٰ دينها الرسمي، والذين تخلَّفوا عن خوض المعركة معهم، وتخاذلوا عن مواجهتهم والاستعداد لقهرهم، لم يحققوا عبودية اللَّه كما أمر، لفساد ضمائرهم بالمادة، وركونهم إلىٰ الحياة الدنيا، واستحبابهم لها علىٰ الآخرة، وتلاشي يقينُهم باللَّه؛ بحيث تركوا الاستعانة به والتوكل عليه المشجعين علىٰ العمل، والاستعداد بكل قوةٍ للجهاد في سبيله، ومراغمةِ أعدائه القائلين ما قالوا، واللَّهُ جَلَّوَعَلَا شرع قراءة سورة الفاتحة

في كل ركعة من ركعات الصلاة ليعملوا بمدلولها، فيحققوا ابتهالهم إليه، ومخاطبتهم له بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولو حققوا ذلك لما نبت هذا الإلحاد ـ فضلًا عن انتصاره ـ، فجهل العامة بمدلولها، واستكانة علمائهم إلىٰ الدعة ولذة العيش عن نيل وعد اللَّه في الآخرة، هو الذي أنبت في الدنيا كل إلحاد ومكر ورذيلة، فيا ويل من وقف أمام اللَّه كل يوم عشرات الركعات يردد فيها هذه الآية الكريمة دون عمل بمدلولها؛ لأنه بعيدٌ عن الصدق مع اللَّه، ومن لم يصدُق مع مولاه فلا خير فيه، وكان عرضةً للغضب وكل عقوبة.

ومن هنا يدرك القارئ السر في سوء حظ المسلمين الذين يقولون ما لا يفعلون بعدم تنفيذهم لقول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

أليس تخلفهم وتخاذلهم أمام تلاميذ الإفرنج ـ الذين عزلوا الإسلام عن الحكم ـ دليلًا علىٰ ضعف إيمانهم باللَّه واليوم الآخر؟ إلَّا أن المؤمن الذي يرجو لقاء ربه لا يرضىٰ بإقصاء دينه وتحكيم غيره؛ بل يثور علىٰ كل نِحلةٍ فاجرة حتىٰ يحيا سعيدًا ويموت شهيدًا، ولا يترك تلاميذ الإفرنج يستوردون قوانين الدخلاء، ويبثون عاداتهم وتقاليدهم، فيرتفع رصيدهم علىٰ حساب دين اللَّه، هذا شيء لا يقبله من أسلم وجهه للَّه، وأخلص دينه للَّه، ولم يخش أحدًا إلا اللَّه، وإنما يقبل ضعيفُ الإيمان، عديم الإخلاص، من يخشىٰ الناس من دون اللَّه، ويتزلف إلىٰ طواغيتهم الذين شرعوا لهم ما لم يأذن به اللَّه، وهذا غير محقق لـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ بل هو مناقض لقوله، ومسلِّمٌ وجهَه لمن تزلف إليه من الحكام، وانشرح صدره لتشريعاته، ولذا خذل اللَّه المنتسبين للإسلام من ذلك الصنف، وجعلهم يوصمون بالرجعية وكل منقصة ممَّن عبدوه وأسلموا وجوههم إليه، ولم يشفع لهم خدماتهم لسياسته وإفتاؤهم العوام ببذل زكاتهم لنصرته تمشيًا لرغباته، فها هي

الأقلام تجري، والإذاعات تعوي من أولئك النابذين للدين بسبب المنتسبين إليه مع مهادنتهم إياهم والمشي في ركابِهم؛ لأنهم فرطوا في جنب اللَّه فأذلهم، ولو عبدوه حقًّا ونصروه لحقق لهم وعده الذي كتبه علىٰ نفسه بقوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم]، ولكنهم ركنوا إلىٰ الذين ظلموا بتبديلهم قولًا غير الذي قيل لهم، أو جبُنوا فانخذلوا أمامهم خشيةً لهم من دون اللَّه، فسلطهم اللَّه عليهم فزادوهم رهَقًا، واتخذوهم سُخريًّا.

أكذوبة «الدين لله، والوطن للجميع»:

الستون: عبودية اللَّه المَرضية لا تتمشىٰ معها أكذوبة «الدين للَّه والوطن للجميع»، فلا تنطلي هذه الفرية علىٰ عباد اللَّه المخلصين، ولا يقبلون من أهلها صَرفًا ولا عدلًا، إذ هي خطةٌ رَكَزها طغاة الاستعمار وملاحدتُه لاطراح دين اللَّه الإسلام، وعبادةِ الأرض والجنس، والرجوع بالأمة إلىٰ أفظع من الجاهلية الأولىٰ بهذه الفكرة التي ألهبوا بها حماسَ الناس باسم الوطن، واستوردوا من أجله كل مبدأ غريب، واستطابوا كل عمل وتشريع خبيث؛ لأنهم لم يقيموا للدين وزنًا، فالعابد للَّه حقًّا يرىٰ أصحاب هذه النِّحلة من زعماء القوميين ومخدوعيهم يبنُون الوطن علىٰ أوضاع طغاة الشيوعية؛ مخالفين هدي اللَّه، ولا يعمرونه بتقوىٰ اللَّه، فيَصرف مكرهم وخداعهم ونفاقهم الذي طلبوه بقولهم: «الدين للَّه، والوطن للجميع»!! لأنهم لم يلتفتوا إلىٰ دين اللَّه فيما يفعلونه وما يذرونه، ولم يعملوا علىٰ تأييده؛ بل ناصبوه العَداء، ورموا أتباعه ودعاته بكل نقيصة، ولو قدَروا اللَّه حق قدره لحملوا دين اللَّه علىٰ رؤوسهم، وطهروا العالم بنوره، فالمحقق لعبودية اللَّه يتساءل معهم هذه الأسئلة:

١ - كيف لم تعملوا بالدين الذي اعترفتم أنه للَّه، وتقيموه كما أمر

اللَّه؛ لتحققوا عروبتكم التي عرفها اللَّه به؟!.

٢ ـ هل جعلتم دين اللَّه هو الأصل والدستور والحكم، فبنيتم الوطن علىٰ ضوئه، وأجريتم الأحكام من ينبوعه؟!.

٣ ـ لأي شيء تستوردون الظلمَ والقوانين من أعداء اللَّه، وتُعرضون عن كتابه الذي هو ذِكرٌ لكم(١)؟ أتعتقدون أنهم أهدىٰ سبيلًا، وأنهم أصدق من اللَّه قِيلًا؟.

٤ ـ هل الوطن أحب إليكم من اللَّه ورسوله حتىٰ تتعلقوا بمذاهب الكفر من أجله؟ اصدقوا صدق الأبطال، ولا تراوغوا مراوغة الثعالب.

٥ ـ لأي شيء تكذِّبون اللَّه وتناقضون قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، بتبنيكم هذه الفكرة، وجعل شعاركم هذه الكلمات المفتريات علىٰ اللَّه «المسلم والمسيحي، كل دينه مليح، كل المذاهب للَّه، أما الوطن للجميع»؛ فتنسبون إلىٰ اللَّه ما تبرأ منه، وقد أخبركم عن المسيح أنه جاء للنصارىٰ مبشرًا برسالة نبيكم محمد ﷺ.

٦ ـ هل الواجب عليكم السعيُ لتحقيق وحدة دين اللَّه وإعلاء كلمته، أو إعلان تفريق دين اللَّه بحجة الوطن؟.

٧ ـ إذا كنتم صادقين بقولكم «الدين للَّه»؛ فما لكم تبتغون غير اللَّه حكمًا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ فكيف تنبذونه(٢) وراء ظهوركم، وتُقبلون علىٰ كتب أعدائه وأعدائكم؟!.

٨ ـ هل تعتقدون أن دين اللَّه دين واحد، أو أديان متفرقة؟:

فإن كنتم تعتقدون أنه أديان شتىٰ، وأن لكل إنسان الحقَّ في سلوك ما شاء منها ـ كما يصرح به فلاسفة قوميتكم ورؤساؤكم ومديرو

---

(١) أي: شرفٌ وعزةٌ لكم.

(٢) تنبذونه: تلقون به.

جامعاتكم ـ فهذا قول مصادم لمقصود اللَّه من إرسال الرسل وإنزال الكتب إلىٰ أقوام لا يقصدون بعبادتهم إلا التقرب إليه زلفىٰ ـ كما حكىٰ ذلك عنهم في القرآن ـ، وأوجب علىٰ المسلمين جهادهم مع اعتقادهم لذلك، بل قولكم هذا مناقض لرسالة نبيكم محمد ﷺ إلىٰ الناس كافةً، وحصرها بأنها رحمة للعالمين؛ فبئس ما خلفتموه في رسالته.

وإن زعمتم أنكم تعتقدون بأن الدين دين واحد؛ طالبناكم بإقامته وإرشاد الناس إليه، وبناء الحكم والوطن علىٰ ضوئه وأساسه. وإن لم تفعلوا كنتم ممن قال اللَّه فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة]، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤].

لماذا تعيبون الدعوة إلىٰ الدين، وتقذفونه بالنعوت الشائنة(١)، لتنفير النشء الجديد عنه، فتقعدون بكل صراط من المؤسسات والنوادي تُوعِدون وتصدون عن سبيل اللَّه، هل لأن «الدين للَّه» تعاملونه بذلك؟

٩ ـ هلا أخضعتم المبتكرات العصرية لدين اللَّه، واستعملتموها في طاعته، وغرستم في الناس الفضيلة والإيمان بالغيب، بدلًا من المادية والتفسخ؟ أم أنتم في قولكم: «الدين للَّه، والوطن للجميع» كالمشركين الذين أخبرنا عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝١٣٦﴾ [الأنعام]؟!

١٠ ـ كيف تجعلون الأولوية والغاية لمحبة الجنس وتقديس الأرض باسم الوطن، واللَّه أوجب عليكم تقديم محبته والجهاد لإعلاء كلمته علىٰ أقرب قريب وأحب حبيب من ولدٍ ومال ووطن؟! فتضربون بنص كتابكم عُرض الحائط، أهذا ثمرة قولكم: «الدين للَّه، والوطن للجميع»؟!

(١) الشائنة: القبيحة المعيبة.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنين].

١١، ١٢، ١٣ ـ ما موقفكم من سورة «العصر»، وما موقفكم من قول ربكم تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ ما دمتم ترون ترك الناس يسلكون ما شاؤوا من خلق ودين؟! وما موقفكم من قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؟! كيف تكونون شهداء علىٰ الناس، وأنتم لم تبلغوهم الرسالة التي أورثكم اللَّه إياها وجعلكم خلفًا لنبيه في حملها؟ ثم بماذا يشهد عليكم الرسول؟ أيشهد عليكم بنبذها واتباع ما رسمه طغاةُ الشيوعية والملاحدة تقديمًا له علىٰ اللَّه ورسوله؟! ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة].

١٤ ـ كيف تعتزُّون بعروبةٍ فصلتموها عن روحها ـ وهي الدين ـ، وعزلتموها عن رسالتها السماوية، إذ بدلتم قولًا غير الذي قيل لكم، فهل يكون اعتزازكم صحيحًا أو ممسوخًا؟!.

١٥ ـ لو فرضنا صحةَ اعتزازكم بعروبة مجردة عن دينها ورسالتها السماوية؛ فإن العروبة الأصيلة مجبولة علىٰ سجايا شريفة وأخلاق كريمة مشتهرة بالغيرة والحفاظ علىٰ الأعراض والصدق والوفاء والنفرة من التقاليد الأجنبية النابية عنها، وعروبتُكم التي تتبجَّحون بها راكسةٌ[1] في حضارة أعداء اللَّه وأعدائها؛ بل مكتوية بنارها، قد سقطت فيها الأخلاق إلىٰ الحضيض، وماتت منها العاطفة الإنسانية الصحيحة، وأهدرت الكرامة، ورخَصت في عينها قيمةُ الأعراض، وفشت الجنايات والسفالات فشوًّا مريعًا حيث صار المنكر ـ المذموم ـ هو المعروف المحبوب، والمعروف ـ المحمود عند اللَّه وعباده الصالحين ـ هو المنكر الرجعي الوحشي، فكيف تدَّعون العروبة

---

(١) أي: منقلبة علىٰ رأسها.

الأصيلة وأنتم لم تسلكوا طريقة نبيكم العربي حتىٰ في التربية والتعليم، بل سلكتم طريقة «فرويد» وغيره من ملاحدة علم النفس؟! وكيف يصح اعتزازكم بعروبة من هذا النوع قد أضاعت المشيتين؟ فلا حملت رسالة نبيها، ولا تعلقت بأخلاق أجدادها؛ بل تعلقت بالكفر ومفاسد الغرب وخبائث الشيوعية؟.

هذه أسئلة وأمور يستدركها العابد للَّه حقًّا، فيوجهها بكل حرارة وإنكار إلىٰ المبتدعين؛ أكذوبة «الدين للَّه والوطن للجميع» يستظهر بها باطلهم، ويكشفهم علىٰ حقيقتهم للأغرار والمضبوعين الذين لعبوا علىٰ عواطفهم بهذه الأكذوبة، ولا يَسمح لهم بالاسترسال في غش الناس وتضليلهم، وتكييف أبنائهم بصِبغةٍ وثنية لا تعرف إلا المادة وتقديس الأرض والأشخاص.

فالعابد للَّه لا يسمح لهم بذلك، فضلًا عن أن يسلكهم عليه، أو يكون لهم صنيعةً يحبِّذ ما أرادوا؛ بل يصرخ في وجوههم صادعًا بملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ناصحًا للَّه ورسوله وعباده من الانزلاق في إفك هؤلاء الصادين عن سبيل اللَّه، الفاتنين الأمةَ عن دينها وعبادة ربها ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]؛ ومن لم يقم بواجبه في دحض فرية هؤلاء، وتفنيد مزاعمهم، وقمعهم بالمستطاع؛ فليس محققًا لـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأن جميع خططهم تهدف إلىٰ هدم الدين الإسلامي، والقضاء علىٰ مقوماته وأخلاقه، وإسقاط حقوق رب العالمين في جميع الميادين؛ مع ما فيه من الطعنة النجلاء إلىٰ صميم العروبة الأصيلة بإبعادها عن رسالتها التي اختارها اللَّه لها وكلفها بحملها، وضمِن لها السؤدد الكامل في جميع الأرض - إن هي قامت بواجبها -، وحصر لها الشقاق والضلال إن هي حادت عنه، فأعداء اللَّه وأعداؤها رسموا لها هذه الخطة الأثيمة ليوقعوها في وعيد اللَّه وغضبه، والعابد للَّه حقًّا لا يرضىٰ بذلك أبدًا، بل يبذل النفس والنفيس في دفعه ومقاومته، وكيف يرضىٰ بما هو خيانة للَّه ورسول من مضادة ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه

النِّحلة وترك التواصي بالحق والأمر بالمعروف وحماية المبلغين رسالة اللَّه بقمع من يقف لصدهم بأي وسيلة، إذ هذه الأكذوبة[١] تُناقض أعظم مهمات العبادة، وتشجع حزب الشيطان علىٰ حزب الرَّحمن، فلا يحقق المسلم عبودية اللَّه إلا بمقاومة أهلها - كما تقدم -.

الحادي والستون: العابد للَّه يتخذ اللَّه هاديًا ونصيرًا وحاكمًا ووليًّا، فلا يطلب الهداية من غير وحي اللَّه، بل يعتبر جميع الأوضاع التي لم تركز علىٰ وحيه بدعةً وفريةً وأملًا[٢] وتشكيكًا من وحي شياطين الإنس والجن وطواغيتهم، فلا يطلب النصرة إلا من اللَّه، ويجتهد في الاستعداد وتسخير القوىٰ معتمدًا علىٰ اللَّه، ولا يبتغي غيره حكمًا، ولا يرجو من سواه نصرًا، ولا يسمح بفراغ، أو يضيع لحظة بدون عمل لنصرة رب العالمين.

الثاني والستون: عبودية اللَّه تقضي علىٰ الضعف النفسي، فلا يكون معها مكانٌ للهلع والخور؛ لأنها ناشئة عن قوة عقيدة وإيمان وكمال ثقة وإيقان فيما عند رب العالمين؛ فتجد العابد الحقيقي يثق بما عند اللَّه أكثر من ثقته فيما بين يديه، ويعرف أن الأمر كله للَّه، وأن تصريف الكائنات كلها بيديه، فيزداد نشاطه علىٰ الأخذ بالأسباب التي رتب اللَّه عليها مسبباتِها بمقتضىٰ حكمته، والإقدام في سبيل اللَّه لتطهير الأرض من الظلم والفساد، موقنًا أن النصر حليفه إذا مشىٰ في ذات اللَّه وفي نصرة دينه، نصحًا له وصدقًا معه وإخلاصًا.

الثالث والستون: بعبودية اللَّه يتمايزُ قلبُ المؤمن بالثبات علىٰ الحق حيثما كان، والدأب في نصرته بِهمةٍ عالية وعزم قوي، لا يثنيه عنه كثرة خصومه - مهما تكالبت عليه قوىٰ الشر -؛ إذ لا يعتبرها في جنب اللَّه إلا كالفَراش مقتديًا بعباد اللَّه الصالحين، كموسىٰ مع فرعون وملئه،

---

(١) يقصد قولهم: «الدين للَّهِ، والوطن للجميع».

(٢) لعله رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقصد الأمانيّ المذمومة، واللَّهُ أعلم.

وإبراهيم مع النمرود وأشراره، ومحمد ﷺ مع صناديد قريش.

الرابع والستون: عبودية اللَّه بعزيمة صادقة تحقق لأهلها التوكل علىٰ اللَّه الذي هو لُبُّ الإيمان وجوهر العقيدة، وبتحقيقه قويت الصحابة الكرام علىٰ غزو فارس والروم؛ دون الانتصار بأحدهما علىٰ الآخر، الذي هو شأن الساسة المَكَرةِ من خلف السوء إلىٰ اليوم؛ لأن حقيقة التوكل هو الاعتماد علىٰ اللَّه باعتقادٍ جازم أنه هو الحسيب علىٰ عباده، الكافي لهم شر أعدائهم، وكلما قوي التوكُّلُ قويت العزيمة علىٰ الإقدام والأخذ بالأسباب في غاية المستطاع، فهو خيرُ حافزٍ علىٰ القوة بخلاف التواكل الذي هو مجردُ عجزٍ وجبن يؤولُ إلىٰ زعزعة العقيدة وضعف النفس، فشتانَ ما بينه وبين التوكل الصحيح، ومن أراد الاعتبارَ بالفرق العظيم بين التوكل والتواكل، فلينظر إلىٰ موقف قوم موسىٰ لما أمرهم بدخول الأرض المقدسة، وموقف أصحاب محمد ﷺ يوم بدر، ويكفيه عبرةً.

الخامس والستون: عبادُ اللَّه لا يستحبون الدنيا علىٰ الآخرة، فذلك من صفات الكافرين، بل يعتبرونها مزرعةً للآخرة، فيبذلون أقصىٰ مجهودهم بجلائل الأعمال والمسابقة إلىٰ الخيرات وإصلاح الدنيا علىٰ وفق شرع اللَّه، فسَيرُهم فيها وسطٌ ـ بلا إفراط ولا تفريط ـ؛ لم يجعلوها أكبر همهم، ولم يتعلقوا بالمادة هذا التعلق المشين، ولم يسلكوا الزهد الهندي الذي لم يشرعه اللَّه فيعيشوا في بؤس وذلةٍ، ويضيعوا حق اللَّه ـ مما تقدم ذكره وما سيأتي له مزيد ـ؛ فإنه بسبب هذا الزهد المذموم وما قذف به علىٰ الشرق من خرافات حصل تفريطٌ كبير في نواحي الحياة، فأطاحت بحرية أهله؛ حيث ماتت فكرةُ الجهاد وما يستلزمه من إعداد القوة، فمَسخوا دين العزة والفتح والكرامة إلىٰ دروشةٍ وخنوع لكل مستعبد، وتفريط في جنب اللَّه ضاعت معه جميع المقومات.

السادس والستون: عبادُ اللَّه لا يتجردون من ولاء اللَّه ورسوله وموالاة

أوليائهما السالكين هديهما، بل يتجردون من ولاء مَن سلك غير هديهما في نواحي الحكم والحياة، واتبع غيرَ سبيل المؤمنين مما تمليه المذاهب والمبادئ العصرية التي ركزها أعداء اللَّه ورُسله من أئمة الكفر وطواغيت البشر؛ لأن المُوالي لهؤلاء والمحبذ[1] لأفكارهم ليس من اللَّه في شيء، فموالاة اللَّه تستلزم التجرد من ولاء المتبعين غيرَ سبيله، كما أن موالاتهم والسير في ركابهم يستلزم التجرد من ولاء اللَّه ورسله وأوليائه، والخروج من عبوديته الشرعية.

السابع والستون: العابد للَّه لا يضعف ولا يهُن ولا يحزن، ولا يعتبر النكوص عن الجهاد في الصبر علىٰ البأساء والضراء تطوعًا؛ لأنه انهزام سياسي يؤاخذ اللَّه به المسلمين، ويعاقبهم عليه في الدنيا والآخرة؛ لأن الصبر الممدوح في «آية البر» ليس معناه الاستسلام والخنوع؛ بل معناه المصابرة علىٰ جهاد أعداء اللَّه، والمرابطة في الثغور لإعلاء كلمته، خلاف ما فهمه المتأخرون من أصحاب الطرق والتصوف الذين يرجُون الثواب بالصبر علىٰ عسْفِ الكفار؛ استخفافًا منهم بعيشة الذل في الدنيا السريعة الزوال، وطمعًا في الانتقام منهم في الدار الآخرة، ناسينَ أن تفريطهم في الجهاد في ذات اللَّه، ورضاهم باستضعاف أعدائه لهم خطيئةٌ يصليهم بها جهنم وساءت مصيرًا، إلَّا من استثنىٰ في سورة «النساء» ممن ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء]؛ فالمحقق لعبودية اللَّه الشرعية لا يرضىٰ بذلك أبدًا.

الثامن والستون: بتحقيق عبودية اللَّه تنجو الأمة ـ جماعة ووُحدانًا ـ من الجهل المركب المؤدي بصاحبه إلىٰ كل شر وضلال وهوان، ومن أنواعه ما قدمنا في الوجه السابق، وأنواعُه كثيرة كلها تستند إلىٰ الاعتقاد الفاسد الذي هو تصوُّرُ الشيء علىٰ غير هيئته وخلاف حقيقته، فلذا سُمي: «جهلًا مركبًا»؛ لأنه مركبٌ من عدم العلم بالحكم الحقيقي، وتصور

---

(١) **المحبذ:** المستحسِن.

الحكم الفاسد بدله مع التعصب، وعبوديةُ اللَّه تعصم صاحبها من ذلك لاستنارة قلبه بوحي اللَّه وهداه، وعدم التعصب لما يتخيَّلُه أو يقذف الناس عليه.

التاسع والستون: تحقيق عبودية اللَّه وفق شرعه هو القيِّمُ علىٰ الروحانية في العالم، وبدونها تنبعثُ الأزمات النفسية، ويستحكم طغيانُ المادية، فتسخر الناس لأغراضها بأي نحلةٍ ينتحلها طغاتُها، وتنتشر الفوضىٰ الجنسية بسبب انحلال الأخلاق لضياع الإيمان باللَّه والحرمان من عصمة عبوديته، حتىٰ تصبح العفةُ النفسية شذوذًا جنسيًّا - كما هي الآن في بعض الأقطار -، ويكون الربا الماحق رُوحًا للمعاملات وشرايين لحياة أولئك الذين فقدوا عبودية اللَّه حتىٰ ينزلِقوا إلىٰ الجحيم الحمراء، فالمادية القائمة علىٰ نوازع الأثرة وقوانين المنفعة وانتهاز اللذائذ واشترائها بأي ثمن، لا ينقذ الناس من جحيمها المستعرة بكل لون إلا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأنها تعمر القلوب، وتشغلها عن أن يغزوها شيء من الثقافات والمبادئ المادية، وتُطهِّرُها بالعقيدة الصحيحة التي توجب عليها العدلَ والرحمة والإحسان؛ من إطعام المحروم، وتشغيل العاطل، وتسخير جميع القوىٰ والإمكانيات، وعدم الاعتراف بمالٍ حرام أو كسب، ولا تجيز معاوضة الجهد الشاق بأجر بخس، ولا مكافأة العمل التافه بأجر كبير، ولا تبيح التعطل والتسول والفوضىٰ والاتكال علىٰ الغير في القوىٰ والإنتاج، وتعد الدولة مسؤولة عن جميع ذلك، ولا تبيح لأحدٍ ممالأة الظالم - فضلًا عن موالاته وحبه وامتداحه وإسباغ صيغةٍ حسنةٍ علىٰ ظلمه -؛ شأن أهل هذا الزمان الذين أضاعوا عبودية اللَّه، فكانوا عبيدًا لشياطين الجن وطواغيت الإنس، ومولعين بكل نقيصةٍ ورذيلة.

السبعون: بعدم تحقيق عبودية اللَّه المطلوبة يتكون بين ظهراني المسلمين - بل من أولادهم - أقوامٌ ينبذون القرآن ويستهترون به[١]،

---

(١) أي: يستهزئون به ويُهملونه.

ويضيقون بحكم اللَّه تعالىٰ، ويحتكمون إلىٰ الطاغوت، فينبعث منهم طواغيت يجلبون علىٰ الناس كل طامة وبلية من إلحاد الشرق والغرب، وكافة مبادئهما وتقاليدهما الساحقة الماحقة للمال والحرية والشرف، وها نحن نرىٰ أكثر الناس اليوم قد أثبتوا ذلك، ووقعوا فيما وقع فيه المشركون الأوائل من ائتمارهم بأوامر متبوعيهم ومحبوبيهم، وانتهائهم عما نَهوهم عنه، وتحريمهم ما حرموه، واستحلالهم ما حللوه كيفما كان، وقد سمىٰ النبي ﷺ هذا: «شركًا»، والقوم في غفلة ـ أو إعراض ـ عن العقيدة الموجبة عليهم والمحررة لنفوسهم من استرقاق الطواغيت؛ لأن تحقيق عبودية اللَّه يضمن إشراق العقيدة، وعمق الإخلاص للَّه في النفوس يعصمُ صاحبه من احتيال شياطين الإنس له، وصدقُ الجهاد في سبيله ابتغاء مرضاته يحول دون ظهورهم لفتنة الناس، فإذا لم تتحقق العبودية بذلك حصل نقيضها من تلك الظلمات الوثنية التي ذكرناها، والتي قاسيناها، وافتتن بها أولادنا اغترارًا بالأسماء الكاذبة المحببة لها إليهم، وهي سراب، أو علقمٌ وخراب، بجميع ما فيهما من معنىٰ.

الحادي والسبعون: عبودية اللَّه الحقة أساس النهضات الصالحة، لأن حياة أصحابها تكون إشعاعًا من القرآن؛ يتحقق منها جميع أساليب الحرية والعدالة، والقوة المادية والمعنوية، ونفاذ البصيرة، وانطلاق التفكير، والاستعانة بالشورىٰ، وإيجاد التعاون الذي يُثبِّتُ عرىٰ الروابط الأخوية، ويزيل الفوارق الطبيعية؛ فوارق اللون والبلد والعصبية، التي تفاقم شرها في هذا الزمان، ولها الأثر السيئُ في كل زمان ومكان، الذي لا يزيله إلا تحقيق عبودية الرَّحمن علىٰ ما أسلفنا.

الثاني والسبعون: العابد للَّه يجنِّد نفسه لمقاومة كل ثورة علىٰ الإسلام وتعاليمِه وحَمَلتِه المخلصين ـ مهما اتسمت هذه الثورة بأي اسم قومي أو وطني أو اشتراكي وما إلىٰ ذلك ـ، ويعاهد ربه بتكريس جميع قواه

لدحض المفترين عليه، المفتئتين(١) علىٰ شريعته، حتىٰ يقمعهم ويفضح باطلهم، ويكونُ جريئًا مقدامًا، لا يخرسه خوف بأسهم، ولا رجاء مودتهم، ولا حب الحياة بمكانٍ يُهان فيه شرع اللَّه وتُهتك حرماته؛ لأنه إن لم يتصف بذلك ونكص عن مجابَهةِ أولئك؛ كان جرمُه أشد من جرم المتولي يوم الزحف، فكان غير محقق لعبودية الرَّحمن؛ لأن الغزو الثقافي والصراع الفكري أشد خطرًا من الغزو العسكري، وأسوأ غلبةً في التأثير، إذ فيه تسميم العقول وإذابةُ الأرواح، وإذا كان قاتلُ الجسم يقتل قصاصًا وتتخذ وسائل الدفاع لاتقاء شره، فقاتل الأرواح ينبغي الاستعداد له، والعمل علىٰ قمعه أزودَ(٢) من ذلك بكثير.

الثالث والسبعون: وهو أن عبودية اللَّه توجب علىٰ أهلها معاونة المسلمين ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ بجميع الوسائل والأساليب، والعمل الدائب علىٰ حفظ عقائد أولادهم بتجديد طبع الكتب الإسلامية وترجمتها، وبث النشرات التي فيها تفهيمُ فلسفة الإسلام الصحيحة في سائر تشريعاته، وصياغة الألفاظ حسب الأساليب الرائقة المفهومة في هذا العصر، وإرسال البعوث تلو البعوث لتقوية عقيدتهم، وإمدادهم بما يلائم تقوية معنوياتهم، أو العمل علىٰ ترحيلهم ـ إن لم يتسنَّ ذلك ـ؛ لئلا تقطع أوصال المسلمين إربًا إربًا في كل ناحية، فتزول هيبتهم وتُهدر كرامتهم؛ فإن اللَّه سائلهم جميعًا عن ذلك، ولو حققوا التساند الواجب عليهم بكل معانيه؛ لما انتقصوا من أطرافهم، وغُزوا في عُقر دارهم، وإذا حققوا مدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تحققت لهم العزة بإذن اللَّه.

الرابع والسبعون: عبودية اللَّه توجب علىٰ صاحبها ألَّا يضيع شيئًا من أوقاته سدًىٰ، بل يشغل جميع أوقاته وثوانِيَ ساعاته بكل عمل يعود

---

(١) **المفتئتين:** المفترين.

(٢) أي: أكثر؛ من «الزيادة».

نفعه علىٰ الإسلام وأهله في شتي المرافق والميادين، بحيث لا يؤخر عملَ اليوم لغدٍ أبدًا، بل يؤخر عمل الصباح إلىٰ المساء، ويغتنم كل فرصةٍ سانحة، ولا يفوتها ويتحسر لو فاتت أعظم مما يتحسر لخطبٍ فادح اختُص فيه؛ بحيث لو علم أنه سيموت غدًا ما استطاع أن يعمل أكثر مما عمل، فبذلك تتحقق عبودية اللَّه، ويكون من حزبه المفلحين العاملين لإعلاء كلمته في الأرض.

الخامس والسبعون: عبودية اللَّه تفرض علىٰ أهلها المواساةَ والإيثار، والجود بالمال في جميع نوائب المسلمين، وتشطيره حسب حاجات الثغور من تأمين حاجةِ الدعاة وأراملِ المجاهدين وعوائلهم، ورِفدِ[1] كل من يستحق الرفد من عباد اللَّه، والعمل علىٰ جعلهم في بُحبوحةٍ من العيش.

السادس والسبعون: عبودية اللَّه تقضي علىٰ عباده باستعمال الإحسان في كل شيء، وعدم الخروج عنه مهما اشتدت العداوة، ما لم يخرج عن الحدود، فلا تجد في تاريخهم التعذيبَ والتنكيل وسوء القِتلةِ والذِّبحةِ من رضخ الرأس، والتمثيل، والسَّحل، والإحراق، ودفن الأحياء ـ كما يفعله أصحاب المبادئ الأرضية المادية والإلحادية ـ، قال عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن اللَّه كتب الإحسانَ علىٰ كل شيء...**» الحديث[2].

السابع والسبعون: بعبودية اللَّه يحقق العابد شخصيته الأصيلة وإنسانيته الكاملة التي يتميز بها بين أقرانه بالاستقامة في سيرته، وسلامة عقله وضميره من المؤثرات التي تُظهره بمظهر عدم التوازن أو بمظهر الازدواجية.

الثامن والسبعون: عبودية اللَّه تصحِّحُ ضمير العابد، وتُطهِّرُ قلبه، وتجعله سليمًا مستقيمًا؛ ليس في قلبه سوىٰ محبة اللَّه ورسوله، ومحبةِ

---

(١) **الرفد:** المساعدة.

(٢) رواه مسلم (١٩٥٥).

من يحبهما، وبغض من يبغضهما ـ كائنًا من كان ـ، فلا تميل به العاطفةُ عن تلك القاعدة الحنيفية أبدًا. أما من لم يحقق عبودية اللَّه؛ فلابد أن يصاب بأزمة الضمير، وتذهب نفسه حسرات علىٰ من تعلق به من أشخاص ومبادئ ـ كما هي الحال المشاهدة في أهل هذا الزمان ـ.

التاسع والسبعون: عبودية اللَّه توجب علىٰ أهلها أن يصلوا ما أمر اللَّه به أن يوصل، فمع قيامهم بحق اللَّه فإنهم يقومون ـ ويؤدون ـ حقوق الوالدين والأقربين، واليتامىٰ والمساكين.

الثمانون: وهو صلة ما أمر اللَّه به أن يوصل من قرابةِ الدين في سائر بقاع الأرض، إذ إن أخوة الدين وأواصره أعلىٰ وأغلىٰ من كل شيء، فبالدين يقرُب البعيد، وبالنكوص عنه يبعُد القريب، كما عَزل اللَّه كافرًا من أولاد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أهله وأبعده عنهم، وجعل أبعد المسلمين أقرب منه، وجعل المَوالي من الأعاجم والأحباش أقرب إلىٰ نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عمه أبي لهب وأحزابه.

الحادي والثمانون: عبودية اللَّه تعالىٰ توجب علىٰ أهلها الوفاءَ بالميثاق الإسلامي، الذي يربط المشرقيَّ بالمغربي، والعربي بالأعجمي، والمغربي بالمشرقي، برباط العبودية ضمن الشهادتين، كما شرع الحج لأجل ذلك، فخارقُ هذا الميثاق ـ بالرجوع إلىٰ العصبية، وتبني القوميات المبعدة لبعضهم عن بعض، والمقربة لأعداء الإسلام تحت اسمها ـ مخلٌّ بعبودية رب العالمين، ومناقض لمدلول سورة «الفاتحة»، وقد ظهر التأثير السيئ لذلك في هذا الزمان الذي رجع غالب أهله إلىٰ الجاهلية الأولىٰ، ورُكسوا في الوثنية من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون.

العبودية للَّهِ واسطة بين الدنيا والآخرة:

الثاني والثمانون: بتحقيق عبودية اللَّه يبيع المؤمنُ نفسه وماله للَّه رب العالمين، موقنًا بالثمن الغالي النفيس لهما، فيتكرم اللَّه بشراء

ذلك منه، ويعُدُّ الفصل بين كلمتين: يعد له في جنات عدن ما أعده لأوليائه الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، خلود وأمن في غرفٍ من فوقها غرف، من دخلها ينعم لا يبأس، ولا تبلىٰ ثيابه، ولا يفنىٰ شبابه، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]؛ فالمؤمن بتحقيق عبوديته يصدق بيعُه مع اللَّه؛ فيعتبر نفسه وماله وديعةً لربه يسارع بدفعها إليه، ومعنىٰ ذلك ألَّا يرىٰ أنه مالك لشيء من المال؛ بل يرىٰ أنه وكيل مؤتمن عليه، يضعه حيث أمره اللَّه، ولا ينفق منه شيئًا في غير مرضاته أبدًا، وباعتبار روحه وديعةً لربه يرىٰ نفسه جنديًّا مطيعًا للَّه يضعها في أي ميدان يأمره؛ فيقف موقف الموت لإعلاء كلمة اللَّه، لا يخاف بأسًا ولا رهقًا، ولذا نجد الصحابة الكرام ـ الذين صدَقوا البيعة مع اللَّه ـ وقفوا موقف الموت أمام أعدائه، غير مبالين بكثرة عددهم أو قوة شوكتهم، فعجل اللَّه لهم أولَ التجارة في الدنيا بنصرٍ عزيز وفتح مبين، علاوةً علىٰ الثمن الحقيقي الآخر الذي يتنافس فيه المتنافسون في الدار الآخرة، وسيحقق اللَّه نصره ويصدق وعده مع كل من خلف أولئك، فقام بتحقيق عبوديته وصدق بيعته.

الثالث والثمانون: عبودية اللَّه توجب علىٰ أهلها ـ مع ذلك ـ ألَّا يفرطوا بنصيبهم من مقومات الحياة الدنيا؛ كشأن أهل التصوف والدروشة؛ بل لابد له من خوض معركة الحياة، وتسخير جميع الماديات، واكتساب ما أمكن منها بالطرق المباحة، ليتمكن من أداء رسالته في الحياة بالإنفاق في سبيل اللَّه من كافة الوجوه، ويتماسك كيانُه مع إخوته المؤمنين، فتكون لهم اليد الطولىٰ التي يقدرون بها علىٰ الصلاح والإصلاح في الأرض؛ لأن ما في الدنيا من المقومات المادية الهائلة سلاحٌ خطير؛ إذا سبق إليه أهل الضلال وظفروا به؛ كان وسيلةً فعَّالةً للتحكم في الناس وإفساد دينهم ودنياهم، كما جرىٰ علىٰ المسلمين بسبب الأفكار الدخيلة التي أقعدتنا عن الأخذ بأسباب

القوة والهيمنة على الدنيا والتفوق على أهلها، وأفسحت المجال لأهل الضلال، وجعلت المخدوعين المنزلقين في غيهم يتهمون الدين بأنه مخدر ومبلِّد، يصرف الناس عن التفوق في شؤون الحياة، ولو كانت أفكار أكثر الصوفية ـ ومَن علىٰ شاكلتهم ـ حقًّا لَمَا كان لمشروعية الإرث فائدة، ولا لفرضية الزكاة والإنفاق في سبيل اللَّه فائدة؛ بل ولا كان للهجرة والجهاد فائدة، لأن الدراويش من أين لهم: يورثون أو ينفقون؟! وبأي سبب يجاهدون؟! وقد فقدوا الأسلحة المادية ـ التي هي مقومات الحياة ووسيلة للعزة فيها بإذن اللَّه ـ، وإنما الحق الصحيح الواجب هو ألَّا يفرط المسلمون بنصيبهم من مقومات الحياة الدنيا.

الرابع والثمانون: وذلك أن عبودية اللَّه توجب علىٰ صاحبها ألَّا يجعل الدنيا غاية الغايات، ولكن يخوض معاركها، ويكدح فيها؛ ليتخذها وسيلةً للغايات الكريمة التي جعلها اللَّه من شُعب الإيمان، وأوجب عليه أن يعمر بها أرضه، ويطهر أهلها من الظلم والفساد، وينجيهم من كل فتنة، ويرفع مستواهم عن الفقر والمسكنة، ويغذِّيهم بالعلم النافع المصلح لأخلاقهم وعقائدهم، المقوِّي لعزائمهم، وألَّا يبخل في الدفاع عن معتقداته ومقدساته بنفسٍ ولا مال؛ ليحقق الرجولة والمروءة والدين والإخلاص.

وأما من استمسك بالحياة، وحرص علىٰ المادة لغير ذلك فهو نذل طبعًا، كافرٌ شرعًا، ومن ثَمَّ أكثر اللَّه في كتابه الكريم وصف الدنيا بأنها متاع ليجعل قيمة المال تنزل من مقام السيطرة والتسلط علىٰ النفوس والاستحواذ علىٰ الأفئدة إلىٰ مقام آخر؛ وهو مقام الوسيلة التي يجتهد الإنسان في الحصول عليها؛ لتكون ذريعةً إلىٰ المقصد الأسمىٰ من إعزاز الحق، وتقوية المجتمع المؤمن، واصطناع المعروف، والإعانة علىٰ نوائب الحق.

إن موكب الإيمان يجب أن يكون حافلًا بألوانِ القوة المادية جميعها، وبألوان القوة الروحية والأخلاقية، ولكن يجب عليه ألَّا

يُسخِّرَ الثانية للأولىٰ؛ بل يُسخِّر الأولىٰ للثانية، ولا يكون الحق عنده للقوة أبدًا؛ بل يجعل جميع القوىٰ أداةً لنصرة الحق، إذ في الوقت الذي تغلب فيه المادة علىٰ الروح يكون الأمن في الدنيا مهددًا بالخطر؛ إذ يتعذر الاتفاق علىٰ المطامع، وتكثر أسباب التخاذل التي تتطرق إلىٰ النفوس بما تحمله من الأنانية التي حذرنا اللَّه منها، وأكثر من الترغيب في الآخرة؛ لتُجعَلَ الدنيا مزرعةً لها، ولهذا تعين علىٰ عباد اللَّه الأمر.

الخامس والثمانون: وهو أن عبودية اللَّه تجعل المرء دائمًا يتذكر الآخرة ولا يَذهلُ عنها لحظة؛ ليعد لها عدتها كيلا يقسو قلبه ويرضىٰ بالحياة الدنيا ويطمئنَّ إليها، فلا يقومُ بحقوق الخالق والمخلوق التي تتطلبها العبوديةُ الشرعية، وليس معنىٰ ذلك الانعزالَ عن خوض معركة الحياة والقنوعَ بالفقر والذلة، مع التقاعس عن جلائل الأعمال؛ بل لتحفزه قوة شعوره بأهوال الآخرة للقيام بما أوجب اللَّه عليه وربط به مصيره، فيكون في هذه الدنيا من خيرة العاملين لإعلاء كلمة اللَّه، والإصلاح في أرضه ومنفعة خلقه ورفعة شرعه علىٰ كل تشريع، ألا ترىٰ إلىٰ المعرضين عن الآخرة كيف كانت قوة بعضهم علىٰ بعض، بحيث لا يعامل أحدهم أخاه بعشر معشار معاملته لكلبه! تاللَّه إن العالم دفع ثمنًا غاليًا جدًّا لإعراضه عن عبودية اللَّه وإضاعته رسالته.

السادس والثمانون: بتحقيق عبودية اللَّه تكون الدنيا سجنًا لكل رجل شريف من جهة، ومركز انطلاق عظيم للأعمال النافعة والكفاح من جهةٍ أخرىٰ، إذ هي ـ بلا ريب ـ سجن للمؤمن؛ حيث يضع عليه إيمانه قيودًا من حديد تكبِّل غرائزه وشهواته الطائشة، فهو حبيسُ التقوىٰ عن الانطلاق في إشباع غرائزه وشهواته وركوب رأسه بالتسلط والتكبُّر علىٰ الناس، وليس معنىٰ كونها سجنَ المؤمن أنه يعيش فيها صعلوكًا ذليلًا هين الشأن، منقطعًا عن العلوم والفنون، مقطوعَ الصلة عن معترك الحياة؛ بل علىٰ العكس يجب عليه أن يسعىٰ ليعيش عيشةَ الأقوياء الأحرار،

فيكون مثريًا وجيهًا واسع الأفق، نشيطًا جوالًا في الأرض، لا يرضىٰ بالدنية لدينه وكيانه؛ بل ينطلق نحو العزة والكرامة، ويكون يدًا عليا وفق أمر اللَّه، ولكنه يكون في سجن عن الشهوات الذميمة والدنايا وابتغاء العلو والفساد في الأرض، فلا ينطلق في الدنيا انطلاقة الحيوان، فاقد العقل والضمير، شأنَ أغلب الذين انطلقوا في هذه الأزمنة؛ فكانوا وبالًا علىٰ الناس في دينهم ودنياهم.

السابع والثمانون: العابد للَّه يَعتبر المال فتنةً يختبر اللَّه به قوةَ إيمانه ومتاع أخلاقه وشرف نفسه؛ بوفائه مع ربه فيما أوجبه عليه من الحقوق، وما يلتزمه مقتضىٰ الشهادتين، وما تستوجبه مبايعة اللَّه عليه، ويحرص علىٰ القيام بشكره والإحسان إلىٰ خلقه كما أحسن اللَّه إليه، ولا يَعتبر المال دليلًا علىٰ امتيازه الذاتي، كقول قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]؛ فإن هذا من الإعجاب وتزكية النفس؛ الذي هو من أنواع افتراء الكذب علىٰ اللَّه.

الثامن والثمانون: العابد للَّهِ لا يسلك في اكتساب المال طرقًا غير مشروعةٍ؛ من الاحتكار المحرم، أو أكل الربا أضعافًا مضاعفة، وبخس الناس أشياءهم بأي نوع من أنواع البخس، التي أعظمها ظلمُ الأجير، واستغلال الكادحين في الحقول بنقص أسعارهم وغمطِ حقهم باسم الحرية الكاذبة أو الاشتراكية الظالمة وغيرها، مما يكون مغريًا للناس علىٰ الانزلاق في جحيم المبادئ الهدامة الكافرة، ناقمين من الدين بما فعله أدعياؤه المضللون.

التاسع والثمانون: العابدُ للَّه يَعتبر ما لديه من المال وديعةً وعاريةً معارةً لرب العالمين[١]، وهو وكيل ومؤتمن عليه، فيسلك طرق القصد والتوفير، متجنبًا الإسراف والتبذير؛ لأنه مسؤول عن المال من أين اكتسبه وفيما أنفقه؛ فلا يسارع في إنفاقه إلا في سبيل اللَّه وابتغاء

---

(١) أي: ملكٌ لرب العالمين.

مرضاته من نصرة دينه ونشر الدعوة إليه بشتىٰ الوسائل، وجهاد الصادِّ عن سبيله والمفتري عليه؛ ممن شرع له من الدين ما لم يأذن به اللَّه، أو أعاد العصبية الجاهلية أو غيرها من طرق الكفر المخالفة لهدي محمد ﷺ بأي اسم ظهرت، وبأي قوميةٍ اتسمت من أي رسالةٍ شيطانيةٍ مخالفة لرسالات اللَّه، وأن يُسخِّر ماله فيما يسعدُه في الدارين، من إصلاح أحوال المسلمين، وإعزاز دين رب العالمين.

التسعون: عبودية اللَّه في الوقت الذي تطلبُ من العابد أن ينظر إلىٰ من دونه في الأشياء المادية، ولا ينظر إلىٰ من فوقه لئلا يزدري نعمة اللَّه عليه، فإنها لا تحبُّ لأهلها الفقر والفاقة، ولا تحذرهم [منه]، ولا تبلدهم فيرضون بالدون، أو يقتنعون بالهُون من الحياة، ولكن توجب عليهم العمل وبذل أقصىٰ المجهود لابتغاء المزيد من فضل اللَّه؛ ليتسنىٰ لهم السؤددُ والتقدم علىٰ أعداء اللَّه وأعدائهم، وكل دعوة تخالف هذا فهي مجافية للدين. ومن هنا يُعلم أن الطرائق الصوفية ليست مطابقةً لعبودية اللَّه الصحيحة التي كان عليها سلفنا الصالح.

الحادي والتسعون: عبودية اللَّه تحقق التكافؤ الاجتماعي الصحيح، ليس بالمعنىٰ الذي يريده الملاحدة والمنصبغون بآراء الشيوعية ونحوها في هذا الزمان من الأفكار التي غايتها أن تنتهي بالظلم إلىٰ ظلم من لون آخر، ليأكل الناس أموالهم بينهم بالباطل، أو تضيق عليهم المسالك، وتسد فيما بينهم أبواب المنافسة.

ولكن الذي تُمليه عبودية اللَّه هو التكافؤ الناشئُ عن شعور الإنسان بواجبه نحو أخيه من: حفظ كرامته، والتواضع معه، والعطف عليه، والإحسان إليه ومساندته ومؤازرته؛ حتىٰ بالإيثار علىٰ النفس.

الثاني والتسعون: عبودية اللَّه ترتفع بصاحبها عن الضعف النفسي المؤدي إلىٰ سقوط الضمائر والتفاف الطباع حول المراتع الخصبة، والتذلل والمَلَق[1] للجبابرة والطواغيت؛ لأن هٰذا من الشرك الذي نصه

---

(١) **الملق:** التحبب.

اللَّـه بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وبقدر ما تنقص عبودية اللَّـه أو تتضاءل؛ يتفشىٰ الضعف النفسي، ويبدو سقوط الضمائر بأبشع صورة.

عبودية اللهِ تنمي الأخلاق:

الثالث والتسعون: عبودية اللَّـه توجب رعايةَ الأمانة وحفظها، بجميع أنواعها، فيرعاها فيما كلفه اللَّـه من العبادات والشرائع؛ بأدائها علىٰ الوجه الأكمل بدون نقصٍ ولا استهانة، وإقامة وجهه للَّـه فيها حنيفًا مخلصًا، وفي المعاملات يؤدي ما وجب عليه من حقيقة الوفاء بالعقود؛ بدون بخس ولا مماطلة، وفي رعايته لأهله وأولاده يقوم بواجب الأمانة نحو اللَّـه بحسن تربيتهم علىٰ دينه وتوجيههم إليه، وإعدادهم للجهاد في سبيله، ثم رعاية الأمانات الواجب أداؤها إلىٰ أهلها علىٰ كل قادرٍ من المسلمين ـ أئمتهم وعامتهم ـ؛ وذلك بإناطة[1] كل شيء إلىٰ أهله، فلا تُسند وظيفة إلىٰ غير كفئها، ولا يوكل عمل إلىٰ غير أهله، فإن المحاباة في الأعمال والمناصب خيانة للأمانة، وفتح لأبواب الفساد والفوضىٰ، وتعريض لكيان الأمة للخطر، وأيُّ خيانة أعظم من غمط الحق بإبعاد أصحاب الكفاءات ونسيانِهم، واحتضان كل شرير ماجن أو حاقد أو خائن، أو تقريب بليدٍ أو أرعن بسبب الرشوة أو الواسطة؟! وقد كشفت الأيام صدقَ التمثيل النبوي: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظروا الساعة**». قيل: يا رسول اللَّه، وكيف تضيع الأمانة؟! فقال ﷺ: «**إذا وُسِّد الأمر إلىٰ غير أهله**»[2].

ولا شك أن هذا الإخبار منه معجزةٌ له ومن دلائل نبوته ﷺ، وقد جنىٰ الناس أسوأ الثمراتِ لتضييعهم الأمانة بهذا المعنىٰ.

الرابع والتسعون: العابد للرحمٰن إذا خوَّفه خصمه باللَّه وذكَّره بآياته،

---

(١) **إناطة:** تعليق.

(٢) رواه البخاري (٥٩).

وَجِلَ قلبه فأذعن للحق، ولم يجرؤ علىٰ التمادي في الباطل؛ ليكون ممن قال اللَّه فيه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان: ٧]؛ بل يطهر عقله من كل سلطان سوىٰ سلطان الحق ﷻ، كي تستقيم فطرته علىٰ ما خلقها اللَّه طاهرةً نقيةً لا تكدرها الضغائن، ولا يستفزها طعن، فيلتزم كلمةَ الحق في الغضب والرضا، كما أرشده نبيُّه ﷺ، ويكون ممن وصفهم اللَّه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان].

الخامس والتسعون: العابد للَّه لا يجعل الدنيا أكبرَ همه، والمالَ غاية مقصودة يستذلُّ به العباد، ويجعله أداةً للحسد والبغضاء والضَّعة، ينهش به كرامةَ المستضعفين، ويحط من أقدارهم، أو يجعله وسيلةً للتسلط وكسب الجاه والترْقيات للحكم والمناصب، شأنَ المفتونين بعبادة الهوىٰ، الساعين للعلو في الأرض، إذ الواجب ـ الذي تقضي به العبودية المَرضية ـ هو ما ذكرناه في الوجه الرابع والثمانين وما بعده، فارجِعِ البصر بتلك الوجوه بقوة الإمعان.

السادس والتسعون: عبودية اللَّه توجب علىٰ أهلها تربيةَ أولادهم تربيةً دينيةً؛ يَنشؤون بها علىٰ طاعة اللَّه، ومعرفة حدوده فيما أنزل، وإعدادِهم للجهاد في سبيله، بتربيةٍ خشنةٍ بعيدةٍ عن أزياء الأعاجم والتخنث والميوعة، فلا يسمحون لهم أن يعيشوا بين أحضان الإغراء والفتنة التي تبثُّها أمواج الأثير والصحفُ الخليعة... وما إلىٰ ذلك مما لا يجوز للمسلمين السكوت عليه؛ بل يجب عليهم الأخذ بيد ولاة الأمورِ لإصلاح هذه البرامج؛ ليتسنىٰ لهم تربية أولادهم وذراريهم تربيةً يُعلنون بها واجبهم أمام اللَّه ورسوله وكتابه، ويعتبرون أنفسهم حَمَلةَ رسالة، لا يجوز لهم التقاعس في نشرها وتركيزها، مهما أقيم أمامهم من العقبات والمتاعب، ليكون بذلك ممن عمل علىٰ وقاية نفسه وأهله من نارٍ وقودها الناس والحجارة، كما تستلزم عبودية اللَّه.

السابع والتسعون: وهو عدمُ السماح لعباد اللَّه بوجود أي فراغ في جميع الأزمنة والأمكنة بين شِيبهم وشبابِهم؛ لأنهم ـ بكمال إحساسهم نحو واجب ربهم ورسالته ـ يستغلون جميع أوقاتِهم، ولا يفرطون في لحظةٍ منها؛ بل يستغلون كل فراغ في العالم، فيستبِقون إلىٰ إشغاله في ذات اللَّه خشية أن يسبقهم المبطلون فيملؤوه بالغي والضلال، ويكونوا مفرطين في جنب اللَّه علىٰ فَسْح المجال لأعدائه بذلك؛ إذ واجبهم يقضي باغتنام كل فرصةٍ واستغلال كل فراغ استغلالًا صالحًا مُرضيًا لرب العالمين، بدلًا من أن يقتلوا الفراغ باللَّهو واللعب، والفسق والفجور، والمجون وقراءة الأساطير الحديثة التي تصدُّ عن ذكر اللَّه وتشغلُهم عن واجبهم نحو كتابِهم، شأن المفرطين، الذين يحسبون أنهم يقتلون الوقت ـ والوقت يقتلهم ـ؛ بل هم خلاف هؤلاء المفرطين، يستغلون جميع طاقاتهم، ولا يضيعون شيئًا من أوقاتهم، عالمين أن كل لحظةٍ تمر بهم ليس لها عوضٌ ولا قيمةٌ سوىٰ العمل المثمر بها، فيتحسرون عليها لو ضاعت سدًىٰ بلا منفعة تقربهم من ربِّهم، وبهذا الإحساس واصل السلف الصالح أعمالهم؛ ففازوا فوزًا عظيمًا.

الثامن والتسعون: عبوديةُ اللَّه لا تستقيم مع خيانة اللَّه ورسوله في الإخلال بأوامره وعدم الانتهاء عن زواجره وتضييع حدوده، وضرب سنةِ نبيه ﷺ بعرض الحائط، ذلك أن اللَّه حمَّل عباده الأمانة فيما كلفهم به من إقامة شرائع دينه، وإيجاب نصرته، وحمل رايته، فمن لم يقم بذلك خير قيام، ولم يجعله غاية اهتمامه، بحيث لا يشغله عنه مالٌ ولا ولد، فقد خان اللَّه ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الانفال]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون].

فعبادة اللَّه لا يحققها من اشتغل بأمواله وأولاده ومُتعِه وشهواته

عن واجب اللَّه ورسوله أبدًا.

التاسع والتسعون: عباد اللَّه لا يزكُّون أنفسهم عن إعجاب بما فعلوه، فيتردَّون في الهاوية؛ بل يؤتُون ما آتوا من صالح الأعمال وقلوبهم وجلةٌ؛ يخافون ألَّا تقبل منهم، فيسارعون في الخيرات خشيةً ورجاءً، أما الذين يزكون أنفسهم فقد افتروا على اللَّه الكذب؛ بدعوىٰ ما لم يعلموا قبوله، تجرُّهم هذه النِّحلةُ إلىٰ الإعجاب، الذي يجعلهم يتكلمون علىٰ ما عملوه، ويفرحون بما أتَوا، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، والذنوب يجر بعضها بعضًا، فلذا حق عليهم الوعيد؛ لعدم استقامتهم علىٰ عبودية اللَّه وشكره، والاستعانة به علىٰ ذلك.

المِئَة: عباد اللَّه هم الذين يمشون علىٰ الأرض هونًا ـ بتواضع وإشفاق ـ من خشية اللَّه، عارفين قدرهم ومهمتهم الثقيلة علىٰ وجه الأرض، ناظرين إلىٰ الناس بعيني الحكمة والرحمة، ولا شك أن مِشيةَ الإنسان تنبئ عن صفاته أو بعضها، فالنفس الوقورة المطمئنة الجادة في الإحسان، القاصدة للخير، الراجية للثواب، المشفقة من العقاب، تؤثر صفاتها هذه علىٰ مشية صاحبها، فيمشي مشيةً مطمئنةً معتدلة، فيها وقارٌ وسكينة ممتزجان بجد وقوة، لا بتكبُّر وخيلاء وتبختر، وليس معنىٰ ذلك أنهم يمشون مشيةَ الذِّلةِ والمسكنة التي ابتدعها بعض الصوفية والزهاد؛ فقد كان ﷺ إذا مشىٰ كأنما ينحطُّ من صَببٍ[1] لسرعته وقوته[2]، ولكنهم يمشون مِشيةً تتلاءم مع صفاتهم الطيبة المنبثقة من تقوىٰ اللَّه، فلا يشوبها شيءٌ من مشية الجبارين المتغطرسين؛ تلك المشيةَ الموسومة في الحديث النبوي بأنها مِشيةُ المُطيطاء[3].

وفي تلك السمةِ ـ التي مدح اللَّه بها عباده[4] إعلام بحسن سيرتهم

---

(١) **الصَّبب:** المرتفع.

(٢) رواه أحمد (١/١١٧)، والتِّرمذي (٣٦٣٧).

(٣) رواه الترمذي (٢٢٦١).

(٤) يقصد في قوله ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ومعاملتهم لأهل الأرض بما رسمه من قِوام الإنسانية، التي زَخر بها القرآن من الآداب الاجتماعية؛ التي بها يتكون الإنسان الاجتماعي؛ لا الصور الإنسانية الممتلئة بالغش والافتراء والأنانية، تلك الصورة المشاهدة التي قرر فلاسفةُ بني جنسها أنهم مهما أبدعوا في المخترعات ومخَروا[1] المحيطات، وطاروا إلىٰ السماوات؛ فإنهم لا يعرفون كيف يمشُون علىٰ الأرض؛ بل الإنسانية المثلىٰ ـ تلك التي هي القدوةُ الوحيدة بالتقىٰ والصلاح ـ لما التزمت من آداب القرآن وأوامره التي يحصل بها ضبطُ الصلة بين عالم العقل وعالم المادة علىٰ وجه بَيِّن، لولاه ما كانت زمنيةً تحيا روح الزمن كله، تلك الآداب والشرائع التي لا يراد بها إلا حريةُ المنفعة للنوع الإنساني كله، ثم الموازنة بين مقدارها وبين مقدار الحرية التي تُنال بها؛ ليكون كل شيء في نصابه الاجتماعي دون طغيان، لأن إطلاق الحرية عبثٌ وإفساد، وإطلاق المنفعة ضرر أو ضرار؛ كما هو المشاهَد المحسوس اليوم من أعمال الذين ابتغوا غير اللَّه حكمًا، وأعرضوا عن هديه، وستكون مشيتهم وبالًا علىٰ قومهم.

الحادي بعد المئة: عبودية اللَّه علىٰ هدًىٰ وبصيرةٍ تَقِي أهلها من ضلالة الاحتجاج بالقدر علىٰ ما يحدث في المجتمع من نزواتِ الأنانية، وفساد الأوضاع، وتفاقم الجشع، وغلبة الشح؛ لأن الاحتجاج بالقدر وإقحامَه في هذه النواحي لا يجوز، إذ هو تخرُّصٌ[2] علىٰ القدر؛ كإقحامه في شؤون الطاعة والمعاصي والإيمان والكفر، قال اللَّه تعالىٰ ـ ردًّا علىٰ من يحتج بالقدر ـ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾ [الأنعام].

فإن القدر يُحتج به عند المصائب، لا عند المعائب، وما قُدِّر من المصائب يجب الاستسلام له؛ لأنه من الرضا باللَّه، وأما الذنب فليس

---

(١) **مخروا:** شقُّوا.

(٢) **تخرُّص:** ظنٌّ بلا دليل.

للعبد أن يذنب، وإذا أذنب وجب عليه الاستغفار والتوبة من المعائب التي ارتكبها، أو قصر في إنكارها ودفعها، والصبرُ علىٰ المصائب هو من باب الرضاء بقضاء اللَّه وقدره، بخلاف المقضيِّ الذي هو صَنعُة الإنسان، فلا يجوز تحمُّلُ شيء منه أو الرضاء به إلا حسب موافقة الشرع من العدل والحكمة، وما جرىٰ علىٰ خلاف ذلك يجب مقاومته ودفعه حسب الاستطاعة.

فعبودية اللَّه تَهدي أهلها إلىٰ المسارعة في الخيرات، والتنافس علىٰ إقامة العدل ـ بجميع صنوفه ـ بالمبادرة إلىٰ إصلاح المعائب، وتقويم الاعوجاج في أي ناحية، محتسبين ذلك من التواصي بالحق والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وليعلموا أن اللَّه قدر الأشياء بأسبابها، فيأخذوا بالأسباب متبعين كل سبب سببًا، مستعينين باللَّه، جادين في العمل والإبداع وتسخير كل شيء واستثماره، طامحين إلىٰ العزةِ والقوة والكرامة، لا يستكينون إلىٰ الذلة والفاقة احتجاجًا بالقدر، وتأسيًا بالضالين من خلقه الذين أنكر عليهم القرآن ذلك.

فبسلوكهم هذا ـ مع استعانتهم باللَّه، وتوكلهم عليه، وعدم خشيتهم الأصنام البشرية أو تقديسها ـ تصلح أحوالهم، ويرتفع مستواهم، ويعيشون عيشة الأحرار الأكرمين، لا عيشة الجبناء الأذلاء المحتقرين.

الثاني بعد المئة: عباد اللَّه يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، فلا يقتلون النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق، ولا ينتهبون الأموال أو يأكلونها بتسويل الحاكم أو إغرائه، ولا ينتهكون الأعراض بمقاربة الزنا أو القذف؛ لأن هذه الأشياء مجانبةٌ للعبودية، خارقة لحدود اللَّه، مخرجة من طواعية اللَّه ورسوله، كما أن إقرارها وعدم الغضب للَّه امتعاضًا منها مجلبةٌ للخسران، وخروجٌ من الإيمان، فكيف بترويجها والإغراء علىٰ فعلها؛ شأنَ أهل المدنية العصرية الناتجة من التلمذة علىٰ الإفرنج، الذي جرَّ إلىٰ استحباب العمىٰ علىٰ الهدىٰ، والغواية علىٰ

الرشد، والخبث على الحب، وإحلال الرذيلة محل الفضيلة؟! فأولئك من عُبَّاد الهوىٰ والشيطان، لا من عباد الرَّحمن.

الثالث بعد المئة: عبودية اللَّه تحقق لأهلها الأمن في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ لأن جميع حركاتهم وسكناتهم منوطةٌ بمراقبة رب العالمين، والوقوف عند حدوده بإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه ـ دون غش ولا بخس ولا مماطلة ـ، وذلك باتباع ما رسمه اللَّه ورسوله من العدل والإحسان والصدق والوفاء والاحترام المتبادل؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٨٥﴾ [هود]، وقال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال ﷺ: «**عامِل الناس بما تحبُّ أن يعاملوك به تكن مسلمًا، وأحب للناس ما تحبُّه لنفسك تكن مؤمنًا**»(١).

وقال ـ أيضًا ـ: «**واللَّهِ لا يؤمنُ أحدُكم حتىٰ يُحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**»(٢).

فالقائمون بعبودية اللَّه هم أهل المدنيةِ الصحيحة والحضارة النافعة، إذ هم الساعون للخير والصلاح والإصلاح.

الرابع بعد المئة: عبودية اللَّه توجب علىٰ أهلها رقابة الرأي العام والسلوك العام فيما بينهم، وهذا له قوةُ التأثير في المحافظة علىٰ الأخلاق، واختلاج الحياء لكل نفس، «**والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»(٣). ووصفه النبي ﷺ بأنه خيرٌ كله(٤).

وكلما ازدادت هذه الرقابة ازداد الحياءُ في النفوس، وتغلغلت الفضيلة

---

(١) رواه أحمد (١٣/٤٥٨)، والتِّرمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧) بنحوه.
(٢) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٣) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٩).
(٤) رواه مسلم (٣٧).

إلىٰ كل بيت، وتضاءلت الجنايات والجُنح ـ أو انعدمت ـ؛ ولهذا وصف اللَّـه عباده الصادقين بقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ...﴾ الآية [التوبة: ٧١].

الخامس بعد المئة: عبودية اللَّـه تقتضي التأسي برسول اللَّـه ﷺ في كل شيء، وفي كل ناحية من نواحي الحياة، وأن يتَّبع المسلم سُننه، ولا يتعلل بقَصْر العمل والحجة علىٰ القرآن وحده، فإن هذا عمل الزنادقة الذين يريدون مسخ الإسلام، والإحاطة بشطره الثاني «السُّنة».

والسنة كالقرآن تمامًا من حيث التشريع والعمل بها، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**ألا إني أوتيتُ القرآنَ ومِثلَه معه**»[١].

السادس بعد المئة: يتضح في حصر الابتهال إلىٰ اللَّـه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تحقيقٌ لتوحيد الألوهية بجميع معانيه، والقيام بواجب العبودية من جميع صنوف العبادات التي تنتزع النفسَ من التعلق بماديات الحياة، وتوجهها إلىٰ خالقها وفاطرها، لتستمدَّ منه النور، وتستعين به علىٰ تسخير الماديات من أجل نُصرة دينه، وعلىٰ الوجه الذي يُرضيه.

السابع بعد المئة: يتضح في حصر الابتهال إلىٰ اللَّـه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قوة الإيمان بالغيب؛ بحيث يكون كالمشاهدة، وذلك لأن المسلم المصدِّق بوحي اللَّـه يستعمل عقله أولًا بالاستبصار في نفسه وبني جنسه، كيف خُلق؟ هل خلق من غير شيء؟ أو خلق نفسه؟ أو لابد له من خالق؟ فيتيقن أنه مخلوق من ربٍّ قادر مبدع لطيف حكيم أمدَّه بالحياة، ورعاه رعايةً تامةً شاملةً من البداية حتىٰ النهاية.

وهو إن فكر في أرجاء السماوات والأرض قاده تفكيره إلىٰ هذه النتيجة ـ أيضًا ـ، وبهذا يقوىٰ إيمانه بالخالق المبدع الذي يحس وجود وحدانيته ينطق بها كلُّ مخلوق من مخلوقاته، فيراه بعين بصيرته لا بعين بصره.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣٠).

الثامن بعد المئة: من حصر الاستعانة باللَّه تعالىٰ ينبعث التجرد عن السطحية، ويتولد الفهم العميق لدور المسلم في هذه الحياة علىٰ أنه خليفة اللَّه في أرضه، وأن اللَّه سبحانه هيأه لهذه الخلافة والقيام بها، فعليه أن يخلف كما أمره اللَّه، وأن يقوم بهذه المهمة دون تقصير أو تخاذل.

التاسع بعد المئة: عبوديةُ اللَّه ـ سبحانه ـ تستلزم العلم النافع الذي يستيقن به العبدُ صحةَ ما أُنزل إليه من ربه؛ ذلك العلم الروحي الذي يعرف به أنه عبد مربوب تجب عليه طاعة ربه، وأنه مقيد بحدود وأحكام يحرم عليه تجاوزُها، وأنه خاضع لهذه السلطة الربانية في كل حركة وسكنة من حركاته، وأنه لا يجوز أن يخضع لغير هذه السلطة أبدًا، ولا يسمح لأي فكرةٍ مناهضةٍ للإسلام بالظهور علىٰ وجه هذه الأرض.

وهذا العلمُ ضروريٌّ لصحة الأقوال والأفعال، وهو مقدَّمٌ عليها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وهذا الذي يورِّثُ خشية اللَّه والقيام بواجبه.

العاشر بعد المئة: في حصر الاستعانة باللَّه قوةٌ معنوية تكسب العابد للَّه رباطةَ جأش وعظيم صراحةٍ وجرأة، فلا يداهن، ولا يتصنع للناس في أي حال من الأحوال، بل يصدع بعقيدته، ويجهر بدينه بحدود ما فرض اللَّه دون الخروج إلىٰ حدِّ التهور، أو يخرجه من المقابلة بالحكمة إلىٰ نقمةِ الهجوم ومرارةِ التحدي الذي يحلُّ به الفساد بدل الإصلاح.

وليس معنىٰ ذلك أن يكون كضعفاء الأنفس والإيمان ممن يسمُّون الجُبنَ عن إظهار الحق: «حكمة»! في حين هو خورٌ وقلة إيمان.

الحادي عشر بعد المئة: العابد للَّه والمحقق للاستعانة به والتوكل عليه لا يتصنعُ للناس بما يُغضب اللَّه، بل ولا يتصنع خُلقًا ليس من سجيته؛ فالمتصنعُ بما ليس من خُلقه ولا دينه، لا يدعُ فرصةً لإظهار سخيمةِ

نفسه[1] إلا اغتنمها، وهذه عقوبة من اللَّه يكشف بها سريرة كل مخادع.

فمتصنع المحبة والإنفاق سرعانَ ما يظهر حقدُه وبخله، وكذا متصنع الرفق والتواضع سرعان ما تظهر عظمتُه وغطرسته إذا سنحت له الفرصة.

في حين أن العابد للَّه تحصل له الاستقامةُ علىٰ مكارم الأخلاق، وكلما ازداد توكلُه علىٰ اللَّه واستعانته به قويت شهامته وعزة نفسه؛ فلا تزلزلها الأحداث، ولا تصرفُها كثرة المال عما تدرَّعت به من الحق.

الثاني عشر بعد المئة: كما أن الضراعة إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مؤذنةٌ بحب اللَّه، والتعلق به، والرغبة إليه، وحسن الظن به، ومنها: إخلاص الاعتقاد، وبراءة من الشرك بجميع أنواعه، والابتداع بشتي أصنافه، والالتزام الكامل بوحي اللَّه قرآنًا وسنة، فهذا هو الحق وغيره هو الضلال، وهل بعد الحق إلا الضلال؟!!.

الثالث عشر بعد المئة: الابتهال إلىٰ اللَّه تعالىٰ بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يجب أن يكون صادرًا عن محبةٍ صادقة للَّه الذي يجب أن يكون أعلىٰ وأغلىٰ محبوب، وذٰلك بداعي الفطرةِ والشرع والعقل الصحيح، فإذا صدر ذلك عن محبةٍ صادقة حصل مفعولُه الذي لا يقاومه شيء في الدنيا مهما كان ذلك.

إن كمال العبودية تابعٌ لكمال المحبة، وكمال المحبة تابع لكمال المحبوب، واللَّه جَلَّ وَعَلَا له الكمال المطلق من كل وجه.

الرابع عشر بعد المئة: بحصر العبودية والاستعانة باللَّه براءة مما سوىٰ اللَّه؛ مهما كان هذا الشيء ومهما كانت هذه القوة.

كما أن فيها إعلانَ العزيمة الصادقة بالإقبال علىٰ اللَّه، وجعل أوقاته كلها في طاعته، وتكريسها في العمل المثمر الجاد الذي يعود علىٰ العبد ومجتمعه بالنفع العميم.

---

(١) السخيمة: الحقد والغل.

الخامس عشر بعد المئة: في حصر العبودية والاستعانة باللّٰه نجاةٌ من اليأس والقنوط، وتحصيل أضدادها التي هي خيرٌ وهداية، والتي هي قوة الثقة واليقين باللّٰه، فتحصل للمسلم صفاتُ الفتوة المحمدية المطلوبة منه شرعًا وعقلًا.

السادس عشر بعد المئة: في حصر استعانةِ العبد بربه تأكيدُه الإقدام علىٰ كل عمل مُرْضٍ للّٰه بنشاط، وأن يقاوم المصاعبَ والمتاعب في سبيل ذلك، فلا تضعُف همته، ولا تلين عريكتُه[1]؛ لأنه يشعرُ أن اللّٰه معه ينور بصيرته، ويسدد خطاه، ويصوِّب رميته.

السابع عشر بعد المئة: الضراعة الصادقة من المؤمن الصادق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منبثقة من أصلين ينبني عليهما جميع ما قدمناه وما سنذكره ـ أيضًا ـ:

أحدهما: أن الإيمان باللّٰه وتحقيق عبوديته بصدقٍ وإخلاص هو غذاءُ الإنسان الروحي، وقوَّته وصلاحه وقوامه وفلاحه، وهذا يخالف قول المبطلين: إن العبادة تكليفٌ ومشقة تخالفُ مقصود القلب ولذته، وماهي إلا مجردَ ابتلاء.

ثانيهما: أنَّ تعلُّقَ العبد بما سوىٰ اللّٰه مضرةٌ عليه إذا زاد علىٰ قدر حاجته المعينة له، فإن من نال من الطعام والشراب فوق حاجته ـ ضرَّه أو أهلكه ـ، وكذلك من النكاح وغيره حتىٰ الدواء والعسل، ومن أحب شيئًا وتتيَّم به، فلابد أن يسأمه أو يفارقه، فالضرر حاصلٌ إن وُجد وإن فُقد؛ بل قد يحصل له من الضرر بالفراق أكثرُ مما حصل له من اللذة قبل ذلك، وكل من أحب شيئًا دون اللّٰه لغير اللّٰه فإن مضرته أعظمُ من نفعه، وعذابه أعظمُ من نعيمه، بل في الغالب يعاقبه اللّٰه به، فالعبدُ لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع إلا بإذن اللّٰه ودفعه وتسخيره، فالأمرُ كله للّٰه أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

---

(١) **العريكة:** الطبيعة.

الثامن عشر بعد المئة: بتحقيق عبودية اللَّه تتوافر الشجاعة بصفة كاملة شاملة، وذلك بمخالطة الإيمانُ بشاشةَ القلوب، وإشرابها حب الجليل الجميل المنعم المتفضل، واطمئنانها لوعده، وتلذذها بالمسارعة لما يرضيه والشوق للقائه، وكون عبد اللَّه يعلمُ ويجزم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه.

التاسع عشر بعد المئة: بتحقيق عبودية اللَّه يحصل للعابد الاعتدالُ في جميع أحواله وسلوكه، فلا يطغىٰ بالثراء والمنصب؛ لأن عباد اللَّه وسطٌ بين الإفراط والتفريط.

العشرون بعد المئة: العابد للَّه لا يتخذ من دون اللَّه ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةَ أعيُنٍ دخيلةً[١]، أو بطانةً من غير المؤمنين يُسرون إليهم بالمودة، ويطلعونهم علىٰ عورات المسلمين، ويتخذون منهم وسيلةً للصد عن سبيل اللَّه بما ينشرونه ـ أو يذيعونه ـ ضدَّ المؤمنين، وضد الإسلام وأحكامه، واللمز بالدعاة، والإغراء بتعذيبهم وقتلهم.

فالعابد للَّه ـ حقًّا ـ لا يتخذ أحدًا من هؤلاء وليجةً يلج بها إلىٰ مصالحه وشهواته النفسية بأي حجةٍ وأي علاقة، ولا يدورُ من خلف جماعة المسلمين ويتصل بخصومهم، كما هو شأنُ كثير من المنتسبين للإسلام في زماننا، فهذا يُخرج المسلم من عبودية اللَّه إلىٰ عبودية مَن يهواه.

الحادي والعشرون بعد المئة: تحقيقُ العبودية يتطلب احتمال الأذىٰ في سبيل اللَّه والجرأةَ في الحق، وقوله كلمة الحق دون خوف من ظلمٍ، أو رهبة من سلطان، ولذا قال ﷺ: «**أفضلُ الجهاد كلمةُ حقٍّ عند سلطانٍ جائر**»[٢].

---

(١) **الوليجة:** خاصة الإنسان وأقرب الناس إليه.

(٢) رواه أحمد (٣/١٩)، وأبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤٠١١).

الثاني والعشرون بعد المئة: تحقيق العبودية الصادقة يستلزم محاسبة النفس بشكل دائم ومستمر، محاسبتَها علىٰ الأقوال والأفعال والنيات، ليبقىٰ العبد في ذلك كله متفقًا مع وحي اللَّه سبحانه، ومحاسبة النفس دليل علىٰ الشعور بالرقابة الإلهية، وبلوغ العبد مرتبة الإحسان «**أن تعبدَ اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك**»[١].

الثالث والعشرون بعد المئة: في حصر الضراعة الصادقة بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تخليصٌ للنفس من عبادةِ آلهة شتىٰ، وتحرير لها من رِقِّ الهوىٰ والشهوات، وارتفاع بها من الأنانية والانتهازية إلىٰ شرف الصدق والإخلاص، المكون للإنسانية الحقة، وإذا حصر العبد اتجاهه إلىٰ اللَّه في سائر نواحي حياته وجميع أموره؛ فقد خلَّص نفسه من كل رقٍّ وأسر، وكان قلبه خاليًا مما سوىٰ اللَّه، ومنشغلًا بحب اللَّه ورسوله وتعظيمهما، فلا يكون لشياطين الجن والإنس عليه سبيل، فيتحرك حيث أمره اللَّه، مستجيبًا للَّه؛ لا يحركه أحدٌ من شياطين الإنس، ولا يستجيب لأحد من طواغيت البشر المضللين، الذين يلعبون علىٰ العواطف بشتىٰ أنواع الدجل والتلبيس، ويوجِّهون الناس إلىٰ ضروب من الجاهلية الجديدة، باسم القومية الفلانية تارةً، والمذهب المادي الفلاني تارةً، والحركة الثورية تارةً، والمبدأ الفلاني تارةً، وغيرها مما زادت به فتنتُهم، وفي كل مجتمع لا يحققُ أهلُه القيامَ بمدلول هذه الآية التي هي محض معنىٰ «لا إله إلا اللَّه».

وقد أخبر اللَّه بأن الفتنة عن الدين أشدُّ جريمةً من القتل وأكبر، كما أخبر في الآية (٣٦، ٣٧) من سورة «الزخرف» أنه يقيِّض[٢] للمنحرف عن عبادته شيطانًا يكون قرينًا له، يصدُّه عن سبيل الحق، ويصرفه إلىٰ كل باطل، ومن هنا يأتي:

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٢) **يقيض:** يسلِّط عليه من يلازمه.

الرابع والعشرون بعد المئة: وهو أن عبادة اللَّه ضرورةٌ اجتماعية؛ كما هي فطرة أساسية في الإنسان، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]؛ لأنه لابد للإنسان منها، فإن سلك منهجها الصحيح كملت إنسانيته، وقويت شخصيته، وتحرَّر التحرُّرَ الصحيح الذي يرتفع به عن مستوىٰ البهائم، وإن لم يسلك ما رسمه اللَّه لعبادته في سائر نواحي حياته؛ فإنَّ أمره سينعكس مهما حاول خلافه، فإنه إذا لم يحقق عبادة اللَّه، ويحصر اتجاهه إليه في كل شيء؛ استعبده الهوىٰ والمادة، واستحوذ عليه شياطينُ الإنس بشتىٰ أنواع المبادئ والمذاهب المادية والعصبية والنفعية، فتستعبدُه طواغيت الهوىٰ وشياطين الإنس من اليهود وأذنابِهم، كما حصل فعلًا لمن ينقاد لـ«كارل ماركس»، و«تزوتكسي» ـ اليهوديين اللذين نبشا مذهب «مزدك» اليهودي القديم ـ، أو من يقدس «نيتشه»، و«داروين»، و«فرويد» وغيرهم من طغاة اليهود وملاحدة النصارىٰ؛ ذلك أن الإنسان لا يستطيعُ أن يعيش بغير دين يدين به، وشيءٍ يتألهه، إلَّا إن استطاع أن ينخلع من كيانه ودوافعه أو ينتزع نفسه من الحياة الكونية، ولن يستطيع ذلك كما سنفصِّله في سورة «الأنعام» آية (٧١) و«يونس» (٦٦) و«الرَّحمن» (٣٣) ـ إن شاء اللَّه.

والإنسانُ إذا لم يتجه إلىٰ اللَّه ولم يخضع لسلطانه؛ فقد كفر به، وآمن بما سواه من طواغيت المادة والشهوات، فإما أن يؤلِّهَ نفسه أو يؤلِّهَ إنسانًا مثله من روَّاد المذاهب والمبادئ ـ كما أسلفنا ـ، وماذا وفر الناس علىٰ أنفسهم حين كفروا بربِّهم؟ آمنوا بأنفسهم وكانوا عبيدًا لأهوائهم؛ فكلفهم أعظم مما يكلفهم دين اللَّه به أضعافًا مضاعفةً، وتسلطت عليهم الأنانية المسعورة، التي زادت بؤسَهم وشقاءهم، وجعلتهم يتقلَّبون من حرب إلىٰ حرب أفظع، ومن ظلمةٍ إلىٰ ظلمة، مهما غالطوا أنفسهم وزعموا أنهم في عصر العلم والنور، فهم في عصر الجهل المركَّب، والمفاهيم المعكوسة التي جلبت عليهم الصراع والحروب الباردة والكاوية بين آلهةِ تلك المبادئ والمذاهب، التي آمن بها مَن

رفض الإيمان باللّه، واستجاب لأربابها مَن أعرض عن حكم اللّه، فالفرد الذي يعيش لنفسه إنما يؤلِّهُ ذاته في سلوك ما يريد؛ فإنه يزن الأمور وفق مصلحته الشخصية وآرائه السطحية، وقد يتسع أفقه فيهتم بأسرته أو يزداد اهتمامه إلىٰ شعبه ـ بل إلىٰ محسوبيه من شعبه ـ؛ ومن هنا حصلت البلايا والفتن والمحن، وازداد الشقاق الذي لا نجاة منه أبدًا إلا بالرجوع إلىٰ اللّه في كل وِردٍ وصَدَر[1].

والناس الآن علىٰ هذا النحو لم يتحرروا من الانقياد لإله، ومن التقيد بدين ـ كما يزعمون ـ؛ بل وقعوا في عبادة آلهةٍ شتىٰ، ودانوا بباطل الهوىٰ المتنوِّع الذي يطالبهم اللّه أرحم الراحمين بتركه والتحرر منه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء]، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان].

والأنانيون يقيِّدون أنفسهم بوجوب إرضاء مطالبها وتنفيذ رغباتها فورًا علىٰ أي حساب كان؛ دون اعتراف بحواجز، أو اعتراف بأي حق لغيرهم؛ لأنهم أمام إلحاح من ضغوطِ مزاجهم السقيم، لا يستطيعون تأجيله، أو إلغاء بعضه، ولا يبالون بما يكلِّفهم من أثمان، ولا بما يُجرُون علىٰ البشرية من المجازر وإهدار الكرامة؛ ذلك أن النظرة المادية للحياة نظرة من شأنها أن تباعد بين الإنسان وبين ما فيه من خصال الخير المفطور عليها، وتسلخه من كل طيب حتىٰ تمسخه شيطانًا أثيمًا، وتجعله عدوًّا لبني جنسه، بل عدوًّا لنفسه من حيث لا يشعر ـ والعياذ باللّه ـ؛ فيكون من شر البرية؛ بل من شر الدواب ـ كما وصفه اللّه في عدة سور من القرآن ـ، وكل هذا نتيجة الانفلات من عبادة الحق رب الخلق إلىٰ عبادة الباطل من الهوىٰ والشياطين المختلفة.

فالعالمُ المعرض عن اللّه في هذا الزمان، والمتخلف عن تحقيق

---

(١) المقصود: في كل صغير وكبير.

عبادته يُسيِّرُه في كل موقع أناسٌ مسعورون تؤرقهم رغباتهم وشهواتُهم، ويفرضون علىٰ الناس حبَّهم وتعظيمهم بشتىٰ أنواع الدجل والتضليل؛ بحيث أصبح أغلب العالم ـ أو كله ـ ما بين إلهٍ مشرِّع متسلط، وبين عبيدٍ منفذين يساقون كالأنعام، فاللَّه جَلَّوَعَلَا عاقب مَن لم يخضع لألوهيته بآلهةٍ لا تقبل معذرة، ولا ترضىٰ بتسويف، وسلَّط علىٰ الملاحدة أهواءَهم الضخمة ومحبوبيهم من دونه، فحملوهم ما لم يحملهم اللَّه ـ الذي لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها ـ، وجعلهم يتحملون كثيرًا من الأهواء والمخاطر في سبيل عبادةِ هواهم، ويتنازلون عن كثير من حقوقهم، وينحدرون بأنفسهم إلىٰ ما يترفع عنه أولو الألباب الذين وصفهم اللَّه، ويعيشون في جحيم من الاضطراب والتخليط في سبيل عبادة الهوىٰ، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران].

إنهم صُمٌّ عن الحق؛ فلا ينفُذ إلىٰ مسامعهم، وبُكمٌ لا ينطقون به، وقلوبهم في عمًىٰ عن نور اللَّه. إنهم هربوا من العبادة الصحيحة والدين القيم إلىٰ أديان باطلة بأسماءٍ مزخرفة يسيِّرها أرباب متفرقون مشيطنون بالدجل والتسلط، وتملكوا علىٰ مشاعر أتباعهم، وصادروا منهم كل عقل وتفكير، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة].

وإنما قلنا: إن عبادة اللَّه ضرورةٌ اجتماعية، وفطرة أساسية؛ لأن الإنسان في هذه الحياة محتاجٌ إلىٰ عقيدة ونظرية يسعىٰ علىٰ ضوئها، كما أنه لابد له من الخضوع لشيءٍ ما والتعلق به، وإن الإنسان ساع كادح، فإما أن يسعىٰ فيما يسعده ويكدح إلىٰ ما ينفعه، أو يسعىٰ فيما يشقيه ويخزيه، ويكدح لمن يستغله ويضنيه.

وقد أثبت التاريخ أن لكل جماعةٍ من البشر نظريات في تعليل هذا الكون وفلسفات يتمذهبون بها، وقوةً تُهيمن عليهم في سلوكهم، فإما أن يكون ذلك مرتكزًا علىٰ الحدس والتخمين[1]، وتكون القوة ظاهرةً

(١) **الحدس والتخمين**: الظن الخالي من الدليل.

عليهم وقاهرةً لهم، من تسلط بعضهم علىٰ بعض، فهؤلاء يدورون من نظرياتهم في حلقة مفرَغة، ينتابهم فيها التغييرُ والتحريف، ويَشقَون تحت سلطة من خضعوا له من الدجاجلة والطواغيت، ومثل هؤلاء، تتجارىٰ بهم الأهواء، وينتقلون من سيئ إلىٰ أسوأ لما تجرهم نظرياتهم ودجاجلتهم إلىٰ عبادةِ الهوىٰ والمادة، فيكونون علىٰ الحال التي وصفناها، والتي تفاقم شرُّها في هذا الزمان.

وإما أن تكون نظرياتهم منبثقةً من مشكاة النبوة ووحي رب العالمين، وخضوعِهم للقوة القاهرة العليا الناشئة من الإيمان بالغيب، فهؤلاء هم الموفَّقون لعبادة اللَّه، والذين يحييهم اللَّه حياةً طيبةً ـ كما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ، ومن هنا كانت عبادة اللَّه ضرورةً اجتماعية حتمية وفطرة أساسية، من تنكَّب عنها فقد ضل سعيه في الحياة الدنيا، وشقي بنفسه، وشقي معه من يدور في فلكه، إذ لا صلاح لأهل الأرض إلا بتحقيق عبودية اللَّه علىٰ الوجه الصحيح؛ لينالوا الخير في الدارين.

الوجود الحسي والروحي للمؤمن:

الخامس والعشرون بعد المئة: أهلُ عبادة اللَّه وجودُهم غير محدود ولا يعرف الحدود؛ لأن وجودهم الحسي ممتزجٌ بالوجود الروحي الضارب المحلق في أجواء الزمان والمكان جميعًا، والهادف لنيل الدنيا والآخرة، فهم علىٰ مستوًىٰ رفيعٍ مناقضٍ لمستوىٰ الماديين في الفهم والشعور والسلوك أجمعه؛ لأنهم يؤمنون بوجودٍ لا ينحصر في العمر المحدود، وموقنون بتحصيل وعد غير مكذوب، ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم]، فوطنهم العاجل كل الأرض بحذافيرها، يسعَون بكل جهودهم لاسترجاعها من الغاصبين المتمردين علىٰ حكم اللَّهِ فيها، وينتشلونها من الظَّلَمة المتحكمين؛ لينفسح لهم المجال لحمل رسالة اللَّه وتوزيع أنوار هدايته، والقيام بإصلاح ما أفسده

المبطلون؛ لينقذوا أهلها من ظلمات شرك الدجاجلة وعبث العابثين، ووطنُهم الآجل الأكبرُ جنةٌ عرضُها السماواتُ والأرض، قد علمهم مولاهم ﷻ أن يقولوا لأعدائهم وأذناب أعدائهم: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة].

فهم لا يحزنون، ولا يحقدون، ولا يهنُون، ولا تلين لهم قناةٌ؛ ثقةً بوعد ربهم القائل: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]، ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح]، ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران].

وهدفهم ـ دائمًا ـ الانتصار للَّه، وحمل رسالته، وتنفيذ وصاياه في كتابه، ليس لهم هدفٌ شخصي، أو غايةٌ نفعيةٌ، فينتابُهم ما ينتابُ غيرهم من الماديين، فأما الماديون فوجودهم قصير محدود، ونظرهم كليل، وأبصارهم محجوبةٌ عن رؤية الحق، واعتمادُهم علىٰ أنفسهم القاصرة، لم يقدروا اللَّه حق قدرِه، ولم يلتفتوا إليه، ولم يعتمدوا عليه، قد رضُوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وأعرضوا عن آيات اللَّه، وكذبوا بوعده ووعيده، وأخلدوا إلىٰ الأرض والطين، وأعرضوا عن الدين، فباسم «خدمة الوطن» كانوا عبيدًا للأوطان بوحي الشيطان ـ لا عبيدًا للرحمن وفق أمره في القرآن ـ؛ بل عبيدًا للمبادئ والمذاهب التي ابتكرتها اليهودية العالمية، فكانوا باتباعها خَدَمًا للصهيونية وقرةً لعيونِهم ـ ولو ادعوا خلاف ذلك، أو أظهروا المعاداة لها، صادقين أو غير صادقين ـ؛ فإن انتهاج خططهم هو خدمة لهم في الأمر نفسه وباطنه، ولكن الذي يعرض عن وحي اللَّه تستهويه الشياطين، فيسلك سبلَ الغواية من حيث يطلب السؤددَ والهداية، ويخدم أعداءه، ويضيع

طاقاته لمصلحتهم، وهو يريد حربهم وقهرهم؛ لأن اللّٰه أنساه نفسه كما نسيه وأعماه عن مصلحته ورشده، وكما تنكّب عن هديه ورغب في سواه.

فهم قد انهزموا هزيمةً عقليةً انصاعوا بها إلىٰ تقليد الماسونية اليهودية العالمية في كل شيء، وكانوا عولًا[1] عليها في التثقيف وسلوك كل منهج تخطُّه في أي ميدان، فكأنهم انخرطوا في سلكها؛ بل بعضهم منخرط في سلكها باسم الإنسانية، لأنه لا يعرف منشأها، ولا من يغذيها، فلذا كان هدفهم محدودًا وأملهم محدودًا وعمرهم محدودًا، يرجع عليهم بالخيبة والنكال، حسبما قضاه اللّٰه في سنته؛ لأن الشيطان ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء]، وقد قدمنا توضيح معنىٰ «الشيطان» في باب الاستعاذة أول التفسير، فليرجع إليه.

وعلىٰ الحقيقة فهم كلاب الدنيا، يتجاذبون جيفها، ويتحاربون عليها، ويتناحرون في سبيلها، لهذا فهم يلهثون دائمًا، كما وصف اللّٰه المنسلخ عن آياته المقدَّس للأرض المتبع لشهواته بأنه «كالكلب» في سورة «الأعراف»[2]، هدفهم الطمع والبغي والاستعلاء والإفساد في الأرض: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس]، فعالَمُهم ـ الذي فيه لذتهم ونكدهم وسعادتهم وشقاؤهم، ودوافعُهم وفقَ أهدافهم الرخيصة ـ متحددٌ بتحدد حواسهم البهيمية وحاجاتهم المادية وأغراضهم النفعية، فإذا ضاعت عليهم أو انتكست مقاصدُهم بما يُجري اللّٰه من سننه الكونية ضاع عليهم وجودُهم كله؛ لضيقه وسرعة اضمحلاله؛ ذلك أن فريقًا منهم يقول: «أعمل لوطني»، والآخر يقول: «أعمل لشعبي»، والآخر يقول: «أعمل لأمتي»، والآخر يقول: «أعمل لمبدئي أو لمذهبي»، والصادق منهم يقول: «أعمل لمعيشتي وتأمين مستقبل عيالي».

---

(١) أي: اعتمدوا عليها.
(٢) آية (١٧٦).

وليس لهم تفكير فيما وراء ذلك من حمل رسالة اللّٰه ونصرة دينه ـ فضلًا عن العمل ـ، ولذا قامت الفوارق العظيمة بينهم وبين عباد اللّٰه الروحانيين الربانيين الذين همُّهم تنفيذ وصايا اللّٰه فيما استخلفهم في الأرض، ومن تطهير الضمائر وإخراج أهل الأرض ـ عامةً ـ من الظلمات إلىٰ النور، من ظلمات المادية والأنانية ـ التي يتمثل بها كل نوع من أنواع الشرك باللّٰه ـ إلىٰ نور وحي اللّٰه الهادي، إلىٰ الصدق معه والإخلاص له بحمل رسالته، والجهاد في سبيله لنصرةِ دينه وإعلاء كلمته، وقمع المفتري عليه.

فحياة هؤلاء غير محدودة؛ لأن عملهم خالدٌ صحيح، وعمرهم موصول بالخلد الدائم والعقبىٰ الحسنة في دار القرار، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران].

✍ اتزان العبد وضبط طاقاته:

السادس والعشرون بعد المئة: عبودية اللّٰه الحقة تضبط اتزان العبد الصادق، فيكون متزنًا في سائر شؤونه، لا يطغيه مالٌ ولا عزٌّ ولا منصب؛ لأنه يعتبر المال نعمةً من اللّٰه، وعاريةً معارةً منه إليه، سيسترجعها منه وينقلها إلىٰ غيره في وقت مجهول لا يعلمه، فهو ـ إذن ـ ينتهز الفرصة في حسن التصرف به واستغلاله استغلالًا صحيحًا، يكسبه المحمدة والخير في الدنيا والدرجاتِ العالية في الآخرة، ولا يطغىٰ فيتجاوز حدود اللّٰه فيه، فيتطاول به علىٰ الناس، أو يصرفُه في شهواته ويتشفىٰ بسببه من هذا في سبيل هذا أو ذاك، أو يبغي فيه الفساد بأي نوع، شأنَ الماديين الذين لهم أسوةٌ بسلفهم الخبيث «قارون»؛ بل عباد اللّٰه ـ المخلصون الصادقون ـ يستخدمون النعمة استخدامًا طيبًا في جميع وسائل الخير،

مبتدئين منها بنصرة دين اللَّه والإنفاق في سبيله ومساندة أهل طاعته ـ مهما كانوا ـ، محاذرين وعيد اللَّه بقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه].

وكذلك لا يطغيهم العزُّ والنصرُ أو المنصب، أو تزيغهم أُبَّهةُ المُلك والسيطرة عما أمروا به وخُلقوا من أجله، لاعتقادهم الجازم بأن اللَّه مالك الملك؛ يؤتي الملك من يشاء، ويَنزع الملك ممن يشاء، ويُعز من يشاء، ويُذل من يشاء، وأن اللَّه يبتليهم ويختبرهم بالخير والشر فتنةً لهم، ليَميزَ سليم القلب من سقيمه، فيراقبون اللَّه، ويستعملون ما أَولاهم من نعمه في تنفيذ أحكامه، حافظين لحدوده، لا يتعدَّونها قِيدَ[1] أُنملة؛ بل يكونون أمناء على ما ولَّاهم اللَّه إياه وأوصاهم به.

والتاريخ يشهد لعباد اللَّه الصادقين بضبط الاتزان وحسن التصرف في نعم اللَّه من مال وملك ووظيفة، بحيث أصبح تاريخهم مشرقًا بين الأمم، لم يتلوث بما تلوث به الماديون الزاعمون للحضارة والرُّقيِّ والمدنية، والمتبجحون[2] بخدمة الشعوب، وهم جلادون للشعوب، ومضللون لها، فهم شر البرية ـ كما وصفهم اللَّه ـ، أما الأخيار فهم عباد الرَّحمن حقًّا.

الوجه السابع والعشرون بعد المئة: وهو أن مَن صَدَق اللَّه فيما عاهده ويعاهده عليه من تكرار الضراعة إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فهذا ينضبط توازنه في أخلاقه وسلوكه في جميع نواحي الحياة، ويكون إنسانًا صالحًا لا ينتفع بحياته هو فقط، بل ينتفع به غيره ـ كما أمره اللَّه ـ، وبذلك يحيا حياةً طيبةً ـ كما وعده اللَّه ـ إذا حقق العمل الصالح المنبعث عن خشية اللَّه ومراقبة حكمه، ولا يحصلُ التوازن وينضبط إلا بالجمع بين العلم والعمل والغاية والوسيلة، والمادة والروح،

---

(١) **القِيد** ـ بكسر القاف والفتح خطأ ـ: المسافة.

(٢) **المتبجحون**: المفتخرون.

والمحبة والوجدان، والحكمة والعاطفة، فيحصل حينئذٍ الإنصاف مع الانتصاف، والإحسانُ مع الموجدة، والصِّلةُ في مقابلة القطيعة، والإعطاء في مقابلة الحرمان، والعفو عند المقدرة، والحلم في مقابلة الغضب، والجمعُ بين العبادة والعمل، بحيث لا تتعطل أي موهبة من المواهب عن استخراج أي مادة وتسخيرها في أي ناحية، ليحصل الجمعُ بين العبادة والجهاد بجميع وسائل الكفاح، والاستعداد بجميع أنواع القوة، علىٰ اختلاف نواحيها.

فإذا توازنت هذه الطاقات، وانضبطت في اتجاهاتها، مع صلاح العمل المستقيم، وإخلاص القصد للّـه في هذا كله، حصلت الحياة الطيبة والنصر المبين، والسعادة في الدارين، وحصل الأمن الصحيح الكامل الشامل في الحياة وما بعدها، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، فوعد اللّـه بالأمن والهداية العامة في جميع النواحي والشؤون لمن لم يخلط إيمانه بشيء من الظلم، والنَّكرةُ في سياق النفي تفيد العموم ـ كما هو مقرر ـ، فقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ يشمل جميع أنواع الظلم في كل شأنٍ وناحية، سواء كان في معاملة الخالق أو المخلوق، وقد دل العقل والنقل علىٰ أن الشرك ظلمٌ، وإن الظلم في معاملة اللّـه شرك ـ إذ الظلم في اللغة هو: النقص ـ، قال تعالىٰ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف]، والانتقاص من الحق ظلمٌ؛ لأنه انتقاص لصاحبه، وقد دل العقل علىٰ أن الإنسان لا ينتقص حق أحد إلا وهو مستهين به، مستخفٌّ بشأنه، لا يخشاه ولا يرجوه، ولا يوقره، وإنه لا يترك امتثال المأمور إلا حين يستخف بالآمر ولا يبالي به، هذا في حق المخلوق في معاملته مع مخلوق مثله، فكيف بحق الخلاق العليم، مالك الملك؟!.

ومن هنا حَكَم الرسول ﷺ علىٰ أن الظلم في معاملة الخالق شرك، فقد قال: «**إن الظلم هو الشركُ، ألم تسمعوا ما قال اللّـهُ علىٰ لسان العبدِ**

الصالح لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان]؟»[(١)].

وقال البخاري: حدثنا محمد بن يسار، حدثنا ابن عدي، عن شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبداللَّه قال: لما نزلت: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال أصحابه: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟! فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان][(٢)].

وينبغي أن نعلم أن معاملة المخلوق لها ارتباطٌ بمعاملة الخالق، والوقوف عند حكمه وحدوده، ومن أمعن النظر في جميع المفاسد والأخطار والجرائم، وجدها ناشئةً عن اختلاف التوازن، سواءٌ في السلوك الفردي أو الجماعي، فسَورةُ الطيش والغضب والكبرياء والحقد، والشح والهمز واللمز والخيانة والسب، ومؤامراتِ السوء بسائر أنواع المكر، والسرقة والكذب والاحتيال والقتل، وسائر الجنايات، والبغي والنفاق بجميع فنونه، والانهماك في الحسد، والانطلاق في إشباع شهوات النفس ورغباتها علىٰ حساب الآخرين... كل هذا وأمثاله سببه اختلافُ التوازن الناشئُ من عدم مراقبة اللَّه وتحقيق عبادته والاستعانة به جَلَّوَعَلَا في كل شيء، وكلها تؤدي إلىٰ فساد المجتمعات وتؤذن بخرابها، لأنها السبب في إثارة العداوات واستفزاز الغضب والوثبات المؤدية إلىٰ الحروب الفاتكة المخربة المعدمة ـ كما جرىٰ وسيجري أضعافه ـ؛ لأن العالم المادي اليوم يتسابق في صُنع ما يدمر المدنية، ويفتك بالحياة من تأثير ما ذكرناه، ومن تقديس العقل وإيثار المادة والنفعية علىٰ ما سواهما من الروحانيات التي بها تقوم السماوات والأرض، وينضبط التوازن.

وكل الجريمة تعود في ذلك علىٰ اطراح وحي اللَّه فيما أنزله علىٰ رسوله ﷺ، والكفرِ بالغيب، وقَصْرِ الإيمان علىٰ المحسوس الملموس،

---

(١) رواه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤).

(٢) انظر التخريج السابق.

مما ركزه طغاةُ اليهود في مذهب «دارون» و«فرويد» وغيرها من المذاهب اليهودية التي حلَّت وأفسدت مجتمعات أوربا وأمريكا، وأخذت الشيوعية منها بقسط، والرأسمالية بقسط، وكلتاهما في الكفر والخبث سواء، وسلوكهما الباطل واختلال توازنِهما سيُجريان علىٰ العالم مختلف الويلات والدمار الرهيب، الذي لا يعلم مداه إلا اللَّه، وهما وإن كانت تقع عليهما المسؤولية مباشرةً، لكن السبب في ذلك هو تخلي ورثة محمد ﷺ عن القيادة، وانحطاطهم إلىٰ هذه الحالة المشاهدة التي جعلتهم لا في العِير ولا في النفير، ولو صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه من حصر العبادة بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنقذوا العالم وطهروه من كل فتنة.

فورثة محمد ﷺ يجب عليهم القيام بإصلاح هذا الكون، وأن يفتحوا القلوب قبل البلاد، ويقوموا بتطهير الأرض من كل كفر وظلم وفسق وفجور، وأن يكونوا قوَّامين بالقسط ـ كما أمرهم اللَّه ـ، دافعين للباطل بسيوف الحق ـ التي هي سيوف الموحدين ـ، وما يؤيدها من أنواع الحديد[1]، وهذه المهمة لا تتحقق لهم إلَّا إذا ضبطوا توازنهم بحيث تتوازن جميع طاقاتِهم، فلا يطغي بعضها علىٰ بعض، ولا يتعطل بعضها لحساب بعض، أو يتحد بلا حساب؛ فإن التوازن في داخل النفس البشرية ـ حسبما رسمه اللَّه ـ هو الواقي من كل انحراف يكون في المجتمع، وهو الوسيلة لتفجير الطاقات، وبتحقيقه يصدِّقُ العمل للقول، وبعدمه يكذب العمل للقول؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف]، والمقت: أشد أنواع الكره والغضب.

وإذا كان مختلُّ التوازن بهذه المنزلة عند اللَّه؛ فلا عجب من حالتنا اليوم؛ لأن الذي يمقتُه اللَّه لا يوفقه، ولا يرحمه الرحمة الصحيحة الخاصة

---

(١) يقصد رَحِمَهُ اللَّهُ أنواع الأسلحة، واللَّهُ أعلم.

بالمؤمنين، ولا ينصره علىٰ أعدائه، بل يسلِّطهم عليه، ويُمدُّه في الغواية مدًّا، بدلًا من أن يرده هدايةً ورشدًا، واللَّه ليس بظلام للعبيد، فمن طغىٰ عليه حب المادة وإيثار زهرة الحياة، هانت عنده حدودُ اللَّه، وضعُفت قوته في أمر اللَّه؛ فكان باخسًا[١] لحق اللَّه، مطفِّفًا[٢] في معاملته معه، لم يخص اللَّه منه، ولا بمثل معاملته للمخلوق، فهذا لم يكن من أنصار اللَّه الذين كتب اللَّه علىٰ نفسه نصرتَهم، وتحقيق الغلبة لهم في الدارين، ووعدهم أن يحييهم حياةً طيبةً يهنؤوا فيها بالأمن والسعادة؛ بل انعكست حاله، فكان في أمر مريج[٣] وعيشةٍ ضنك، لا يستريح فيها ـ مع وفرة ماله، وطيب مساكنه، وارتفاع رتبته بين البشر ـ، ووجودِ ما يُنغِّصُ عيشتَه من الأخطار والمخاوف والإرهاصات[٤] المتنوعة، والحروب التي ينتظرها ويستعد لها، أو التي يتقلَّب فيها ما بين حروبٍ باردةٍ أو كاوية، فلذَّاتُه ممزوجة بالمخاوف والمصائب.

وكذلك من طغىٰ علىٰ قلبه حبُّ لهو الحديث المتنوع والمجونِ علىٰ حب ذكر اللَّه وما نزل من الحق، أو طغىٰ علىٰ قلبه حب شهواته ومعشوقاته علىٰ حب اللَّه ورسوله، فهذا وهذا لا تندفع جوارحه في طاعة اللَّه وتحقيق عبادته علىٰ الوجه المطلوب، من المسارعة في مرضاته، وحمل رسالته، والجهاد في سبيله لنصرة دينه، وقمع المفتري عليه؛ بل علىٰ العكس من كل هذا وهذا؛ يندفع اندفاعًا بَهيميًّا إلىٰ إشباع شهواته ونيل ملذاته، والتذوق من كل صوت حرام ومأكل ومشرب، ويكون علىٰ حد قوله تعالىٰ: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد].

وهناك نوعٌ آخر طغىٰ ويَطغَىٰ عليه التنسك إلىٰ حدٍّ يقطع صلته

---

(١) باخسًا: مضيعًا.

(٢) التطفيف: المخادعة والتخسير في الميزان.

(٣) المريج: المختلط المضطرب.

(٤) الأرهاصات: الخوارق.

بالواقع، أو يجعله يقتصر من دينه علىٰ صلوات ونحوها؛ دون أن يهتم بشؤون الحياة ويسعىٰ لتسييرها علىٰ وفق شرع اللَّه، فإنه يكون مفرِّطًا في جنب اللَّه[(١)]، ومتجاهلًا نفسه غير محترِمٍ لها في الوقت الذي يظن أنه قد احترمها وصرَّفها إلىٰ عبادة اللَّه، ويكون مخرجًا نفسه من الخيرية العظيمة التي هيأ اللَّه أمةَ محمدٍ لها، وأساء إلىٰ دين اللَّه بفسحه المجال لأهل الباطل، وإحداثه فراغًا هائلًا ينفذون منه في كل ميدان إلىٰ ما يريدونه؛ لأنه بجموده قد ترك ثغور الإسلام الأخرىٰ في جميع ميادين الحياة مفتوحةً لغزو كل مبطل.

والتصوف ـ وإن قل ـ فقد خلَّف أهلُه رجالًا هم الأكثرون من محسوبي الإسلام؛ يصلون صلاةً هي مجرد حركات، لا يلتهب بها شعورهم وحماسهم، ويصومون كصيام البهائم المحبوسة عن الطعام، ويحجون ويعتمرون دون أن يشهدوا منافع لهم، بل يشهدوا الزحام واللِّكام[(٢)]، ويتبادل بعضهم الشتائم، ويرجعون دون أن ينتفع دينهم من نسكهم بشيء، وهكذا مما تنكَّبت به الأمة عن حال سلفها، فضاعت كرامتهم، وتبددت طاقاتِهم، وكانوا مددًا لأعدائهم من حيث لا يشعرون.

ومن هنا نفذ علينا اليهود، وأفراخُهم النصارىٰ، وتلاميذهم من أبنائنا الذين انصبغوا برجسهم وثقافتهم، فانصبغت أكثر المناهج في سائر ميادين الحياة بصبغةٍ مادية وثنية إلحادية، بعيدةٍ عن حكم اللَّه فيما أنزل، والسبب الأكبر في ذلك يعود إلىٰ اختلال التوازن في المسلمين ـ سوقتهم وسُراتهم[(٣)] وقَصرهم الدينَ علىٰ جهةٍ دون جهة، مما جعلهم عرضةً للغزو المتنوع، وجعل المسلمين في عقر دارهم فيهم شبهٌ من مسلمي «أوربا» ومسلمي «روسيا» اليوم، ويقيمون بعض الشعائر، ويصلون في المساجد، لكن أولادهم في معزل عنهم، ويتولىٰ

---

(١) أي: في حقه.

(٢) **اللكام**: التلاكم والتضارب.

(٣) **السُّراة**: الأشراف.

تربيتهم من لا يُرضىٰ في دينه وأمانته، وكل هذا من اختلال توازنهم وانعزالهم عن أزمَّةِ الأمور في جميع ميادين الحياة، وتصميهم علىٰ سلبٍ دون إيجاب، فصارت عبودية اللَّه كأنها في شيء دون شيء، واللَّه أوجب علىٰ عباده العملَ علىٰ إقامة حكمه وتسيير دفة الأمور وفق شرعه في كل ناحية وألَّا يندفعوا مع أي تيار أو يسايروا أحدًا حيث سار؛ بل يدفعوا تيار الباطل، ويدفعوه بوحي ربِّهم، ويُسيِّروا العالم علىٰ ضوء هدايته ببذل غاية مجهودهم وتفجير أقصىٰ طاقاتِهم، امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: ٧٨] ـ لا بعض جهاده ـ؛ بل بالمبالغة في ذلك، وهذا إذا حصل توازنُهم بتحقيق عبودية اللَّه، ولم يحصل فيهم الاختلال.

الثامن والعشرون بعد المئة: الضارع إلىٰ اللَّه صدقًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يتجرد من جميع مؤثرات الجاهلية بكافة أنواعها، سواء المألوفة عنده في بيئته أو المستوردة عليه، فينخلع عنها، ويتبرَّأ منها عن بغض وعداء، مكتفيًا بتلقي الهداية ـ في جميع شؤونه ـ من كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ.

و«الجاهلية» ليست رسمًا خاصًا أو صبغةً خاصةً مقصورةً علىٰ قرن أو قرون مضت، إنما الجاهلية: كل سلوك مخالف لملة إبراهيم وشريعة سيد المرسلين في أي ناحيةٍ من نواحي الحياة، والجاهليةُ التي ينتهجها أكثر الناس اليوم أفظعُ من كل جاهليةٍ سبقتها؛ لأنها باسم «العلم والفن» تجعل الناس بمعزل عن منهج اللَّه في الحياة؛ بل فيها الاعتداء الكامل علىٰ سلطان اللَّه في الأرض، والسيطرةُ علىٰ عبيده بكل ظلم ومهانة، والجناية علىٰ عقولهم بالدجل والتضليل، وقتل أرواحهم بالأفكار السامة والعقائد المنحرفة التي تضيع دينهم ودنياهم، وفيها من الإغراءِ علىٰ كفر النعمة وإنكار الخالق، أو التنكُّر لدينه وشريعته والتنديد بها، مما هو تَهجُّمٌ علىٰ حكمته واستهانة بعزته، وفيها من التحسين للخلاعة والرذيلة والعمل علىٰ إذهاب الحياء

ما لا تقبله جاهليةُ أبي لهب وأبي جهل، فأكبرُ مهمةٍ للعابد للَّه تغيير واقعِه مما حل به من أنواع الجاهلية - بأي وصف ولقب وأي خطة -؛ بل من ضروريات الصدق للضارع إلىٰ ربه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أن ينخلع من كل عمل أو قول أو اعتقاد جاهلي، وأن يتخلص من ضغطِ أهل مجتمعه، فلا يصطلح معهم أو يتفق أو يلتقي معهم في أي ناحية، فلا يتعامل في سُوقه معاملةً جاهليةً مبتعدةً عن شريعة اللَّه، ولا يلتقي مع أي مصرفٍ عُمولتُه علىٰ خلاف شرع اللَّه، ولا يدخل أولاده في أي مدرسةٍ يكون التعليمُ فيها علىٰ خلاف ملة إبراهيم وشريعة سيد المرسلين، ولا تجرُّه المصلحة العائلية المزعومة إلىٰ الهزيمة بإدخالهم في أي مدرسةٍ كانت فيها خطرٌ علىٰ العقيدة بما يخالف التصور الإسلامي الصحيح، ولا يسمحُ في بيته بدخول أي لونٍ من ألوان الجاهلية من التبرج وإظهار المفاتن أو تضييق الثياب، أو الحفلات الحديثة النابية عن أخلاق الإسلام، فضلًا عن الاختلاط - والعياذ باللَّه -؛ بل تكونُ مهمته السامية أن يستعليَ علىٰ هذا المجتمع، ويترفع عن جميع عاداته ونُظُمه، وأن يعمل علىٰ تغييره بكل وسيلةٍ من وسائل الحكمة، والتوجيه بسائر وسائل النشر والإعلام المختلفة، لا تخالطه الأنانيةُ والميوعة، فلا يحاول الركون إليه أبدًا؛ لأنه يحرمه أن يعيشَ كما يطلبه اللَّه علىٰ وفق شريعته؛ إما بالدجل والتضليل، أو بالقهر والضغط المتنوع؛ لأن المجتمع الجاهلي - مهما اختلف اسمه ولقبه - يدَّعي بعض أهله أن لهم الحق في وضع التصورات والقيم وسن القوانين والنظم التي يجب خضوعُ الباقين لها؛ مما يجعل بعضهم أربابًا يشرعون وبعضهم عبيدًا ينفذون، وقد يدعي الجميع منهم أن له الحق في سلوك ما يهواه، فكيف يلتقي معهم العابد للَّه حقًّا؟! طبعًا لا يلتقي معهم إلا المطفِّفُ مع اللَّه، أو الجاهل بحكم اللَّه.

التاسع والعشرون بعد المئة: العابد للَّه حقًّا والضارع إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يعلم أنه لا يُصلح نفسه ولا مجتمعه، بل ولا يصلح

جميع أوضاع العالم، إلا بتحقيق عبادة اللَّه وإقامة دينه حسبما شرعه، وليس حسب نظريات قلقة من فلسفات اليهود والملاحدة باسم الحرية والديمقراطية أو الاشتراكية... إلىٰ آخر المصطلحات الجوفاء.

فإن العدالة المطلوبة المنشودة في كل هذه المصطلحات السابقة؛ إنما ينبثق فيه المجتمعُ من التصور الإسلامي الصحيح؛ المرتكز علىٰ عقيدة توحيد الألوهية، التي يُردُّ الأمر فيها كله للَّه ويقبله عباده الصادقون عن رضًا وطواعيةٍ وتسليمٍ لأمر اللَّه ورسوله.

فلا يطمع أحدٌ بغير ما آتاه اللَّه، أو يحقد علىٰ غيره من أجل ذلك، كما لا يحاول أحدٌ أن يوجِّه الناس ضد قضاء اللَّه وقدره، كما يجري ممَّن ينازع سلطان اللَّه بحكم الأرض ـ أو بعضها ـ علىٰ خلاف وحيه الذي بعث به نبيه، وعمل به هو وصحابته؛ فقد بعث اللَّه محمدًا ﷺ والمجتمع العربي فيه أنواع من البؤس والنزعات الطائفية، والاستعمار المحيط به، فلم يأمره بالدعوة إلىٰ قوميةٍ يتكتل فيها العرب، ولا بالدعوة إلىٰ اشتراكية يُغريهم فيها بالمساواة الكاذبة.

ولو دعا محمد ﷺ إلىٰ ذلك لاستجاب له أكثر العرب ـ أو كلهم ـ بلا عنتٍ ولا عناء، ولكنَّ اللَّه يعلم أن هذا ليس طريقًا مجديًا لحمل الرسالات، ولا لتطهير الضمائر أو إصلاح الجوارح، كما أنه ليس الطريقَ الصحيح لتخليص الناس وتحريرهم من عبودية بعضهم لبعض واستعداءِ بعضهم علىٰ بعض؛ فالعبودية الحقة الواجبة للَّه علىٰ الخلق هي سيطرة سلطان اللَّه علىٰ الضمائر والجوارح وسائر الأحاسيس.

الثلاثون بعد المئة: بتحقيق عبادة اللَّه يَعرف الإنسان نفسه؛ فيغالي بقيمتها، ذلك أنه لا يعرف قيمةَ نفسه إلا الذي يعرف اللَّهَ حق معرفته، ويقدره حق قدره، فينزِّهُه عن العبث، ويتيقن أنه لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا؛ لأنه ظنُّ الذين كفروا، واللَّه لم يخلقهما إلا بالحق وأجل مسمًّىٰ، لنهاية لم يطَّلعْ عليها أحد من خلقه، ثم يعرف وظيفته في الأرض وأنه أقامه فيها خليفةً له، فيتصور وظيفة

الخليفة وواجب الخليفة، وذلك التصور ناشئ من اعتقاد أنه لم يخلقه اللَّه عبثًا، تعالىٰ اللَّه وتقدس عن ذلك.

وعلىٰ أساس ذلك يشمخ برأسه، متشرفًا بوظيفته العالية الجليلة، مراعيًا خدمة مولاه العليِّ العظيم في تحقيق أوامره، وتنفيذ وصاياه وتشريعاته، مترفعًا عن الخيانة في ترك شيءٍ منها، أو التقصير في تنفيذه، وهنالك يتمسك بوحي ربه الذي أورثه إياه من نبيه، وأمدَّه به قبسًا ونورًا يهتدي به ويهدي سواه ـ كما أمره وأوجب عليه ـ، فيعرف قيمته وشرفه بين المخلوقات من ناحيتين:

إحداهما: أنه خليفة للملك العظيم، مالك الملك، إله السماوات والأرض، فكما يعتز مَن هو نائب الحاكم من حكام الدنيا باستخلاف الحاكم له، فإن اعتزاز المؤمن ـ العارف بوظيفته للَّه والراجي مقامه عند اللَّه أعظم من اعتزاز ذلك أضعافًا مضاعفة، وهذا الاعتزاز يكسبه الاستمساك بوحيه، والقوةَ في تنفيذ أوامره، والغلظةَ علىٰ مخالفيه، ومحبة أحبابه وأهل طاعته وموالاتِهم، وبغض أعدائه المنابذين لوحيه ومعاداتهم ـ ولو كانوا أقرب قريب ـ، ويعلم ـ حقَّ العلم ـ أن اللَّه أقامه مقام القيادة والتوجيه، فلا يقصر في استلام القيادة، ولا يتراخىٰ في مَسْكها، ولا يقصر في توجيه عموم البشرية إلىٰ اللَّه بما أوحاه إليه، ولا يجمُد في قصره علىٰ أسلوبٍ واحد أو تصريفٍ واحد، بل ينوِّعُ أساليب هدايته ويصرفها إلىٰ كل مثل، ويُشبعُ بها كل مادة، ويكيِّفُ بها كل برنامج من برامج التعليم، وموادِّ النشر والإعلام المختلفة؛ مستغنيًا بوحي ربه المتضمنِ لكل هداية، والمتكفل بالرد علىٰ كل ناحية من نواحي الإلحاد والنظريات المختلفة، والوافي بجميع الحلول لكل المشاكل، معتقدًا كفايته عما سواه.

ثانيتهما: أنه وارث لنبيه المصطفىٰ ﷺ في حمل رسالته، وتبليغ دعوته، وتوزيع أنوار هدايته، وأن يسلك مع الناس نفس المسلك الذي سلكه رسول اللَّه ﷺ ليحضُر التلقي من هذا الرسول، كما كان هو حاضرًا

للتلقي من عند ربه، لا يطيع آثمًا ولا كفورًا، متحذرًا من كل واحدٍ أن يفتنه عن بعض ما أَنزل اللَّه إليه، غير متبعٍ أهواءهم في أي شأن من الشؤون، فكذلك المسلم الوارث لنبيِّه ﷺ يحصرُ تلقي الهداية على سنته قولًا وفعلًا وإقرارًا، مما هو تبيينٌ لكلام ربه، ولا يتعداه مثقال ذرة، ولا ينخدع بزخارف القول من غير المسلمين المؤمنين، ولا يسلم لشيء من نظرياتهم المخالفة لمدلول وحي اللَّه، أو ينهزم هزيمةً فكريةً أمام ما يزعمونه من اكتشافات يظهر بها مؤقتًا مما يخالف الوحي، لأن اكتشافاتهم مهما اطردت وتطورت فهي قاصرة جدًّا، والجديدُ منها ينقض القديم، ولا يزال اللَّهُ يريهم من آياته وعجائب صنعه وقدرته ما يتبينُ لهم به أنه الحق، كما وعد بذلك في الآية (٥٣) من سورة «الشورى»[١].

فالمؤمن باللَّه العابد للَّه المغالي بقيمته بين العالَم، لا ينهزم فكريًّا أمام ما يذيعونه من نتائج اكتشافاتهم، جازمًا أن ما خالف الحقَّ منها سيكذبه اكتشافٌ جديدٌ موافق لوحي اللَّه سواء كان قريبًا أو بعيدًا ـ؛ لأن اللَّه ﷻ لا معقِّب لحكمه ولا مبدِّل لكلماته، وكل ما أخبر به على لسان رسوله ﷺ لابد أن يتحقق، وأن ينكشف كذب غيره، وأن تنعكس حالةُ كل من خالفه وابتغى الخير في سواه.

وبهذا اليقين يصمد[٢] ثابتًا لا يتغير بشي من جعاجع الناس وفراقعهم، ولا يستخفونه بتقليدهم أو إصدار فتاوى موافقةٍ لأهوائهم، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١]؛ لأنهم إذا استخفُّوه وفتنوه، فغيروا مجرى سيره، تدنى برأسه وسقط إلى مستواهم المادي البهيمي، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس]، وحينئذٍ تذهب

---

(١) في المطبوع: «من سورة فصلت»، وهو سبق قلم، ويعني الشيخ رحمه الله قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [الشورى: ٥٣].

(٢) يعني المؤمن.

ميزته المحمدية بين سائر الأمم.

الثاني والثلاثون بعد المئة: هو أن المستعين باللَّه يملكُ نفسه، ويملك وقته، ويحتفظ بحريةِ الحركة تلقاء ما يواجهُ من أمور الحياة ـ طيبها ومكروهها ـ، دون أن يخيفَه شيء أو يعوقه أي مؤثر، فيعتمد علىٰ اللَّه ثم يثق بنفسه، فيُمدُّه اللَّه بقوةٍ معنوية يقدر بها علىٰ فعل الكثير، دون استمدادٍ من أحد أو انتظار عونه، وإنما بالاستعانة الصادقة باللَّه يحرك قواه الكامنة، ويفجِّرُ طاقاته وملَكاته المدفونة فيه، ويستغل كل فرصة متاحة له دون أي تفريط أو تسويف، فلا يؤجل عملَ اليوم لغد، أو يتريث عنه متعلقًا بالأماني؛ لأن ذلك مخالفٌ للاستعانة، ومؤخر أو حارمٌ من حصول الخير.

فالاستعانةُ الصحيحة باللَّه أعظم دعامةٍ لتحقيق المستقبل وتخفيف عبئه، وتحمُّلِ مشاق لتنفيذ كل منهاج في الحياة، والمستعين باللَّه حقًّا ينجح بين العُدَّةِ الروحية والمادية؛ فلا يخيب مسعاه بإذن ربه، وضده إما أن يغفل أو يكسل، فتطول فترة عنائه التي يبتغي الخلاص منها، وإما أن يقتصر علىٰ الماديات مُغفِلًا جانب اللَّه إلىٰ نفسه من جهة، ويسيِّره حسب سنته الكونية بما يشقيه ـ وإن نجح مؤقتًا ـ لحكمةٍ قضاها اللَّه لاستدراجه وعقوبة غيره به، فإنه لابد من انعكاس أمره؛ كما جرىٰ لكل أمةٍ منحرفة في القديم، وللأمم الشيوعية في الحديث، كذلك من نحا منحاها أو قابل باطلها بباطل معاكس له، ولم يقابلها بما نزل من عند اللَّه من الحق، فإن هذا النوع من الناس تؤول به جهوده إلىٰ الانحدار والهزيمة حسيًّا ومعنويًّا، مهما عالج أو غالط، فاللَّه غالب علىٰ أمره.

الثالث والثلاثون بعد المئة: العابد للَّه يطهِّرُ قلبه من أدران الذنوب وينقيه من الوساوس، ويصقله بذكر اللَّه والتوبة، نادمًا متحسرًا علىٰ كل لحظة فاتت، متلهفًا علىٰ ما فَرَط منها في غير عمل صالح، ومتحسرًا علىٰ ما أمضاه منها في باطل، ومنتهمًا علىٰ المزيد مما صلح منها.

وقد أورد الأصبهانيُّ حديثًا عن النبي ﷺ: «**النادمُ ينتظرُ منَ اللَّه الرحمة، والمُعجَبُ ينتظرُ المقتَ، واعلموا ـ عبادَ اللَّه ـ أن كل عاملٍ سيقدُمُ علىٰ عمله، ولا يخرج من الدنيا حتىٰ يرىٰ حُسنَ عمله وسُوءَ عمله، وإنما الأعمالُ بخواتيمها، والليل والنهار مطيَّتان، فأحسِنوا السَّيرَ عليهما إلىٰ الآخرة، واحذروا التسويفَ؛ فإن الموت يأتي بغتةً، ولا يغترَّ أحدُكم بحِلم اللَّه، فإن الجنة والنار أقربُ إلىٰ أحدكم من شراك نعله**»(١).

ففي هذا الأثر حضٌّ علىٰ اغتنام فرص العمر وترك التسويف في الطاعة والتوبة والاستزادة من الأعمال، وعدم الاغترار بإمهال اللَّه وحلمه.

ويا عجبًا ممن ينظف منزله ومتجره ومكتبه كل يوم، ويجدد لذلك الأثاث والبضائع، بل يجدد ثيابه وينظف ما تدنس منها دائبًا، ولا ينظف قلبه، ولا يجدد لكل خطيئةٍ أو تقصير توبة، ولا يصفي قلبه للَّه من كل شيء، كل هذا من الغفلة والغرور، ولا يرضىٰ لثيابه بالدنس، ويعمل علىٰ دنس قلبه، بل علىٰ مزيد منه بترك تطهيره!!

وفي الحديث: «**إن العبدَ إذا أذنب ذنبًا نُكِتَ في قلبه نكتةٌ سوداء، فإن تاب صُقلت، وإلا عَلَت قلبه، فذلك الرانُ الذي قال اللَّهُ فيه:** ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين]»(٢).

فالعابدُ للَّه يراقب اللَّهَ بمحاسبة نفسه علىٰ كل خطرةٍ أو نظرة، وعلىٰ كل حركةٍ وسكون ليُصقل قلبه من سواد المعصية فعلًا، والتقصيرِ في الطاعة؛ فلا يلقىٰ اللَّه بقلب أسود، فإذا تدنَّس ثوبه ذكر دنَس قلبه، فسعىٰ لتنقيته وتطهيره قبل ثوبه؛ لقوة معرفته أنه محلُّ نظر اللَّه.

وإنما كان العابد للَّه منقيًا لقلبه منزهًا لأحاسيسه ليسلَمَ تفكيرُه مما سوىٰ اللَّه؛ فتنضبط جوارحه وحركاته وفق حدود اللَّه، فتكسب نفسه

---

(١) رواه الطبراني في «الصغير» (٥٢٠).

(٢) رواه أحمد (٢/٢٩٧)، والتِّرمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

الاعتدال والتوازن، وكلما اعتراها شيءٌ من نزغات الشياطين أصلحه بمراقبة اللَّه والتوبة النصوح؛ ليرجع إليها توازنها واعتدالها، فلا تفقد مددَ اللَّه، فإن الإنسان في أشد الحاجة إلىٰ تعهُّد حياته المعنوية والتنقيب في أرجاء نفسه، ليعمل ما يصونها من التفكك، والعللِ الناشئة من الشرك ـ الذي هو اتباع الهوىٰ ـ، أو المعصية التي لا تكون إلا مِن غفلةٍ أو غيبوبةٍ منهزمِ عقل؛ فإن الكيان العاطفي والعقلي للإنسان قلما يتماسك مع حدةِ الاحتكاك بأنواع الشهوات والمغريات، وتأثيرِ وساوس شياطين الجن، وقرناء السوء من شياطين الإنس، وهذه عواملُ الهدم في الكيان البشري، تَهدمُ الضمير، وتسلب العقل، وتقضي علىٰ الفطرة، ولا ينجي منها إلا مواصلةُ الجهاد في تنقية القلب وتطهيره مما سوىٰ اللَّه، ولذا كان المؤمن دائمًا في جهاد أكبر، لحماية مملكته الغالية ـ التي بين جنبيه ـ من استعباد الهوىٰ والشهوات، واستعمار شياطين الجن والإنس لها.

الرابع والثلاثون بعد المئة: عبودية اللَّه تستلزم الإخباتَ له، فالعابد للَّه يكون مخبتًا له، والإخبات: الاطمئنان، فهو النزول بالنفس عن الكبرياء والغطرسة بأن تستذل للَّه وحده، وترىٰ فقرها وحاجتها إليه ملازمَينِ لها، ويسمىٰ المكانُ المطمئن في اللغة: «خبتًا»، والإخبات للَّه هو: الذل والاطمئنان عند ذكره خوفًا ووجلًا، والرضا بقضائه بالصبر علىٰ المصائب، وهو عدم الجزع والهلع؛ لا الاستسلام بالكلية؛ بل يعالج قضاء اللَّه بما قضاه من الأشياء التي تدفعُه أو تخفِّفُ وطأته[1]، وأن يكون العابدُ مقيمًا للصلاة، مصطبرًا عليها ـ كما أمره اللَّه ـ، ليستعين بها علىٰ طاعته وتنفيذ وصاياه، وأن يجود بماله بالإنفاق فيما يرضي اللَّه.

---

(١) وإنما يُعالج ويُدافع القدر الذي أُمر العبد بمدافعته، كالجوع يدافع بالطعام، والزواج لرغبة الحصول علىٰ الولد، وعدم السكوت علىٰ الذل ونحو هذا، أما القدر الذي لا مرد لدفعه ـ كما إذا أصيب بمصيبة موت عزيز مثلًا ـ، فالمطلوب من العبد الصبر والثبات.

وقد أُوضِحَ معنىٰ الإخبات في قوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج].

فالإخبات من لوازم العبودية؛ لأنها مبنيةٌ علىٰ الذل والخضوع، ومنه يسمَّىٰ الطريق الممهد المذلل بالآلات: «معبَّد»، لكن هذا الذل لا ينبغي إلا للَّه وحده، أما لسواه فلا يكون محمودًا، بل هو جبنٌ وخَنَثٌ[1] وميوعة، وقد يكون شركًا - والعياذ باللَّه -.

وبعكس المخبت: «المغرض الانتهازي» الذي يعبد اللَّه علىٰ حرف[2]، فإن نال خيرًا ونجاحًا عاجلًا رضي واطمأن به ومن أجله، وإن أصابه شرٌّ أو انتكس مقصوده بحدوثِ فتنة أو محنة سخط علىٰ اللَّه، وانقلب عن طاعته أو شك فيه - والعياذ باللَّه -، فهذا ليس من العابدين للَّه؛ بل هو انتهازي ليس عنده إيمان ولا عقيدة، وعاقبته الخسران المحتم من اللَّه، كما في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج].

الخامس والثلاثون بعد المئة: العابد للَّه يلتفت إلىٰ حكمته في مصالحة الأمور، فيدفع الشر والإساءة بالتي هي أحسن، ويكون حكيمًا في المعاملة، يستجلب الود والإخاء، ويعفو عن الزلات، ويقابل المسيء بالإحسان، ليستبقي مودته، ويكسب صداقته، بدلًا من أن يشاوره، فيستعجلَ الخلاف، ويتفاقمَ الشر، ويعظُمَ الخطر، ويتسع الصدع، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [فصلت]، وهذا إذا كانت الإساءة ليس لها مساسٌ بالدين أولًا، ولم تصدر من خبيث الطبع ثانيًا، ولم تتكرر ثالثًا، فإن

(١) **الخنث**: من التخنث وهو الميوعة - أيضًا -.
(٢) أي: بإيمان ضعيف للغاية ينهار لأي شبهة أو شهوة.

كان لها مساس بالدين وجب الغضب للَّه غيرةً له وحميةً لدينه، فيعالجها بمقتضىٰ الشرع من إزالة المنكر، وتأديب فاعله ـ حسب حالِه وحالِ خطيئته ـ، ناويًا بذلك رحمته بتطهيره مما قال أو فعل؛ مع نصرته للحق، فإن الرحمة الصحيحة لا تتحقق إلا بذلك؛ فرحمته بنُصحه وزجره وتأديبه ليرتدع؛ فتطهرَ جوارحُه وأحاسيسه من رجس الخطيئة وشؤمها، وتركُه[١] غش له وإيذاء لجوارحه، وتنجيس لروحه، وخيانة لرب العالمين، وإخلال بعبوديته.

وأما خبيث الطبع فلا ينفع معه التسامح، ولا يُجدي فيه المعروف والإحسان، بل يزيد في تمرده وغروره واستعلائه علىٰ الأخيار، فعلاجُه ودفعُ ضرره بقمعه بالعقوبة الرادعة الملائمة، نصحًا للَّه ولكتابه ولرسوله وعباده المؤمنين.

وما أحسن قولَ الشاعر:

واخشَ الأذىٰ عندَ إكرام اللئيم كما ... تخشىٰ الأذىٰ إن أهنتَ الحُرَّ ذا النُّبلِ

إن الصنيعةَ للأنذالِ تُفسِدُهم ... كما تُضِر رياحُ الوردِ بالجُعَلِ[٢]

وكذلك من تكرر بإهدار الكرامة والنيل من المؤمن، وإن لم يكن خبيثَ الطبع فإنه يُردع؛ حتىٰ لا يكون ذلك سجيةً له، فيكون ردعه تهذيبًا له ورحمةً.

فالعابد للَّه يجمع بين الصبر والانتفاضة، وبين الحِلم والغلظة حسب الحدود الشرعية، بحيث لا يَطغىٰ كل منهما علىٰ الآخر.

وقيل:

لئن كنتُ محتاجًا إلىٰ الحِلم إنني ... إلىٰ الجهلِ في بعض الأحايين

---

(١) يعني إذا ترك المؤمنُ الصادقُ ذلكم العبدَ الضال في ضلاله وغَيِّه.

(٢) **الجُعَل**: حشرة كالخنفساء تحب الروائح المنتنة، وتنفر من الروائح الطيبة.

ولستُ أودُّ الجهل خِدنًا وصاحبًا ولكنني أرضىٰ به حين أُحرَجُ[١]

السادس والثلاثون بعد المئة: عبودية اللَّه توجب علىٰ العابد اعتزال المخالفين صراطَ اللَّه، المنابذين لوحيه، فلا يجالسهم أو يقترب منهم، إلا لمصلحةِ دين اللَّه وما يستوجب خدمةَ عباده الصادقين، ولا يخالطهم علىٰ باطل أو يجلس معهم وهم يخوضون في آيات اللَّه[٢]؛ لأن العامل لشيء من ذلك مخلٌّ بعبودية اللَّه؛ بل قد انطفأت جمرةُ الغيرة للَّه من قلبه، لنقص حب اللَّه فيه أو انعدامه منه ـ والعياذ باللَّه ـ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام].

السابع والثلاثون بعد المئة: عبودية اللَّه توجب علىٰ العابد ألَّا يوالي من خالف أوامر اللَّه أو تجاوزه حدوده، أو عملَ علىٰ إيذاء المؤمنين أو التنكيل بهم، ولا يتعاون مع فاعل ذلك، ولا يعينُه، ولا يدفع عنه عقوبةً، ولا يحسن إليه؛ لأنه بذلك يكون مسيئًا إلىٰ الحق وأهله، مشجعًا للباطل وفاعليه، ومؤذيًا أولياء اللَّه، وناصرًا أعداءه، وبذلك تكون المبارزةُ للَّه بالمحاربة؛ كما ورد في الحديث القدسي: «**مَن عادي لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة...**» الحديث[٣]؛ بل عمله منافٍ لأصل التوحيد من الحب في اللَّه والموالاة لأجله، والبغض في اللَّه والمعاداة من أجله؛ فالعابد للَّه لابد أن يعلن البراءة ممن انتهج غير شريعة اللَّه وحُكمه، واتبع غير سبيل المؤمنين، حاله في ذلك حاله أبينا إبراهيم عليه السلام؛ إذ تبرأ من قومه المشركين[٤].

---

(١) **الخِدن**: الصاحب.

(٢) أي: يتلاعبون بها.

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ =

الثامن والثلاثون بعد المئة: العابد للَّه حقًّا يكون صادق الوعد، لا يلويه[١] عن الصدق أيُّ مصلحة أو شهوة، وقد مدح اللَّه نبيه إسماعيل عليه السلام بأنه كان صادق الوعد، وذم المنافقين بإخلافهم الوعد وترك الصدق في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة].

وقال ﷺ: «**عليكم بالصِّدقِ؛ فإن الصدقَ يَهدي إلىٰ البرِّ، وإن البرَّ يَهدي إلىٰ الجنة، ولا يزالُ الرجلُ يَصدُقُ ويتحرَّىٰ الصدقَ؛ حتىٰ يُكتب عند اللَّه صديقًا. وإياكم والكذب؛ فإن الكذبَ يَهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجورَ يَهدي إلىٰ النار، ولا يزال الرجلُ يَكذبُ ويتحرَّىٰ الكذب؛ حتىٰ يُكتب عند اللَّه كذابًا**»[٢].

وقيل له ﷺ: أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: «**نعم**»، فقيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ قال: «**لا**»[٣].

التاسع والثلاثون بعد المئة: العابد للَّه يأمر أهله بالصلاة والزكاة مصطبرًا علىٰ ذلك، ممتثلًا أمر اللَّه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

و«الأهل» يشمل الأولاد ـ ذكورًا وإناثًا ـ، والزوجات، والإخوان، والأخوات، وسائر الأقارب أصولًا وفروعًا.

ويتسع معنىٰ الأهل باتساع القُدرة ونفوذ الكلمة، فالحاكم يدخلُ في عموم أهله جميعُ رعاياه ـ مهما كثر عددهم واتسعت بلادهم ـ، فهو

= إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف].

(١) **يلويه:** يُبعده ويُلفِتُه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (١٩).

مسؤول عنهم جميعًا.

والصلاةُ عمود الدين، وهي الفارق بيننا وبين المشركين، والمسلم المؤمن مطالَبٌ من اللّٰه بقتال الناس حتىٰ يشهدوا الشهادتين، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وإذا كان مطالبًا بقتالهم فكيف يغفُل عمن هم تحت يده، أو يهملهم في إقامة هذه الشعائر؟!!.

الأربعون بعد المئة: عبودية اللّٰه تقتضي تحقيق ألوهيته في الأرض كألوهيته في السماء، فتخضعُ القلوبُ لسلطانه، وتنقاد الجوارح لطاعته، وتمتلئ القلوب من محبته وتعظيمه، وتندفع جميع القوىٰ والطاقات في نصرة دينه، وقمعِ المفتري عليه، وجعل الحاكميةِ له وحده، وتكريس كل الجهود لانتزاعها من كل ظالم وطاغوتٍ يريد الاستبداد بها وفق أهوائه.

فالعابد للّٰه لا يُقرُّ أحدًا علىٰ ذلك ـ فضلًا عن أن يخضع له ـ؛ لأن من أقره وخضع له طوعًا يكون عابدًا له؛ قد اتخده ندًا للّٰه.

أما الخاضع له والمنفذُ لحكمه استحسانًا فهذا مشرك، بخلاف المرغَم عليه وهو ساخط، فإن حكمه حكمُ من أُكره علىٰ الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فإن عبادة اللّٰه تحصر السلطان له وحده في سائر ميادين الحياة، ولا تعتبر لعباد اللّٰه جنسيةً سوىٰ العقيدة التي يتساوىٰ فيها جميع الناس، والخارج عن ذلك ليس عبدًا للّٰه؛ لأن عمله مناقض لمدلول الشهادتين.

الحادي والأربعون بعد المئة: العابد للّٰه حقًّا عن حب ومعرفة، هو الذي يَخِرُّ[1] لتلاوة آيات اللّٰه خاشعًا مسبحًا، وإجلالًا لعظمة اللّٰه وتقديرًا له حق قدره، واعترافًا بجميله، وقيامًا بشكره، فيتدبر ما يتلوه ـ أو يُتلىٰ عليه ـ من وحي ربه، ويعمل بمدلوله ـ بعد تفهمُّه الناتجِ من ذلك الخشوعِ والتدبر والتعظيم ـ، فيكون هاديًا مَهديًا، صالحًا مصلحًا،

(١) **يخر**: يخضع.

مهتديًا بنفسه، داعيًا إلىٰ ربه، موزعًا لأنوار الوحيين، مصلحًا بها قلبه، مطهرًا بها جوارحه، وساعيًا لإصلاح ما قدَر علىٰ إصلاحه من أهل الأرض علىٰ ضوئها، فيكون خليفةً صالحًا للَّه في أرضه ـ كما أوجب عليه، وخَلَقه من أجل ذلك ـ، ويكون مقتديًا بنبيه ﷺ، محسنًا التصرف في ميراثه، مستجلبًا بذلك مدد اللَّه ونصرته علىٰ أعدائه مهما كانوا، ويحقق إنسانيته الكاملة بانتفاعه بكتاب اللَّه علمًا وعملًا.

أما مَن كان علىٰ خلاف ذلك فقد دسَّىٰ نفسه[1]، ونزل بها عن مستوىٰ الإنسان الرفيع إلىٰ مستوىٰ الحيوان الوضيع؛ لأن مَن لم ينتفع بوحي اللَّه من كتاب وسنةٍ ـ وقد حمَّله اللَّهُ إياه ـ فهو كالحيوان، بل شبهه اللَّه بأبلد البهائم وأخسها، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ۝٥﴾ [الجمعة]، وهذا المثل لمن لم ينتفع بوحي اللَّه لعدم تقبُّله والانطباع به؛ لأنه ببلادته كالحمار الذي يحمل الكتب، فإنه لو حملها علىٰ ظهره طول عمره لم ينتفع بها لعدم فهمه.

فالإنسانُ الذي شرفه اللَّه، وأمده بقبس من نوره فيما أوحاه إلىٰ رسله، إذا زهد فيه وأعرض عن هدايته، وتخلىٰ عن واجبه للَّه فيه، شابَهَ ذلك الحمارَ في بلادته، وهو الجاني علىٰ نفسه بطرحه لما شرفه اللَّه به، فاستحق ذلك المثل السيئ من اللَّه الذي هو أحكم الحاكمين.

ولكنَّ كثيرًا ممن رضي بالحياة الدنيا وقصَر عمله عليها، وصار غاية همه ومنتهىٰ قصده تأمين معيشته البهيمية، وتربيةَ عياله، وجمْعَ المال أو اكتسابه لهذه الغاية ـ دون تفكير بحمل رسالته وحماية عقيدته وتركيزها والتضحية بالنفس والمال في سبيل اللَّه لتنفيذ هذا المخطط، وتوسيع رقعة الإسلام ـ؛ فهذا النوع الكثير من الناس اليوم لو قيل لواحد منهم: «أنت كالحمار» غضب وزمجر، ووقع في عرضك، وقال عن نفسه: «أنا الرجل، وأنا وأنا»، وهو غافل سادر[2] لا يدري أنه مستحق

(١) دسَّىٰ: حقَّر.
(٢) سادر: تائه.

لهذا الوصف السيئ من رب العرش العظيم.

وبسبب هذا الشعور الخاطئ وقلة الاهتمام بما أوجب اللَّه من حمل الرسالة لتوزيع الهداية وحماية العقيدة؛ تغلَّب علىٰ المسلمين الجامدين والمحسوبين علىٰ الإسلام طغامٌ(١)، ممن تسيِّرهم الأرتالُ(٢) الخمسة الماسونية اليهودية، وتحركهم المبادئ المادية التي غرسها اليهود علىٰ أيدي المستعمرين؛ لأن هؤلاء الطغام انشغلت قلوبهم ـ التي تركها المسلمون المفرطون فارغةً ـ بتلك المبادئ، واستَعَرَتْ تحمسًا لها، فتصلبوا للدفاع في سبيلها، ونجحوا ـ مؤقتًا ـ نجاحًا جرُّوا به الخراب والدمار في كل ناحية، وسببه تبلُّد المسلمين لانطفاء جمرة الغيرة للَّه في قلوبهم.

واللَّـهُ الذي ضرب هذا المثلَ لمن لم ينتفع بوحيه بحُسن حمله ورعاية الأمانة فيه، قد ضرب مثلًا أسوأ منه لمن انحرف عن وحيه وانسلخ منه مبتغيًا سواه ـ مما تَهواه نفسه من المذاهب والأذواق ـ، فشبهه بالكلب الذي من طبيعته أنه: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾؛ كما نص علىٰ ذلك في الآيات (١٧٥ ـ ١٧٦) من سورة «الأعراف».

وقد ذكرتُ في عدة مواضع أن هذا المثلَ هو من معجزات القرآن الخالدة، فإننا نرىٰ المنحرف عن وحي اللَّه إلىٰ شهواته وأطماعه يلهث كالكلب، بل نجد هذا الصنفَ من الناس يتهارطون(٣) في صحفهم وإذاعاتهم تهارط الكلاب، وإذا سكت بعضهم لم يسكت الآخر عنه فيعود إليه.

وهذه من بعض عقوبات اللَّه علىٰ الكفرة ومن شابَههم من أدعياء الإسلام، الذين إذا ذُكِّروا بآيات اللَّه خرُّوا عليها صمًّا وعميانًا، لا

---

(١) **طغام**: أراذل.

(٢) **الأرتال** ـ لغةً ـ: الفئام والجماعات.

(٣) **يتهارطون**: يتشاتمون.

تعيها آذانهم، ولا ترعاها قلوبُهم، فلا تنطلق بها جوارحهم، فإنهم بذلك يحدثون فراغًا هائلًا تنفتح به جميع ثغورهم أمام غزو أعدائهم المتنوع ـ كما حصل ـ، ولا ينجو المسلمون منه حتىٰ يحققوا عبادة اللَّه بأخذِ وحيه بقوة، وأن تخشع قلوبهم لذكر اللَّه وما نزل من الحق، مبتعدين عن مشابهةِ أهل الكتاب في أي شيء ـ كما سنوضحه ـ في العبادةِ والسلوك.

الثاني والأربعون بعد المئة: يجب أن تسيطر عبودية اللَّه علىٰ العابد الصادق في سائر أنحاء سلوكه: في تصرفه بماله، وفي تربيته لعياله، وفي معاملته مع الناس في الشارع، والمتجر، والمصنع، والمؤسسة والدائرة، وفي جميع واقعيات الحياة، من شؤونه الاجتماعية، ونظرته السياسية، ومعاملاته الاقتصادية، وسلوكه في الحكم ـ إن كان حاكمًا ـ، أو منتظمًا في دواوين الحكم؛ فيراقب اللَّه ويخشاه ويتقيه في كلِّ من ذلك.

ففي المسلك الاقتصادي يَعتبر المال مالَ اللَّه؛ لا يصرفه في التبذير ولا في شهواته ورغباته، بل لا يصرف منه أقل قليل في معصية ـ ولو كانت صغيرة ـ؛ لأن المعصية الصغيرة إذا اقترن بها صرفُ حقير المال كانت كبيرة.

فالعابد للَّه كما يكتسب المال من حقه، لا ينفقه إلا في حقه من طاعة اللَّه وما يستعين به علىٰ حمل رسالته، والقيام بإعلاء كلمة اللَّه بأي وجه من الوجوه، ومن الإنفاق الواجب عليه، ناويًا الاستعانة به علىٰ ذلك، مجتنبًا الأشر والبطر ومجاراة السفهاء، أما في ميدان التربية، فيربي عياله وخدمه ومن يمُونُه[1] من المسلمين تربيةً دينيةً صحيحةً، لا ماديةً صرفة، بل يجمع فيها بين الروح والمادة، مغلِّبًا جانب الروح لا جانب المادة، ملاحظًا مسؤوليته أمام اللَّه في كل مَن

---

(١) **يمونه**: يلزمه نفقته.

هم تحت مسؤوليته وإشرافه، فلا يذهب للصلاة ويترك مَن تحت يده، بل لا يدَعُ لهم مجالًا للتمرد على حكم اللَّه والإعراض عنه، والانشغالِ بغيره، كيلا يكون خائنًا للَّه في ميدان التربية والتعليم، ولا ينام ويغفُل عنهم، ولا يتركهم لقرناء السوء، أو يعتمد في تربيتهم على المدارس المادية، ولا يجلب إليهم من يسير على مخططٍ مخالف لوحي اللَّه؛ بل لا يعتمد ولا يثق بأي معلم حتى يراه صالحًا مطيعًا للَّه، عالمًا بحكمه، وقَّافًا عند حدوده، معظمًا لحرماته، ويُبعد أولاده عن التعلم ممن خالف هذه الصفات، إذ لا خير في العلوم المادية إذا خلت عن الدين، فكيف إذا انحرفت بصاحبها عنه، فالمفضل لها ليس عابدًا للَّه، بل هو من عبيد المادة.

والعابد للَّه حقًّا من يجعل المستقبل الديني غاية همه، ومنتهى قصده، معتمدًا على اللَّه في تحصيل المادة، ساعيًا لها سعيًا لا يضر بدينه، ويفضِّل أن يكون ابنه عابدًا للَّه حاملًا لرسالته ـ ولو في أبسط حرفة ـ على أن يكون رئيسًا ملحدًا؛ لأن ولده من كسبه، ولا ينتفع إلا بصلاحه وسلامة دينه وسعيه في مرضاة اللَّه، وبعكسها يُحرم النفع ويجني الأوزار، إذا كان ضلاله بسبب تفريطه في تعليمه العلم النافع، فعبودية اللَّه تَهديه لذلك، وتجعله يؤثر الناحية الدينية.

أما معاملته مع الناس في السوق والشارع، والمتجر والمصنع، والمؤسسة ونحوها، فإنه يقيم حكم اللَّه في نصحهم وتوجيههم إلى اللَّه وأمرهم بالمعروف، ونَهيهم عن المنكر، وحضهم على الفضيلة، والتعاون معهم على البِر والتقوى، وعدم مجاراتِهم، أو السكوت على ما يراه من إثم وعدوان، وأن يكون طبيبًا لقلوبهم، رحيمًا بهم في النصح والتعليم، لا يستهزئُ بهم، ولا يدعهم بدون توجيه وإنكار، ومن أعياه أمرُه منهم ابتعد عنه وهجره وقاطعه حتى يفيءَ إلى أمر اللَّه، ولا يسمح لأي نوع من الفساد أو دواعي الفتنة أن ينتشر في سوقه أو أي مرفقٍ من مرافق بلده أبدًا.

وفي سلوكه في الحكم يقف عند حدود اللَّه، ولا يتخطىٰ شريعته أبدًا، وفي معاملته مع الحكام ومصاحبته لهم يذكِّرُهم بأمر اللَّه، وسلطانه الأعلىٰ، ويسدِّد خطاهم فيما قصروا فيه، ويعظُهم ويقول لهم في أنفسهم قولًا بليغًا، ولا يداهنهم بالسكوت، أو يغريهم بالمدح الباطل؛ فإن هذا خيانة للَّه من جهة، وغشٌّ لهم من جهة أخرىٰ، وكله مخل بعبودية اللَّه.

الثالث والأربعون بعد المئة: لا تقوم أي دعوةٍ إصلاحية، ولا ينجح أي مجهودٍ لتقويم الأخلاق، وتطهير المجتمع من أنواع الفساد، وتزكية النفوس من الغش والأحقاد، والنفاق والشهوات والأنانية، إلا بتحقيق عبودية اللَّه علىٰ أساس تصحيح العقيدة والاستقامة علىٰ الإخلاص للَّه والصدق معه، حبًّا له وطمعًا في ثوابه، وشوقًا إلىٰ لقائِه والأنس بقربه ورضوانه، وخوفًا من غضبه وعقابه، وطردِه من رحمته، وحرمانه من رؤيته، فيخضع لسلطانه بتدبر وحيه من كتاب وسنة والقيام بتنفيذهما، وتقرير القيم، ووضع موازين النظم علىٰ أساسهما، وجعل سلطتِه خاضعةً لهما، مسيَّرةً في فرضهما وتنفيذهما علىٰ المجتمع، إذ بدون ذلك تتأرجح الأخلاق، وتتخبط المفاهيم، وتطيش الأوزان، وتتغلب الأغراضُ النفسية والشهواتُ وهمزاتُ الشياطين علىٰ كل حركة لا تقوم علىٰ أساس العبودية للَّه والخضوع لحكمه والتزام وحيه.

ولذا كانت جميعُ دعوات الرسل إلىٰ عبادة وتقرير منهج «لا إله إلا اللَّه» لتحرير الناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات، ولكي يتوجهوا إلىٰ خالقهم، وينشغلوا بحبه وذكره، والعمل بطاعته، ويستلهموا الهداية في كل شأن من شؤونِهم، ونائبةٍ تنوبهم من وحي اللَّه فقط؛ لا يلتفتون إلىٰ غيره، ولا يريدون سواه، وبذلك ينجح عملهم ويُثمر مجهودهم وتتوحد صفوفهم؛ لأنه لا يَشعر بعضُهم بضغط بعض، بل ولا يراه حاصلًا، إنما يرىٰ حكم اللَّه هو المسيطر، وذلك بعدما تتقرر «لا إله إلا اللَّه» في القلوب، وتتكيف بها الأعمالُ والنظريات

والمقتَرحات وسائر الأحوال، فتطهر الأرض من طواغيت الأهواء وأرباب الحكم المبني عليها، وهم الذين عارضوا الرسل وقاوموهم.

ولو دعتهم رسل اللَّه إلىٰ التكتل تحت قومية أو وطنية يقيمون لأجلها حكمًا علمانيًّا لَمَا عارضوهم، بل طاروا فرحًا بما اقترحوه؛ لأنه يؤيد أهواءهم، ويبعثهم علىٰ مِللهم ونِحَلهم ورغباتهم التي هي افتراء علىٰ اللَّه وابتعاد عن سبيله، ولكن يأبىٰ ذلك؛ لأنه ليس فيه تحريرٌ صحيح ولا تطهير، وإنما فيه إقرارٌ للتسلط وعبادة الهوىٰ وتوسيع لرقعة الشقاق والجرائم بدل الوحدة والأمن، فاللَّهُ لم يرسل «نوحًا» لتقرير سلطان قومه علىٰ ما يريدونه من التكتل الوطني والعمل المادي، ولم يرسل «هودًا» ليقرر سلطان عادٍ، ويجعل لهم الخِيرةَ في النوع الذي يريدونه من الحكم والشهوات، ولم يرسل «صالحًا» إلىٰ ثمود لهذا الغرض الذي يعشقه القوميون من مخططات الماسونية اليهودية، ولم يرسل خليله «إبراهيم» ليقرر سلطان قومه ويبيح لهم ما أرادوا، بل قال لهم: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات]، وإنما أرسلهم لتقرير عقيدة «لا إله إلا اللَّه» وتوحيد سلطتها، وإعلاء كلمتها علىٰ جميع أهوائهم وشهواتهم، فما رضُوا برسل اللَّه من أجل انتزاع سلطتهم، وقاوموهم للإبقاء عليها والاحتفاظ بها، مع أنهم لا ينكرون ربوبية اللَّه، ولكن لا يريدون الخضوع لسلطانه، والتقيد بأوامره المزيلة لسلطتهم، والقامعة لأهوائهم.

وكذلك لم يرسل «محمدًا» ﷺ لإقرار سلطان العرب أو غيرهم علىٰ ما يريدون، ولو كان هكذا لقلَّ المخالف، بل قال تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون].

إن العرب وقت البعثة المحمدية كانوا أشد شرًّا من حالهم في مطلع هذا القرن الرابع عشر الهجري والعشرين الميلادي، إنهم أسوأ حالةً منهم في البؤس والشقاء، والفرقة والتناحر والاستعمار المطوق لهم من جميع الجهات، فالجنوب العربي يتقلب بين استعمار الفرس

والأحباش وباقي الجهات تحت نفوذ الرومان والفرس، ولم يسلم من الاحتلال المباشر إلا ما لا يستحق الاحتلال من الأراضي، التي يصور لنا الشاعر العربي معيشةَ أهلها في فخر واعتزاز، وتنويهٍ وإعجاب:

فما العيش إلا الضَّبُّ يحرشُهُ الفتىٰ وورِدٍ بمُستنِّ اليرابيع أكدرُ

فلو قام [ﷺ] يدعوهم ويُلهب شعورهم إلىٰ قوميةٍ يتكتَّلون تحت لوائها وشعاراتها؛ ليطردوا بها المحتل لبلادهم وسائر ثغورهم، لاستجابوا له بدونِ كلفةٍ ولا تعنت، واستراح من عنادهم وإيذائهم، وقد يُتوِّجوه ويُملِّكوه أمرهم لما يعرفون من شرفه وأمانته، ولأنه يدعوهم إلىٰ ما لا يخالف أهواءهم ولا يطمس مِللهم ونِحلهم ويَكبت مقاصدهم؛ لأن الدعوة القومية فيها إقرار لكل ذي باطل علىٰ باطله فيما يتعلق باللَّه.

وكذلك لو دعاهم إلىٰ مذهب اجتماعي من مخترعات اليهود المفسدين يثيرُ بها الأكثرية الغوغائية علىٰ طبقة الأشراف والأثرياء، لاستجاب له الأكثر، ثم كان الأقل مغلوبًا وانتصر في الحال، بدلًا من أن يتعثر بدعوة «لا إله إلا اللَّه» التي لا تدع لأحد من كل الطبقات شيئًا من الخيرة في أمره، ولكن اللَّه لا يريد شيئًا من ذلك ولا يرضاه ـ ولو في فترة قصيرة ـ؛ لأن اللَّه لا يرضىٰ الشرك لحظةً واحدةً، ولا يجيز لأحد من أنبيائه وأتباعهم الممالأة عليه أبدًا، وليس من حكمته التدرج في خلقه علىٰ ضلال؛ لأنه لا يجدي في النهاية، بل يكون هادمًا لمقصود الرسالات ومعجزاتِها ومبادئها الثابتة، من أول وهلة إلىٰ النهاية. ولو علم اللَّه في ذلك خيرًا؛ لأمر أنبياءه أو بعضهم أو خاتمهم محمدًا ﷺ أن يدعوَ إلىٰ مبدأ قومي، أو مذهب اجتماعيٍّ يسير الناس عليه، حتىٰ إذا تجمعوا وقهر بعضهم بعضًا عليه دعاهم بعده إلىٰ التوحيد الخالص بعدما أركسهم[١] في الشرك المتنوع، ولكن يأبىٰ اللَّه

---

(١) أركسهم: أسقطهم علىٰ رؤوسهم.

أن يشوب دعوةَ الرسل، أو يتقدمها شيء من ضروب الوثنية المادية، واتباع الهوىٰ، بل كانت الغاية والحكمة بعثَ الرسل بالتوحيد الذي ينتزع فيه سلطان الأهواء والشهوات من كل ناحية، فلا يبقىٰ للأهواء والشهوات مرتعٌ في الحكم، أو في سائر أنواع السلوك، وهو العليم الحكيم جَلَّوَعَلَا يريد أن يمحو سلطان البشر علىٰ البشر من أي نوع كان؛ حتىٰ لا يحكمَ أحد أحدًا إلا بحكم اللَّه المطهِّر للنفوس والجوارح، والمصلح لجميع الأحوال بتحقيق العبودية له وحده.

الرابع والأربعون بعد المئة: العابد للَّه يكون مرهف الإحساس، قوي الشعور، صادق العزيمة، عظيم الهمة، يطير إلىٰ اللَّه بجناح الشوق، مسارعًا في مرضاته، نشيطًا في طاعته، محبًّا للقائه، غير ضَجِرٍ ولا ملول، فلا يُفقد في مواقف الطاعة ومواقع الجهاد، فضلًا من أن يتفقده أهل الحسبة أو يأطروه[1]؛ لأن من كان كذلك فشعوره بارد، ومحبته ضعيفة، وشوقه مفقود.

فعباد اللَّه حقًّا يطيرون إليه بأجنحة من الشوق دون زاجر أو مُرهِّب، سوىٰ ما في قلوبهم من معرفة اللَّه الصحيحة ومحبته الصادقة التي انبعث منها الشوق إلىٰ لقائه، تصديقًا بوعده ورغبةً في جنته، فتجدهم رهبانًا بالليل وفرسانًا بالنهار، يَستهِمون علىٰ الجهاد نصرةً لدين اللَّه وطلبًا للشهادة المسرعة بهم إلىٰ ما وعدهم ربُّهم، قد قادهم إلىٰ اللَّه علمهم به، وتقديرهم له حق قدره، وقيامهم العملي بشكر نعمته وبره وإحسانه، ومعرفتهم لوظيفتهم في الأرض من أنهم خلفاؤه فيها، وأمناؤه علىٰ وحيه ورسالته، فلذلك لا يبغون عنهما بديلًا.

بخلاف الجهلة الذين لعبت عليهم الماسونية واليهودية، وجعلتهم يعملون للطين لا للدين، ويقاتلون في سبيل الشيطان، شيطان الهوىٰ وشيطان الإنس الذي يحبونه ويعملون له من دون اللَّه؛ ولذا قال

---

(١) **يأطِروه**: يرغموه علىٰ الرجوع إلىٰ الحق.

تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس]، وقد أوضحت معنىٰ «الشيطان» في أول التفسير، فليرجع إليه.

الخامس والأربعون بعد المئة: الابتهال إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يستلزم من صاحبه تجديد حياته كل ساعة بمراقبة اللَّه وخشيته، والرجوع إليه بالتوبة والاستغفار، والتزام حكمه في كل شيء، لئلا يتعثر في سيره، أو يستمر علىٰ تعثُّره بدوام ميله مع الشهوات واقترافه للدنايا بسبب أثرته التي لا ينجيه منها إلا تصديق ذلك الابتهال بالعمل، وحسن المراقبة ودوام الاستغفار الصحيح، وصدق الاستعانة بربه، حتىٰ لا يكله إلىٰ نفسه ويدعه حيران يتخبط في ضلال حيرته، ويدور في حلقاتٍ مفرَغةٍ من التجارب المُخفِقةِ المضيِّعةِ لوقته وطاقاته.

السادس والأربعون بعد المئة: الاستعانة الصادقة باللَّه تحيي الأمل في الإرادة الضعيفة الباردة أو المخدَّرة المسلولة[(١)]، ويُنهض عزيمة العبد الراقدة أو المتبَّرة[(٢)]، فتجعله يستأنف سيره إلىٰ اللَّه، ويسترجع قواه حسيًّا ومعنويًّا، وتزيل عنه الكنود[(٣)] القديم الذي يعوقه عن ذلك، ويجعله ينال منزلته الحقيقية في الدنيا وفي الآخرة، ذلك أن المستعين باللَّه محبٌّ له، واثق به، معتمد عليه، ناصب وجهه إليه، ملتزم لحكمه، ساعٍ فيما يرضيه، فيكون متسلحًا بالأسلحة الروحية مع الأسلحة المادية فلا يغلبه غالب، وقد جربت الدنيا ذلك علىٰ أيدي الصحابة الكرام.

السابع والأربعون بعد المئة: الضراعة الصادقة المتكررة من عبد اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حياةٌ متجددة من المقبل عليه، وعودةٌ

---

(١) **المسلولة:** المتنزعة.

(٢) **المتبَّرة:** المهلَكة.

(٣) **الكنود:** الجحود والنكران.

ونُقلةٌ حاسمة من الغافل عنه، تتغير بها معالم النفس المتغذية بوحي اللَّه؛ كما تتغير الأرض الموات بالمقادير الكافية من الماء والمخصبات، إنه بالتكرار لهذه الضراعة يَصقُلُ قلبه بتكرير مناجاة محبوبه الأعظم، وتتحرك جوارحه لتصديق ما في قلبه من الحب والإخلاص للَّه، فتنفجر طاقاته في حمل رسالة ربه والجهاد في سبيله، ويتوقد ذكاؤه، وتتبارك جهوده ومساعيه ببركة قربه من ربه وعمله لوجهه الكريم؛ لأن الضارع الصادق بهذه الآية تنحصر تحركاته من أقوال وأعمال للَّه وفق شرعه، لا يشوبها شائبة من نزغات الهوىٰ والشيطان، فيحظىٰ بهذه الثمرة باطنًا وظاهرًا.

وبعكسه البعيد من اللَّه يكون محرومًا من النور المعنوي، وعقيمًا من النجاح الصحيح؛ فمواهب الذكاء والمعرفة والقوة والجمال تتحول إلىٰ نقم ومصائب، وشقاق ومتاعب، عندما يبتعد صاحبها من اللَّه فيحرم من بركته وتوفيقه، هذا إذا قُدِّر له نجاح ماديٍّ مؤقت يؤول إلىٰ هكذا، وإلا فالغالب هزيمته وإفلاسه، ولذلك يخوِّف اللَّه عباده سوء العاقبة بقوله تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ [الذاريات]، وكل ما يُجريه اللَّه من المهلكات والمروعات في الدنيا؛ فهو إشعار لعباده بما يتعرضهم من المعاطب بسبب التفريط في جانبه، فكما تَلتمس النجاةَ من الخطر الداهم الذي تنظره بعينك؛ فاحسب أعظم حساب لما يوعدك اللَّه به، فاهرب منه إليه.

الثامن والأربعون بعد المئة: العابد للَّه حقًّا لا يتجاوز نصوص الوحيين من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ معتقدًا كفايتهما في كل شيء، مستيقنًا أن ربه سبحانه ليس نَسِيًّا، وأنه لا يعزب عن علمه شيء في السماوات ولا في الأرض، وأن علمه محيط بالسابق واللاحق، وأن أحكامه وتشريعاته كافية مغنية لحل جميع المشاكل في كل عصر، وأن ما يجري مما يسميه أعداء اللَّه «تطورًا» إنما هو زيغ وضلال وتَهتُّك وانحلال، وأن التطور الصحيح يجب أن يمشي وفق ما شرعه اللَّه، فإذا خالفه فليس

تطورًا، بل هو رجوع إلىٰ جاهلية وهمجية جديدة؛ وإن ظهر بألوان وأسماء مختَرَعة شتىٰ للدجل والتضليل، فإن خبثاء القصد والعمل قد بهرجوا جاهليتهم بطلاء العلم والمعرفة والحضارة والمدنية ليسوِّغوا تسميته «تطورًا»، والعلم الصحيح والمعرفة الحق علىٰ خلاف ما يريدون؛ لأنهما يدلان إلىٰ اللَّه ويخضعان صاحبهما لحكمه.

فالعابد للَّه المتصور لمقصوده من إرسال الرسل؛ يعرف أن الجاهلية ليست صورةً معينةً لفترات تأريخية قد مضت وانتهت بلا رجعة، وليس مقابل ما يسمىٰ بالعلم والمعارف والرقي والحضارة؛ لأنها لو كانت كذلك من هذا النوع أو ذاك؛ لفندها القرآن وعاب أهلها بعدم معرفتهم العلوم والفنون المادية والنظم الإدارية أو السياسية، ولأوضحها لهم ليخرجوا بها من جاهليتهم إلىٰ طور جديد، فأعطاهم البديل من الجهل المادي بعلم الكيمياء والفلك والرياضة والطبيعة والجيولوجيا وغيرها، وأعطاهم البديل من الجهل السياسي بالنظريات السياسية المختلفة في المكر والخديعة، ولكن جاهليتهم ليست من عدم علمهم بهذه الأشياء وممارستهم لها، فإن عندهم علومًا ماديةً ورياضيةً علىٰ حسب متطلبات بيئتهم وزمانِهم، وعندهم من فنون القوة والجمال شيءٌ لم يبلغ بعضه من بعدهم، كما قال تعالىٰ في الآية (٩) من سورة «الروم»، والآية (٦٩) من سورة «التوبة»، والآية (٢١) من سورة «المؤمن»، وغيرها، وعندهم من أساليب المكر السياسي ما يلائم أحوالهم مما يماثل المكر المعاصر أو يزيد.

وإنما جاهليتهم مبنيةٌ علىٰ اتباع الهوىٰ والشهوات، وتقليد الآباء، ومسايرة الناس بغير هدىٰ من اللَّه؛ بل علىٰ أساس رفض وحي اللَّه ومحاربة رسله وأتباعهم، وإعلان بغضهم، والتنفير عنهم، وتمجيد الاعتماد علىٰ النفس، وانطلاقها في التصورات والأفعال دون وازع سوىٰ حكم الطاغوت أو القوة المادية.

هذه حقيقة الجاهلية الأولىٰ المعادية لرسل اللَّه، سواء كانت جاهليةً

عربيةً أو رومانيةً أو يونانيـةً أو فرعونيـةً أو فارسيـةً أو هنديةً أو صينيةً، فلا عبرة بالأسماء ولا بالانتساب، إنما العبرة بالحالة النفسية التي تأبىٰ الانقياد لأمر اللّـه والانصياع لحكمه؛ اتباعًا للهوىٰ ورغبةً في الأنانية والنفوذ المطلق بأي صورة ظهرت.

وبهذا التعريف الظاهر المنضبط الصحيح يتضح لعبد اللّـه أن لكل قوم في كل زمان جاهليـةً، فيحذرها ويفر منها إلىٰ اللّـه بالاستمساك بوحيه والاستغناء به، والرجوع إليه في كل وِردٍ وصَدَر، واعتقاد أن جميع المظاهر والتصورات والأعمال المخالفة له جاهلية ورجس من مبتكرات الطواغيت المختلفة، ويدرك الأغوار البعيدة والمقاصد الخبيثة لما يطنطن به الملحدون والمغفلون من كلمات «الحرية والحضارة والمدنية»، التي هي من شعارات الماسونية البارزة في الثورة الفرنسية وألاعيبها في السلطنة التركية، تلك الأمور التي كان من ثمراتها الحنظلية تمركز اليهودية العالمية وأذنابها بكثير من المراكز الحساسة في أغلب الدول المنصبغة بالجاهلية الحديثة، سواء ادعت العروبة أو الإسلام أو النصرانية أو غيرها من الألقاب المبهرجة، كما كان من ثمراتها فصل الدين عن الدولة، بل إقصاؤه عن جميع واقعيات الحياة ومناصبته العَداء، واستغلالهم مسمىٰ «الحرية» لجميع أنواع الإلحاد والعهارة التي تَهُزُّ القيم الدينية والأخلاق النبوية والأعراف المنبثقة عنهما، وتجاهر بتسفيه أهلها وتشكيك الناس فيهما[١]، وإطلاق العنان للشهوات البهيمية تحت رعاية دولهم، مما يجعل هذه الدول علىٰ غاية من «الدياثة» لإقرارها السوء في أعراض أهاليها، وتشجيعهم علىٰ ذلك، ويعملون بكل جد ونشاط علىٰ جعل الإنسان يعبد نفسه بخدمتها والسعي وراء متطلباتها؛ دون الالتفات إلىٰ اللّـه، وجعل الإنسان يعبد إنسانًا مثله باسم المبدأ أو الفلسفة للمبدأ أو الزعامة فيه، وإعطائه

---

(١) يعني القيم الدينية والأخلاق النبوية.

قداسة الألوهية بتعظيم صورته وعرض تماثيله علىٰ الجماهير والانحناء له حيًّا وميتًا في قبره، بل يعملون علىٰ عبادة الشخص لفئة خاصة أو وطنه كما هو معروف معمول به في مناهج القوميات التي قلبوا فيها دينَ الحقِّ دينَ تعددٍ بمختلف الغايات والأصنام الناطقة والاتجاه إليها، مما جعلهم في أحط أنواع الجاهلية، واعتقادهم في سوء التأثير والإصرار بسبب عمق التضليل وقوة الدجل واللعب بالعواطف واستغلال العلم المادي وسائر الفنون في هذا السبيل، بحيث قال شاعرهم:

لا رَبَّ إلا الشَّعبُ جَلَّ جلالُه فلـه العـبادةُ لا شـريكَ لـه

وقال الشاعر الوثني الآخر:

انطلِـقْ فـوق ضُـحاها ومَـساها يا أخي قد أصبحَ الشعبُ إلهَا

مع أن الشعب الذي يتغنىٰ المغرضون باسمه، ويأخذون كل شيء باسمه، ويحاكمون ويقتلون ما شاؤوا باسمه ليس له من أمره ولا مثقال ذرة؛ بل يسوقه الحكم العسكري الغاشم إلىٰ ما يريده، ويحركه تحريك الآلة بحيث تكون الأنعام أحسنَ منه حالةً، وقد قدمنا فيما مضىٰ أن ذلك عقوبة من اللّٰه يجريها علىٰ من تنكب عبادته فيبتليه بعبادة من لا يرحمه ولا يقبل منه معذرةً ولا تسويفًا.

ومنشأ هذه الأحوال التي يتردىٰ فيها الإنسان هو الانتقاص من كفاية وحي اللّٰه وعدم الاستغناء به والانشغالِ بتدبره؛ فتحصل الرغبة في غيره ـ أو طلب المزيد من غيره ـ لحل المشاكل، فتتلطخ الأدمغة وتفسد التصورات، وبفساد التصور يحصل الانحراف، وينقلب الاتجاه بانقلاب المفاهيم، حتىٰ إن الذين ابتُلُوا بالنظريات العصرية والمذاهب الثورية يرفضون الأخلاق والفضيلة، ويزدرون ما يسمىٰ: «الحق»؛ فلا يوجد عندهم ميزان صحيح للحق والفضيلة، كأن الحق والقيم الخلقية ليست إلا أشياء نسبيةً، اقتصرت شرعيتها وفائدتها علىٰ زمان أو مكان خاص أو بيئة مخصوصة، وقد لقبوا المجتمعات المؤسسة علىٰ الدين

والأخلاق النبوية بـ«الجمود والتزمت والتأخر»، وعملوا علىٰ القضاء عليها باسم: «العلم والفنون والتصنيع والتجميل»، كأن ذلك لا يتم إلا علىٰ حسابها، وصدق معنىٰ[١] الحديث المروي عن عليٍّ، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: **«إنها ستكونُ فتنةٌ»**، قلت: ما المَخرجُ منها ـ يا رسول اللَّه ـ؟ قال: **«كتابُ اللَّه؛ فيه نبأُ ما قبلَكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحُكمُ ما بينَكم، وهو الفصلُ[٢] ليس بالهَزْل، مَن تركَه مِن جبارٍ قَصَمَه اللَّه، ومَنِ ابتغىٰ الهُدىٰ في غيره أضلَّه اللَّه، وهو حبلُ اللَّه المتين، وهو الذِّكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المُستقيم، وهو الذي لا تَزيغُ به الأهواء[٣]، ولا تلتبسُ به الألسِنةُ، ولا يَشبعُ منه العلماء، ولا يَخلَقُ علىٰ كثرةِ الرد[٤]، ولا تنقضي عجائبُه، هو الذي لم تنتهِ الجنُّ إذ سمعته حتىٰ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن]؛ مَن قال به صَدَق، ومَن عَمِل به أُجِر، ومَن حَكَم به عَدَل، ومَن دعا إليه هُدِي إلىٰ صراطٍ مستقيم»**[٥].

فكل ما حدث ـ وما يحدث ـ من النظريات والفتن والفساد وأنواع المحن سببه الانحراف عن تحقيق العبودية للَّه، والانصراف عن وحيه زهدًا فيه أو انتقاصًا له؛ إلىٰ غيره من العلوم المادية والنظريات الماسونية اليهودية المتنوعة، وهداية اللَّه النافعة في كل ميدان والدالة علىٰ عبوديته وطريق مرضاته والمحققة للوحدة والأمن الصحيح والعيشة الراضية في الدارين لا تحصل إلا من طريق الوحيين: كتابه وسنة رسوله ﷺ، فالمنحرف عنها والمنصرف إلىٰ غيرها مبتعد عن عبودية اللَّه وهدايته ونيل وعده الصادق.

---

(١) هذه إشارة من المؤلف رحمه الله إلىٰ عدم ثبوت ألفاظ الحديث، وإن كان معناه صحيحًا.

(٢) أي: الذي يحكم بين المختلفين بالحق.

(٣) أي: لا تنحرف به العقول، بل تزداد نورًا وطهارةً.

(٤) أي: مهما رد علىٰ الطاعنين فيه تكون حجته باهرة زاهرة لا تضعف ولا تُغلب.

(٥) رواه الترمذي (٢٩٠٦).

وروىٰ الإمام أحمد والنسائي والدارمي عن ابن مسعود ﵁ قال: خط لنا رسول اللَّه ﷺ خطًّا، ثم قال: «**هذا سبيلُ اللَّه**»، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله، وقال: «**هذه سُبُلٌ، علىٰ كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه**»، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام]»[1].

ولا يحصل الاستغناء بالنصين وتحقيق اعتقاد كفايتهما؛ إلا بالإقبال التام عليهما، وبذل الجهد في معرفة معانيهما، وحصر التلقي لجميع أنواع الهداية منهما، وحصر معالجة المشاكل كلها فيهما، والتصميم الجازم علىٰ دفع كل ما عارضهما مع اعتقاد فساده، واعتقاد ظهور ما خفي من فساد ـ عاجلًا أو آجلًا ـ، فيرفض كل مذهب أو نظرية أو علم يخالفهما من أي مصدر كانت، وبذلك تكمل عبوديته للَّه، ويصدق في ضراعته للَّه بسؤاله الهداية إلىٰ الصراط المستقيم.

التاسع والأربعون بعد المئة: العابد للَّه لا يقرأ القرآن لأجل المزيد من المعلومات فقط، ولا لأجل تحصيل الثواب الموعود به علىٰ كل حرف، فيشرع في قراءته أو يكررها دون تفهم وخشوع، ودون تصميم علىٰ التنفيذ لأوامر اللَّه فيه بكل قوة وتحمُّس، ولا تكون قراءته بقصد الاستمتاع بفصاحته أو التذوق من بلاغته، شأن المائقين المتحذلقين من ذوي الابتداع والشكوك في الماضي والحاضر، بل يقرأ القرآن لأجل أن يتلقىٰ كلام رب العالمين، كلام الملك العلام، مالكِ المُلك المختص بالفصل يوم القيامة، اليوم الذي لا ينجو فيه إلا العاملون بالقرآن.

فعبودية اللَّه تستلزم من عبده الصادق أن يقرأ ذلك الكتاب كقراءة الجُندي والموظف الذي يقرأ كتاب رئيسه ليعمل بمقتضاه، وينفذ وصاياه متشرفًا به ـ إن كان مخلصًا ـ، فعبدُ اللَّه المخلصُ له، الصادق معه، يتشرف بقراءة كتابه العزيز ووحيه الثاني المفسر له من سنة نبيه

---

(١) رواه أحمد (١/٤٣٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦/٣٤٣).

ﷺ، ويفرح بهما أعظم فرحة، ويتلقاهما كتلقي الجندي في الميدان لتوصيات رئيسه، معرضًا عما سواهما، لا يرفع به رأسًا، وبذلك تحصل الطواعية للَّه ولرسوله، وتنحصر صلة العبد بهما، وينفصل عما عداهما انفصالًا كاملًا، عن شعور إيماني عميق، منبثقٍ من محبة اللَّه ورسوله ﷺ، ومنابذة ما عداهما فرارًا من الإثم، والتزامًا بقواعد المحبة وضوابطها.

وإذا قرأ عباد اللَّه كتاب اللَّه علىٰ هذا النحو، وتلقَّوه بهذه الصورة، انفتحت لهم كنوز العلم والمعرفة، وتيسر لهم العمل به دون إحساس بأي تكليف، بل يستطيعون العمل للَّه، ويتلذذون به، ويتنافسون بالتضحية في سبيله، ويتسابقون إلىٰ الفداء؛ لأن ذواتهم تكيفت بوحي اللَّه الذي انخنست به قلوبُهم، وتغلغل في شرايينهم، وهناك تتفجر طاقاتهم، وتصبح ثقافتهم ثقافة محمدية متحركة، زحافة في كل ميدان، وإلىٰ كل صقع ووادٍ، لا تقتصر علىٰ ملازم الكتب أو أعمدة الصحف والمجلات، ولا تتحجر في الصناديق والدواليب، وإنما تحرك أهلها ذات اليمين وذات الشمال، حيث أراد اللَّه من الزحف المقدس، الذي قام به أسلافنا عباد الرَّحمٰن، والذي لا نزال نسعىٰ في آثاره وبقاياه من الأرض.

هذا نتاج القرآن لمن أقبل عليه بفرح وحب، وتشرف وتشوق، وتعاهده حتىٰ ينغرس في قلبه، وينمو في عروقه، ولقد كان السلف لا يتجاوزون بعض آيات منه حتىٰ يحفظوها ويتدبروها ويقوموا بواجبها من التنفيذ، ولم يكن همهم مقصورًا علىٰ الاستكثار من قراءته ـ كحالنا في هذا العصر ـ؛ لشعورهم بعظم المسؤولية من الواجبات؛ والتكاليف حتىٰ حصلت عندهم الملكة علىٰ تحملها بكاملها، ورعايتها حق رعايتها.

فإن هذا القرآن لم يجعله اللَّه كتاب قصة وفن أو أدب وتاريخ، وإنما جعله اللَّه ميثاقه العظيم المتين لعباده في الأرض؛ ليكون منهاجًا لسيرهم في جميع ميادين الحياة: السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، ومرجعًا وحيدًا لهم في سائر ما ينوبهم من ذلك، لا يبقىٰ

رمزًا في الخيال مجمدًا في الذهن، أو محجورًا في مكان، أو مقصورًا علىٰ شيء دون شيء، والذين يريدون حصره في شيء من ذلك ـ من المثقفين ثقافةً عصريةً ماديةً حسب مخطط أعداء الإسلام ـ قد سلكوا أقبح مسالك الشرك في تنقيص اللَّه وبخسهم لحقه وانتزاعهم لسلطانه، وتأليه أنفسهم من دونه، بجعل الحاكمية لغيره من البشر الذين يريدون أن تكون لهم الخيرة من أمرهم.

أقول عن هؤلاء المتلبسين بأقبح أنواع الشرك وأفظعها: إنهم لا يرضون لمواثيقهم وأنظمتهم التي دبروها أن تكون خيالًا في الذهن، لا وجود له في الخارج، أو يكون العمل بها مقصورًا علىٰ ناحية دون ناحية، بل يعتبرون هذا رِدَّةً وخيانةً، كما لا يجوِّزون لأحد من الشعوب المدينة بها أن يخرج عن طاعة واضعيها، أو يختار لنفسه منهجًا يلائمه سواها، فيعتبرونه متمردًا أو عميلًا خائنًا ومتآمرًا علىٰ سلامة الوطن أو الدولة، إلىٰ غير ذلك من التهم التي يصُبُّون عليه بسببها أنواع العقوبات، فقد جعلوا لأنفسهم منزلةً أعظم من اللَّه، إذ جعلوا لأنفسهم ونظمهم الوضعية كامل الإيمان والسلطة والنفوذ في كل شيء دون اللَّه ووحيه العزيز، الذي يزعمون أنه في الضمير فقط، باللَّه عليكم أي شي في الضمير لا يلهب الحماس، ولا يحرك الجوارح؟!! هذا خيال لا وجود له.

وهل يقبلون من أحد دعوىٰ الوطنية في ضميره، وهو لا يعمل لصالح وطنه، ولا ينطق لصالح وطنه؟ أو هل يقبلون من أحد دعوىٰ إيمانه بالقومية في ضميره، وهو يسلك المسالك المخالفة لها في عرفهم العصبي؟ أو يقبلون دعوىٰ الإيمان بالشيوعية ـ وفروعها من الاشتراكيات ـ في الضمير، دون التقيد بخططها ومواثيقها الماركسية؟ إذا كانوا لا يرضون ذلك ـ وطبعًا لا يرضونه ـ، فما قيمة دعواهم أن الدين في الضمير؟ أو أن العبادة مختصة في المساجد والمعابد، أو أن القرآن جاء بشريعة ودين لعصور قديمة متخلِّفة؟ أو نحو ذلك من

المفتريات الماسونية؟!.

حقًّا، إن ما في الضمير لابد أن ينطق به اللسان، وتتحرك به الجوارح والأحاسيس، فإن حلَّ حب اللَّه ورسوله حقًّا في الضمير؛ كان وحي اللَّه من كتاب وسنة غذاءً للقلب، ومتعةً للأحاسيس، فانشغل اللسان بوحي اللَّه وذكره، وتحركت الجوارح إلىٰ طاعته وتنفيذ أوامره، وابتعدت عن موجبات سخطه بدافع روحي لا مثيل له، بحيث إن الإنسان يقدر علىٰ التهرب من النظم الوضعية، فيخالفها بشتىٰ الوسائل، ولكن الوازع الديني من خشية اللَّه ومراقبته، والطمع في ثوابه الجزيل، والخوف من عذابه الأليم المقيم، يجعله لا يستهين بأوامر اللَّه، أو يتهرب من تنفيذها، لما حل في ضميره من الحب والمراقبة، وعلىٰ العكس إذا خلا الضمير من حب اللَّه وتعظيمه، وحل فيه حبُّ غير اللَّه أو تعظيمُ غير اللَّه والخوف منه، انصرف إليه واستمال إلىٰ ما يقذفه عليه، وتحرك إلىٰ ما يريده دون مبالاة باللَّه؛ كما هو المشاهد من حال أكثر أهل هذا العصر.

ثم إنا نسأل الذين يحصرون الدين في الضمير، نقول لهم: هل تسمحون للمسلم الصحيح أن ينطق بما يمليه ضميره، ويتحرك لما يوجهه إليه ضميره المحب للَّه حقيقةً؟ أو تقيدونه به من كل ناحية علىٰ حسب ما تريدون؟ فأي قيمة لما في ضميره؟ بل أي حرية تتشدقون بها؟.

إن المواثيق الماركسية والدساتير الوطنية ـ بأي صبغة صبغت ـ لا قيمة لها إذا كانت خيالًا في الضمير، لا يظهر مفعولها ويبرز وجودها في الخارج، ولكن جندت لها جميع القوىٰ الإعلامية والثقافية والعسكرية حتىٰ انطبعت بها الأدمغة، وفرضت علىٰ الناس، وأبرز باسمها طواغيت شتىٰ، فرضوا ألوهيتهم ونفوذهم علىٰ البشر، بمختلف أنواع التسلط من فكري وعسكري، فما بال الدين يبقىٰ أكذوبةً مزعومةً في الضمير؟ وما بال المسلمين يظلون متسولين عطف غيرهم عليهم؟

إن من أعظم الواجب لتصديق حب اللَّه وتحقيق تعظيمه في قلوبهم: الخشوع لذكر اللَّه وما نزل من الحق، وتدبر القرآن بكل حب وشغف، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

والتصميم علىٰ تنفيذ أوامر اللَّه والزحف برسالاته والسعي لإعلاء كلمته في الأرض أشد مما يسعىٰ غيرهم من أهل المبادئ العصبية، والمذاهب المادية الوثنية، فمن العار أن يغلبهم أولئك، إنهم لا يحققون عبودية اللَّه حتىٰ يرعوا ميثاقه الأعظم بتنفيذ وصاياه في وحيه وإقامة حكمه، وأن يقوموا للَّه قومة الصادق المخلص، لا يخشون غيره ولا يرقبون سواه، فكل منهم مطالب بتحقيق شعار المسلمين، ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

وكيف يحقَّق هذا الشعار بدون تدبر القرآن والتزام نصوصه وتحكيمه فقط علىٰ نفسه وعلىٰ غيره في كل وِردٍ وصَدَر؟ لابد من ذلك، وبتحقيقه يحصل البعث الإسلامي من جديد، وتحصل الوقفة الصحيحة أمام كل جاهلية، مهما انصبغت بالأسماء والألقاب، ومهما ادعت لنفسها من العلم الذي ادعاه أسلافها من الجاهليات، إذ يقابل عباد اللَّه خططهم بما يدفعها ويدمغها ويزهقها، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، أما الذي يتَّبعُهم أو يؤول النصوص علىٰ وفق أهوائهم أو اكتشافاتِهم، أو يضرب بعضها ببعض طالبًا وراغبًا الراحة في حياة بَهيمية يذوب بسببها في بوتقتهم، أو يقتصر من كلام اللَّه علىٰ مجرد التلاوة، فهذا فيه شعبة أو شعب من النفاق ـ شعر بها أو لم يشعر ـ، وبعضهم يكون جاهلًا ناقص الإيمان، وبعضهم فيه مشابَهةٌ للذين يحرفون الكلم عن مواضعه ونسُوا حظًّا مما ذكّروا به، أو فيه مشابَهةٌ للذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ـ أي: مجرد تلاوة ـ، ومنهم من هو سَمَّاعٌ للقوم الظالمين، فيه استعداد تام لقبول الكذب.

وجميع أهل هذه الأصناف مذموم عند اللَّه كما هو صريح وحيه، فلا يكون من المحققين لعبادته بالعمل الصحيح لدينه، وقد روىٰ مسلم في «صحيحه» عن عمر بن الخطاب أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إنَّ اللَّهَ يَرفعُ بهذا الكتاب أقوامًا، ويَضَعُ به آخرين»**[١].

وفي الأثر المعروف الذي رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني - وقد ذكره الطلمنكي -: حدثنا يزيدُ بن عبد ربه: حدثنا بقية، حدثنا عتبة، عن أبي حكيم: حدثنا عمارة بن راشد الكناني، عن زيادٍ، عن معاذ بن جبل، قال: «يقرأُ القرآنَ رجلان، فرجلٌ له فيه هوًىٰ ونيةٌ، يَفليهِ فَلْيَ الرأس، يلتمس أن يجد فيه أمرًا يخرجُ به علىٰ الناس[٢]، أولئك شرارُ أمتهم، أولئك يُعمِّي اللَّه عليهم سُبلَ الهدىٰ، ورجلٌ يقرؤه ليس له فيه هوًىٰ ولا نية[٣]، يَفليه فَلْيَ الرأس؛ فما تبيَّن له منه عمل به، وما اشتبه عليه وَكل إلىٰ اللَّه؛ ليتفقهن فيه فقهًا ما فقهه قوم قط[٤]، حتىٰ لو أن أحدَهم لبث عشرين سنةً ليَبعثن اللَّه له من يُبيِّنُ له الآية التي أُشكلت عليه، أو يُفهِّمُه إياها من قِبَل نفسه».

قال بقية: أشهدني ابنُ عيينة حديث عتبة هذا[٥].

الخمسون بعد المئة: العابد للَّه الذي يأخذ حمده وتقديسه بشغاف قلبه، ويشكره شكرًا عمليًّا علىٰ فضله وإحسانه، ومجموع آلائه، مصدقًا بها وقائمًا بحقوقها عن حب وتعظيم، وشوق إلىٰ لقائه، وخوف

---

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) أي من البدع والضلال، وهذا باستخراج الشبهات، أو تحريف معانيه التي أرادها رب العالمين.

(٣) يعني بذلك: نية السوء التي لا يرضاها اللَّه.

(٤) المعنىٰ الغالب: أن هذا العبدَ - الذي اشتبه عليه بعض القرآن -، يترك ما اشتبه عليه منه، حتىٰ يتفقه فيه فقهًا ويجتهد فيه اجتهادًا ما فعله أحدٌ قط. وهذا هو الذي تبادر لي، والعلمُ عند اللَّه.

(٥) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٣٩٤)، والشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار» (٣/ ١٤٧).

من سخطه وعقابه، وطمعًا في قربه وثوابه.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾:

يوم الجزاء والحساب هو الذي يصدق بضراعته إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وهذه الضراعة لا تكون صادقة إلا إذا كان صاحبها محسنًا معاملته مع اللَّه، أعظم مما يحسن معاملته مع الناس، فإن المعاملة ـ بمعناها العقلي والشرعي ـ تشمل قبل كل شيء: معاملة المرء مع اللَّه ربه الذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، وأمده بالجوارح والقوىٰ والأحاسيس، وسخر له ما في الأرض جميعًا، وأفاض عليه صنوف النعم، وهداه للتفكير في استعمال المواهب والاستثمار والتكسب، وأودع في كل مادة خصائص ومكيفات نافعة للناس في شتىٰ أحوالهم.

هذا الرب الجليل العظيم المتفضل الكريم هو الذي يستحق أحسن المعاملة من طاعة أوامره عن رغبة ومحبة، واجتناب نواهيه عن خوف وحذر، وتنفيذ تشريعاته، وإقامة حدوده عن تشرف وتطيب، معتقدًا أحقيتها، ونجاح علاجها للمشاكل دون ما سواها أبدًا، مقتصرًا علىٰ طلب الهداية وسائر أنواع التثقيف من وحيه الكريم، كتابًا وسنةً، ويكون مراقبًا للَّه في سائر حركاته وتدبير شؤونه، وبذلك يكون عابدًا للَّه حقًّا، ويهديه اللَّه للصدق باستعانته في كل شيء.

وإذا راقب اللَّه في ذلك كله سهل عليه حسن المعاملة مع سائر الناس، فلا يبخس أحدًا أو يغشه، أو يكذب عليه، أو يطمع في عرضه أو ماله، أو يحمل مَوجدةً عليه[١]، لمراقبته للَّه، وحسن معاملته له أولًا، فهذا معنىٰ الأثر: «الدين المعاملة». وما أجهل من يقصر معناه علىٰ معاملة الناس فقط! بل هذا ـ مع جهله ـ باخس لحق رب العالمين، أو جاحد له.

---

(١) المَوجِدة: الغضب.

ثم إن هذا الزعم مغالطةٌ مفضوحة لمن تدبر أحوال أهلها؛ لأنه لا يحصل حسن المعاملة للناس تمامًا، إلا بالتزام حسن المعاملة مع اللَّه بالتزام حكمه وحفظ حدوده وحسن مراقبته في السر والعلن، فإن من يخشىٰ اللَّه بالغيب هو الذي يحسن المعاملة للناس بدون مقابل، أما الذي لا يخشىٰ اللَّه بالغيب ولا يرجو لقاءه ونيل مثوبته، فإنه وإن أحسن المعاملة للناس وقتًا ما؛ فإنما يحسنها طمعًا في استجلاب مودتهم، أو مراغمةً لخصومه، أو في مقابلة شيء، أو لمكر خفي، أو غير ذلك، ولابد أن تنعكس أحواله.

ثم إنه ـ أيضًا ـ: إن أحسنها في ميدان أو ميادين صغيرة، فلابد أن يسيئها في أشياءَ كبيرةٍ وميادينَ أخرىٰ، كما نجده من حال الأوربيين، الذين افتتن بهم بعض من رأىٰ مظاهر سلوكهم، وصدق مواعيدهم، وأمانتهم المؤقتة، ولكنه ينسىٰ ما يفعلونه مع الشعوب التي يستعمرونها، وينسىٰ تكالبهم علىٰ ذلك، وتعاونهم علىٰ الإثم والعدوان، ومبلغ ضراوتهم بالدم الإنساني، لأدنىٰ طمع وأرخص غاية، كما ينسىٰ قسوة قوانينهم في الماديات، وعبادتهم لها من دون اللَّه، كل هذا ينساه «أطفال العقول» من المتجولين في بلادهم للسياحة أو الدراسة من أبنائنا، فتبهرهم مظاهر القشور دون أن تنفذ بصيرتهم إلىٰ اللباب، فيلتفتوا إلىٰ ما يعمله هؤلاء من الظلم الجماعي المتنوع.

بل إن صعاليكنا هؤلاء ينسون أن من خان أمانة اللَّه في نبذ كتابه، ورفض حكمه وشريعته، فهو لخلقه أخون، وإن من لم يحسن المعاملة للَّه في السر والعلن، فمعاملته للمخلوق لا تتجاوز النفعية والانتهازية، مهما زعم وادعىٰ، وكم رأينا ـ فيما مر علينا من التجارب ـ من متناقضات الأقوال والأفعال للماديين، وتقلباتهم في مسالكهم السياسية والاقتصادية وغيرها ما يُبرهن علىٰ أنهم لا يُحسُّون في قرارة نفوسهم بأي وخز في ضمائرهم، لعدم الوازع الديني من خوف اللَّه وحسن معاملته؛ لأنهم في مكان بعيد من عبادة ربِّهم، فالصادق في ضراعته للَّه

بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ هو الذي يحسن معاملته للَّه حقًّا ـ كما فصلناه ـ، وبحسن معاملته للَّه تحسن معاملته لخلقه، والعكس بالعكس ـ والعياذ باللَّه ـ.

الحادي والخمسون بعد المئة: لما كان تطور الأحاسيس وتجدد الحركات في الإنسان نابعًا من داخل نفسه، وكان الحافز عليهما[1] في بعض الأحيان رغبةً بموعد، أو تجددًا لحالة، أو رفعة منزلة، أو ورود شيء من الذكريات يُمِدُّ ضعفه بقوة، أو يأسه برجاء، أو كسله بنشاط، أو خموله بحزم، ولكن هذا الحافز المحرك في النفس لابد أن يخبو لما يعترضه، أو يسنح في النفس مما ينسخه، كان لابد للإنسان من قوة روحية معنوية، لها روافدها الكافية في قرارة نفسه، ألا وهو الإيمان بالمحبوب الأكبر للمسلمين الحنفاء الحقيقين.

فهو الإيمان الذي لا تنضب روافده، بل تتزايد في نفوس المؤمنين صادقي المحبة الذين يذكرونه في كل حال من أحوالهم، ويقدسونه ويكبرونه في نفوسهم تكبيرًا معنويًا، نطقوا به فتحركت كوامن نفوسهم بما تنفجر به الطاقات بكل ما أرادوه وصمموا عليه، من تنفيذ أوامره ونصرة دينه، ولم يكن في نفوسهم مجال للخوف من سواه أبدًا، ولامجال للكسل عن طاعته، أو الخمول في تنفيذ حكمه، أو اليأس من مدده ورحمته، فهؤلاء هم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لا يعتري نفوسهم ما يعتري نفوس غيرهم من الماديين، والذين تدفعهم حوافز وقتية إلىٰ شيء ما، ثم تخبو أو تتلون بهم حسب اختلافها وتلونها.

بل هم بذكر محبوبهم اللَّه العظيم الكريم، وشوقهم ورغبتهم إليه ورجاء ما عنده مما هم موقنون به، تتجدد في نفوسهم تلك المزايا السالفة «كالآلات الأوتوماتيكية»؛ فيملكون أنفسهم، ويضبطون وقتهم، ويستغلون مشاعرهم نحو ربِّهم، ويحتفظون بحرية حركتهم للَّه وحده، لا يُصرِّفونها لسواه، أو يُملِّكونها غيره.

---

(١) يعني التطور والتجدد.

ومن هنا يُدرَكُ السر في إيجاد إقامة الصلاة المكررة وهداية اللَّه لهم فيها إلىٰ الضراعة له بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنهم بصدق الاتجاه في العبادة والاستعانة يتمكنون من مجابهة الأهوال، ومقارعة الأعداء، دون انتظار أمداد خارجية أو استعمال المكر بين الشعوب ـ كما يفعله غيرهم ـ، فالتاريخ يشهد أن المصطفىٰ ﷺ كاتب جميع الملوك مهددًا لهم في وقت واحد، قائلًا لكل ملك: «**أسلِمْ تَسْلَمْ**»(١)، ثم أصحابه من بعده حاربوا أكبر دول العالم فارس والروم؛ دون أن يهادنوا أحدهما أو يستعينوا به علىٰ قتال الآخر، بل حصروا استعانتهم باللَّه وتوكلهم عليه، فزادهم قوةً معنويةً وأمدهم بنصره.

فإن جميع ما أودعه اللَّه في بني آدم يصلحه الإيمانُ به علىٰ الحقيقة، ويحركه محبته الصادقة ويستنهضه، رجاء ما عنده من النعيم المقيم في جنة عرضها السماوات والأرض، ويفجر طاقاته التكبيرُ المعنوي الصحيح، الذي يجعل صاحبه لا يقر له قرار علىٰ الضيم أو الانزواء في عقيدته، بل ينطلق بها كالليث الصائل(٢)، لا يدع فرصةً لعدوه أبدًا، ولذا لما رأىٰ اليهود عظمة هذا الدين المفجِّر للقوىٰ الكامنة، والملكات المدفونة، والمهيئ لأهله كل فرصة، عملوا علىٰ إشغال أهله بشتىٰ الدسائس والمؤامرات، وصرفهم عن حقيقته بأنواع البدع والخرافات، ليحرموهم بركته ومدده، فيلعبوا بهم علىٰ الحبلين ـ لعنهم اللَّه ـ، فليعتبر المسلمون، وليرجعوا إلىٰ الأصل المعين.

الثاني والخمسون بعد المئة: الضراعة إلىٰ اللَّه جَلَّ وَعَلَا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مشعرةٌ بهروب صاحبها من الشياطين والمغرضين، شياطين الجن أو شياطين الإنس، الدجالين الذين يبثون في وسائل الإعلام المختلفة زخرف القول غرورًا، لعبيد المادة والشهوات

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).
(٢) **الصائل**: المعتدي.

والمبادئ والأغراض، هذه الضراعة بتلك الآية الشريفة هروب صادق من هؤلاء إلىٰ اللَّه الحبيب لكل مؤمن، والمتلطف إلىٰ خلقه بنعمه وفضله المتواصلة، ذلك الحبيب الذي يجب علىٰ العقلاء أن يطيروا إليه بأجنحة معنوية من الشوق، يحدوها الطمع في رضوانه والهرب من سخطه وعقوبته.

فإن بصدق الضراعة إلىٰ اللَّه بهذه الآية قولًا وعملًا وقصدًا، ينال الإنسان أهليته من كرامة اللَّه في الدنيا والآخرة، فإن اللَّه خلقه ليكرمه ويسوده في الأرض، فإذا عصىٰ اللَّه وطاوع الشيطان ـ أيَّ شيطانٍ مبتعدٍ عن وحي اللَّه وأمره ـ فقد سعىٰ في إهانة نفسه بدل كرامتها، وفي رقها لكل شيطان بدلًا من تحريرها للَّه وحده، وفي تأخير منزلتها وجعلها ذنبًا للغير، بدلًا من رفعتها وسؤددها، وكونها رأسًا مسيِّرًا لا ذنبًا مسيَّرًا.

فهذه الضراعة الجليلة القدر بهذه الآية الكريمة لا يتقدم بها الجهلةُ باللَّه وبدينه، من ذوي الشعور النافر عنه إلىٰ غيره، كما لا يتقدم بها تقدمًا صحيحًا من هو مسلم بالانتساب من ذوي الشعور البارد، وإنما يتقدم بها أهل التوحيد، العارفون باللَّه الذين يشعرون بواجبهم للَّه في حياتِهم، فيجددون العهد معه والضراعة إليه بها؛ ليعينهم علىٰ مهمتهم التي بها بِرُّ من يستحق البر، وقمع من يستحق القمع، مِن كل ظالم لحق اللَّه مستهين بأمره، رافض لرسالته، وهو جَلَّوَعَلَا يعين الصادق بضراعته إليه فيها، ويسهل عليه طريق عبادته، ويؤهله لتحمل مشاق الدعوة إليه، والصبر في ذاته، ويوفقه للتوبة مما يُلِمُّ به من الذنوب التي تغلبه شهوته علىٰ ارتكابها، ويفرح بتوبته منها أشد من فرح المضيع لراحلته وقُوْتِه في أرضٍ فلاةٍ إذا وجدها، كما ورد في الحديث[1]؛ فدينه محض الرحمة والخير والبركة واليسر، وفيه عصمة

(١) رواه مسلم (٢٧٤٤).

من زيغ الأهواء، وتسلط طواغيتها ودجاجلتها.

الثالث والخمسون بعد المئة: هذا التوجيه العظيم من اللَّه لعباده المؤمنين بصدق الضراعة إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مع كونه فيه حسم تام للتعلق بغير اللَّه، فإن فيه حسمًا صحيحًا لمواد التشاؤم التي تعتري الماديين عبيدَ الدرهم والدينار والمتاع، عبيد الأهواء والشهوات، عبيد المطامع والأغراض المختلفة، ممن تتجسد أوهامهم بحسب تجسم أنانيتهم وانتهازيتهم، فيعيشون في الأزمات المتلاحقة والأنانيات المسعورة، وكثيرًا ما يخيب تفاؤلهم وتنعكس آمالهم، فيجرهم تشاؤمهم إلىٰ الانتحار الحسي أو المعنوي، بخلاف المؤمن المخبت للَّه المتوكل عليه، المطمئن إلىٰ إنجاز وعده في العاجل والآجل، فإنه في حبور وسرور، وترفُّعٍ عما ينحط إليه غيره.

الرابع والخمسون بعد المئة: العابد للَّه حقًّا يغتنم جميع الفرص بدون إضاعة؛ فيهتبل[١] فرصة صحته خوفًا من المرض، فيستعمل نشاطه في طاعة اللَّه بسائر أنواع الجهاد والكفاح، جهاد النفس، وجهاد شياطين الجن، وجهاد شياطين الإنس، المحاولين فتنة الناس عن الدين، مستعملًا شكر اللَّه علىٰ الصحة والعافية في هذا السبيل، ويغتنم فرصةَ غناه وثروته فيجود ببذلها في سبيل اللَّه تقويةً لعقيدته، وزحفًا برسالته، وصيانةً لدينه، مهتبلًا فرصتها قبل زوالها بصُروف الدهر[٢] التي يقلِّبُها اللَّه كيف يشاء، وعاملًا علىٰ تقييدها بشكر اللَّه باستعمالها الصحيح، عكس عُبَّاد الهوىٰ الذين يصرفون ثروتهم ومكاسبهم في الأشر والبطر، أو في الصد عن سبيل اللَّه؛ شأن الكفرة والملاحدة، فإن من سلك مسلكهم فقد تنكَّب عن عبادة اللَّه؛ كما أن المسرف المبذر للمال، مخالف لأمر اللَّه ومخلٌّ بعبوديته، إذا بدد المال في الشهوات والأغراض،

---

(١) **يهتبل**: يغتنم.

(٢) **صروف الدهر**: مصائبه وبلاياه.

والكماليات والبذخ بأنواعه، أو صرفه لرياء الناس، وهو مذموم من اللَّه، ومعاقب علىٰ ذلك.

والعجيب أن هذا النوع من المبذرين يبخل علىٰ اللَّه؛ فلا يصرف المال في الجهات الدينية، بل ويأمر الناس بالبخل في هذا السبيل، كما وصفهم اللَّه في الآية (٣٧) من سورة «النساء»، والآية (٢٤) من سورة «الحديد»، فهذا المال من أقوىٰ الطاقات الحيوية للمسلم الحامل رسالة ربه، فإذا أساء التصرف فيه صار مددًا للشيطان وأعوانه، لا مددًا لدين المسلم وعقيدته، ومن هنا تظهر حكمةُ تحريم الإسراف والتبذير، وحكمةُ حُكم اللَّه علىٰ المبذرين بأنهم إخوان الشياطين؛ لأن ثروتهم تسيل علىٰ أعداء اللَّه وأعدائهم من الأجانب في الخارج أو من المعتنقين لمبادئهم ومذاهبهم في الداخل، ممن اصطُبغوا بصبغة الوطنية ونحوها، وانسخلوا من صبغة اللَّه[1].

فالعابد للَّه يضبط ثروته بحصر إنفاقها في سبيله، لا يصرفها في غيره، ولا يبخل بها عليه فيعاقبه بحرمانها أو خسرانها حسبما تقتضيه حكمته جَلَّوَعَلَا، وكما يغتنم العابد للَّه صحته قبل حلول سقمه، وفرصةَ غناه قبل فقره، فكذلك يغتنم فراغة قبل شغله، فيهتبل فرصة نعمة الفراغ باستعمالها في طاعة اللَّه وخدمة دينه بكافة أنواعها، والجهاد في سبيله قبل مشاغل العيلة أو الفتن، ويغتنم فرصةَ قوةِ شبابه قبل حلول هرمه وضعفه، فإنه إن فرط في ذلك كان خاطئًا ومحاسبًا من اللَّه عليه.

والجامع لهذا الاهتبال الواجب هو أن يغتنم كل فرصة، بل كل ساعة ودقيقة من عمره، باستعمالها في مرضاة اللَّه وطاعته، والعزم الأكيد علىٰ الجهاد في سبيله بجميع أنواعه ومتطلباته، لا يخلِّي لحظةً واحدةً من عمل أو عزم صحيح أكيد علىٰ العمل؛ لأنه لا يدري في أي

---

(١) وصبغة اللَّهِ تعالىٰ هي دينُه العظيم.

لحظة يموت، فكيف يفرط في أوقاته ولحظاته الغالية، التي لا يقبل الدنيا لها ثمنًا؟

ولذا ورد في الحديث: «**اغتنم خمسًا قبل خمسٍ: شبابَك قبل هَرَمِك، وصحَّتك قبلَ سَقَمِك، وغِناكَ قبل فقرِك، وفراغَك قبل شُغلِك، وحياتَك قبل موتك**»[1].

وفي حديثٍ آخر عنه ﷺ: «**بادِرُوا بالأعمال سبعًا: هل تنتظرون إلا فَقرًا مُنسيًا، أو غِنًى مطغيًا، أو مَرضًا مُفسِدًا، أو هَرَمًا مُفنِدًا**[2]**، أو موتًا مُجهِزًا، أو الدجالَ؛ فشَرُّ غائبٍ يُنتظَر، أو الساعةَ؛ فالساعةُ أدهىٰ وأمرُّ**»[3].

وفي حديثٍ آخر عنه ﷺ: «**نِعمتانِ مغبونٌ فيهما**[4] **كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ**»[5].

وقد أشبعت الكلام علىٰ هذه الأحاديث في كتاب «من كنوز السنة للحق والحقيقة»، واللَّه الموفق.

ومن بديع الحكم في ذلك قول القائل: «أتدري كيف يُسرق عمر المرء منه؟ يذهل عن يومه في ارتقاب غده». ولا يزال كذلك حتىٰ ينقضي أجله بغتةً فيلقىٰ ربه خاسرًا أو نادمًا، والذين ضيعوا أعمارهم سدىٰ وباعوها علىٰ شياطين الهوىٰ والدجاجلة يخبرنا اللَّه عنهم بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات].

الخامس والخمسون بعد المئة: تكرار الضراعة الصادقة مع اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يجعل المؤمن صلب العود، عظيم المراس، لا

---

(١) رواه الحاكم (٤/٣٠٦).

(٢) **مُفنِدًا**: موقعًا في الفنَد، وهو الخَرَف وزوال العقل.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٦).

(٤) **المغبون**: المخدوع. وأصل الغبن: الخسارة.

(٥) رواه البخاري (٦٤١٢).

يميل مع كل ريح، ولا يضعف أو يلين أمام أي قوة، ولا ينحني مع أي خَلَّةٍ[١]، ولا يندهش أمام أي مفاجأة، أو يحزن عند أي مصيبة؛ لتوجهه إلىٰ اللَّه بكليته، واعتماده عليه في كل نائبة، واحتسابه العوض منه عن كل شي، فحبيبه الأوحد هو اللَّه، وهو ذخيرته وملجؤه، وهو هدفه وغايته، وبذلك تكون شجاعته كاملة، وبطولته خالدة، وأخلاقه فاضلة، وصبره مَعينًا لا ينفد، بخلاف ما عداه من أهل الهوايات المادية، والغوايات النفسية، فإنهم وإن كان في بعضهم شجاعة وصبر واستخفاف بالنوائب، فإنهم لابد أن تنال منهم الأحداثُ مأربها، ويلويهم خصمهم علىٰ ما يريد في أدنىٰ ما يصابون به من كوارث.

أما عباد اللَّه ـ أصحاب تلك الضراعة الصادقة ـ فهم علىٰ ما قلناه، كما صوَّر لنا التاريخ عزمهم وثباتهم علىٰ ما يلاقون من المواقف الحرجة، والنكسات المريرة، كما في واقعة الجسر، وقبلها وبعدها، مما وهب اللَّه لهم به الحياتين؛ لأنهم حرصوا علىٰ الموت، ولم يحرصوا علىٰ المادة والشهوات، ولم يوقف الزحف الإسلامي ويعكسه إلا الخصلةُ الأخيرة من الحرص علىٰ المادة والشهوة، والالتفات إليهما، مما جعلهم ينكصون علىٰ أدبارهم بعدما استنشقوا النصر في ضواحي «باريس».

الاستعانة باللَّهِ وحده:

وما مصيبة المسلمين أخيرًا إلا عدم الصدق الكامل بتحقيق الضراعة مع اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقصر الاعتماد علىٰ ولائه ونصرته جَلَّ وَعَلَا، وهو القائل: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال]، لم يقل: مولاكم الدولة الفلانية، أو الفئة الفلانية، ولا نُصرتُكم عند هذه أو تلك، وقد قدمت فيما مضىٰ أن هذه الآية كما تحفز أصحابها الصادقين إلىٰ القوة المعنوية، فإنها تحفِّزهم

(١) الخَلَّة: الحاجة.

إلىٰ القوة المادية من تسخير جميع ما وهب اللَّه لهم علىٰ وجه الأرض، أو في جوفها أو أجوائها من كل مادة؛ للاستعداد بجميع متطلَّبات القوة، بحيث يكونون أغنىٰ من غيرهم، كما أشرت سابقًا إلىٰ قوة الإيمان، التي قهر بها أسلافهم كل قوة مادية، وأن التفوق الصحيح لا يحصل إلا بها، بل قد يستحيل التفوق المادي علىٰ من هم أكثر عددًا وعدة، وأغزر علمًا بالماديات، ولكن السبق الذي لا يغلبه غالب هو السبق الروحي بتحقيق مدلول هذه الآية.

السادس والخمسون بعد المئة: بصدق الضراعة إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يحصل الانتعاش النفسي في هزيمة الأعداء، والتغلب علىٰ الأزمات والصعاب، والاستطالة علىٰ العوائق، والانتصار في أغلب المعارك، للاستهانة بما يلاقيه الصادق الضارع بها من الشدائد والأهوال والمتاعب، لارتفاع قوته المعنوية وصفاء روحه، لما تضمنت من الروافد الروحية العظيمة؛ لأن فيها توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، والتوحيد العلمي الاعتقادي، ولأن المسلم المؤمن يضرع بها إلىٰ اللَّه غالبًا بعد البسملة وبعد قراءة ثلاثِ آيات عظيمات، تتضمن تقديسه والثناء عليه، والتوسل بذكر عظيم أسمائه وصفاته، والاعتراف بحكمه وعدله، وتنزيهه عما لا يليق به، كما يقتضيه الحمد المطلق والاعتراف له بالنعمة الكاملة والفضل المتواصل، كما يقتضيه مسمىٰ «الرب» المربي لخلقه علىٰ العموم.

والاستعانة به وحده هي تحقيق التوكل عليه والتفويض إليه واعتراف العبد بأن ناصيته بيده، وانحصار رجائه له تبارك وتعالى، وإسلام ناصيته له، والهروب إليه بهذه الضراعة عن رِقِّ ما سواه وتسلط ما سواه، والأنس بأنواره المعنوية عن ظلمات غيره بأنواعها، كما أن في هذه الضراعة العظيمة براءةَ العبد من حوله وقوته، بل من كل حولٍ وقوةٍ لسواه تعالىٰ، وتفويضهما إليه.

وجميع ما قلناه من بعض معانيها هو توسل إلىٰ اللَّه بكامل توحيده

المَرضيِّ له والمحبب إليه، مما له أعظم التأثير في حصول ما ذكرناه للصادقين، كما حصل ذلك للسلف الصالح، الذين نصرهم اللَّه بالريح وبجنودٍ لم يروها، وأمدهم بالعزة والعلم والحكمة، ودفع عنهم بها آلام الكروب، ونجاهم من الهموم والأحزان، وجعلهم في بهجة روحية منقطعة النظير.

وكل من صدَّق هذه الضراعة بفعله وحسن قصده، حصل من اللَّه علىٰ ما حصلوا، أما من كان نطقه بها وتكريره لها عادةً تقليديةً موروثةً ـ كحال أكثر الناس اليوم ـ فحظه منها علىٰ حسب تطفيفه مع اللَّه، بعدم الغيرة لدينه، والغضب لحرماته، وعدم الدفع برسالته، والجهاد والإنفاق في سبيله، وعدم مساندة المسلمين وحبهم، وبغض الكافرين وحربهم.

فمن هذه المواقف السلبية تترتب فوائد الآية، وثمرة نتائجها، وفي الأثر: «**كما تدين تُدان**»[١]. أما بحصول ما ذكرناه من صدق المبتهل بها عمليًّا فإنه يتحفز للقيام بواجب اللَّه وحمل رسالته، وتنفيذ وصاياه، والعمل علىٰ إعلاء كلمته بالحكم بشريعته؛ فيشمخ إلىٰ تحقيق الأمر وهو:

السابع والخمسون بعد المئة: وهو الجهاد في سبيل اللَّه علىٰ ضوء هذه العقيدة التي شرحنا كثيرًا من مدلولها فيما مضىٰ، فإن من تمام معرفة اللَّه وقوة توحيده والصدق بالضراعة إليه: ألَّا يترك صولة الباطل ـ فضلًا عن السماح له بالانتشار ـ، بل يغضب للَّه ويصول علىٰ الباطل، قبل أن يصول عليه ويُنصِّبَ نفسه مهاجمًا لا مدافعًا؛ لأنه متىٰ ترك صائل الباطل أو استهان بانتشاره استفحل أمره، وعظُم شره وخطره، والمدافع في الغالب لا خير فيه، ورجاء انتصاره قليل.

وعزة المؤمن أن يكون كالليث الصائل في نصرة عقيدته، والدفع

---

(١) تقدم تخريجه.

بها إلىٰ الأمام، لا أن يتميَّع فيغزىٰ في عقر داره، أو يكون مهدَّدًا فيشتد همه وغمه، ويكون عرضةً للعدو الخارجي والمنافق الداخلي، ولكن بصولته في الجهاد وإقدامه عليه يندحر العدو، ويُقْمَع المنافق وينكبت، فيتبدل همه وغمه فرحًا ونشاطًا وقوةً، ولذا قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾، ولم يقل: «دافعوا»[1]، ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [التوبة].

فعدوك في العقيدةِ كالجَمَل الحاقد، لا يُذهب غيظَه ويُزيل حقدَه إلا التأديبُ الرادع الذي يخرج ما في صدره من الاستعلاء والرغبة في الانتقام بما يدمغه ويخيفه.

والجهاد وإن كان مكروهًا للنفوس، فعاقبته خير وعزة وبركة، ولا تكرهه نفوس العابدين للَّه حقًّا، الضارعين إليَّه صدقًا، ومشروعيتُه لحفظ العقيدة، وسلامة نفوس أهلها من الفتنة عن الدين ـ التي هي أشد من القتل وأكبر جرمًا ـ، والعمل علىٰ إعلاء كلمة اللَّه؛ ليدين الناس بحكمه ويستسلموا له ـ ولو لم يُسلِموا ـ، فإنه[2] ليس للإكراه علىٰ الدين، فإن العقيدة أمرها باطني، وإنما هو لإخضاع الناس لحكم اللَّه، وردعهم عن فتنة المسلمين بشتىٰ الوسائل، وأن يكون دين اللَّه عاليًا وكلمة الكفر سافلةً بجميع أنواعها، لأنها افتراء علىٰ اللَّه، وهو وإن كان فيه قتلٌ حسي لبعض النفوس، فمصلحته راجحة لاستبقاء أكثرها وإحيائها، حياةً معنويةً طيبةً ـ كما وصفها اللَّه تعالىٰ ـ.

فالصادق مع اللَّه ـ بتكرار هذه الضراعة بهذه الآية ـ لا يخاف من صولة الباطل، ولا يستسلم له أبدًا، بل يواصل كفاحه بشتىٰ أنواع الجهاد ووسائله الممكنة، غير هيَّاب ولا وَجِل، فلا يرهب الموت لسببين

---

(١) يقصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه تعالىٰ أمر بالهجوم لا بمجرد الدفاع، وهذا فيه إشارةٌ إلىٰ جهاد الطلب الذي أنكره بعض المعاصرين، وقصروا الجهاد في الإسلام علىٰ جهاد الدفاع.

(٢) يعني الجهاد.

يقويان عزمه ويضبطان قوته وتفكيره عن الانحلال والشتات، ويجعلانه يستأسد أمام أعدائه وخصومه في العقيدة الإسلامية، وهما:

١ ـ إيمانه القوي بأن طلب السلامة لا يؤخر من أجله أو يزيد في أيام عمره أو ساعتها، وإنما يكون سببًا لهلاكه الحسي أو المعنوي ـ كالبهيمة المسخرة المذللة ـ بما اكتسبه من سوء مغبة الهزيمة والهوان.

٢ ـ إيمانه بحياة أخرىٰ سعيدة بجوار اللَّه ورضاه، فيكون مشتاقًا إلىٰ لقائه والفوز بجنانه.

وهذان السببان كلاهما يضبطان أعصابه، ويمدان روحه وبصيرته بمدد من اللَّه، ويحققان له الرجولة والبطولة في المواقف الحرجة، فيكون علىٰ حد قول الشاعر المخاطب نَفْسَه:

أقولُ لها ـ وقد طارت شَعاعًا ـ مـنَ الأبطال: ويحكِ لن تُراعي

فإنكِ لو طلبتِ بقاءَ يومٍ علىٰ الأجلِ الذي لكِ لن تُطاعي

وقول الشاعر الآخر المسلِّي لنفسه، المقوي لعزيمته، بتصويره الواقع الذي لا مفر منه في سنة اللَّه الكونية والشرعية:

أقولُ لها إذا جشأتْ وجاشت: مكانكِ تُحمدي أو تستريحي

بل يكون هو أعلىٰ شأنًا منهما، وأقوىٰ صبرًا، وأعز نفسًا، وأصدق عزيمة، لما انحشىٰ في جوانحه من حب اللَّه وتعظيمه، والشوق إليه والإخلاص له قصدًا وعملًا، واللَّه الموفق.

الثامن والخمسون بعد المئة: في حصر الابتهال إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ اعترافٌ من العابد للَّه بأن اللَّه هو الذي أقدره ويُقدِرُه علىٰ العبادة، ففي هذا تجديد لحمد اللَّه، وتأكيد لمعاني التوحيد المرضي للَّه، ولذا جعلها اللَّه بينه وبين عبده، كما ورد الحديث الصحيح عن النبي ﷺ بذلك؛ حيث قال في ضمنه: «**هذا بيني وبين عبدي؛ ولعبدي**

ما سأل»[1]. فإن هذه الآية التي ارتبط بها ما بعدها هي خير ذخيرة للمؤمن الصادق فيما بينه وبين اللَّه فمن واجب المبتهل بها أن يفرغ قلبه مما سوىٰ اللَّه ويُصفِّيه للَّه وحده، وأن يندفع بجوارحه إلىٰ اللَّه حسب أوامره مستمطرًا عونه تعالىٰ ومدده، واللَّه لا يخيبه أبدًا، ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

التاسع والخمسون بعد المئة: هذا التعليم من اللَّه لعباده لذلك الابتهال بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وتكريره المتواصل في كل ركعة وفي كل قراءة، يشعرهم بوجوب الاستقامة علىٰ عبادة اللَّه، والحيلولة دون ما يعوقهم أو يصدهم أو يفتنهم عنها، وذلك بحماية عقيدتهم وصيانتها، والعمل علىٰ نشرها وتقويتها، والدفع بها إلىٰ الأمام، كيلا يسمحوا لأي تيار أن يجرفهم عنها.

وحماية عقيدتهم هي بالاكتفاء بوحي اللَّه؛ كما أوضحناه في الأمر الثامن والتاسع والأربعين بعد المئة، وصيانتها بالابتعاد التام عن الملاحدة والمبتدعين، وسد المسامع عما يُشِيعونه ويذيعونه في وسائل إعلامهم، ورفضها ومقارعتها لمن عنده علم بتزييفها، وحصانة عن التأثير بها، والمحاذرة من جميع وسائل الفتنة عن العقيدة والدين بقطع مادتها، وعدم السماح بدخولها أو انتشارها، وحفظ الثغور الحسية أو المعنوية عن تغلغلها، ومقاطعة أهلها من المتساهلين بالدين، أو المشككين فيه، أو المحرفين لنصوصه، والمحاولين تقريبه إلىٰ نظريات الماديين والفلاسفة، أو تأويله حسب أذواقهم، فإن بغضهم وهجرهم من الواجبات، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالىٰ في الآية (١٤٠) من سورة «النساء»: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء].

فضرر المنافق والملحد أشد بكثير من ضرر الكافر الأصلي الصريح، وهو أشد فتكًا في الروح من الجرب المعدي للجسم.

وخيرُ مُشغِلٍ للقلب والحواس عن الغزو الفكري ما قدمناه في الأمر الثامن والتاسع والأربعين بعد المئة، وما ذكرناه قبلها في عدة وجوه مع الانشغال بنشر الدعوة وتركيز العقيدة، والاعتناء بتدعيمها، والدفع بها إلىٰ الأمام، فإنه مع نفعه للناس فيه وقاية لصاحبه ـ بإذن اللَّه ـ.

الستون بعد المئة: تعليم اللَّه للمؤمنين هذه الضراعة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بصيغة الجمع، وكون الفرد منهم ملزمًا بهذه الصيغة، فيه إعلام من اللَّه مؤكد بالتذكير بأن هذا الدين الإسلامي الحنيف هو الرابطة الوحيدة بين المسلمين ـ علىٰ اختلاف أجناسهم ولغاتهم وتباعد أقطارهم وبلادهم ـ، فهو الذي يجعل جميع الأمم الإسلامية كمجتمع واحد وأسرة واحدة؛ حتىٰ يصبحوا بهذه القوة المتكتلة كالجسد الواحد، طبقًا لما وصفهم النبي ﷺ بأعظم وصف وأجمعه؛ حيث قال: «**إنَّ مَثلَ المؤمنين في تراحُمهم وتعاطُفِهم وتوادِّهم كمَثَلِ الجسدِ الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تَداعىٰ له سائرُ الجسد بالسَّهرِ والحمىٰ**»[1].

فرَبطُ الإسلام المسلمين فيما بينهم كربط كل عضو من أعضاء البدن بالآخر؛ إذا تألم جزء منه تألم كله، ولا يستقيم تمامًا إلا بالفلاح الذي يرد له العافية مما أصابه؛ فالمرض يسري، ويستفحل شره، فكذلك الأسرة الإسلامية في جسدها الممتد في مشارق الأرض ومغاربها يجب عليها رعاية هذا الجسد، والعمل علىٰ وقايته من الأمراض الحسية والمعنوية، وصيانته من كل نائبة، والدفاع عن كل جزء منه، بل الصولة الصحيحة دون حِماه، ليكون مرهوب الجانب، وأن يتكاتف

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).

المسلمون المؤمنون جميعًا علىٰ تحقيق هذه الوحدة المؤكدة في وحي اللّٰه، والتي يكررون الضراعة مع اللّٰه بمقتضاها في كل تلاوة للفاتحة، وفي كل ركعة من الصلاة ـ أيضًا ـ، وأن يقضوا علىٰ كل مظاهر الفرقة، ويجتثُّوا[١] جذورها، وأن يحاربوا جميع التيارات المناوئة لهذا الدين بعقيدته الوحدويةِ محاربةً علميةً دقيقةً شاملةً، لأن تلك التيارات غزت الأدمغة باسم «العلم والفن»، فمقابلتها بغيره[٢] شطط لا يجدي نفعًا، فلابد من تكريس جهودهم لمقاومة المذاهب الفكرية مقاومة علمية عميقة، ونقدها نقدًا مفنَّدًا دامغًا، وأن يقابلوا كل مؤسسةٍ بمثلها مما يعارضها وينقضها، فيقابلوا المدرسة بمدرسة، والجامعة بجامعة، ودور التربية والحضانة بمثلها، والمعاهد والمجامع العلمية المادية بما يقابلها من المعاهد الإسلامية، ومعاهد التربية الحديثة المادية بمعاهد تربية روحية تفوقها، ويقابلوا النوادي الثقافية والرياضية الناشفة من الدين بنوادٍ أخرىٰ مشبَّعةٍ بروح الدين، ويقابلوا المكتبات المادية أو المكتبات المؤسس بعضها أو أكثرها لخدمة المذاهب الفكرية والمبادئ العصبية الجاهلية المتجددة بمكتبات تخدم العقيدة الإسلامية، وترويج كتبها بأحدث وسيلة وأرخص ثمن، ويقابلوا الصحف المادية والمغرضة بصحفٍ دينية فيها تركيزٌ علىٰ العقيدة وكشف الباطل، وإظهار عورات أهله، ويقابلوا الإذاعات المغرضة وسائر الإعلام من القصص والمجلات وأشرطة الأفلام وغيرها بإذاعات ووسائل إعلامية أخرىٰ توجه الناس إلىٰ الحق، وتضبط عقولهم وأوقاتَهم، وتحفظها من سرقة شياطين الإنس واختطافها، وهكذا فليقابلوا كل وسيلة هدم بوسيلة بناء، ويُرخِصوا أنفسهم وأموالهم في سبيل ذلك، ويحتفُّوا بولاة أمورهم، ويساندوهم ويتعاونوا معهم، ويتركوا المواقف الانعزالية والحالات الانهزامية، فلا يتلبسوا بها أبدًا،

---

(١) يجتثُّوا: يستأصلوا.

(٢) أي: بغير عقيدة الدين.

ليكونوا من الصادقين مع اللَّه.

ويجب ذلك ويتعين بصفة حتمية علىٰ ولاة أمور المسلمين من الملك الكبير إلىٰ الموظف الصغير، لينتشلوا جسد هذه الأمة الذي تداعت عليه عصابات الضلال من كل ناحية بشتىٰ أنواع الإثم والعدوان، وبجميع أنواع الغزو الفكري والعسكري والحروب الباردة والكاوية، والتي تلتقي فيها جميع المعسكرات علىٰ حرب الإسلام وتحطيم جسمه حسبما خططته لهم اليهودية الصهيونية علىٰ أيدي الماسونيين وعملائهم وكسبهم من المنصبغين بدعايتهم والمتلطخين برجسهم، والذين كانوا لهم عونًا، بل كانوا أشد علىٰ الإسلام منهم، لتنديدهم بالإسلام وتشهيرهم بالمسلمين، أو مناصرتهم لأعداء اللَّه وأعداء المسلمين باسم «القومية»، أو بدعوىٰ «النفعية»، مما جعلهم يستفزون قِصارَ النظر ضدهم بسبب المواقف التي خذلوهم بها، وقد عملت الماسونية اليهودية علىٰ إبراز هذا الداء الدويِّ في جسم الأمة الإسلامية لهذا الغرض، كما قامت من قبلُ بإشغال الملوك والسلاطين بأنواع الفتن وألوان المطامع والأهداف الأنانية عن نجدة من يستحق النجدة، كما حصل للسلطان التركي الذي قصر همته علىٰ احتلال مصر في وقت تكالُب الصليبيين علىٰ الأندلس، ولم يعبأ بنصرة أهله وانتشالهم من مخالب الأعداء، علىٰ الرغم من استنجاد الملك به، ولو قدم لنصرة مسلمي الأندلس وانتشال بلادهم لظفر بالجميع، وحصل له أكثر من مراده، وكان عزة الدهر ومفخرة التاريخ، وكانت نجدته أعظم نفعًا للمسلمين وأشد قمعًا للكفار من نجدة المعتصم للمستنجِدة به القائلة: «وا معتصماه».

وما أحوج المسلمين اليوم في كل مكان إلىٰ أمثال «معتصم» ينجدهم ممن يتجنىٰ عليهم ويقسرهم قسرًا علىٰ ترك دينهم بشتىٰ أنواع التنكيل، والتضييق عليهم بالمعيشة حتىٰ في حرمانهم من الاكتساب، والعمل علىٰ إبادتهم بما يختلقه من الأكاذيب، وإن الذي يقوم بنجدة المسلمين

ويتبنىٰ قضاياهم ويكون صاعقةً علىٰ أعدائهم؛ سيحتل مكانةً عظيمةً فريدةً في هذه المعمورة، وتكسب حكومته التي تقوم بذلك أعظم وأكبر ثقة، وتكون معقد آمال المسلمين - بإذن اللَّه - ومَهجَرهم ومحط رحالهم، ويجعل اللَّه لها رهبةً في قلوب العالم، فينصرها بالرعب الذي جعله نصرة لنبيه ﷺ وللصادقين من خلفائه إلىٰ يوم القيامة.

وهذه الرابطة الإسلامية هي التي تدل عليها نصوص الوحي ومقتضياته من كتاب وسنة، وليس في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فقط، بل في نصوص كثيرة، فقد أكثر القرآن الكريم إطلاق النفس بصيغة الجمع مريدًا الأخ، تنبيهًا منه تبارك وتعالى علىٰ أن رابطة الإسلام تجعل المسلم أخًا للمسلم كنفسه، وذلك مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، فلا تقتلوا إخوانكم ولا تخرجوهم، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، أي: إخوانكم. وقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، أي: بإخوانهم، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، أي: لا يأكل أحدكم مال أخيه، وقوله ﷺ: **«المُسلمُ أخو المسلم، لا يَخذُلُه، ولا يُسلِمُه**[(١)]**، التقوىٰ هاهنا - يشيرُ إلىٰ صدره - بحسب امرئٍ من الشر أن يَحقِرَ أخاه المسلم. كلُّ المسلم علىٰ المسلم حرام؛ دَمُه، ومالُه، وعِرضُه»**[(٢)].

وقال - أيضًا -: **«لا يؤمنُ أحدُكم حتىٰ يحبَّ لأخيه المؤمن مثلَما يُحبُّ لنفسه»**[(٣)]؛ كما هو نص الإسماعيلي من طريق رَوح ابن عبادة عن حسين المعلِّم، وكلاهما صحيحان متفق عليهما من رواية قتادة.

---

(١) أي: لا يسلمه لأعدائه.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٦٤).

(٣) رواه البخاري (١٣).

وقوله ﷺ: «**المسلمُ للمسلم كالبُنيانِ يشُدُّ بعضُه بعضًا**»[١].

وقوله: «**ما من مؤمنٍ نَصَر مؤمنًا في يوم يُحِبُّ فيه نُصرتَه؛ إلا نَصَره اللَّهُ في يومٍ يُحِبُّ فيه نُصرتَه، وما من مؤمنٍ خَذَل مؤمنًا في يومٍ يُحِبُّ فيه نُصرتَه؛ إلاَّ خَذَله اللَّهُ في يومٍ يُحبُّ فيه نصرتَه**»[٢].

والنصوص في ذلك كثيرة مشهورة، وقد قدمت طرفًا صالحًا مما يجب علىٰ عباد اللَّه المسلمين المؤمنين نحو بعضهم البعض، وذلك من خلال الوجه الخامس والأربعين إلىٰ ما فوق التسعين، وفي خلال تلك ذكرت أن العابد للَّه لا يترك أخاه المؤمن عرضةً للأحداث وفريسةً للظلمة، هذا يعضه وهذا يفتنه أو يفنيه، وأن العابد للَّه يدخل السرور في بيوت المسلمين، ويذبُّ عنهم كل نائبة، ويحمي ذمارهم[٣]؛ فليرجع إلىٰ تلك الوجوه من طلب الزيادة.

والحاصل: أن الرابطة الحقيقية والدعامة الصالحة الثابتة هي رابطة الدين ودعامته، وأن النداء بأي رابطة غير الإسلام من الروابط القومية والمذاهب المادية ممنوع بإجماع المسلمين ولا يجوز قطعًا، بل هو إما أن يكون معصيةً كبيرةً وإثمًا عظيمًا، أو يكون شركًا مخلًّا بأصل العقيدة ومضادًّا لها ـ كما أوضحناه سابقًا ـ، ونزيد هنا إيضاحًا:

١ ـ أما كونه معصية وإثمًا عظيمًا: فإنه مخالفة للأمر وارتكاب للنهي، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليس منَّا مَن دعا إلىٰ عصبية**»[٤].

وقال في حديث جابر ـ الذي رواه البخاري وغيره ـ: «**دعوها؛ فإنها مُنتِنة**»[٥].

فقوله: «**دعوها**» أمر صريح بتركها، والأمر المطلق يقتضي الوجوب

---

(١) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).
(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٠)، وأبو داود (٤٨٨٤).
(٣) **الذمار**: العهود.
(٤) رواه أبو داود (٥١٢١).
(٥) رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

علىٰ التحقيق ـ كما قرره الأصوليون ـ؛ لأن اللَّه يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]، ولأن اللَّه اعتبر إبليس عاصيًا بمخالفة أمر واحد فأبعده من ملكوت السماوات، ولعنه بالطرد من رحمته، ومن تأمل في واقع كل أمة إسلامية عتت عن أمر ربها ورسله، ونادت بالقومية ونحوها من المبادئ العصبية والمادية، وجدها تتخبط في صنوف الفتنة وعذاب الشقاق والأزمات المتلاحقة؛ نتيجة الحرمان من رحمة اللَّه، ووجد طواغيتهم ـ الذين تبنوها سياسيًّا وفلسفيًّا ـ قد حاق بهم الرجس الحسي والمعنوي، الذي هو نصيب الشياطين المبتعدين عن أمر اللَّه وصراطه المستقيم، وإذا كان الأمر المطلق للوجوب شرعًا وعقلًا، فقد أكد النبي ﷺ هذا الأمر والنهي بقوله: «**فإنها منتنة**». وحسبك بالنتن موجبًا للابتعاد التام، لدلالته علىٰ الخبث البالغ المضر في العاقبة.

فدل هذا الحديث الصحيح علىٰ مخالفة النداء بالقومية ونحوها، لأمر اللَّه علىٰ لسان رسوله ﷺ، وأن صاحبه متعاطٍ للنتن الخبيث، واللَّه جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]، ويقول تعالىٰ في وصف نبيه ﷺ: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، لا سيما وقد تبرأ من ذَوي العصبيات، ونفىٰ حكم الشهادة عن المقتول في سبيلها بقوله ﷺ: «**ومَن قاتَل تحت رايةٍ عِمِّيَّةٍ**[1] **ـ يدعو إلىٰ عصبية ـ، فليس مني، ولستُ منه**»[2].

وقال ﷺ: «**الشهيدُ مَن قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللَّه هي العليا**»[3].

---

(١) **راية عمية**: هي الأمر الذي لا يستبين وجهه، وقيل: هي جماعة مجتمعة علىٰ أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل. «تحقيق مسند الإمام أحمد» (١٣/ ٣٢٧).

(٢) رواه مسلم (١٨٤٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤)؛ من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، بلفظ: «**فهو في سبيل اللَّه**»، بدل: «**فهو شهيد**».

وهٰذا حصرٌ لمدلول الشهادة علىٰ ذلك، ولا سيما وقد ورد جوابًا علىٰ أسئلة الصحابة عن الرجل الذي يقاتل شجاعةً، أو حميةً عصبيةً، فأجابهم بذلك.

وورد عنه ﷺ في أصحِّ الأحاديث أنه قال: «**أبغضُ الناس إلىٰ اللَّهِ ثلاثةٌ: مُلحِدٌ في الحَرَم، ومُبتغٍ في الإسلام سُنَّةَ الجاهلية، ومُطَّلِبٌ دمَ امرئٍ مسلمٍ بغير حق ليُهريقَ دمه**»[1].

والإلحاد: هو الميل عن دين الحق بأي صورة، وسُننُ الجاهلية كثيرة قد تبلغ المئات:

منها ما يتعلق بالأصول[2]: كدعوىٰ القومية والوطنية، والحب والبغض لغير اللَّه، والمولاة والمعاداة في غير سبيله، بل في سبيل العصبيات والمنافع والمصالح، ورفض الحكم بما أنزل اللَّه والحكم بغيره، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو عكسهما[3]، والانصراف عن اللَّه إلىٰ غيره بأي حالٍ من الأحوال، وتقديس الأشخاص والمذاهب والمبادئ، والغضب لهم دون الغضب للَّه، وهذا كله ـ وأضعافه ـ متحقَّقُ الوقوع، ومَجهورٌ به في عالم القوميات كلها.

ومنها ما يتعلق بالفروع، كالتبرج ونحوه، وأكل الربا والميتة، والرسول ﷺ أتىٰ بلفظ التعميم الشامل للجميع.

وفي قوله ﷺ: «**أبغضُ الناس إلىٰ اللَّه**» دليل قاطع علىٰ أن المتلبس بشيء من هذه الصفات هو أبغض الآدميين إلىٰ اللَّه.

ومما يدل علىٰ التحريم الشديد للعصبيات القومية والمذهبية قوله

---

(١) رواه البخاري (٦٨٨٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: «**أبغض الناس**». قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث: «قال المهلَّب: المراد بِهؤلاء الثلاثة: أنهم أبغض أهل المعاصي إلىٰ اللَّه فهو كقوله: «أكبر الكبائر» وإلا فالشرك أبغض إلىٰ اللَّه من جميع المعاصي» اهـ. «فتح الباري» (١٢/ ٢١٠).

(٢) يعني العقيدة.

(٣) يعني الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

ﷺ: **«ليس منّا من ضَرَب الخدود، أو شقَّ الجيوب، أو دعا بدعوىٰ الجاهلية»**[(١)]. وهذا تصريح منه ﷺ بالبراءة منه.

وقال ﷺ ـ أيضًا ـ: **«ومَن دعا بدعوىٰ الجاهلية؛ فإنه من جُثا جهنم**[(٢)]**، وإن صلىٰ وصام وزَعَم أنه مسلم»**[(٣)].

وقال أيضًا ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ: **«مَن تَعزَّىٰ عليكم بعَزاء الجاهلية، فأعِضُّوه بهَنِ أبيه ولا تُكنُّوا»**[(٤)].

وهذا حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» والنسائي وابن ماجه والضياء المقدسي والطبراني في «الكبير»؛ كلهم بالإسناد إلىٰ أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

قال في «أضواء البيان»: فانظر كيف سمىٰ النبي ﷺ ذلك النداء: «عزاء الجاهلية»، وأمر أن يقال للداعي به: «اعضُضْ علىٰ هَنِ أبيك» أي: فرجه، وأن يصرَّح له بذلك، ولا يعبِّر عنه بالكناية، فهذا يدل علىٰ شدة قبح هذا النداء، وشدة بغض النبي ﷺ له.

واعلم أن رؤساء الدعاة إلىٰ نحو هذه القومية العربية أبو جهل وأبو لهب والوليد بن المغيرة ونظراؤهم من رؤساء الكفرة.

إلىٰ أن قال[(٥)]: واعلم أنه لا خلاف بين العلماء ـ كما ذكرنا آنفًا ـ في منع النداء برابطة غير الإسلام، كالقوميات والعصبيات النَّسَبية، لا سيما إذا كان النداء بالقومية يقصد من ورائه القضاء علىٰ رابطة الإسلام ورفض الرابطة السماوية... إلىٰ آخر ما قاله في (ج٣/ص٤٤٥) ـ جزاه اللّه خيرًا ـ.

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).
(٢) **الجُثا**: هو ما جُمع من التراب ونحوه.
(٣) رواه أحمد (٤/ ١٣٠)، والتِّرمذي (٢٨٦٣).
(٤) رواه أحمد (٥/ ١٣٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٦٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٥/ ٢٧٢).
(٥) يعني الشيخ الشنقيطي رحمه الله.

٢ ـ وأما كونها[1] قد تكون شركًا مناقضًا لملة إبراهيم ومصادمًا لأصل التوحيد: فما قرره بعضهم أو كلهم في فلسفة قوميتهم وأصولها من أن النصراني ونحوه ـ إذا كان عربيًّا ـ أفضل وأولىٰ بالنصرة والمؤاخاة من مسلم غير عربي! وقد جرتهم هذه القاعدة إلىٰ التخلي عن قضايا المسلمين في كل مكان، ولا سيما في الهند وكشمير والزنجبار ونيجيريا وقبرص وغيرها، ولم يكفهم مجرد التخلِّي، بل عكسوا الأمر، فساعدوا خصومهم من النصارىٰ والمجوس والوثنيين، ووقفوا إلىٰ جانبهم، وهذا أقوىٰ أنواع الموالاة التي نَهىٰ اللَّه عما هو أقل منها في القرآن، وأجرىٰ مواليهم كمجراهم، ففي أول سورة الممتحنة سبع آيات افتتحها اللَّه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، فنهىٰ عن الإلقاء إليهم بالمودة إشعارًا منه بطريق الأولىٰ عن مؤازرتِهم، فضلًا عن مساعدتهم علىٰ المسلمين، فهذا كفر كما نصت عليه آيات سورتي المائدة والتوبة، ثم أمرنا بعد ذلك باتباع ملة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والاقتداء به في منابذته للكفرة من قومه[2]، وهذا يهدم أفكار القوميين من أساسها، ثم رخص في البر لمن لم يعادنا في الدين ويوالِ المعادين أو يظاهرهم علىٰ إخراجنا من أي بلد، ومعروف مواقف النصارىٰ ـ ونحوهم ـ من مساندة الصهاينة ضدنا في فلسطين، وتشجيعهم للاحتلال في كل بقعة تكون الأغلبية لهم، وقومُنا يعكسون الأمر؛ فيستدلون بالآية الثامنة التي فيها مجرد البر للمسالم منهم[3] علىٰ موالاتهم وتفضيلهم علىٰ المسلمين الأعاجم، ويُعمُّوْنَ عن الآيات السبع قبلها؛ لأنها تعكس

---

(١) يعني عصبية الجاهلية.

(٢) يقصد قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

(٣) يقصد بها قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة].

مقاصدهم وترغم أنوفهم، وقد قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فالآياتُ كثيرة في المنع الشديد عن حب الكافر أو موالاته ـ ولو كان أقرب قريب ـ، ولكن القوم يقلبون الحقائق، ويُلبِّسون علىٰ مستمعيهم باعتراف بعض الحكومات المحسوبة علىٰ الإسلام بدولة الصهاينة، وهؤلاء حكومتهم علمانية مثلهم ـ لا مسلمةٌ كشعوبِهم ـ، فما ذنب الشعب المسلم إذا ابتُلي بحكومة علمانية أبرزَها المكرُ والعهر السياسي المنبثق من المعسكرين؟! هذا من أظلم الظلم، ولكن اللَّه فضحهم بمساندتهم حكوماتٍ كافرةً معترفةً بدولةِ العصابات الصهيونية علىٰ المسلمين الذين لم يعترفوا بإسرائيل؛ كموقفهم من «نيجيريا، وقبرص، وباكستان»، ومناصرتهم للوثنين والنصارىٰ حتىٰ من غير العرب، كالهند المعترِفة بإسرائيل، والتي جعلت بلادها مسرحًا لها، وليس هذا موضع بسط أحوالهم ومتناقضاتهم لأنه تفسير، ولكن اضطُررنا لذكره استطرادًا لبيان مناقضةِ مدلول الشهادتين، وهدمِ الملة الخبيثة بتفضيل الكافر وتأييده علىٰ المسلم، ومن مناقضة فكرة «القوميات» لأصل الدين، وسعيهم الدائب علىٰ تأسيس دولة علمانية تسمح لكل مفترٍ علىٰ اللَّه أن يجهر بفريته ويدعو لها، وتَكبتَ المسلم عن مقاومتها بحجة الطائفية، وهذا إعلاءٌ لكلمة الكفر بشتىٰ أنواعها، وخفض لكلمة اللَّه، خلافًا لمقصود اللَّه من إرسال الرسل ومشروعية الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يخفي أن أسلافنا إنما فتحوا البلاد، ومصَّروا الأمصار باسم الإسلام ورابطته الدينية؛ لا بأي رابطة قومية أو مادية مما بثه اليهود وتبناه تلاميذ الماسونية.

الحادي والستون بعد المئة: الضراعة إلىٰ اللَّه سبحانه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بصيغة الجمع، لا يُقصد بها جمع المفرد؛ لأن الشخص الواحد لا يكون جمعًا، كما لا يُقصد التعظيم بنون الجمع؛ لأن العابد ضارع إلىٰ اللَّه

بذكر نفسه بالعجز والذلة لا بالعظمة والرفعة؛ بل نون الجمع هنا تعبير من المسلم عن مجموع المسلمين ـ كما علمه اللَّه لذلك ـ؛ فهو:

أولًا: كالتأكيد بأن المؤمنين إخوةٌ؛ تتساوىٰ أقدامهم في عبادة اللَّه والتحرك لها، والتوجه إلىٰ اللَّه وطلب المدد منه، فلو قال: «إياك أعبد» لكان مقتصرًا علىٰ ذكر عبادة نفسه دون غيره، وهذه فُرقةٌ وأنانية مخالفة للتضامن والارتباط، واللَّه يربِّي عباده علىٰ عكس ذلك، ويوجِّهُهم إلىٰ ما يحصل به صفاء قلوبهم، واتحاد هدفهم الصحيح نحوه، ووحدة صفوفهم في حياتهم الدينية، التي هي علىٰ خلاف حياة الماديين، حتىٰ إن بعضهم يستسقي لبعضٍ في صلاة الاستسقاء والقنوت بدعائه، شعورًا عميقًا منهم بهذه الوحدة والاتحاد.

فإذا قال المسلم الصادق: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فقد ذكر عبادة نفسه وعبادة غيره من المسلمين في سائر بقاع الأرض علىٰ العموم، لذلك الارتباط العقائدي الذي يجعلهم عصبةً واحدةً متضامنين في معاملتهم مع اللَّه وعلاقتهم به في سائر نواحي حياتهم؛ التي يجب أن تكون متكيفةً بروح العبادة للَّه قلبًا وقالبًا، وظاهرًا وباطنًا، ليتحقق الوصفُ النبوي السالف الذكر(١).

وثانيًا: في الضراعة باسم المجموع تنبيهٌ علىٰ حتمية الإتيان بالصلاة مع الجماعة، وقد اعتبرها بعض المحققين شرطًا لصحتها(٢)، والأحاديث الصحيحة تؤيد ذلك، لا سيما عدم سماح النبي ﷺ للأعمىٰ الذي لا قائد له، ويعتذر بالبُعد وكثرة الهوام بالمدينة، إذ كان جوابه له بما معناه: «**لا أجد لك رخصةً وأنت تسمع النداء**»(٣).

وشيءٌ ثالث في صيغة الجمع بهذه الضراعة، وهو: إحساس العبد

---

(١) يقصد قوله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**».

(٢) فعلىٰ هذا القول من تخلَّف عن صلاةِ الجماعة بدون عذرٍ؛ فصلاتُه باطلة، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، كما في «مجموع الفتاوىٰ»، فتاوىٰ الصلاة.

(٣) رواه مسلم (٦٥٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

بنقصه في عبادته وحده، وعدم استحقاقه للتقدم بذكرها وحده، فعلمه اللَّه أن يتقدم بعبادة جميع العابدين بلفظةٍ واحدة، وهذا ـ أيضًا ـ تربيةٌ من اللَّه لعبده ضد الانعزالية، وإشعار لها بالارتباط بالمجموع ـ كما تقدم ـ.

الثاني والستون بعد المئة: في حصر الابتهال إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشعارٌ بالتزام[1] عبادة اللَّه وطاعته، وتنفيذِ حكمه إلىٰ الموت، وتأكدهما عليه كلما ازدادت معرفته بربه وعظيم آلائه، وزاد يقينه بوعده ووعيده؛ فإن ضراعة المؤمن إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ـ بعد ما ذكرناه في القاعدة السادسة والخمسين بعد المئة من معرفته بالبداءة باسمه والثناء عليه، والاعتراف العام بربوبيته والرجوع إليه يوم الحساب ـ؛ هذه الضراعة بعد ذلك هي عهدٌ يجدده مع ربه في هذه السورة المباركة، التي علمه إياها علىٰ حصر العبادة له وحده، متبرئًا من عبادة الهوىٰ بأي صورة تنوعت، وبأي نِحلةٍ ظهرت، ملازمًا لذلك طيلة حياته حتىٰ يأتيه اليقين ـ الذي هو الموت ـ، وأن مسؤوليته في إنفاذ هذا العهد من عبادة اللَّه بكل ناحيةٍ من نواحي الحياة تزداد كلما ازدادت معلوماته من الروافد الدينية، التي فصلناها في القاعدة المذكورة وما بعدها، ويتحتم عليه الجهاد بجميع أنواعه ومتطلباته، درءً لكل فتنة تصده عن ذلك، وزحفًا بعقيدته الروحية ليكون مرفوع الرأس.

وإنه لا يسقط عنه أي نوع من أنواع العبادة مع القدرة عليه مهما عمل أو بلغ من أنواع التصوف أو علم من المكاشفات المزعومة أبدًا، وإن اليقين الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر]، هو كما فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه؛ إذ قال: «**أما عثمانُ؛ فقد جاءه اليقينُ من ربه**»[2]؛

(١) **الالتزام: المداومة.**

(٢) رواه البخاري (١٢٤٣)، من حديث أم العلاء رضي الله عنها.

يعني: الموت.

فلا ينفكُّ العبدُ من عبودية اللَّه إلا بالموت، ومن زعم أنه يصل بشيءٍ من أنواع التصوف إلىٰ مقام يسقطُ فيه التعبد فهو زنديقٌ كافر؛ مناقضٌ لما رسمه اللَّه لعباده في هذه السورة، ومناقض لهدي النبي ﷺ وأصحابه الذين لم يُسقطوا عن أنفسهم من عبادة اللَّه ولا مثقال ذرة، بل بلغ بهم الأمر إلىٰ بذل نفوسهم ومُهَجِهم في سبيل اللَّه، لم يدَّعِ أحد منهم علمًا باطنيًا، ولم يزعموا أن العبد هو الرب؛ لأن فيه من نواة حقيقته التي يجهلها الرسل ـ فيما يزعم ضُلَّال الصوفية ـ؛ فإن هذا تطاول علىٰ وحي اللَّه، وأعظم افتراء علىٰ اللَّه وانتقاص لرسله، وأي انتقاض لرسله أفظع من زعم هؤلاء أنهم أعلم منهم، وأنهم يصلون إلىٰ درجة يسقط عنهم فيها التكليف؟!!.

هذا كفرانٌ بسورة «الفاتحة» وغيرها من الوحي، وكفران بمنزله ومن أُنزل عليه ـ والعياذ باللَّه ـ، وهذا من عدم تحقيق الاستعاذة باللَّه ـ عن صدق ـ من الشيطان الرجيم، من جنس الشيطان المبتعد عن اللَّه من الجن والإنس، وكما فصلنا ذلك في باب الاستعاذة.

ومن تدبر معاني هذه السورة الكريمة وأخواتها ومفسَّراتها من وحي اللَّه المنزَّل علىٰ رسوله كتابًا وسنةً ـ وهو صادق في استعاذته من جنس الشيطان، بابتعاده عنه ونفرته منه ـ، استنار بأنوار التوجيه التي تهديه إلىٰ الاستقامة علىٰ عبادة اللَّه، والتزامها في كل ميدان من ميادين الحياة، حتىٰ يموت علىٰ ذلك محتسبًا، ولا يجعل لنفسه حريةَ الشهوة أو ترك العمل، دون برهان من اللَّه بالرجوع إلىٰ أمره وحكمه فيه، واللَّه الموفق.

الثالث والستون بعد المئة: تقديم العبادة علىٰ الاستعانة في هذه الآية الكريمة من باب تقديم الغايات علىٰ الوسائل، ذلك أن العبادة هي غاية العِباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، والحكمة في ذلك التقديمِ هي أن المصلي وغيره ـ مِن كل متلبس بالعبادة ـ يقول: «إني

شرعتُ في طاعتك تحقيقًا لعبادتك، فأستعين بك في إتمامها وإنجاحها علىٰ ما يرضيك»، وحتىٰ المجاهد، عليه ألَّا يغتر بقوة ساعده أو قوة عتاده، أو كثرة زملائه وأعوانه، بل يضرع إلىٰ اللَّـه الذي جاهَد في سبيله بهذه الآية ضراعةَ الصادق؛ طالبًا مدده الأعلىٰ الذي لا يغلبه شيء، ففي ذلك إزالةٌ للزهو، وإفناء للحمق والكبرياء.

ثم إن العبادة لما كانت له جَلَّ وَعَلَا؛ وجب تقديمها، ولما كانت الاستعانة به ساغ تأخيرها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانةٌ قبلها علىٰ التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها علىٰ عبودية أخرىٰ، وهكذا أبدًا حتىٰ يقضي العبد نحبه».

وقال الشيخ ابن تيمية: «تأملت أنفع الدعاء؛ فإذا هو سؤال العون علىٰ مرضاته، ثم رأيته في «الفاتحة» في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فهذا الدعاء بهذه الآية من حظ أهل العبادة للَّه والمعرفةِ به حقيقةً، ولذا علمه النبي ﷺ لمعاذٍ؛ فقال: «**يا معاذُ، إني أُحبُّك؛ فلا تنسَ أن تقول دُبرَ كل صلاة: اللَّهم أعنِّي علىٰ ذِكرك وشُكرك وحُسنِ عبادتك**»[(١)].

الرابع والستون بعد المئة: ضراعة عبدِ اللَّـه إليه بهذه الآية الكريمة مبتدئًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وطالبًا منه العون التام عليها بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشعارٌ صريح منه بالتصميم علىٰ العمل، والعزم التام علىٰ إكماله والمثابرة عليه طيلة الحياة، فهو يطلب منه المعونة علىٰ أداء جميع ما تستوجبه عبادة اللَّـه في كافة الشؤون والنواحي المتشعبة والمتجددة في الحياة؛ إذ لا يمكن أن يطلب الاستعانة قبل الشروع في أداء الواجب - مع صدق النية والعزم علىٰ التصميم والثبات -؛ فإن التصميم والثبات ومداومة الصدق والإخلاص يحتاج كلٌّ منها إلىٰ معونة اللَّـه ومدده؛ الذي يستطيع به عبدُه علىٰ مجاهدة النفس، ودفع وساوس الشيطان

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٤٤)، أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣).

الإبليسي، ومجابهة ما تقذف به شياطين الإنس من وسائل الإغراء التي يجري في دفعها أعظمَ مكابدة؛ لا يبلغ العبد الدرجة القصوىٰ في الثبات عليها إلا بعون اللَّه وتسديده.

فكان من اللائق تقديم الضراعة من العبد إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توسلًا منه إلىٰ ربه بما يرضيه من العبادة، ثم يَضرَعُ إليه بطلب العون علىٰ الثبات عليها، والتكيُّف بها في كل شأنٍ من شؤونه، معترفًا بأنه لا مُعينَ له في الحقيقة سواه، وفي هذا تجريد التوحيد من الاستعانة بغيره، وتحقيق المتابعة لوحيه من كتابه وسنةِ رسوله ﷺ؛ إذ من لم يحقق ذلك فليس عابدًا للَّه، ومن سلك ما يخالف ذلك كان عابدًا لهواه ومتبوعِه من دون اللَّه.

الخامس والستون بعد المئة: لما كان الارتقاء لا يحصل إلا بالإيمان باللَّه عن استيقانٍ كامل، وحبٍّ وتعظيم له، لا يعلوه غيره، كان الحامدُ للَّه حمدًا صحيحًا ـ علىٰ نعمه وحسن تربيته للعاملين، وعظيم رحمته، وشمول مُلكه وقهره، واختصاصه بالحُكم بين الناس في الدار الآخرة، يتقدم إليه بهذه الضراعة العظيمة الحبيبة إليه جَلَّوَعَلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تلقيًا منه لها بتعليمه إياه، عازمًا علىٰ تصديق ما أقر به من ذلك بالعمل المرضي للَّه؛ من القيام بما أوجبه عليه في منصوص وحيه من كتاب وسنة؛ وذلك لأن الإيمان به والشكر لنعمه لابد أن يتجسدا في صور عملية؛ إذ النطق الذي لم تصدقه الأعمال يعتبر كذبًا ونفاقًا يستحق المقت، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

وأيضًا فليس العمل مجرد حركات يأتي بها في حالة صورية تقليدية، بل لابد من إفراغ الإنسان روحه فيه، واستيقاظه لمقاصد اللَّه وحكمه فيه؛ حتىٰ يؤديه علىٰ الوجه الصحيح بخشوع وإخبات وحسن نية، واستشعارٍ عظيم لوعد اللَّه علىٰ الإتيان به وحسن إتقانه، ولو عبد اللَّه علىٰ ضد ذلك، ومن هنا يصدق العبد في ضراعته بهذا العهد للَّه علىٰ

القيام بعبادته؛ كما يصدق في ضراعته بطلب الاستعانة منه علىٰ إكمالها وإتقانها وإخلاصها والمثابرة عليها والمصابرة فيها.

فهذه القواعد التي ذكرنا غالبها ـ وسنذكر ما تيسر منها ـ؛ أقول: بهذه القواعد فتح اللَّه لأهل دينه القويم أبواب الأمل والعمل لمن يبتغي الوصول إلىٰ أسمىٰ ما قُدِّر له من كمال وجمال في الدنيا والآخرة؛ فإن دعائم الإرادة القوية: ما ذكرناه وما سنذكره مما هو مرتكز علىٰ الطمع في رحمة اللَّه ونيل وعده والخوف منه، والابتعاد عن موجِبات سخطه، وحلول وعيده، وبذلك يصلُ الإنسان إلىٰ المستوىٰ الإنساني الصحيح الذي يرفعه عن الحيوانية بتاتًا، ويحقق إرادة اللَّه فيه، لينخرط في سلك عباد اللَّه الصالحين، وينال الحياة الطيبة ـ بجميع معانيها ـ في الدنيا، ويحظىٰ برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمنازلهم العالية في الدار الآخرة. أما بدون ذلك فنصيبه الشقاءُ بالأزمات المختلفة المتلاحقة في الدنيا، والخيبة الكاملة في الآخرة.

قيل للحسن: «إن قومًا يقولون: نحن نحب اللَّه، ويضيعون العمل! فقال: هيهات هيهات! تلك أمانيُّهم يتأرجحون فيها، من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه».

وسيأتي ـ إن شاء اللَّه ـ مزيد تفصيل عند قوله تعالىٰ في سورة «النساء»: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

السادس والستون بعد المئة: الصادق في استعانته باللَّه ـ للتصميم والمثابرة علىٰ عبادته في كل ناحية ـ يسمو بنفسه عن الماديات[1]،

(١) لم يقصد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ولا غيره من علماء أهل السنة ـ بمثل هذه التعبيرات: أن يترك الإنسان الدنيا برمَّتِها، أو أن يكون فقيرًا محتاجًا يتلمَّسُ العطاء والمعونات من الناس؛ فإن الفقر والحاجة إلىٰ الناس ذل وضعة، وإنما يطلق أهل العلم هذه التعبيرات قاصدين ألا تستعبدَ الدنيا العبدَ، بحيث يلهث وراءها وينسىٰ آخرته، وكذلك يقصدون أن العبد إذا وضع في تخيير بين =

ويرتفع عن شهوات نفسه، ويستكبر عن ملذات الدنيا الحيوانية؛ لأنها من أكبر الصارفات له، أو المعوِّقات لسيره، فيقتصر منها علىٰ حاجة نفسه بنية صالحة، دون أن يؤثر شيئًا منها علىٰ وظيفة اللَّه، أو ينشغل بها شغلًا يقطعه عن مهماتها.

ويرىٰ الصادقُ في عبادة اللَّه أن الخير والسعادة في النزاهة والشرف مع الخالق أولًا، ثم المخلوق ثانيًا؛ لتتحقق له وعلىٰ يديه جميعُ القيم الصالحة، ومن ثم يتجه اتجاهًا سليمًا مستقيمًا لخير نفسِه وجميعِ إخوته المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ولجميع طرق الخير والإصلاح عامة، وهذا السر في جعل شعب الإيمان بضعًا وستين ـ أو بضعًا وسبعين ـ شعبةً علىٰ التفصيل، «**أعلاها قول: لا إله إلا اللَّه، وأدناها إماطةُ الأذىٰ عن الطريق**»، كما ورد بذلك الحديث المتفق علىٰ صحته عن المصطفىٰ ﷺ[1].

السابع والستون بعد المئة: صدق الاستعانة باللَّه يورث طمأنينة القلب وسكون النفس؛ لأن ذلك من آثار صدق الإيمان وقوته، وإذا اطمأن قلب الإنسان وسكنت نفسه؛ حصل له بردُ الراحة، وحلاوة اليقين، وسلَّم قلبه مما ينتاب قلبَ غيره من الخطرات الفاسدة، أو المفزعة، أو المُخذِّلة، فكان يستقبل الأهوال بشجاعة وثبات، لا يبالي بالخطوب إذا اعتَدَتْ، ولا يلويه شيطان الهوىٰ والشهوات عن الإقدام علىٰ الأهوال، أو الثبات علىٰ الخطوب، لاستمداده العونَ من ربه الذي صَدق معه في ضراعته باستعانته، فهو يرىٰ نفسه موصولًا من اللَّه بالمدد الروحي والمعنوي، ويؤمن بأن اللَّه يفتح له كل مغلق، فلا يعتوره اليأس، أو يتسرب إليه الجزع، ولا يصيبه شيء من الضعف أو الحيرة؛ لأنه في كنف اللَّه وعزَّته ونوره، فهو من أهل هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ

= الدنيا والآخرة، باع الدنيا ليربح الآخرة وهو فرحٌ مسرور، واللَّهُ أعلم.

(١) رواه مسلم (٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد]، ومن أهل هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهو محفوف بنصرة اللّه وأنوار هدايته الروحية والمعنوية، التي لا يضل صاحبها ولا يغلب.

الثامن والستون بعد المئة: الصادقون في ضراعتهم للّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يهبهم اللّه مزايا وخصائص تؤهلهم لإقامة الحق والنهوض بأعباء نصرته، وتحمُّل التضحيات الجسام في سبيل اللّه لأجله؛ لأن حسن نيتهم للّه وصدق ضراعتهم له وقوةَ ثقتهم به تكسبهم الثبات عليه والاعتصام به والتقيُّد بأهدابه، فما شرفت النفس بمثل معرفتها للحق واعتصامها به؛ لأنه هو الذي يُعلي قدرها ويرفع مجدها، كما وصف اللّه وحيه في الآية (٤٤) من سورة «الزخرف»، والعاشرة من سورة «الأنبياء».

فالصادقون مع اللّه بهذه الضراعة يكون لهم من الشجاعة ما يحملهم علىٰ الجهر والإعلان بالحق؛ دون خشية أحد مهما كان، وعلىٰ القيام بنشره والاندفاع بنصرته وإسنادِ أهله[1]، لشعورهم الكامل أنهم منتدَبون من اللّه لتوزيعه والذب عنه، كما قال تعالىٰ في حصر سمة الإخلاص: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب]، فالجهر بالحق من أعظم صفات الكمال؛ لأنه لا يجول الباطل إلا عند غفلة أهل الحق عنه، فإذا قام به أبطالٌ يصدعون به ويتحمسون للّه في نشره؛ زَهَق[2] الباطل وانصعق أهله، واختفَوا كما يختفي الخفاش من ضوء الشمس.

وقد أجرىٰ اللّه سنته الكونية أن الحق لا يقوم وحده، وإنما يقوم بالأبطال المخلصين قومتَهم في دينهم للّه، وجَعَلَ الجهر بالحق واجبًا

---

(١) أي: إعانتهم.

(٢) زهق: ذهب.

عظيمًا من واجبات الدين، وجعل أفضل الشهادة «**كلمةَ حقٍّ عند سلطان جائر**»[١]، وقال النبي ﷺ: «**إذا هابت أمتي أن تقول للظالم: يا ظالم؛ فقد تُوُدِّع منهم**[٢]»[٣].

ولا يمكن للأمة نهوضٌ ولدين الحق نصرٌ إلا بقيام من ينصره مِن المخلصين، ولا ينهض الحق ويبلغ ذروة المجد والنصر إلا إذا نَهض به رجالٌ كبار النفوس ممن صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه بهذه الضراعة؛ ممن ارتفعت شخصيتهم وكبُرت نفوسهم بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وللَّه در الشاعر القائل:

تبيَّنتُ أن الحقَّ إن لم تُتح له ... بواسلُ يُخشىٰ ظلمُها فهْو باطلُ

لَعَمْرك لو أغنىٰ عن الحق أنه ... هو الحقُّ ما قام النبي يقاتلُ

فلا تحسبنَّ الحقَّ يَنهضُ وحده ... إذا مِلتَ عنه فهو لا شك مائلُ

أقِمْه وأسنده ودعِّمْ بناءَه ... وذُدْ عنه ذَوْدَ الليثِ والليثُ صائلُ

ولا تنصُرنَّ الحق بالقول وحده ... فإن عمادَ الحق ما أنت فاعلُ

مِن العدل ألَّا يَطلب الحقَّ عاجزٌ ... فليس علىٰ وجه البسيطة عادلُ

ولكنَّ قومي يشرب الدم سائغًا ... إذا خُضِّبت يومَ الورود المناهلُ[٤]

وانظروا إلىٰ موقف أبي الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه ومقارعتهم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٨١): «المعنىٰ في هذا أنهم إذا خافوا علىٰ أنفسهم من هذا القول، فتَركوه، كانوا مما هو أشد منه وأعظم من القول والعمل أخوف، وكانوا إلىٰ أن يدعوا جهاد المشركين خوفًا علىٰ أنفسهم وأموالهم أقرب، وإذا صاروا كذلك، فقد تودع منهم، واستوىٰ وجودهم وعدمهم» اهـ.

(٣) رواه أحمد (٢/ ١٦٣).

(٤) **المناهل**: مجامع المياه.

بالحجج، ومناصبتهم العَداء؛ مع خذلان أقرب قريب له ـ وهو أبوه ـ، وكيف تحداهم بقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وكذلك موسىٰ عليه السلام الذي خرج من مصر خائفًا يترقب هاربًا من فرعون، ثم يأتي إلىٰ فرعون بعد عشر سنين مستهينًا بقوته، غير مبالٍ ببطشه وجنوده، داعيًا له إلىٰ الحق الذي ندبه[1] اللَّه إليه، ثابتًا أمامه، متحديًا له، صامدًا لموعده، كل هذا ثقةً بربه، واستمساكًا بما أوحىٰ إليه منه وثباتًا عليه، وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

الإخلاص في العبادة والاستعانة:

التاسع والستون بعد المئة: بتحقيق عبادة اللَّه، وصدق التوجه إليه بإخلاص وثبات يحصل تقويم الأخلاق ورفع مستواها، وذلك أن الانشغال بالعبادة وصَرفَ جميع الأحاسيس لها؛ ناشئٌ من طهارة القلب وسلامته مما سوىٰ اللَّه، فيتخلص من الأمراض المفسدة له، والمشقية لجميع جوارح صاحبه، لأنه[2] مَلِكُ الأعضاء المسير لها، فانشغالُه التام بالعبودية الصحيحة يقيه من أمراضه الموجبة لفساد الأخلاق؛ من الهلع والجزع، والشح والمنع والحرص، واللدد في الخصومة والجهل، والغرور والظلم والبغي، والجدل والمراء، والطيش والسفه المبدد لجميع الطاقات، والعجب والخيلاء والشك، والأشر والبطر والريبة، والغفلة والجمود، والكبر والفجور، والادعاء الكاذب والعناد، والتمرد والطغيان من جهة، والضعف واليأس والخور من جهة أخرىٰ، والافتتان بالدنيا، وحب المال والشهرة، والمكر والتشفي والحقد والغضب، والحسد والهمز واللمز، والانهماك في الشهوات... وغير ذلك، فإن الضمير منشأ الفعل ومصدره؛ فإن كان صالحًا بمراقبة اللَّه ومحبته

---

(١) ندبه: دعاه.

(٢) يعني القلب.

وخشيته؛ كانت الأعمال صالحةً والأخلاق حسنة؛ لانتفاء هذه الأوصاف والسجايا المذمومة، وإن كان الضمير فاسدًا ـ لحلول غير اللَّه فيه من أنواع الأنانية، وحب الذات ـ، فسدت الأعمال والأخلاق؛ لأن الأقوال والأعمال معبِّرةٌ عما في الضمير.

وسلوك الإنسان تبعٌ لتصوره حسبما في قلبه من قوة حب اللَّه ورسوله وتعظيمهما، ومن ضعف ذلك أو فقدانه بالكلية؛ فإن ما في الضمير غيب لا يعلمه إلا اللَّه، ولكن الأقوال والأعمال التي يتحرك بها اللسان والجوارح مخبرةٌ عما في الضمير، وشاهدة عليه، فبصدورها يكون الحكم عليه، كالحكم علىٰ الحاضر المشاهَد المنظور بالعين، المسموع بالأذنين.

وقد قرر علماء الأخلاق عن الخُلق: أنه حال نفسية تصدر عنها الأفعال بسهولة، فإن كانت حسنةً كان الخُلق حسنًا، وإن كانت سيئة فهو سيئ، فإذا زهد الإنسان في الجانب الروحي ـ أو جهل مقوماته ورغائبه ـ؛ اندفع وراء شهواته المادية وأغراضه الشخصية، لقلة الوازع الروحي في الضمير، فحصل منه جميع ما ذكرناه من مفاسد الأخلاق أو أضعافها، واندفع إلىٰ أنواع من الشرور يتضرر بها الناس علىٰ حسب قوة اندفاعه ومبلغ نزوته فيها.

ومن هنا تكثر الجرائم، ويستفحل الإثم والعدوان، وتكثر الضغائن، فتوقد نيران الحروب المهلكة والفاتكة، كما يجري في عالم الماديين، ولا تنجو الإنسانية من ذلك ـ أو أكثره ـ إلا بالعودة إلىٰ اللَّه والصدق معه في تحقيق عبادته، والتزام حكمه فيما أنزل علىٰ رسوله ﷺ، وما جرىٰ في الإسلام من قتالٍ فهو لتحقيق الحياة الطيبة، بتعزيز العقيدة لإعلاء كلمة اللَّه وحفظ النفوس من القتل الجماعي الذي تستعمله فئةٌ ضد الفئة الأخرىٰ في عالمنا المادي الحاضر، ولكنهم يتعامَون عن عيوبهم.

السبعون بعد المئة: الاتجاه الصادق من المؤمن إلىٰ اللَّه بهذه الضراعة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يقصر مهمته علىٰ غاية شريفة باتجاه واحد، يغرس في قلبه العفاف والطمأنينة، والترفع والابتعاد عن كل ما يُخل بعبودية اللَّه، ويُنجيه من الجشع والتطلع إلىٰ ما عند غيره، فيسلم قلبه من أنواع التوجع علىٰ ما فاته من طمع أو شهوة، وينجو من أمراض القلق الذي ما زال يفتك بالماديين الذين انسعرت أفئدتهم بجشع أطماعهم الشهوانية وأغراضهم الأنانية، وتلهُّفهم علىٰ حصول المال والمكاثرة به، والذين هم دائمًا في سباق رهيب للحصول علىٰ أكبر نصيب من ذلك، فقواهم البدنية والنفسية منطلقة كالآلة الدائمة الدوران لهذه الغاية المستثيرة لأعصابهم، المقلقة لأفئدتهم، إقلاقًا يُهلك بعضهم بأنواع أمراض القلب والصدر، ويدفع بالبعض الآخر إما إلىٰ ارتكاب شتىٰ الجرائم، أو إلىٰ تسعير حروبٍ مهلكة بسبب التكالب علىٰ هذه المطالب المادية والأغراض النفسية، بل يدفع بهم إلىٰ كل من ذلك كما هو المشاهد، فهم يعيشون في وحشةٍ وتنافر وشقاق وتسابق في التسلح، وتنافس ومهارة في أنواع المكر والجرائم.

أما توجيه اللَّه لعباده المؤمنين المتقبلين لوحيه، الصادقين بضراعتهم إليه، فهو توجيه نزيه مريح، يبث السكينة في القلوب، ويستأصل منها جميع جراثيم الطمع المادي الصرف، والتوجع عليه، لانحصار قصده وغايته في خدمة عقيدته، والتوجه الصادق من الإنسان المؤمن إلىٰ ربه، والاستئناس بوحيه والتلذذ به، والتشرف بتنفيذ وصاياه من حمل رسالته والذب عنها، والطموح الرُّوحي إلىٰ نيل وعدِه الكريم في الدنيا والآخرة، وصدق التوكل عليه بالجد في العمل، والمثابرة بكل فرح وشغف واطمئنان، كما جرىٰ من الرعيل الأول.

ومن ذلك التوجيه: ما رواه التِّرمذي عن رسول اللَّه ﷺ: «**مَن أصبح والآخرةُ أكبرُ همِّه؛ جَمَع اللَّه له شملَه، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا**

وهي راغمة[1]**، ومَن أصبح والدنيا أكبر همه؛ جعل اللَّهُ فقره بين عينيه، وفرَّق عليه ضيعته، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كُتب له»**[2].

وزاد في رواية البيهقي: **«وما أقبل عبدٌ بقلبه على اللَّه ﷻ؛ إلا جعل قلوب المؤمنين تفِدُ إليه بالوُدِّ والرحمة، وكان اللَّه إليه بكل خير أسرع»**[3].

وروى الحاكم عن رسول اللَّه ﷺ: **«مَن جَعل الهمَّ همًّا واحدًا كفاه اللَّهُ همَّ دنياه، ومن تشعَّبته الهمومُ؛ لم يُبالِ اللَّهُ به في أي أوديةِ الدنيا هلك»**[4].

ولقد صدق مدلول هذه الأحاديث على الماديين، حتى من المنتسبين للإسلام، ممن لم يصدُقوا بضراعتهم مع اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ فتَراهم في نَهْمةٍ وجشع، وهلع وتحسر، وتطاحن وقلق مهلك، بحيث إن الإحصائيات الطبية قررت أن عدد الوفيات بأمراض القلب والصدور وحوادث الانتحار أكثرُ مما أهلكته الحروب الراهنة خلال عشرين سنة في الولايات المتحدة، التي تُعتبر رمز الحرية والحضارة والتقدم المالي المشوب بالفقر الروحي ـ والعياذ باللَّه ـ.

والنصوص والأحاديث النبوية كثيرة في هذا المضمار الهادف للرضا والطمأنينة، وضبطِ عواطف البشر عن قصر النظر على المطالب المادية والكدح المجنون في معركة الحياة البهيمية الغارسة للأضغان، المثيرة للعداوة، المحرقة للصداقات والفضائل.

ولا عبرة بسوء فهم بعض الناس لمعاني هذه الأحاديث، مما أفضى

---

(١) راغمة: ذليلة.
(٢) رواه أحمد (١٨٣/٥)، وابن ماجه (٤١٠٥).
(٣) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٢٢٧/١)، والطبراني في «الكبير» ـ كما في «المجمع» (٤٣٢/١٠) ـ، وفي «الأوسط» (٥٠٢٥).
(٤) رواه الحاكم (٤٨١/٢)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٢٨٩/٧).

إلىٰ إهمال بعضِهم لها، وإلىٰ مغالاة بعضهم باستخدامها في إبطال أعمال الحياة، فهي لا تنصُّ علىٰ ترك الأعمال وعيشة الدروشة[1]، وإنما تَنهَىٰ عن إيثار الدنيا وقَصْرِ النظر علىٰ المادة، ونسيان واجب اللَّه من حياة العبد والتعلق بغيره، وتعطيل العمل لدينه زاهدًا فيه، ورغبةً في غيره من المسالك المادية بأي مذهب وأي مبدإٍ ينشغل به الإنسان عن عبودية اللَّه؛ فيكون عبدًا للهوىٰ والشهوات، عبدًا للدينار والدرهم والمتاع، منصرفًا بقلبه وحركاته إلىٰ ذلك دون اللَّه.

فهذه معانيها السامية النافعة المطهرة الشافية للمخلصين المتبعين، الذين لا يُحبُّون الحياة إلا من أجل اللَّه، والعمل في مرضاته، وإعلاء كلمته، ويقصِدون بجميع أعمالهم وحركاتهم هذا الهدف المحقق لجميع أنواع الفوز والسعادة في الدارين، والجالب لمدد اللَّه في الحياة.

والذين تمنحهم عبوديةُ اللَّه هذه المميزات، وتنعدم فيهم أسباب القلق، يَسلَمُ تفكيرهم من تأثير العواطف، وتحفُّهم السكينة التامة عند النوازل والملمات، فلا يغيب شيءٌ من تفكيرهم أو نظرهم إلىٰ الحقائق، ويتلقون الأحداث بدون انزعاج أو حيرة أو تروُّع يُعمِّي عليهم سبل التفكير أو ينقصها أبدًا، لأنهم بقوة ثقتهم باللَّه وحسن نيتهم معه، وإخلاصهم له، وتفانيهم في سبيله ينظرون بنوره، فهو سمعُهم الذي يسمعون به، وبصرهم الذي يبصرون به، وقوتهم التي يندفعون بها ويبطشون ـ كما ورد الحديث القدسي بذلك[2]، ولا يُبتلَون بالأوهام والخواطر السيئة التي تصيب غيرهم؛ بل هم في مأمن من جميع عوامل الهزيمة والتفكك، شعارهم في جوانحهم وجوارحهم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة].

---

(١) تعبير معاصر، يقصد منه عيشة الصوفية من التواكل والاعتماد علىٰ الناس.

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

العبودية بإشغال جميع الجوارح:

الحادي والسبعون بعد المئة: إن عبودية اللَّهِ تقتضي إشغالَ جميع الجوارح والأحاسيس في طاعة اللَّه وامتثال أمره، لينحصر الاتجاه إليه في كل ما ركَّبه في جسم الإنسان، كما تقتضي كفها وصيانتها عن الانشغال بما لا يُرضي اللَّه من كل محرم ومكروه، وعن الانهماك في المباحات المشغلة عن الواجب والمندوب، خوفًا من تراكم الغفلة المفضية إلىٰ سخطِ اللَّه، وإنما يأخذ منها بقدر الحاجة ـ مع شديدِ الحذر وحسن النية ـ ليكتبها اللَّهُ له عبادة بصلاح نيته، واللَّه غفورٌ شكور، فيتعبد اللَّهَ بجارحة السمع بالإنصات لما يحب الإنصات له من العلم الواجب عليه معرفته من أصل الدين وفروعه؛ مما يجب اعتقاده أو يجب فعله في سائر أركان الإسلام وشُعب الإيمان، وما يجب حفظه من وحي اللَّه لإقامة هذه الشعائر، كما يتعبدُ اللَّهَ باستماع المندوب سماعه من القرآن والذكر وسائر العلم النافع الخالي من شوائب الإلحاد والزندقة، ويتعبد اللَّهَ بترك ما يحرُم استماعه من كلام أهل الكفر والبدع والإلحاد والنفاق، إلا لمصلحة الدين مما يَقصِدُ به مقارعتهم بالحجة، واستظهار شبههم والشهادة عليهم، وترك استماع لهو الحديث المتنوع الذي تقذفُ به اليهوديةُ العالمية علىٰ أيدي عملائها ـ وهي أجهزة الإعلام من المعازف والحكايات والأقاصيص الماجنة ـ، فلا يتعمد استماع سائر أدوات اللَّهو والغناء والتشبيب بالمحرم، وإذا ابتُلي به فليصرف ذهنه عنه، وليشغله بذكر اللَّه وما نزل من الحق، حتىٰ لا يدخل مسامعه، وكذلك لا يستمع إلىٰ حديث شخص أو أشخاص وهم له كارهون، ولا إلىٰ صوت النساء الأجنبيات حين خشية الفتنة أو حصول التلذذ، كما يتعبد اللَّهَ بتَركِ سماع كل مكروه في الشريعة.

ويتعبد اللَّهَ بحفظ بصره عن النظر إلىٰ ما حرم اللَّه من النساء والمردان، دون حاجةٍ مبيحة ـ كأخذ تقرير أو شهادة أو طب أو خطبة ـ،

ويستعمله في النظر الواجب كالنظر في المصحف، وكتب العلم الواجب معرفتها، والنظر لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يريد أكلها أو الاستمتاع بها، وأعيان الأمانات الواجب أداؤها لأربابها، والنظر في أنواع الأسلحة والأجهزة التي يريد استعمالها في الجهاد الصحيح؛ فإن النظر إليها واجب للتأكد من صلاحيتها.

كما يتعبد اللَّهَ بالنظر المندوب، كالنظر في الكتب الدينية والأدبية الصحيحة التي تفيده علمًا وأدبًا رفيعًا، وتزيد في إيمانه وعقله، والنظر في المصحف وإلىٰ الكعبة، وإلىٰ آيات اللَّه الكونية الموطِّدة لإيمانه ويقينه؛ بل قد يكون هذا من النظر الواجب.

ويكفُّ بصره عن النظر إلىٰ ما حرمه اللَّه من العورات التي وراء الثياب أو وراء الأبواب بلا سبب مبيح، وعما كرهه اللَّه من فضول النظر أو المغريات التي قد تجذبه لما هو خطر، أو تجعله يزدري ما هو فيه من النعمة، وسيأتي لذلك زيادة توضيح في تفسير أواخر سورة «طه» ـ إن شاء اللَّه سبحانه ـ.

ويتعبدُ اللَّهَ بالتذوق الواجب، كتذوق ما يحتاج لسد رمقه وإقامة صلبه من مطعوم ومشروب حلال، أو حرامٍ عند الاضطرار إليه، ما يعينه علىٰ تحصيله، وأكل ما يعينه علىٰ طاعة اللَّه، ويقوي بدنه للغضب في اللَّه والدفاع عن حدوده من المطعوم المباح، فإنه مندوب يتعبد اللَّه به.

كما يتعبد اللَّه في ذوقه بتَركِ ما حرَّم اللَّه من مأكول أو مشروب، وما كرهه كالمتشابهات، وما زاد علىٰ الرِّي والشبع، وطعام المُرائين والمتبارين ـ أي: المتراهنين ونحوه ـ مما فيه نَهمةٌ أو إخلالٌ بالمروءة.

ويتعبد اللَّهَ بالشم، فيشمُّ ما يجب شمُّه؛ للتمييز بين الحلال والحرام والطيب والخبيث من الأعيان، للتوقي من حرمتها أو ضررها، وشم ما يترتب علىٰ شمه تقريرُ مِلكٍ أو حكم، ويشمُّ ما يندب شمُّه مما يقوي

علىٰ الطاعة ويقوِّي الحواس، ويشرح الصدر للعلم والعمل الشرعيين.

كما يتعبد اللَّه بتَركِ ما يحرم شمُّه كالطِّيب المغصوب، أو طيب النساء الأجنبيات، أو الطيب في الإحرام، أو تعمد شم الروائح الخبيثة السيئة التأثير علىٰ النفس، وترك ما يُكره شمه كطيب الظلمة وأصحاب الشهوات.

ويتعبد اللَّه باللمس؛ فيلمس ما يحتاجُ إليه للتمييز بين الحلال والحرام، وما يجب عليه لمسه للإعفاف والإحصان، وما يحتاجه من ثوب أو بقعة للصلاة ليستبين صلاحيتَه الشرعية، وما يُستحب لمسه في هذا السبيل ـ أيضًا ـ.

كما يتعبد اللَّه بتَركِ لمس ما حرمه اللَّه من النساء الأجنبيات والمردان، ومن سائر الأعيان المحرمة، مما يُغري لمسه علىٰ تناوله، وترك اللمس المكروه، كلمس ما حرمه اللَّه حال الصيام، أو الإحرامِ، أو الاعتكاف ونحوه.

ويتعبد اللَّه تعبدًا صحيحًا بجارحة اللسان، وذلك بإشغاله دائمًا بذكر اللَّه وما والاه من الكَلِم الطيب، وقراءة القرآن، وكتب الحديث والتفسير للقرآن، والشروح للسنة المطهرة، وما استُنبط من فقههما، وسائر الكتب المعولة عليهما، والمؤلفة في خدمتهما، وما يحصل به زيادةُ فهمهما من فنون العلم، مجتنبًا كل ما يصده أو يبعده أو يشغله عنهما، أو يزهده في فهمهما، مبغضًا لذلك بغضًا تامًّا، كما يكون مجتنبًا ومبغضًا ومنابذًا ومعاديًا لكل ما يناقضهما من كل فن وكتاب، فلا يقرؤه ولا يضيع فيه ثانيةً من دقائق عمره النفيس، إلا لحاجةِ الرد عليه، ودمغ شبهات أهله ممن هو قادر علىٰ ذلك، لتسلحه بوحي اللَّه الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢].

ويكون ـ أيضًا ـ حافظًا لسانه من فضول الكلام، ومبتعدًا عن قول الزور، واللَّدَد في الخصومة، واللمز والاغتياب، ونحوه مما يهوي

بصاحبه في النار سبعين خريفًا، أو يُكبه في النار علىٰ وجهه ـ كما حذر منه النبي ﷺ[1]، وينشغل عن ذلك بالكلم الطيب من الذكر، والأمر بالمعروف، والحض علىٰ الخير والصدقات، والإصلاح بين الناس، وتأليف قلوبهم، وجمعهم علىٰ الطاعة، ونحو ذلك مما يجعله قائمًا بعبودية اللَّه بضبط لسانه غاية الإمكان، متوقيًا من آفاته.

ويكون بليغًا جريئًا حديد اللسان في مقاومة أهل الباطل ومناظرتهم، ودفع باطلهم بحجة البيان، ليكون مجاهدًا للَّهِ تعالىٰ في هذه الجارحة، شاكرًا له علىٰ إنعامه بها شكرًا حقيقيًّا، مستعينًا بها علىٰ نيل رضاه، الذي هو غاية أمانِيِّ المسلمين المؤمنين، فإن بطش اللسان قد يكون أعظم أثرًا وأكبر فائدةً من بطش اليد، كما قال النبي ﷺ في شِعر حسان رضي الله عنه: «**واللَّهِ لشِعرُك عليهم أشدُّ مِن وَقْع السهام في غَلَس الظلام**»[2].

ثم يكون من جهةٍ أخرىٰ مسخرًا للسانه بالدعوة إلىٰ اللَّه علىٰ بصيرة، وبحكمةٍ وحُسن بيان جذابٍ يعرض به الإسلام عرضًا ملائمًا لكل بيئة، ليحقق شكر اللَّه علىٰ نعمة اللسان ويكون من ورثة المصطفىٰ ﷺ، الداعين بدعوته، فينال حظًّا من رفعة الذكر، والصلوات المباركة، والوعد الحسن من اللَّه في الدنيا والآخرة، ويكون من الصادقين مع اللَّه، ولا يُخرِس لسانه عن النطق الحق.

ويتعبد اللَّه بجارحتي اليدين والرجلين، فلا يبطش بيديه إلا للَّه وفي اللَّه، وحسب مرضاة اللَّه، فيعمل بيديه وفق مرضاة اللَّه ما يعينه علىٰ حمل رسالته، والتقوي علىٰ عبادته من الكد والكدح في الحلال، واكتساب المال من طرقه المشروعة، ويكسب بهما ما يعينه علىٰ

---

(١) كما في قوله ﷺ: «**إن العبد ليتكلمُ بالكلمة، ما يتبين فيها، يزلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق**» ـ وله ألفاظٌ أخرىٰ ـ. رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٢) **لم أقف عليه بهذا اللفظ**: وإنما ثبت عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**اهجوا قريشًا، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل**». رواه مسلم (٢٤٩٠).

الواجبات من الإنفاق الواجب، وأداء الدَّين الواجب، واكتساب ما لا يحصُل له أداء أركان دينه إلا به، باذلًا جهده في صيانة وجهه عن السؤال، أو التقصير في المفروض من نفقةٍ واجبةٍ ونحوها، كما يبطش بهما في الجهاد لإعلاء كلمة اللَّه، وقمع المفتري عليه، وتوسيع رقعةِ الإسلام، وردع من حاول الصد عن سبيل اللَّه بأي طريقةٍ، ويبطش بهما في إقامة حدود اللَّه، وتأديب من يستحق التأديب، حسب أصول الشريعة؛ بحيث لا تأخذه الرأفة في التهاون بها أو إسقاطها، بل يعتبر الرحمةَ في إجرائها وإقامتها ـ كما أمر اللَّه بها ـ.

ويبطش بهما ـ أيضًا ـ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا استلزم الإنكار ذلك، ويستعملهما فيما يستحب إشغالهما به من الإحسان للمسلمين والقيام بمصالحهم أخذًا وردًّا، وإعانة محترف[1]، وتعليم صانع، أو إصلاح آلةٍ فاسدة أو تحريكها، أو عمل لأخرق، أو إعانة حامل، أو رفع منه، أو إعانة علىٰ سقيٍ، أو إمساك دابة، وغير ذلك من المعونات المستحبة أو الواجبة.

وكذلك كتابةُ ما يحتاجه المسلمون في معاملاتهم وضبط شهاداتهم ونحو ذلك.

ويكون مجتنبًا كل بطش حرام، ومبغضًا له كما يبغضه اللَّه ويحرمه، فلا يقتل النفس التي حرَّمها اللَّه إلا بالحق، ولا يعتدي عليها أبدًا لأي حظ من حظوظ نفسه، أو رغبةٍ من رغباتها، ولا يضرب من لا يحل له ضربه، ولا يطمع بمال معصوم بأي وسيلةٍ من وسائل الاستلاب.

ولا يُشغل يديه بالألعاب المحرمة من أنواع الميسر ونحوها، مما هو شبيهٌ بالنِّرد والشطرنج، أو خَلَفًا عنهما، ولا بالمكروه من الألعاب، إلا ما يصلح منها للتدريب علىٰ الجهاد، وتقوية الأعصاب، بنيةٍ صادقة لذلك.

---

(١) المحترف: العامل.

ولا يكتب بيديه ما لا تجوز كتابته من البدع والخرافات، ونظريات الملاحدة والزنادقة، والشِّعر المحرم المشتمل علىٰ الأوصاف المثيرة للغرائز، أو مدح الخمر والإغراء بأي محرم، كما لا يكتب باطلًا أو أحكامًا جائرة، أو شهادات مزورة، أو سِبابًا أو وشاية، أو كل ما فيه ضرر علىٰ المسلمين وخدمةٌ لأعدائهم، سواء في السلم أو الحرب، فلا تمتد يداه إلىٰ شيء من ذلك ولا إلىٰ رشوة، ولو بطريق هدية، لأن الهدايا إلىٰ العمال والمسؤولين في الدولة غلولٌ - كما حذر منه النبي ﷺ في حادثة ابن اللتبية[1] ؛ بل يطهرها من جميع ذلك ليحقق عبودية اللَّه بهما، ويكون شاكرًا للَّه علىٰ إنعامه بهما باستعمالهما فيما يرضيه.

ويلاحظ التزامَ عبودية اللَّه في رجليه، حاصرًا مَشيه بهما في طاعته ومرضاته، فيسعىٰ بهما إلىٰ إقامة الصلاة في الجُمع والجماعات، وإلىٰ بذل الزكاة والحج والطواف، وإقامة المناسك، وتعظيم شعائر اللَّه، والتكسب للقيام بالواجب، والسعي في الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإلىٰ البطش الواجب والمندوب، وإلىٰ الإصلاح بين الناس، وصلة الأقارب، وبر الوالدين، وزيارة الإخوان في اللَّه من الأحباب في الدين، وعيادة المريض، وتشييع الجنازة، والمشي إلىٰ

---

(١) ثبت عن أبي حميد الساعدي ﵁ قال: استعمل رسول اللَّه ﷺ رجلًا علىٰ صدقات بني سليم - يدعىٰ ابن اللتبية -، فلما جاء حاسبه، قال: هذا مالُكم، وهذا هدية. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**فهلَّا جلستَ في بيت أبيك وأمك، حتىٰ تأتيك هديتُك إن كنت صادقًا؟**» ثم خطبنا، فحمد اللَّه وأثنىٰ عليه، ثم قال: «**أما بعد، فإني أستعملُ الرجلَ منكم علىٰ العمل مما ولاني اللَّهُ، فيأتي فيقول: هذا مالُكم وهذا هديةٌ أهديت لي! أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتىٰ تأتيه هديته، واللَّهِ لا يأخذ أحدٌ منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي اللَّهَ يحملُه يوم القيامة، فلأعرفنَّ أحدًا منكم لقي اللَّهَ يحمل بعيرًا له رُغاء، أو بقرةً لها خُوار، أو شاةً تَيعَرُ**». ثم رفع يده حتىٰ رئي بياض إبطه، يقول: «**اللهم هل بلغت**» بصر عيني وسمع أذني. رواه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢).

مجالس العلم والذكر، وكل ما فيه تنفيذ لأمر اللَّه.

ويسعىٰ بهما لاكتساب المال من طرقه المشروعة، واستثمار خيرات الأرض بنيةٍ صالحةٍ للَّه، لتكون جميعُ حركات رجليه عبادةً للَّه، فيكون شاكرًا نعمته عليه بهما، فلا يمتطي بهما أيَّ مركوب إلا لغرض من هذه الأغراض، وبنيةٍ حسنة، ويراقب اللَّه فيهما، فيكفهما عن المشي أو السفر لما لا يرضيه ـ فضلًا عما يغضبه من السعي إلىٰ معاصيه ـ؛ فإن الرِّجل الساعية إلىٰ المعاصي هي رجل الشيطان، وكل ما يمتطيه الرجل إلىٰ معصية للَّه فهو من ركب الشيطان، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤].

كما أن كل مأكول أو مشروب محرم، أو تكسُّب لا يقصد به وجه اللَّه، وكلَّ ذرية لا يوجهها ولاة أمرها إلىٰ اللَّه بالتربية والتعليم الشرعيين، فهو من شَرَكِ الشيطان[1]، وكل هدف إلىٰ ما سوىٰ اللَّه فهو من أمانِيِّ الشيطان وغروره، كما قال تعالىٰ في ختام هذه الآية: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء].

فالراكب في معصية اللَّه كالماشي فيها، هو من جُند الشيطان، والغازي والمحارب لأغراضه وأهدافه ومبادئه الوطنية أو مذاهبه المادية ـ ونحوها مما لا يُقصد به وجه اللَّه وإعلاء كلمته ـ، يكون من جند الشيطان وحزبه، سواء كان غالبًا أو مغلوبًا، لأن له سوء العقبىٰ وشر المنقلب؛ لا سيما إذا كان مسلمًا في الظاهر، لأنه بسلوكه هذا قد حَرَم نفسه من نُصرة اللَّه ومدده الذي لا يغلبه غالب.

وهذا هو السر في تأخر المسلمين ـ أو المحسوبين علىٰ الإسلام ـ، فهزائمهم المتلاحقة أمام اليهودِ وأعوانهم من الوثنيين، سببها انخراطهم في جندية الشيطان بسلوك أهوائهم في الحب والبغض، والولاء والمعاداة، واتباعهم الشهوات، والسير في الأنانية المختلفة

(١) الشَّرَك: الفخ.

التي جعلتهم لم يخلصوا النية، ولم يصلحوا العمل للَّه؛ فكان المعيار[1] عندهم ماديًّا بحتًا، وإذا كان كذلك فعدوهم أكثر عددًا وأقوىٰ عدةً ماديةً، فيكون له الرجحانُ لانعدام القوة الروحية الغالبة بإذن اللَّه، حيث تربَّوا علىٰ الأفكار الماسونية اليهودية التي جعلتهم يسيرون وفق أغراضهم ـ لا وفق أمر اللَّه ـ، ويقاتلون في سبيل أهوائهم وحدود أوطانِهم ـ لا في سبيلِ اللَّه وإعلاء كلمته وإقامة حدوده ـ؛ بل لم ينالوا بما انتقصه أعداءُ اللَّه من أراضي المسلمين وحدود الإسلام، ولا بما أجراه أعداء اللَّه علىٰ المسلمين في جزيرة قبرص والحبشة وغيرهما مما هو تحت وطأة روسيا والصين، وإنما هدفهم مقصور علىٰ ما يسمونه بـ«الوطن العربي»، وعلىٰ الأخص المتقبِّل للمذهب الماركسي الشيوعي؛ بل ظاهَروا أعداء المسلمين، وقد قلتُ في منظومتي عقب كارثة صَفَر عام (١٣٨٧هـ ـ حزيران١٩٦٧م):

فلم يتقاتل مع يهودٍ سوىٰ الذي — تربىٰ علىٰ أفكارِها لا علىٰ الذِّكرِ

ولم يَنهزم منها سوىٰ متفرنجٍ — وفرخٍ شيوعيٍّ ومختلِطِ الأمرِ

لقد خانهم أسيادهم قومُ «مركس» — كما نكص الشيطانُ عن مشركي بدرِ

فالذين تربَّوا علىٰ الذكر الحكيم لم ينهزموا أمام اليهود وأعوانهم في كل زمان، وفي الوقت الذي تربَّىٰ فيه العرب علىٰ القرآن، فحظ اليهود أمامهم الذلة، ولكن حاربهم الذين استووا في جندية الشيطان مع عدوهم، فكانت الغلبة للقوة المادية والمكر السياسي أو الحربي، ولو أخلصوا نيتهم للَّه، وأصلحوا أعمالهم لوجهه الكريم، وحصروا اتجاههم إليه، ووحدوا هدفهم لإعلاء كلمته، لبارك في جمعهم، وسدد خطاهم، وثبتهم، وصوب رميتهم، وأمدهم بالريح والملائكة، وبجنود لا يعلمها إلا هو، ونصرهم بما يقذفه من الرعب الشديد في قلوب

---

(١) **المِعيار**: الميزان.

أعدائهم، وإحباطه لخططهم، وشلّه لحركة مصنوعاتِهم، أو إفساد مفعول قذائفها، كما أفسد مفعول النار المتأججة علىٰ إبراهيم إمام الحنفاء عليه السلام؛ فهو يمكر للمؤمنين مكرًا يُحبط به مكر الكافرين، ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال].

وما أقلَّ من ينتبه إلىٰ هذا السر في هزائم المحسوبين علىٰ الإسلام! ألا وهو التقاؤهم مع أعدائهم في «جندية الشيطان»؛ لأن أدمغتهم قد تخبطت وفسدت حتىٰ تبلورت بالغزو الفكري من أعدائهم، ذلك الغزو الثقافي الماسوني الذي أبعدهم عن القرآن، وأزاحهم عن العقيدة الحنيفية الأصيلة، وأبعدهم عن الأخلاق والشمائل المحمدية، وجعلهم يتعشقون الأخلاق والنظم الغربية والشيوعية ـ مما هو من أوضاع اليهود ـ، فكيف ينتصرون عليهم؟!!.

ولا شك أن شياطين الإنس ـ المبتعدين عن أمر اللّٰه وإقامة حكمه وتحقيق عبوديته ـ إذا تصارعوا فيما بينهم صراعًا كلاميًّا أو حربيًّا، كان النصر لمن هو أكثر تهويشًا في الكلام، أو أقوىٰ عُدَّةً ماديةً، وأعمق مكرًا، وأكثر أنصارًا من جنس الشياطين، فجُند الشيطان فيما بينهم يكون انتصار بعضهم علىٰ بعض بهذا الاعتبار، كما حصل في حرب اليهود مع خصومهم من الماديين المتشيطنين ـ وإنِ ادَّعَوا ما ادَّعَوا ـ، وكما حصل فيما يشبه حربهم من قبل في كل العصور والطوائف، وما سيحصل من بعد.

وأما إذا تقابل جندُ الشيطان مع جند اللّٰه الصادقين في أعمالهم ومقاصدهم[(١)] مع اللّٰه؛ فحظهم[(٢)] الخيبة والخزي والهزيمة أمام حزب اللّٰه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات]، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ

---

(١) المقاصد: النوايا.
(٢) أي: جند الشيطان.

كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ [النساء]، ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال].

ومهما كثر أعوانهم من فئات الشياطين فاللَّه خاذلهم؛ كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال].

ومن عطل اللَّه[1] عن أمره وشرعه وحكمه، ونصَّب نفسه مكان اللَّه في التشريع لشؤون الحياة، فقد حرم نفسه من هذا النصر، وكان من صرعىٰ الشياطين.

ولْيُحاذِرْ من استعمال نعمة الرِّجلين في المشي إلىٰ مجالس اللَّهو، أو اللعب المحرم والمكروه، وسائر ما هو من هوىٰ النفس، حتىٰ لا يكون من رَجْلِ الشيطان الساعية في مطلبه.

ولا يخفىٰ أن المحرك لهذه الجوارح والقوىٰ والأحاسيس هو القلب، فهو مَلِكُها ومسيرها حتمًا، فبصلاحه تكون حركاتها إلىٰ الخير والصلاح، وبفساده ينعكس الأمر؛ كما قال ﷺ: «**ألَا وإن في الجسد مُضغةً؛ إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كله، وإذا فَسدت فَسد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب**»[2].

فرَحَىٰ العبودية تدور علىٰ القلب وهو قُطبها، ولكنه لا يسيِّرُ جوارحَ الإنسان وقواه وأحاسيسه إلىٰ اللَّه إلا إذا كان سليمًا مما سواه؛ لأن القلب السليم هو الذي يتلقىٰ حكم اللَّه الشرعيَّ الدينيَّ بالمسالمة والانقياد المحض، والتسليم بلا منازعة، فلا يعارضُه بذوق أو سياسة أو قياس أبدًا، بل بالإذعان والقبول، دون حلول شبهة تعارض شريعة اللَّه، أو شهوة تعارض أمره وتحُول دون تنفيذها.

فهذا القلب السليم من الشهوات هو الملِك المسيِّر للإنسان تسييرًا روحانيًّا ربانيًّا لا شيطانيًّا، وهو الذي يتكوَّن من أفراده عبادُ الرَّحمن الذين ليس للشيطان عليهم سبيل، فلا يكسب الشيطان منهم راجلًا ولا

---

(١) أي: هجر أمره.

(٢) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

راكبًا؛ بل هم الذين يهزُّون أهل الأرض، ويصعقون اليهودية العالمية في كل مكان، كما حصل ذلك من المتتلمذين علىٰ المدارس المحمدية الحنيفية، لا علىٰ المدارس المعولة علىٰ الخطط والمفاهيم الماسونية ممن هم كسب لليهود، وقرة لعيونهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران].

الثاني والسبعون بعد المئة: الصادق بضراعته إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يعتني غاية الاعتناء بسلامة قلبه، وذلك:

١ - بتصفيته مما يرد عليه من الهمسات والخواطر التي تفتنه بشبهةٍ، أو تشغله بشهوة.

٢ - وتصفيته مما يُقذف عليه من الآراء والنظريات.

٣ - ومن فساد المقاصد؛ وهي ما يكون لغير اللَّه من كل غرض وشهوة.

٤ - وتصفيته من مثبِّطات الهمم.

٥ - ومن التعلق بغير اللَّه، أو إيثار شيء علىٰ مراده؛ ولو أقرب قريب أو أنفس نفيس في الدنيا.

٦ - وتصفيته من استعذاب شيء فوق استعذاب عبادة اللَّه بأي أنواعها، أو عذوبة كلامه وكلام رسوله ﷺ.

٧ - ومن التعلق بجمال شيء ينسيه جمال اللَّه ولذة قربه، بل إذا أعجبه جمال شيء ذَكَر جمال اللَّه الذي جميع ما في الأكوان من جمال فهو أثر من آثار جماله، وكلما استمتع بمحبوب أو استلذ بشهوة زادت محبته للَّه الذي وهبها، وزاد تعلق قلبه بعبادته وحسن مراقبته.

٨ - وتصفيته من إجلال غير اللَّه، والخوف من غير اللَّه أو رجائه، أو قصر محبته عليه، أو تفضيلها علىٰ حبه.

وذلك أن القلب وعاء كسائر الأوعية، وكل وعاء لا يكون فيه صلاحية لوضع شيء، حتىٰ يفرغ من ضده ويُصفَّىٰ كما هي القاعدة العقلية، إن

قبول المحلِّ لما يوضع فيه مشروطٌ بتخليته وتنقيته من ضده، فالإناء الذي فيه المِلحُ لا يصلح لوضع السُّكَّر أبدًا؛ حتىٰ يفرغ من الملح وينقىٰ تنقيةً ملائمةً لوضع السكر، وهكذا فالقلوب شأنُها أعظم من ذلك، ولا تصلح لقرار حب اللَّه وإجلاله وتعظيمه، والخوف منه، ومحبة ما جاء عنه ـ ونحو ذلك من مقتضيات الدين والعبودية ـ، حتىٰ تفرغ وتصفو من حب غير اللَّه، وتعظيم غير اللَّه، والخوف من غير اللَّه أو رجائه، وتصفو من محبة لهو الحديث[1]، والتعلق بالأنانية والشهوات، وتصفو من العلوم المادية والنظريات الإلحادية، وهناك تكون فيها القابلية الصحيحة؛ فإن القلب إذا صفت مقاصده للَّه، وصفت معلوماته مما سواه، وانحشىٰ[2] بوحيه العزيز، وانشغل بذكر أسمائه الحسنىٰ ـ متدبرًا معانيها ومشتقاتها، ليعامل اللَّه بمقتضاها ولا يأنس إلا بها ـ، صفت موارده لخلوص مقاصده، فصار سليمًا، وفي حصن حصين من غزو أعدائه ـ شياطين الإنس والجن ـ الفكري ومن همزاتِهم، فيثمر له صفاءُ علمه ومتعلقاته حسنَ السلوك الذي يسيِّر الأعضاء والأحاسيس حسب مرضاة اللَّه ـ كما أسلفنا في الوجه الذي قبل هذا ـ.

الثالث والسبعون بعد المئة: الضراعة إلىٰ اللَّهِ بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا تكون صادقةً نافذة المفعول علىٰ قائلها؛ إلا إذا صدرت من مسلم مؤمن، قلبه منفتحٌ نحو اللَّه، يشهد نعم اللَّه عليه من قبل وجوده إلىٰ فَقْده تلك النعمَ التي لا يقوم بشكرها، ولا يقابلها أي عبادة، فيشهد نعمة اللَّه عليه بذكره له في الملأ الأعلىٰ قبل أن يكون شيئًا مذكورًا[3]، حيث قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وذِكْرِه ـ أيضًا ـ إياه دون شيء من مخلوقاته، وذلك بتقدير رزقه

(١) **لهو الحديث**: كل كلام نَهَىٰ اللَّهُ تعالىٰ عنه قولًا واستماعًا.

(٢) يقصد: وحُشِيَ.

(٣) في المطبوع: «قبل أن كان»، ويقصد عندما كان مجرد شيءٍ يُذكر، وقبل أن يخرج إلىٰ الحياة فعليًّا.

وأجله وعمله. فهذا ذكر عظيم شكرهما وحقهما.

ثم يشهد نعمة اللَّه بتقدير خَلقه في أحسن صورة، وإمداده بالسمع والبصر والفؤاد وسائر الجوارح والأحاسيس والقوىٰ، وإسباغ نعمه العظيمة عليه، فلا يغفل عن ذكره أو ينشغل بسواه، بل يشكر كل نعمة للَّه شكرًا عمليًّا باستعمالها في طاعته والسعي في مرضاته، وعدم الغفلة عنه، فكلما ذكر نعمة الإيجاد ذكر اللَّهَ الموجدَ له، والذاكر له بها ذكرًا صحيحًا، ذِكرَ المحب لحبيبه، المتفضل علىٰ حبيبه، وضَرَع إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ضراعة المخلص الصادق المصمم علىٰ معاملة اللَّه بمقتضاها، والاتجاه إليه قولًا وعملًا وقصدًا.

ويستحضر دائمًا نعمة اللَّه عليه، في تقدير رزقه والفسحة في أجله، فيقدر ذكر اللَّه له بها، ويذكره ذكره المحب لحبيبه، المتفضل عليه، فيصدق في تجديد ضراعته إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ مصممًا عزمه علىٰ معاملة اللَّه بمقتضاها، والاتجاه إليه بمدلولها ـ قولًا وعملًا وقصدًا ـ، ويستحضر دائمًا نعمة السمع والبصر والفؤاد، والشم والذوق والنطق، والبطش والمشي، وسائر الحركات التي ذكَّره اللَّه بكل شيء منها، فأكرمه وأنعم عليه بها، فيذكر اللَّه ذكر المحب لحبيبه، كلما استمتع بشيءٍ منها وانتفع.

ويجدد الضراعةَ الصادقة الخالصة له بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عازمًا عزمًا أكيدًا علىٰ تنفيذ مقتضياتها بكل قوة وتصميم، ذاكرًا للنعمة الكبرىٰ التي ذكره اللَّه بها في الأزل، وأنعم عليه بها بعد إيجاده، وهي نعمة الإسلام التي لا تَعدِلُها كل نعمة، ولا تقوم الدنيا كلها ثمنًا لها، فيزيد حبُّه للَّه وتعظيمُه له، وذكرُه إياه ذكرًا صحيحًا نافعًا مؤثرًا، ويزداد حبه لرسوله ﷺ الذي جرت هذه النعمة الكبرىٰ علىٰ يديه، وهذا الإنقاذ الحيوي علىٰ يديه.

هذه النعمة التي رفعته عن مستوىٰ البهائم الخسيسة، وأخرجته من الظلمات إلىٰ النور، وحررته من رق العبودية، والخضوع لغير اللَّه،

هذه النعمة التي لولا إكرام اللَّه له بها لكانت البهائم أحسنَ منه حالًا ومآلًا، فيقوم بشكر اللَّه عليها شكرًا عمليًّا يجعله يعَضُّ عليها بالنواجذ، ويكون قوي الشكيمة في حفظها، والاستمساك بها، والدفاع عنها بصولة ليث غاضب، وبذل النفس والنفيس دونها، وصدق العزيمة في تأدية أركانها وواجباتها وشُعَبها ومندوباتها، والأخذ برخصها وعزائمها، والصرامة في تنفيذ متطلباتها وأحكامها، وبُغض المعرض عنها، والمصر علىٰ ترك شيء منها، والمتجاوز لحدودها، ومعاداة من ينتقصها، ومحاربة من يعاديها بكل صورة، ولوكان صاحب هذه الصفات أقرب قريب، بل يعتبر البرَّ والرحمة في عقوبته والغلظة عليه.

وشعارُه في كل شيء من ذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؛ معتقدًا أن محبته للَّه محفوفةٌ بمحبتين منه جَلَّ وَعَلَا:

محبة سابقة هيج بها قلبه إليه وشوَّقه.

ومحبة لاحقة علىٰ حسن النية، وإصلاح العمل الذي وفقه إليه.

ومعتقدًا ـ أيضًا ـ أن ذكره للَّه محفوف بذكرين له منه جَلَّ وَعَلَا:

ذكر التوفيق له إليه أولًا.

وذكر الإثابة ثانيًا.

والفضل كله له في البدء والمنتهي، وبذلك يَسلَمُ من العُجب والكِبر والإدلاء[1] علىٰ اللَّه بعمله، ونحو ذلك من أدواء القلب، ويحدوه الصدق في الشكر إلىٰ حسن مراقبته، والمثابرة علىٰ عبادته، وصدق الاستعانة به في ذلك، ولا يبيح لنفسه الغفلة عن اللَّه أو إضاعة أدنىٰ شيء من أوقاته بلا عمل للَّه؛ بل ينشغل باللَّه عما سواه، ويجُود بكل شيء في سبيله ومرضاته، فيكون من خير البرية، ويكون محفوفًا بألطاف اللَّه منصورًا علىٰ أعدائه، مرهوب الجانب في الأرض، كما جرىٰ للرعيل الأول.

---

(١) **الإدلاء**: الامتنان والإعجاب.

الرابع والسبعون بعد المئة: كل من تحققت فيه هذه الوجوه الثلاثة المتقدمة، وكانت عبوديتُه للَّه سائرةً علىٰ ما فصلتُه فيها، فإنه ينكشف حجاب قلبه عن ربه فيستنير، ويكون مقبلًا علىٰ اللَّه متلذذًا بعبادته، يجد لها حلاوة، ويجد منها سرورًا، وتفيض أنوار الهداية علىٰ جميع أحاسيسه، فلا يطمئن إلا لذكر اللَّه وطاعته، ويكون متوحشًا مما سواه، وتكون أعماله الدنيوية مرتبطة باللَّهِ قصدًا لوجهه واتباعًا لشريعته، ولا يُدخل إلىٰ مسامعه شيء من لهوِ الحديث المتنوع، الذي تقذف به اليهودية العالمية علىٰ أيدي عملائها ومخدوعيها ـ فضلًا عن أن يستعذب شيئًا منه ـ؛ هذا مستحيل؛ لأنه ليس لديه ذرةٌ واحدة إلا باللَّه ومن اللَّه، وجميع أوقاته وطاقاته منحصرة للَّه، قد سَلِم من حجاب نفسه وأهوائه، وانقشع عنه ضباب الشهوة والأنانية، فقلبه في ربيع القرآن، وروحه في نعيم الطاعة، لخلاصه من الحُجب المعوِّقة له والمضلِّلة له عن طريق السير إلىٰ اللَّه؛ لأنه بسلوك ما فصلته في الوجوه السابقة يتخلص من الحجب التي بلغ العلماء في عدها إلىٰ عشرة؛ وهي:

١ ـ تعطيل اللَّه عن أمره وشرعه، وكون البشر يسلكون ما شاؤوا دون ارتباط باللَّه.

٢ ـ تعطيل حقائق أسمائه وصفاته، وعدم معاملة اللَّه بمقتضىٰ كل اسم وصفة.

٣ ـ حجابُ الشرك من سائر التعلق بغير اللَّه؛ فإن الشرك ليس مقصورًا علىٰ عبادة صنم ونحوه، وإنما هو متمثل بانصراف القلب عن اللَّه إلىٰ غيره، في أي ناحية من شؤون الحياة.

٤ ـ حجاب البدعة القولية، مما ينشأ من تلقي العلوم والمعارف من غير مشكاة النبوة، كالمنطق اليوناني، ونظريات الفلاسفة الأقدمين أو المتأخرين في الإلهيات، أو علم النفس أو الطبيعات ـ ونحوها ـ،

مما هو قول علىٰ اللَّه بغير علم، وصدٌّ للأمة عن سبيل اللَّه، وإشغال لها عن وحي ربها، وصرف لها عن هدايته.

٥ ـ حجاب البدعة من كل عمل مخالف لما عليه أمر المصطفىٰ ﷺ، سواء ظهر باسم تصوف أو طريقة أخرىٰ، فإن العبرة بجنس السلوك المخالف لحال النبي ﷺ وأصحابه؛ لا بجنس المسمىٰ.

٦ ـ حجاب كبائر الذنوب الباطنة؛ كالكِبْر، والعُجب، والرياء، والحسد، والخُيلاء... ونحوها.

٧ ـ حجاب كبائر الذنوب الظاهرة؛ لأن المعصية تجرُّ غيرها إذا لم يتذكر صاحبها، ويبادر بالتوبة النصوح، ويتسلح بسلاح المراقبة.

٨ ـ حجاب صغائر الذنوب وفضول الأشياء والكلام، فإن الصغيرة تنقلب كبيرة مع الإصرار، أو شركًا وكفرًا مع الاستباحة.

٩ ـ حجاب الغفلة عن اللَّه، ونسيان العبد ما خلقه اللَّه لأجله.

١٠ ـ حجاب التوسع في المباحات مما يَحدُثُ به قسوة القلب، وبُعدُه عن اللَّه، وعدم استشعار مشاهد يوم القيامة.

ومنشأ هذه الحجب أربعة عناصر:

[أ] النفس الأمارة بالسوء أو اللوامة.

[ب] الهوىٰ، فإنه ـ لميله بصاحبه ـ يحجُبه عن السير إلىٰ اللَّه وتحقيق مرضاته.

[ت] إيثار الدنيا والتعلق بزينتها، وجعلها غايةً لا وسيلة.

[ث] الشيطان، سواءٌ كان من شياطين الجن أو الإنس ـ كما فصلت ذلك في باب الاستعاذة ـ.

ولا يتغلب علىٰ هذه العناصر، ولا يسلم من تلك الحجب، إلا صاحب القلب السليم الذي مضىٰ تفصيل حاله في الأوجه الثلاثة قبل هذا.

صاحب القلب السليم الذي إذا وصل إليه أيُّ نعمةٍ عَلِم أن اللَّه قد

ذَكَره بها، وأوصلها إليه، فيزداد حبُّه للَّه وإجلاله علىٰ ابتدائه له بالمعروف والإحسان، فيتفانىٰ في طاعته، وبذل النفس والنفيس في نصرة دينه، ويكون محبًّا لأحبابه ـ مهما كانوا ـ، ومبغضًا لأعدائه من الكفرة والعصاة ـ ولو كانوا أقرب قريب ـ، ويكون منشغلًا به عما سواه في كل ناحية، مقدمًا مراده علىٰ مراد نفسه بالكلية.

الخامس والسبعون بعد المئة: صدق ضراعة المؤمنين بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تجعل عبودية اللَّه تخط خطًّا لحياتهم في كل سلوك، وتوجِّه أفكارهم وتصوراتهم ومشاعرهم ونشاطهم وارتباطاتهم في كل اتجاه وهدف، فلا يدينون لمن يسلُك بهم مسلكًا، أو يوجههم إلىٰ أي شيء من أوضاع البشر، أو رغبات المتحكمين من الرؤساء أو الأمراء؛ فإنهم حينئذٍ يَدينون بغير دين اللَّه؛ فتكون جماعةٌ في دين رئيسها وفق أهوائه، وجماعة في دين حاكمها، وجماعة في دين رئيسها وفق أهوائه، وجماعة في دين حاكمها، وجماعة في دين أميرها أو زعيمها، أو أحبارها أو رهبانها، إلىٰ غير ذلك، مما يجعلون به جانبًا من جوانب حياتهم للَّه، والجوانب الأخرىٰ لغيره، كما هو مخطط أعداء اللَّه باسم «الحضارة والتطور»! فإن الدين الإسلامي يتعبد أهله بمعاملة اللَّه معاملةَ الربوبية والألوهية، والملوكية والقوامة بجميع ما لذلك من مفاهيم، فيكون وحيُ اللَّه وشرعه هو الينبوع الذي ينبثق منه الأخلاق والسلوك، في الميدان السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي، حال السلم والحرب؛ فتكون حياة المسلم ومماته للَّه وحده لا شريك له، وليس له عقيدةٌ إلا ملة إبراهيم التي جاء بها محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، غير منفصلٍ عنها في أي جانب من جوانب الحياة، لا يحرك قلبه سواها، ولا يُلهب مشاعرَه وجوارحه إلا هي، لا يحركها إله الهوىٰ ولا سلطان الشهوات، ولا أي نزعةٍ شيطانية من نزعاتِ القومية أو البعثية أو الوطنية أو الشيوعية وما شاكلها، ولا تدخل[1] في دين

(١) يعني حياة المسلم المشار إليها قبل قليل، واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

الرئيس الفلاني الذي يَدين به وفق أهوائه، ولا الملك الفلاني، ولا الأمير الفلاني، أو القبيلة الفلانية، أو الشعب الفلاني، ونحو ذلك من كل ما يخالف منهج اللَّه تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران].

والدين الإسلامي ليس محصورًا في الضمير، ولا منعزلًا عن واقع الحياة، مقصورًا علىٰ شعائرَ تعبُّديةٍ لا تأثير لها في مجالات الحياة، فهذا تصورٌ مضحك لحقيقة واقع البشرية في هذا الكون؛ لأنه حين تحكم ضمير الإنسان ووجدانه شريعةٌ، ثم تحكم واقعه ونشاطه شريعةٌ أخرىٰ، كل منها منبثق من تصور مختلف، هذا من عبادة اللَّه، وهذا من عبادة الهوىٰ والأشخاص، فتتضارب أفعاله، وتكون حياته في قلق وحَيرة دائمين، هذا شيء يُضحك منه من تعشَّقه وتبنَّاه لو فكر فيه تفكيرًا حرًّا سليمًا، إذ كيف يفصل بين الواقع الشعوري الوجداني، والواقع العملي الحركي؟! وأيُّ ضمير لا يحرك الجوارح والأحاسيس بحسب ما يكنه ويريده من المحبوبات؟!.

إن تحرك المرء لغير اللَّه دليل علىٰ أن ضميره لا يحب اللَّه ولا يريده، هذه هي الجاهليةُ التي جاء هذا الدين ليحطمَها ويغيِّرها من الأساس، ليحرر الناس من عبادة غير اللَّه. والحياةُ الإسلامية لابد أن تقوم جميع أنظمتها علىٰ قاعدة التصور الإسلامي من أصل عقيدة الألوهية ومدلول أسماء اللَّه الحسنىٰ، وإلا كانت الحياة وثنيةً جاهليةً مهما صُبغت بالأسماء والشعارات؛ إذ لا معنىٰ للدين أصلًا إذا فُصل عن تنظيم الحياة الواقعية، سواء كانت ارتباطات الإنسان بربه أو بإنسان مثلِه؛ إذ لابد من معاملته له وفق شرع اللَّه في كل شيء.

وينبغي لكل ذي لبٍّ أن يفهم جيدًا: أنه ليس من طبيعة الدين الحق أن يَجعل للَّه جزءً في الحياة البشرية دون سائر قطاعاتها العامة، وتكون هذه إذًا لآلهةٍ شتىٰ وأرباب متفرقين، يضعون للناس ما يريدونه هم من النظم والتشكيلات، دون الرجوع إلىٰ اللَّه ورسوله، هذا شيء لا يقبلُه

أي حاكم من حكام البشر، فكيف باللَّه أحكم الحاكمين؟!.

السادس والسبعون بعد المئة: تحقيق عبادة اللَّه هو المقوم الأعلىٰ لحياة الإنسان، وبقدر قيامه بها يقاس صعوده أو هبوطه، وسعادته لا تتحقق بدون تحققها، وبدون عبادة اللَّه الصحيحة ينحدر في صفاته الإنسانية، وفي تصوراته للقيم الإنسانية؛ لأنه يكون عبدًا للماديات، وعبدًا للشهوات، وعبدًا للآلة، أو تابعًا ذليلًا من توابعها، فينحط في تصوُّره وأخلاقه، ويهبط في علاقاته الجنسية إلىٰ أحطَّ من حالة البهيمة، وتراه لا يعرف سوىٰ صخب الأسواق، ودخان المصانع، وأزيز الماكينات، وحينئذٍ يشقىٰ ويقلق، ويعاني من الحيرة والإرهاصات ما لم يعانِ قط في تاريخه من التعاسة والأمراض النفسية، والشذوذِ والعته المفضي إلىٰ كل جريمة، ويكون غالبًا هائمًا علىٰ وجهه، يعالج تعاسته بما يقتل به روحه وجسمه وأعصابه من المنعشات والخمور والمخدرات، ويتفحص مذاهب اليأس والقنوط، ويكون جميع ما حصل عليه من العلوم المادية في معزل عن روح الإنسانية الصحيحة، إذ لا يحقق شرف الإنسانية ويضمن لها الحياة الطيبة والمستوىٰ الرفيع، إلا ما أراده خالقها العظيم، العليم بمصالحها في كل شيء علىٰ مر العصور.

ولا تتم عبادةُ اللَّه إلا بصحة العقيدة التي ترسم له أهدافًا أكبر من ذاته، وأعم من فكره، وأبعد من حاضره القصير، وأرفع من واقعه، وتربطه بذاتٍ علويةٍ لها عليه رقابةٌ محيطةٌ وسيطرةٌ تامةٌ يحبها ويعظمها من جهة، ويخشاها ويتقي غضبها من جهة أخرىٰ، ويتملقها[١] ويطلب رضاها من جهة ثالثة، ويرجوها وينتظر عونها علىٰ الخير من جهة رابعة، ويستحيي من مواجهتها باللؤم وكفران النعم من جهة خامسة، ويتشوق لجزائها الأوفىٰ بالحسنىٰ وزيادةٍ من جهة سادسة.

---

(١) **يتملق:** يتحبب ويتذلل.

هذه العقيدة تجعله لا يخرج علىٰ عبودية اللَّه لحظةً واحدةً في أي حال، ولا يلتفت إلىٰ غيره في أي معاملة، من حبٍّ وولاء، وبغض وعداء وبراء، وخوفٍ وتعظيم ورجاء، واستعانةٍ أو غيرها، وتجعله يُخضع جميع النظريات والعلوم لوحي اللَّه، ويكيِّفه به، ولا يعكس الأمرَ شأنَ الماديين المبتعدين عن عبادة اللَّه في هذا الزمان.

السابع والسبعون بعد المئة: حاجة الإنسان إلىٰ عبادة اللَّه لا يسدها شيء أبدًا، فجَوعتُه الروحية لا يسدُّها الطعام، ولا يرويها الشراب، ولا يسكنها الكساء، أو أي شيء من أصناف متاع الدنيا؛ لأنها جوعةٌ من نوع آخر، جوعة إلىٰ الإيمان بقوةٍ أكبر من البشر، بل أكبر من العوالم المحسوسة، جوعة إلىٰ نيل قيمة النفْس التي هي أعلىٰ من جميع الأكوان، بل لا تقوم جميع الأكوان ثمنًا لنفَسٍ واحدٍ من أنفاس الإيمان الصحيح باللَّه والعمل الصادق لوجهه الكريم، وجَوعةٌ إسلاميةٌ إلىٰ إقامة حكم اللَّه في الأرض، وانتزاعه من الظلمةِ الكفرة الذين تطاولوا علىٰ سلطانه فيها.

فجوعةُ المسلم المؤمن الحقيقي لا يسكنها الحضارات المادية ـ حضارات الكفر ـ مهما قُدمت له من الرفاهية الحيوانية، وبُذلت له من أنواع الزينة والتسهيلات، إن جوعته لا يسدها ولا يملأ فراغها سوىٰ حبِّ اللَّه وتعظيمه، وحبِّ رسوله وتعظيمه، حبًّا يجعله متعلقًا به، منشغلًا بطاعته، متشرفًا بتنفيذ أحكامه ووصاياه، متطلعًا إلىٰ رضوانه، متشوقًا إلىٰ لقائه في جنانه، مما يجعله محبًّا للموت أكثر من محبة أعدائه للحياة، وبذلك يكون في جهاد متواصل داخلي وخارجي، يحصل به علىٰ الحياة الطيبة من العز والنصر، والتمكين في الدنيا، ونيل جنان الخلد في الدار الآخرة، ومن لم يكن علىٰ هذه الحال كان بلا شك علىٰ الحال التي أسلفناها فيما قبل ذلك.

الثامن والسبعون بعد المئة: حمل رسالة اللَّهِ والقيام بنصرة دينه لا يتحقق بمجرد الاعتراف بالنطق بالشهادتين، والتعلقِ بالأماني علىٰ

اللَّـه بالخوارق، وإنجاز وعده بدون عمل صالح صادق وفقَ أمره يستجلب رضاه، وجهادٍ يتبين به المؤمن عن المنافق، فلذلك كان من ضرورة كل مسلم عارف باللَّـه خائف من سخطه، راع لمرضاته، أن يصدق في عبادته؛ فيضرع إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأن دين اللَّـه لا تتحقق إقامته في الأرض، حتىٰ يحمله جماعة من البشر، يؤمنون به إيمانًا كاملًا، ويستقيمون عليه غاية جهدهم، ويتعرضوا لمجاهدة الناس بجميع أنواع المجاهدة، مجاهدة بالقلب بالكراهية لباطلهم، والتصميم علىٰ نقلهم منه بجميع ضروب الأمر بالمعروف ومستلزماته، ومجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان، ورفض باطلهم وتزييفه بالنقد العلمي والعقلي، كما أرشد إليه القرآن، ومجاهدتهم باليد دفعًا وإزالة، وقمعًا وزحفًا بالحق حسب المستطاع.

فحقيقة الإيمان لا تتم بالقلب حتىٰ يتعرض لهذه الأنواع من المجاهدة، ويصبر علىٰ الأذىٰ والابتلاء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: ٤]؛ فإنه ينفتح للمسلم بذلك آفاق لا تنفتح بدون المجاهدة، ويعرف من خبايا الناس ما لا يعرفه بدونها.

التاسع والسبعون بعد المئة: بتحقيق عبودية اللَّـه تتحقق دعائم كيان المسلم ونصرته وتمكينه في الأرض، فالقيام بعبودية اللَّـه هو الضامن لحصول ذلك، وهي لا تتحقق باللفظ والدعوىٰ، ولا بإقامة بعض الشعائر، والإتيان ببعض الأوامر دون بعض، وإنما تتحقق العبودية بحصر الاتجاه إلىٰ اللَّـه في كل شيء، والطاعة للَّـه في كل شيء، وتحكيم شرعه في كل شيء.

والضمان لتحقيق هذه العبادة بكاملها هو نزاهة ضمير المسلم من الهوىٰ والأنانية، وقوة جنانه بصدق توكله علىٰ اللَّه والاعتماد عليه، وعدم الخوف من غيره بتاتًا، وكونه دائمًا مستشعرًا مشاهد يوم القيامة، والرجوع إلىٰ مالك يوم الدين، فلذلك يكرر الضراعة بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لعمارة ضميره، وإيقاظ شعوره، فيكون أمينًا علىٰ حق اللَّه في الحياة، والتزام ما ألزمه اللَّه به.

الثمانون بعد المئة: هذا الإرشاد من اللَّه لعباده بضراعتهم إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إعلامٌ منه تعالىٰ للبشر بأن هذا الدين لا تتحقق إقامتُه في الأرض إلا بجهودهم حسب طاقتهم، وحسن نيتهم الجالبة لعونه تعالىٰ، ومدىٰ صدقهم مع اللَّه، وهو تعالىٰ يَجبُر نقصهم ويسدد خطاهم، وينصرهم علىٰ أعدائهم، ويمكّنهم في الأرض مقابل إخلاصهم في القول والعمل والقصد، لتكون كلمة اللَّه هي العليا، فيجعلهم الأعلَون.

وثبات المسلمين علىٰ هذا المبدأ، وانطباعهم بهذه الضراعة عمليًّا، يحقق لهم ذلك، ويجعلهم يُثبتون أمام جميع العالم أن هذا الدين مستطاع وملائم لفطرة البشر، وليس دعوةً «مثاليةً»؛ كما يكرر ذلك من يقصد إشاعة اليأس من دوام ذلك، محتجًّا بما جرىٰ من الأحداث علىٰ عدم استئناف المد الإسلامي، وبمنهجه الذي سار عليه السلف الصالح؛ لذلك فإن الصدق مع اللَّه بهذه الضراعة يُكذِّب هذا الزعم الذي روَّجه المبطلون، وهضمه المغفلون السطحيون الذين يجهلون أسباب الانتكاسة وتلاحُقِ الكوارث علىٰ المسلمين؛ فإن جريان هذا بسبب عدم الثبات علىٰ المبدأ، وعدم تحقيق العمل بمقتضىٰ هذه الآية، التي من عامل اللَّه بمقتضاها كان من الصادقين، الذين يصلح اللَّه لهم أعمالهم، ويُمدهم بالنصر في الدنيا.

وما أيسر ردَّ البشرية لدين اللَّه وإقامة حدوده إذا انبرىٰ لها من يربيها علىٰ تربية محمدية، كتربية الرعيل الأول، لا سيما وقد تذوقوا

مرارة الشقاء والقلق والإرهاب، واكتوَوا بنيران الحروب.

فتحقيق مقتضيات عبودية اللَّـه والاستعانة به، لا يكلف البشرية إلا أقل مما كَلَّفته المناهج الماسونية والأهواء الجاهلية بكثير، زد علىٰ هذا أنه يعتمد علىٰ رصيد الفطرة المذخور من اللَّـه فيها، والذي لا ينضَب مَعينُه مع الاستعانة باللَّـه أبدًا.

الحادي والثمانون بعد المئة: عقيدة المسلم وأخلاقه المنبثقة من شعاره الصادق، وضراعته الخالصة بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ هي في صميمها قوةٌ بناءة، وحركة دافعة إلىٰ النمو المطرد، وانطلاق إلىٰ الحركة الدائبة في سائر المجالات التي بها تحقيق الذات، وفرض الإرادة، ولكن بأسلوب نظيف مشرف للغاية.

الثاني والثمانون بعد المئة: استدامة الضراعة الصادقة مع اللَّـه بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فيها تعليمٌ عظيم للمسلم أن موقفه في جميع واقعيات الحياة ليس موقفًا سلبيًّا؛ بل هو موقف إيجابي يجعله يسابق أعداءه في كل صنعةٍ واستثمارٍ وتكتل وانطلاق، وتجعله يبادر لاستلام كل آلة وكل مخترع، ليصرفه التصريف الصحيح حسب المنهج الإسلامي، ويكيفه بوحي اللَّـه ومرضاته، ولا يقف منه موقف السلبية، فيكون من حظ أعداء اللَّـه، يسيرونه وفق أغراضهم، ويستعملونه ضد العقيدة والأخلاق، كما جرىٰ للمسلمين الجامدين من السلبية أمام المخترعات الحديثة، من كافة وسائل النشر والإعلام.

فالتبطل والسلبية صورة غير أخلاقية؛ لأنها تعكس المقصود من غاية الوجود الإنساني، حتىٰ تجعل القائد مقودًا، فالمسلم بإسلامه الصحيح لا يقف من هذه المختَرَعات موقف السلبية، ولا يستسلم لها باعتبارها أمرًا واقعًا لا مفر منه، بل يلجأ إلىٰ مَعينه الذي لا ينضب، وهو وحي اللَّـه وفطرته، فيسعىٰ بهما قويًّا لتعديل الواقع، وتسييره وإصلاحه، ليدفع ما فيه من ضرر وفساد، ويحوله إلىٰ نفع وصلاح،

وذلك لأن المخترعات الحديثة وراءها قوة مادية، وصنائع لأعداء الإسلام، يفرضون بواسطتها ما يريدون من إفساد الأخلاق، والتشكيك بالعقيدة، فلابد للمسلمين من مقابلتهم بالرصيد الذي لا يغلبه غالب، رصيد الوحي والفطرة الذي يزهق كل باطل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان].

الثالث والثمانون بعد المئة: إذا حقق أهل لا إله إلا اللَّه القيام بمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وعاشوا مع أولادهم وإخوانهم بالتصور الإسلامي، والعمل لخير الإسلام، فإن مجتمعهم ينمو ويقوىٰ علىٰ ما حوله أو في وسطه من المجتمعات المادية الوثنية؛ بلا عوائق داخلية أو خارجية، وهم يتنفَّسون الأنفاس الطبيعية بكل حرية وانطلاق، وذلك بقوة تعاونهم علىٰ البر والتقوىٰ، وتماسكهم في ذات اللَّه وقيامهم بواجب الشهادتين، من تحقيق العبودية، وصدق الاستعانة باللَّه، وتندحر أمامهم كلُّ قوة، وتخفق كل محاولة ضدهم.

أما الذين يجبُنون عن تحقيق مدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ويعتنقون من دينهم ما يريده العدو لهم؛ من صلاةٍ باردة لا يتأثر بها أهلها خارج المسجد، أو طقوس مصطنعة باسم «الطرق الموروثة»، دون بذل المجهود لتحقيق منهج اللَّه وإعلاء كلمته في الأرض، فإنهم يكونون ضائعين وسط المجتمعات المادية المخالفة لأمر اللَّه والمتطاولة علىٰ وحيه؛ بل يكونون مطارَدين إذا حاولوا القيام أو التلفظ بما يخالف آراء حكام هذه المجتمعات، حتىٰ تكون عقيدتهم مجرد اسم مكنون في الضمير أو مزعوم، كما تريده الماسونية اليهودية بمصطلحاتها الخداعة.

وإذا كانوا لا يملكون تحقيق إسلامهم، وهم أفراد ضائعون أو مطارَدون وسط المجتمعات المادية الوثنية الجديدة، فما قيمة هذا النوع من المسلمين نسبيًّا أو دوليًّا؟ ومن هنا يحتِّم الإسلام علىٰ أهله إقامةَ مجتمع يهيمن عليه شرع اللَّه، ويحرم عليهم تملُّقُ الكفار أو

مشابهتُهم، فضلًا عن التميع معهم، ويوجب عليهم التعاون فيما بينهم، والتفاف بعضهم إلىٰ بعض، مهما بعدت الشقة، وأن يقاطعوا من سواهم ممن لا يسالمهم علىٰ عقيدتهم مسالمةً صحيحةً.

الرابع والثمانون بعد المئة: العابد للَّه حقًّا والضارع إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ صدقًا؛ يشق طريقه نحو تنفيذ أوامر اللَّه صادعًا بالحق، لا يبالي بما يقف في وجهه من تصورات المجتمع وعقائدهم المخالفة لوحي اللَّه، ولا يبالي بما يقف في وجهه من الأوضاع والأنظمة والعصبيات والأطماع، ساعيًا إلىٰ تصحيح كل ذلك.

وبهذا التصميم القويِّ الصادق تتكون فئةٌ تقوم بحكم اللَّه وقمع من ينازعه، فيرتفع الإسلام عاليًا بصدق النية، وبذل المجهود في إعلاء كلمة اللَّه كما حصل ذلك من السلف الصالح الذين أصرُّوا علىٰ إزالة ما يخالف دين اللَّه دون مبالاةٍ بما يُسند الباطل من قوىٰ الشر كلها، لقوة اعتقادهم بأن الباطل لا يجُول إلا عند سكوت أهل الحق عنه، فإذا صالوا عليه فإنه يكون زَهوقًا.

ولو قال قائل في ذلك الزمان: إن هذا الدين سيصارِع ما أمامه من القوىٰ الهائلة، وينتصر عليها في ثُلث قرن من السنين تقريبًا؛ لسخر منه السامعون، ولكن هذا الباطلَ الهائل القوي سرعان ما انهار أمام أهل الحق بسلاحهم الضعيف الذي تؤيده قوةُ السماء المستمطَرة من اللَّه بصدق قلوبهم معه، وإخلاص أعمالهم له، ومحبتهم إياه، كما هي سنة اللَّه الدائمة التي لا تتبدل؛ بل تتكرر كلما سلك الناس صراطه المستقيم، واتبعوا رضوانه، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

الخامس والثمانون بعد المئة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهي رصيد الفطرة المستمد من كنز «لا إله إلا اللَّه»، الفطرة التي لا تعرف إلهًا إلا اللَّه، والتي من رجع إليها بعقله الفطري السالم من المؤثرات

عرف الإله الحق بخصائصه وصفاته، فامتنع أن يعبد أحدًا من الناس بتاتًا، وشمخ برأسه إلىٰ عبادة الواحد القاهر، وحينئذٍ يقف الجميع رافعي رؤوسهم أمام بعضهم البعض، فيا له من توجيه سماوي من رحمنٍ رحيم، يقي عباده شرور الامتيازات الطبقية، والعناصر الدموية، والتفرقة الجنسية التي بسببها يفرض كل لنفسه حقوقًا ومميزات دون غيره.

فقد كانت هذه موجودةً عند العرب ـ لا سيما في قريش التي تسمي نفسها «الحِمْس» ـ، وكان المجتمع الإيراني أفظع حالةً؛ لأنه مؤسس علىٰ اعتبار النسب والحِرَف، فكان بين طبقاته فوارق عظيمة جدًّا لا يكاد يتصورها إلا من عرف التاريخ، حتىٰ كانت الأكاسرة عندهم كالآلهة، والأغنياء كالقديسين، ومع هذا فالإقليم الهندي أفظع منهم وأبشع في نظام الطبقات الذي لا يزال باقيًا حتىٰ الآن، ففيهم كثرةٌ كاثرةٌ يسمَّون بـ«المنبوذين» لا يعامَلون إلا معاملة البهائم.

وهكذا كل بلد، حتىٰ الولايات الأمريكية ـ التي هي قبلة الماديين في هذا الزمان بالعلم والحرية والتمدن ـ، عندهم من التفريق العنصري ما تأباه النفوس السليمة، ولن ينقذ الأمم سوىٰ تقيدهم بهذه الآية وانطباعهم بها، ليطهُر مجتمعهم من الملوثات الجاهلية، المتمثلة في التفرقة القائمة علىٰ اختلاف الدماء والأجناس والأوطان، وفي الإخضاع والطبقية وأكل السحت والربا.

فتحقيق العمل بمقتضيات هذه الآية الكريمة استجابةٌ للَّه، وسيرٌ علىٰ فطرته ووحيه الذي يجعل كرامة الإنسان مستمدَّة من إنسانيته، وطواعيته للَّه ويحصر ميزة الإنسان علىٰ الإنسان بتقوىٰ اللَّه وشكر نعمه بحسن التصرف فيها، وفق مرضاته ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فليست كرامةُ الإنسان مستمدةً من لونٍ أو وطن أو عَرَض آخر، كمنصب أو ثروة وغيرها من الأعراض الزائلة، بل قد تبعده عن الكرامة الحقيقية إذا طغىٰ بها، وأبعدته عن طاعة اللَّه.

وإنما كانت الميزة بالتقوىٰ؛ لأنها تجعل صاحبها فاضلًا بحسن سلوكه، وقوة صموده في الحق، ورباطة جأشه، وصولته لحماية الدين، فبدونها لا ميزة لأحد علىٰ أحد حتىٰ الحكام والأمراء، فقد علمتهم عبودية اللَّه أن ليس لهم حقوق شخصية زائدة علىٰ غيرهم، ونكتفي هنا بقول الصديق الخليفة الأول رضي الله عنه: «إني وُلِّيتُ أمركم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأتُ فقوِّموني، وأطيعوني ما أطعت اللَّه، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم»، وبالحادثة المشهورة للقبطي مع ابن عمرو بن العاص.

ولا يتمثل نبذ العصبيات والامتيازات الأخرىٰ إلا في أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فهم الذين منحوا الكرامة الإنسانية لجميع بني الإنسان، بعد أن كانت وقفًا علىٰ طبقات معينة، أو بيوت معينة، وجعلوا قوة علاقتهم باللَّه من محبته، والسعي في مرضاته، هي التي تقيم له الوزن في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

السادس والثمانون بعد المئة: الصادق بضراعته إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لابد له أن يكون حارسًا أمينًا علىٰ نفسه ومجتمعه، من الانفلات والانصياع عن مقتضياتها؛ لأن الذي لا يتمسك بمقتضياتها، ولا يستقيم علىٰ ذلك، لا يكون محلقًا إلىٰ سماء العزة وحسن القوامة، بل يهبط من تلك القمة السامقة إلىٰ أسفل ـ أو إلىٰ أسفل سافلين ـ، ولا يتمكن من مواصلة وثبته، والسير كسَيْر أسلافه، بل يهبط علىٰ حسب انصياعه مع الهوىٰ والشهوات، ومن هبط بنفسه لا يرجىٰ منه الارتفاع بغيره.

ومن هنا حصل الضعف والتخلف بالمسلمين لعدم قوة إخلاصهم للَّه وصدقهم معه بهذه الضراعة التي يكررونها في كل ركعة من ركعات صلاتِهم، ولو كمل فيهم الإخلاص، وقوي صدقهم مع اللَّه؛ لأعادوا سيرة أسلافهم الأولىٰ، وجددوا الزحف المقدَّس الذي قاموا به، ولكنهم فقدوا التذوق الصحيح لحلاوة الإيمان التي تذوقها أسلافهم، ففقدوا

العزة الصحيحة، والمسلم لا ييأس من عودة هذا التذوق وجني ثماره الطيبة، بحول اللّٰه وقوته.

السابع والثمانون بعد المئة: بتحقيق عبادة اللّٰه في سائر ميادين الحياة تتحقق للإنسانية الحضارة الصحيحة، التي ينال الإنسان بها حريته وكرامته، ويسلم فيها من شرور الحضارة الصناعية التي قلبت حقيقته، وجعلته كالحيوان ـ بل كالآلة ـ، وحرمته من الحياة الطيبة والتقدم الصحيح، وصرعته بالأفكار الفاسدة التي أبعدته عن معرفة طبيعته الحقيقية؛ لأنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم التي صاحبتها حاجات في صدورهم، مما جعل الإنسانية تنحطُّ في تفكيرها وأخلاقها انحطاطًا ينذر بعودتها إلىٰ الوحشية والهمجية؛ بل حصل بعض ذلك بسبب ما صاحب العلم الصناعي من الغزو الفكري المغرض، الذي يَركِزُ فيه كل طاغوت مقاصده، وكل ملحد مفاسده؛ يتوخون في ذلك العداء لصميم العقيدة الإسلامية، والأخلاق الدينية، فيعملون علىٰ إبعاد عناصرهما عن العلم المادي، خلاف ما توجبه عبودية اللّٰه من تكييف كل شيء بروح الدين والعقيدة والأخلاق؛ بل قامت الحضارة الصناعية في هذه الأزمنة علىٰ روح العداء لكل ما جاء من عند اللّٰه وما يُمدُّهم به وحيه من المعرفة الحقيقية بهذا الكون، ومهمة الإنسان فيه، زد علىٰ ذلك طغيان فتحه وجماله، الذي بَهَر العقول حتىٰ خبطها؛ وإلا فالعلم الخالص من ذلك لا يجلب ضررًا مباشرًا محضًا، فليفهم ذلك جيدًا، وليعلم أن تطاول الحضارة الصناعية علىٰ ألوهية اللّٰه وافتئاتها[1] علىٰ وحيه يجلب عليها عقوباته القدرية المتنوعة، التي لا تحيط بها العقول، وحتمًا أن سنة اللّٰه الكونية لا تدع المعتدي عليها بلا عقوبة، وها نحن نراهم يتخبطون في بعضها أو في مبادئها، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ

---

(١) **الافتئات:** الافتراء.

ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف]، ولا نجاة لهم منها إلا بعودتهم إلىٰ عبودية اللَّه بصدق وإخلاص لا يشوبها تطفيف.

الثامن والثمانون بعد المئة: بتحقيق الإنسان لعبودية اللَّه يتحرر من المذاهب المادية ومن طغيان المادة، ويكون دين اللَّه سيدًا عليها، مسيرًا لها وفق مرضاة اللَّه، لا يهملها شأن الرهبنة المعطِّلة للحياة، ولا يجعلها ندًّا من دون اللَّه ـ كما تريده النظريات العصرية المرتكزة علىٰ الطرائق الماسونية اليهودية ـ؛ فإن المتقيدين بعبادة اللَّه حسب وحيه لديهم إحساس بالواجب أمام اللَّه يجاهدون لتحقيق إرادته؛ لأن إيمانهم يمنحهم القوة والفضيلة، ويُمدهم بنور بصيرة يجعلهم لا يبنون ليومهم فقط؛ بل لسائر الدهر، ولا يعملون لأنفسهم فقط، بل لجميع البشر.

فالمجتمع الذي يتكون علىٰ هذا الأساس يكون له أحسن النتائج في كافة نواحي الحياة، ولهذا صار الإسلام أمميًّا بريئًا من النزاعات العنصرية، وأهله الصادقون بريئُون من الأنانية.

التاسع والثمانون بعد المئة: تعليم اللَّه لعباده الضراعة إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ إعلام صريح بوجوب الصلة بين الإيمان والعمل، وأنه لا يستقيم الإيمان باللَّه، ولا تصح دعواه إلا بتحقيق مقتضيات عبوديته، التي هي العمل بطاعته، وتنفيذ شريعته، وإخلاص القصد لوجهه الكريم، والانشغال بمرضاته، والعمل المتواصل لنصرة دينه، والدفع به إلىٰ الأمام بجميع القوىٰ المطلوبة، ليرتفع بدين اللَّه عن الصورة إلىٰ الحقيقة، وأن المسلم لا يجوز له الإخلال بذلك، ولا لحظة واحدة.

وإن الدعوات لمجرد إيمانٍ خالٍ من العمل هي إفك وخداع وتلبيس، بل هي من دس اليهود علىٰ أيدي الجهمية، وفروعها من المرجئة كالماسونية وغيرهم؛ إذ متىٰ انفصمت الصلة بين الإيمان

والعمل، فلن نستطيع أن نبني قوةً روحيةً نقدرُ علىٰ نشرها والدفع بمدها في أنحاء المعمورة؛ بل إذا انفصمت الصلةُ بين الإيمان والعمل؛ فقدَ المسلم قوته الروحية، وصار وجوده مهددًا بالخطر، الذي يزيل شخصيته أو يذيبها في بوتقةِ غيره؛ لأنه لا يستطيع أن ينمي قوةً روحيةً يصمد بها أمام أعدائه، فضلًا عن أن يزحف بها عليهم.

فدعوىٰ «فصل الدين عن الدولة»، وحصر عقيدته في الضمير، إنما هي دعوىٰ باطلةٌ من مكر اليهود وأعوانهم، الذين كسبتهم الماسونية كسبًا رخيصًا ـ والعياذ باللَّه ـ؛ فالذي لا يعمل للَّه في جميع مجالات الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية وغيرها، ليس عابدًا للَّه؛ بل هو عابد للهوىٰ، ومتخذ له آلهةً شتىٰ في كل ميدان، فليحذر المسلم من الانخداع، وليعلم أن اللَّه لم يخلقه ليكون منتجًا ماديًّا كالحيوان، وإنما خلقه ليكون ربانيًّا محققًا لعبودية اللَّه في كل المجالات المهيمنة علىٰ شتىٰ أوجه النشاط الإنساني.

والدين الذي اختاره اللَّه ليس مجرد عقيدة صورية محصورة في الضمير، منعزلة عن واقع الحياة، كلا؛ إذًا فمن الذي يسيِّر واقع الناس، ويؤسس لهم النظم الأخلاقية والثقافية والتربوية والسياسية والاقتصادية وغيرها؟ هل النظريات اليهودية تسيِّر واقع الناس، من داروينية، وفرويدية، وماركسية، وديمقراطية، ونحوها؟.

طبعًا إذا أُقصي الدين عن شؤون الحياة، وعُطلت أحكام اللَّه في القرآن عنها؛ حل محلها نظريات اليهود وأفراخهم، ولم يبق معهم من الدين إلا مجرد الانتساب ـ الذي هو كالصورة ـ، وما أعظم الفرق بين الحقيقة والصورة!!.

تاللَّه إن الكفر بجميع أنواعه لم يَهزم من الإسلام إلا صورته، أما الحقيقة فلو اصطدم بها لتحطَّم في الآخِرين، كما تحطم في الأولين، واليهودية العالمية منذ عصور لم تسقط إلا الصور التي عملت علىٰ

إبرازها، ذلك أن أكبر صورة يعبث بها الطفل يقدر علىٰ إسقاطها، أما الحقيقة فعملاقة.

التسعون بعد المئة: عبودية اللَّه لا تعطل عقل الإنسان من التفكير في الماديات وتسخيرها واستثمارها ـ كما أسلفنا بعض الحكمة في موهبة الإنسان لها من اللَّه ـ؛ بل عبودية اللَّه الحقة تدفع المسلم المؤمن إلىٰ ذلك، ولكن تحت قيادتها، فعبادة اللَّه هي التي تحفظ النمو والحركة المادية، وتحوطهما بالسياج الواقي من الهوىٰ والتهور والخبط في المتاهات، وتحفظهما من النكسة والانحدار داخل إطار الفطرة الإلهية، بوضع المنهج المقوِّم لهما عن الميل الذي يجعلهما يصطدمان بطبيعة الإنسان ومقوماته الروحية بلا كبتٍ ولا تحطيم.

ففي تحقيق العبودية في ذلك وقايةٌ للإنسان من الغزو بالفتح العلمي، الذي يُفقده الاستقامة، ويُرديه[1] في التيه والضلال؛ لأن الحضارة الصناعية التي لا تحاط بعبودية اللَّه تحطِّم أهم ما في الإنسان من مقوماته الإنسانية، وإن أدت له في الظاهر كثيرًا من وسائل الراحة والتسهيلات الرائعة، التي قد تكون مؤذيةً لكيانه المادي ذاته، كما قرره المحققون من كُتَّاب هذا الزمان.

فعبودية اللَّه تهدي إلىٰ المسلك الوسط الصحيح بلا بخس ولا مبالغة، وتجعل السيطرةَ للروح المؤمنة علىٰ جميع الماديات، ولا تجعل الإنسان يستعبده ما يصنعه.

قضية القلب والروح، لا قضية الأسماء والشارات:

هذا الإرشاد من اللَّه لعباده في صدق الابتهال إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه تركيز عظيم لقاعدة الدين الأساسية، التي هي إعلان العبودية للَّه وحده، بقبول جميع أوامره وتشريعاته، ورفض كل ما عداها؛ حمدًا وشكرًا له علىٰ إيجاده وتربيته له بالنعم، وحبًّا له علىٰ

(١) يُرديه: يُهلكه.

ذلك، وطمعًا في دوام رحمته العاجلة والآجلة، وشوقًا إلىٰ لقائه في يوم الدين، وخوفًا من غضبه وعقابه، دون أي نظر في كُنهِ العبادة أو سهولتها أو حكمتها أو صلاحيتها الظاهرة علىٰ الموجود من عادات البشر وتقاليدهم السائدة، وإنما هو استسلام عن رضًا مطلقٍ خالٍ من جميع المرغبات العاجلة فيه، ومشبّع برغبة ناشئة مما قدمناه، ومنبثقة من الإخلاص للَّه، والتحرر من سلطان غيره.

فهي عبودية قلب خالص للَّه سليم مما سواه، لا تبالي برفض ما حرمه اللَّه مهما كان مألوفًا أو لذيذًا، ولا تُحجم عن تنفيذ ما أمره اللَّه به مهما كان شاقًّا أو مكروهًا، عبوديةً لا يبالي صاحبها بما حوله من المُعرضين والمتهكمين، الساخرين والغاصبين الناقمين، وإنما هو مستعين باللَّه في مواجهتهم ومراغمتهم، والقيام بضمهم إلىٰ صفه، طوعًا أو كرهًا، وفرض سلطان اللَّه عليهم وحُكمِه وهم صاغرون، عبوديةٌ كاملةٌ تركزت علىٰ هذه القاعدة التي استعذبت بها الجهاد، وخاطبت رسوله ﷺ بها بما يسُرُّه، فلقد قال سعد بن معاذ ـ أحد زعماء الأنصار رضي الله عنه ـ للنبي ﷺ: «اظعَنْ حيث شئت، وصِلْ حَبلَ مَن شئت، واقطع حَبلَ من شئت، وخُذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذتَ منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرتَ فيه من أمرٍ فأمرنا تبعٌ لأمرك، فواللَّه لئن سِرتَ حتىٰ تبلغ البِركَ من غمدان لنسير معك، واللَّهِ لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك»[(١)].

هذا منطقُ أهل العقيدة الصادقين مع اللَّه، الحامدين الشاكرين للَّه، المخلصين في تألههم للَّه دون سواه، والجاعلين لرسوله ﷺ الأولوية علىٰ أنفسهم ومحبوباتِهم، والحاصرين التبعيةَ له فقط من غير نظر في العاقبة، أو تطلُّعٍ لمنفعة عاجلة، وإنما بدافع الحب وطلب رضا

(١) انظر هذه الروايات في كتب السيرة ـ غزوة بدر، وانظر: «صحيح البخاري» (٣٩٥٢).

المحبوب الأكبر سبحانه، والثقةِ بوعده والشوق إلىٰ جنته، مؤثرين هذا علىٰ ما دونه، ولو التفتوا إلىٰ الحياة التي يتشدق بها الماديون، خصوصًا في هذا العصر، لتساءلوا عن الحكمة في الأمر، والنتيجةِ العاجلة المرتبة عليه، ولكن العقيدة الإسلامية ـ التي انحشت في قلوبهم، وتشربت بها ـ لا تعرف التَّرغيبات المادية والتفصيلات الفكرية، وإنما تعرف إخلاص القلوب وخلوصها للَّه واستسلامها لقبول أوامره، والوقوف عند حدوده، ورفض ما سواها أيًّا كان.

وفرقٌ عظيم بين تعبيد اللَّه لعباده في سورة الفاتحة، وبين خيالات بعض المسلمين الذين يدفعهم حماسُهم للدين، ورغبتهم في قبول دعوته إلىٰ عرض جَمال الإسلام، وبيان حكمة تشريعاته، وفضلها علىٰ غيرها من الأنظمة، حتىٰ اضطرتهم هذه الخطةُ إلىٰ نسبة كل شيء مستحدَث للإسلام، ففي الوقت الذي طغت فيه كلمة «الديمقراطية» علىٰ ألسنة الماديين وكثر تشدقهم بها، رأينا من يسمِّي الإسلامَ «ديمقراطيًّا» و«دين الديمقراطية»! وفي الوقت الذي طغت فيه «القومية» والتشدق بها؛ رأينا ـ أيضًا ـ من يكتب عن «قومية الإسلام»! بل من يسمي محمدًا ﷺ بـ«رسول القومية»! مستشهدًا بما يَضحك منه العقلاء، ثم في الوقت الذي طغىٰ فيه ما يسمىٰ بـ«الاشتراكية» ـ ألعوبة الشيوعية الماركسية ـ؛ رأينا من يسميها «اشتراكية الإسلام»؛ بل يصف الدين بأنه اشتراكي، وإن نبيه نبيُّ الاشتراكية! ويحرف الآيات ويقلب الحقائق في سبيل ذلك.

وهذا النوع ليس كلهم من يتزلف للحكام ويبيع دينه بثمن عاجل، وإنما فيهم ـ مع الأسف ـ من هو حسنُ النية، يريد تحبيب الإسلام، وأنه دين التطور، وأن الإسلام أعلىٰ من أن يكون ألعوبةً لذوي الأهواء والنظريات، حتىٰ بلغت ببعضهم المحاكاةُ إلىٰ تسمية الإسلام «ثورة».

والناس لا يجذبُهم إلىٰ الإسلام تسميته بهذه المسميات الجديدة التي لا يتعشقها ولا يعتنقها إلا البطَّالُ الملحد، أو الانتهازي المغرض، أو الجاهل المغرور، الذي يتبع كل ناعق، وهؤلاء وإن تعشقوا هذه

الألقاب والمبادئ، فإنهم لا يسيرون ولا ينفذون من مقتضياتها ومشتقاتها إلا ما يوافق أهواءهم، ومتطلبات شهواتِهم، مهما أُسبغ عليها اسم الإسلام، أو أكثر الكتاب المنهزمون من التفيهق بها، وربطها بالإسلام؛ فإن القضية لا تكمن وراء تغيير الأسماء وتطويرها، ولا وراء تجديد مذهبٍ مادي أو عقيدة أرضية نفعيةٍ مقصورةٍ علىٰ نواحٍ اقتصادية أو اجتماعية، يتلاعب من ورائها الساسة المغرضون، بالمجموعات الكبيرة من البشرية كالقطعان، وإنما القضية قضية تطهيرٍ للقلب، وتحرير للروح من جميع بضائع المعتقدات الأرضية والأغراض النفسية والشهوات الحيوانية، وخلع جميع العلائق الأرضية، وحصر للاتصال بالسماء فقط، ورفضٌ كامل لما عداه واستعلاء شامخ عنه.

وهذا أمرٌ شاق علىٰ نفوس البشر الأمارة بالسوء، والنفوس اللوامة كثيرة التقلب والتلون، وبسببه حصلت العداوة بين الرسل وأممها من أقدم العصور، وبسببه شُرعت الحدود، ووجب قتال المخالف، أرأيت إذا هم سموا الإسلام «ديمقراطيًّا»، هل يتحول سَيرهم إلىٰ سِيرة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، وتكون الأنظمةُ الديمقراطية التي سمَّوها منبثقةً من وحي اللَّه الذي هو روح الإسلام، أو تكون مستقاةً من أنظمة أوروبا وأمريكا، وعُوِّل عليها ونحوهما؟!.

الواقع هو الشيء الأخير، وإذن فما فائدة التسمية؟ وإذا هم سمَّوا الإسلام «قوميًّا»، ومحمدًا ﷺ «رسول القومية»، وصلاح الدين ونحوه «رائدها»، فهل هم يقتدون بسنة محمد ﷺ، ويترسَّمون خُطىٰ خلفائه من أمراء المؤمنين، ويقتبسون أصول القومية السياسيةِ وفروعَها التشريعية من مشكاة النبوة؟ أو علىٰ عكس ذلك أصول قوميتهم مقتبسة من الماسونية وتعليمات «نابليون»، و«زويمر»، و«لورنس»، و«دنلوب» وغيرهم ممن يفضلون الكافر العربي في كل معاملة علىٰ المسلم غير العربي، ويناصرون العرب النصارىٰ والشيوعيين علىٰ المسلمين، ويشرعون الأحكام المرخصة للأعراض، المفسدة للأخلاق

محاكاةً للغربيين، بدعوىٰ «المدنية والحضارة والتطور والتقدم»؟!.

إذا كان الواقع هو الشيء الأخير؛ فما فائدة تسمية القومية، وزعمِها للإسلام، ونسبةِ نبي الإسلام إليها؟ وإذا هم سمَّوا الاشتراكية بالإسلام، ونسبوها إليه وإلىٰ نبيِّه ﷺ؛ فهل هم اقتبسوا ميثاقها الوطني، وأصولها وأنظمتها من مدلول ميثاق اللَّه وأصول دينه وفروعه، وربطوا سَيرهم فيها باللَّه ورسوله، ولم يتخطَّوا حدوده التي شرعها أصلًا وفرعًا؟! أو هم علىٰ العكس، اقتبسوا ميثاقهم الوطني من الميثاق الشيوعي الذي وضعه «لينين» أحد الطواغيت ـ كما هو واضح لدىٰ المقارنة ـ، ونقضوا ميثاق اللَّه برفض تشريعاته علىٰ لسان رسوله ﷺ، ومعاداتهم المسلمين ورميهم بالرجعية، وإباحتهم لكل ما حرمه اللَّه وإسقاط عقوبة اللَّه عن مرتكبه، ورفضهم إعلان الجهاد علىٰ اليهود باسم الإسلام، وعدم جعل قضيتهم مع اليهود في فلسطين قضيةً إسلاميةً، يُستنفر لها جميع الأمم المسلمة في الأرض، بل حصرهم لها بأنها حرب بين العرب والصهاينة فقط!!.

إذا كان واقعهم هو الشيء الأخير بمجموعه، فما فائدةُ تسمية الاشتراكية بالإسلام؟ وما فائدةُ تسمية نبي الإسلام بـ«نبي الاشتراكية»، إذا كانت أنظمتها تُتلقىٰ من غيره ـ بل من أخبث أعدائه ـ ؟! وكيف يخادعون اللَّه والذين آمنوا وينخدع بهم المسلمون؛ فيحاول بعضهم تقريب الإسلام منهم، وبعضهم يتمادىٰ في جعله ديمقراطيًّا، أو تمشيًا مع القومية، أو يعمل علىٰ بلشفته، وهو يسمع من قادتهم العسكريين أو السياسيين أو المفكرين: أن الدين قد استنفد أغراضه، وانقضىٰ دوره، وبعضهم يقول: «إن الدين كان نتيجةَ الجهل والخوف والعماية عن حقائق الكون فيما مضىٰ، والآن طغىٰ عليه العلم وأصبح مكانه»، أي: فليعبد ما يسمىٰ بالعلم، وبعضهم يذهب إلىٰ أوقح من هذا فيقول: «إن اللَّه خرافة، والأديان وما يسمىٰ بالكتب المقدسة هي من تلقين العجائز». وبعضهم يقول: «ما فيه إله، وإنما الإله فكرةٌ متطورة».

وليت شعري كم دماغ يحلُّ فيه الإله إذا كان فكرة متطورة؟ أفي دماغ كل مفكر؟ في أي قطر وإقليم ومقاطعة وبلد وقرية وريف ومدينة وجهة؟ أم في فكر كل رئيس منتخب أو متسلط؟ وفي كل الاحتمالات تكون آلهةً كثيرة في أدمغة متعددة، وأقطار متباينة، فليذهب كل إله «دجال» بما تسلط عليه، أو استحوذ عليه من البشر، ولا يحق لسواه من الآلهة منازعته أو مناقشته!!.

يا للجهالة في قوم!! ويا للعار في آخرين!! كيف ينزلون بالإسلام إلىٰ مستوًىٰ من هذه عقيدته أو هذه طريقته؟ ألا تكفيهم كلمات يلوكها أكثر القوم وهي: «إن الدين لا يساير العصر، ولا يصلح للسياسة، إنه علاقة بين الإنسان وربه في المسجد فقط أو الكنيسة؟».

وهل خفي علىٰ هؤلاء موقف العصريين من الدين، وزعمُهم أنه سبب التخلف والجمود، ورميهم لأهله بالعظائم؟ فإذًا ما جدوىٰ تسميتهم لمبادئ هؤلاء ومذاهبهم بالإسلام، أو تقرُّب الإسلام منها، أو زَعْمُ أنها لا تخالف الإسلام؟ وما فائدة صرف الوقت وبذل المجهود بالخوض في حكمة تشريعات الإسلام وصلاحيتها للعصر؟ إن الذي يناقش في ذلك أو يشك فيه ليس أهلًا للدخول فيه، وليس صالحًا للانتساب إليه.

إن الإسلام ليس تابعًا لأحد، ولا يجيز لأهله التملق والمداهنة، وإنه لا يصلح لدين اللَّه، ولا يستقيم علىٰ عبوديته الصحيحة المطلوبة، إلا الذي يعرف معنىٰ الألوهية للَّه، ومعنىٰ الملكية للَّه؛ فيعامله معاملة الإله والملك دون ريب أو استفهام، بل علىٰ وفق ما ذكرناه في هذا الوجه والوجوه التي قبله، والقلوب من أشد الأوعية وأقواها تأثرًا وحساسية، وقد قرر العقلاء قاعدةً لا تقبل الجدل أبدًا، وهي أن قبول الوعاء لما يوضع فيه، وصلاحيته لما يوضع فيه مشروطان بتفريغه وتنقيته من ضده.

فمثلًا الإناء الذي فيه ملح أو ممتلئ بالملح؛ لا يكون فيه قابلية أو صلاحية لوضع السكر، حتىٰ يُفرَّغَ منه الملح وينقىٰ من رواسبه، ثم يصلح لوضع السكر ونحوه، وهكذا فالقلوب شأنها أعظم وأعظم، ولا تصلح مستقرًّا لحب اللَّه وتعظيمه وخشيته ومراقبته، ومحبة نبيه ﷺ وتعظيمه، حتىٰ تفرغ وتخلص وتطهر من محبة غيره، من كافة الأغراض والمحبوبات والشهوات، ومن تعظيم غيره، والخشية من غيره، والتطلع إلىٰ غير رضاه، فإذا خلصت وطهرت حصل استسلام أهلها وحسن انقيادهم للَّه، وكملت طواعيتهم له، وصاروا لا يرجون غيره، ولا يخافون سواه من أي قوة، وكان سلطانه هو المسيطر علىٰ النفوس، والمسيِّر للحركات، والمفجر للطاقات، ووجدت الروحانية محل المادية اليهودية الخبيثة بدون عناء، وصار انزياح صاحب القلب الزكيِّ الطاهر عن المعاصي بدافع الخوف من اللَّه ومراقبته من ضمير حي يخشىٰ من غضب اللَّه الذي لا تخفىٰ عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء، ولا يترك تسجيله وإحصاؤه مثقال ذرة، بخلاف ضمير المادي الذي لا يراقب غير القانون الأرضي، فإنه يعرف طرق التهرب منه ـ كما هو مشاهد محسوس ـ.

إن الدين الإسلامي يطلب من أهله تحقيق الألوهية بكاملها، من غير شقاق ولا منازعة، بحيث يجعلون الحكم علىٰ أنفسهم وعلىٰ غيرهم للَّه الملك الحاكم المشرِّع، دون بحث أو استثناء؛ لأنه هو العليم الحكيم، فيعتقدون أصلًا أن حكمه وتشريعه أصلح وأنفع وأتقىٰ وأروع في جميع العصور والأحوال.

فعلىٰ العلماء أن يكتبوا لمن يحمل اسم «الإسلام» ويخاطبوهم علىٰ هذا الأصل الأصيل؛ لأن من استقر في قلبه مدلول سورة الفاتحة وعامل اللَّه بمقتضاها، كان مسلمًا عابدًا للَّه حقًّا، متبعًا لكتابه وسنة رسوله ﷺ حقًّا، لا يتبع شيئًا من أهواء الناس، ولا يصغي إلىٰ زخارف قولهم، فإن اللَّه سلطهم بذلك، ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام].

المُجتمع في حاجةٍ إلى القوة:

العابد للَّه ـ حسبما تقتضيه هٰذه الآية من مدلول الشهادتين ـ لا يلتقي أبدًا مع أصحاب المذاهب المادية، والمبادئ الأرضية ونحوها من ذوي الشعارات الحزبية، بأي شأن ولا رأي ولا مصلحة، ولا يتدسس معهم، أو يقرِّب الإسلام إليهم باسم «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، ونحوها من أوضاع السياسة والاقتصاد؛ لأن الإسلام أولًا: أسمىٰ وأعلىٰ من ذلك، وثانيًا: لا تكون خطته مقبولةً عند أي أحد من الماديين، إلا علىٰ حساب الإسلام ورفعةِ ما يريده هو من دون الإسلام، فيصبح عمله خدمةً لخصمه لا لدينه.

ولكن العابد للَّه حقًّا يخاطبهم بما خاطب نبيُّه محمدٌ ﷺ أهلَ الجاهلية في زمنه؛ لأن هؤلاء من ورثتهم، يلتقون معهم في عبادة الهوىٰ وتحكيمه ـ وإن اختلفوا في الصورة ـ، وعبودية اللَّه سبحانه مغايرة لجميع صور الحياة الجاهلية قديمًا وحديثًا، فلا يجوز لعباد اللَّه مجاملتهم أبدًا، بل يصدعون بوحي اللَّه مندِّدين بما هم عليه من عبادة أسماء جديدة ما أنزل اللَّه بها من سلطان، أحلُّوها محل اسم اللات والعزىٰ.

وعباد اللَّه حقًّا، الدافعون برسالته، المستعينون به صدقًا، لا يتحدثون عن دينهم بصفةٍ يقدمونه بها لعُبَّاد الهوىٰ كأنه مناسب لذوقهم، صالح لعصرهم، كأنهم يدفعون عنه التهمة، فيقابلون كل نظرية جاهلية تَعشَّقَها عباد الأهواء من الشرق والغرب بقولهم عنها: إن الإسلام قد سبق إليها منذ (١٤) قرنًا!!.

فإن هذه المعالجات لا تمد الإسلام، ولا تنفع لرد الشاردين عنه إليه مهما تعلل هؤلاء الشاردون بقسوة التشريعات الإسلامية، أو عدم إخراجها للناس بصيغة مواد تنظيمية وأساليب عصرية، كأنهم لا يبصرون قسوة النظم الثورية الماركسية وما تفرع منها، ولا القسوة

الوحشية في التمييز العنصري الذي يجري في قبلتهم الحضارية «أمريكا»، أو كأنه لا يمنعهم من الاحتكام إلىٰ اللَّه ورسوله إلا انعدام من يبرز لهم شريعة اللَّه بالأسلوب الذي يريدون، كلا، وإنما هي تعليلات للاستهلاك المحلي بشتىٰ أنواع الدجل والنفاق الذي يستبقون به استعبادهم للبشر، وفرض سلطانهم عليهم من دون اللَّه.

فأهل الجاهلية في جميع أدوارهم يخادعون عباد اللَّه، ويُشغِّبون معهم في الفروع، والقضية في حقيقتها ليست في الفروع، وإنما هي في الأصول، بل أصل الأصول الذي يبدل التصورات والمشاعر، ثم تتبدل التشريعات الفرعية بتغير التصورات وانبثاقها من تأليه اللَّه ـ لا تأليه البشر علىٰ البشر ـ، ومن معاملة اللَّه معاملة الملك المشرِّع المطاع المقبولة تشريعاته بدون جدل أو تردد، أو شك أو تحرج، فأهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علىٰ الحقيقة دأبهم ووظيفتهم للَّه في الأرض هو أن يخرجوا الناس من عبادة بعضهم لبعض، وتقديس بعضهم لبعض، وخنوع بعضهم لبعض، إلىٰ عبادة اللَّه وحده، بتعظيمه وحده، ومحبته الصادقة التي تجعلهم لا يحبون أي شيء في الحياة إلَّا من أجله ـ ولو كان أقرب قريب وأعز عزيز ـ، وتجعلهم يخشونه فقط دون سواه، فلا تخيفهم أي قوة.

وهنالك ينحصر تلقيهم لجميع أنواع السلوك من وحي ربهم في النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، فيتغير واقعهم جذريًّا بتكيفهم الجديد بالإسلام، وتصوراتهم المنبثقة من التوحيد الخالص: توحيد الربوبية، والألوهية، وتوحيد الصفات.

فهذا المنهج الذي يجب سلوكه علىٰ عباد اللَّه وفق مدلول شعارهم العظيم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقوة العبودية الصادقة السائرة علىٰ الملة الإبراهيمية المحمدية الصافية، هي قوة عتيدة تعمل في كل الأزمات، وتصمد في أسوأ الظروف، وشرارتها ـ وإن خمدت ـ فإنها لا تنطفئ؛ لأنها من الحق وفي الحق، وتستمد قوتها من إله الخلق مؤيد الحق،

فما يعوزها إلا القوم الذين لا تُهمهم مظاهر الحياة، ولا يرهبون من الموت، بل يحرصون عليه كي توهب لهم الحياة الطيبة بنوعيها في الدنيا والآخرة، أو بالشهادة التي فيها مزيد الدرجات في الآخرة.

إن اللّه العليم الحكيم وضع لعباده المؤمنين هذا الشعار العظيم، وحصر تحركهم علىٰ مدلوله، وأوجب عليهم تحقيق مقتضياته بكل صدق وقوة؛ لأنه يعلم أن المسلم المؤمن باللّه يجد تحدياتٍ عصريةً قريبةً منه أو بعيدةً ـ وأكثرها قريبة ـ لا مجاورة له من جاهلية أقرانه ومعاصريه، فإذا لم يقابلها بشخصية مسلمة متحررة من جميع ملابساتها، مستقلة في نظريتها وعملها، حاصرة استمدادها من وحي ربها؛ فإنها لابد أن تتفاعل معها بدافع التأثر، فتعيش بالضرورة علىٰ نسق حياتها المعاصرة، فتنشأ هُوَّةٌ بين اعتقاده الديني وسلوكه الحياتي، كما تنشأ هُوةٌ أخرىٰ بينه وبين طبقات جنسه المنهزمين في نفسيتهم وتفكيرهم والساعين للتحفظ، وهم مصابون بشيء أو أشياء من ذلك، فيتزعزع الكيان المسلم بهذه الحالات، لا سيما مع الدجل الماسوني الذي جلبته الثقافة الأجنبية، والذي نقل الخصومة بين المسلمين، فجعل المنهزم منهم يعيب علىٰ المتحفظ، وجعل المنحرف إلىٰ الإلحاد ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ حربًا علىٰ آبائه وإخوانه، يعتبرهم متخلفين جناةً علىٰ الوطن؛ لأنه من عُبَّادِ المادة والطين.

ولابد من انطلاقة الشخصية الإسلامية متحررةً مما تقدم، وذلك لا يكون إلَّا بحركة روحية صحيحة منبعثة من حب اللّه وتعظيمه، وحب المصطفىٰ ﷺ وتعظيمه بكل صدق وإخلاص، وقوة يتحقق بها مدلول ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فلا يكفي لتحرير قلب الإنسان وعقله قوَّتُه المادية، ولا تفوقه العسكري، ولا تحصيل الاستقلال السياسي لأرضه بقوته، أو بما يقضيه اللّه له من المناصرين، حسب سنته من دفع الناس بعضهم ببعض.

كل هذا لا يكفي ولا يحصل به الاستقلال الفكري الصحيح أبدًا،

ولا الحياة الروحية الطيبة الصحيحة؛ لأن العقل الخالي من رَوْح اللّه لابد له من التخليط حسب المؤثرات المادية من أنواع الغزو الفكري، والتقليد الببغاوي، ولأن القوة المادية الخالية من روح اللّه مهما قويت لابد من أن تتعثر وتتأثر بما أمامها من القوىٰ الأخرىٰ، إما بفكر أصحابها أو بالانطباع بقوتهم.

وأيضًا فإن القوة المادية الخالية من العقيدة الروحية، مهما قويت وتطورت حضارتها، فإنها تعيش لفترة ثم تذبل، ويطغىٰ عليها غيرها حتىٰ تموت، وهكذا يعيش البشر في دوامة الشقاء والتجارب الفاشلة ـ كلًّا أو بعضًا ـ، بخلاف القوة والحضارة التي لها روافد من العقيدة الروحية الصحيحة، فإنها وإن ركدت لأسباب عارضة من الإخلال بالعقيدة لا تموت، بل تركد حتىٰ يُقوَّمَ المُعوَجُّ، فتنهض أقوىٰ ما كانت.

ولابد إذًا من القوة الروحية التي لا تحصل إلَّا بتحقيق عبودية اللّه بطاعة أوامره، والوقوف عند حدوده، ومتابعة رسوله في جميع نواحي الحياة، مما تقوم به دعائم المجتمع علىٰ أحسن أساس وأكمل نظام، ويحصل به التمييز علىٰ أعدائه، فينال مدد اللّه وحصانته التي لا يغلبها غالب، وبدون ذلك يعود الإنسان إلىٰ المادية، فيكون هلوعًا قلقًا خائفًا مذعورًا تُحييهِ المادةُ حياةً بَهيمية، وتميته كذلك؛ لأن من نَسِيَ اللّه نسيَه[1] فأعماه عن مصالحه الحقيقية، وهذا ما تريده اليهودية العالمية من تربيتها الحديثة للناس بالمفاهيم المادية الجاهلية الجديدة، لتجعلهم يتقلبون في المفاسد والثورات التي قسمتها في «بروتوكلاتها» إلىٰ ثورات عميان وغيرهم.

في صدق الضراعة من عباد اللّه إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

---

(١) وما ورد في القرآن من هذا المعنىٰ، فالمراد منه أنه سبحانه يعامله معاملة الناسي، أي: يُهمله ويتركه بلا عناية ولا هداية ولا تسديد.

انقياد كامل لطاعته في جميع أوامره وتشريعاته، ووقوف تام عند حدوده ثقةً بحكمته في تسيير أمورهم إلىٰ حياةٍ طيبةٍ فاضلةٍ؛ بدون البحث في ذلك عن طريق العقل والفروض العلمية المضطربة، ذلك أن العقل ليس هو الأداة الكافية الصحيحة لبحث المسائل النفسية كلها ـ فضلًا عن حلها حلًّا كاملًا بمفرده ـ؛ لأن النفس تدخل في عالم الغيب، الذي لا يخضع لحواس البشر؛ لكونها قاصرةَ الإدراك مهما تفننت، ولأن تقرير الخطأ والصواب في علم الأخلاق والسلوك يحتاج إلىٰ معرفة العلة الأولىٰ والهدف الأخير، ولا يمكن للبشر معرفتهما مهما أوتوا من العلم المادي، كما أنهم لا يعلمون آخر نتيجة الشيء الذي يبدو ضرره أو تبدو منفعته عاجلَ الأمر بالنظر المادي، إذ يمكن أن يكون الضار في بدايته نافعًا في عاقبته، وهو بغيض مهروب منه.

ويكون النافع في مظهره وبدايته ضارًّا تكمن فيه أنواع الشرور ـ سواء قرب زمان ذلك أو كان بعيدًا ـ، فالعجلة الإنسانية تعمي كثيرًا، لا سيما وقد أثبتت التجربة العلمية ـ التي يتبجحون بها ـ عجز الحواس البشرية مهما حصلت علىٰ المكبِّرات والمجهرات، واستخدمت أنواع الآلات، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

هذا وإن عبودية اللَّه لا تمنع أهلها من النظر في ملكوت السماوات والأرض، ومواصلة البحوث العلمية في الميادين النفسية والآفاقية؛ بل تدعوهم إلىٰ ذلك بشرط تقييده بعالم الغيب وإيقافه عند حدود اللَّه حتىٰ لا يعتسفوا الطريق فيتعرضوا للضلال، وتبديد الطاقات واتساع رقعة الخلاف بدلًا من لمها وتضييقها، فمعبودهم ﷻ لا يريد منهم تعطيل العقل، وإنما يريد منهم حفظه بإطار حدوده عن التخبط في المزالق والتَّردي في الهاوية، فالدين للعقل كالقواعد للفقهاء والحكام، لا تقيد سلطتهم بالكلية، ولكن تضبطها عن الظلم والجموح.

وإننا نرىٰ الذين لا يُصيخون إلىٰ صوت الدين، ويتجاهلون حق اللَّه في حياتِهم، ولا يقيمون لآياته وزنًا لابتعادهم عن عبودية اللَّه؛ قد استعبدهم أعداء اللَّه وأعداؤهم شياطين الإنس من الشرق والغرب، فاستوردوا منهم قواعد التربية والأخلاق والسلوك، وقدموا الظنون والأوهام والحدس والخيالات العلمية علىٰ وحي اللَّه الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]، فكانوا خلفًا لمن أخبرنا اللَّه عنهم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر]، ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال]، ولكل قوم وارث.

فدين اللَّه يجمع الناس علىٰ كل القيم الخيِّرة والمثل العليا، ويوحدهم علىٰ ذلك، أما الذي أحدثته الماسونية اليهودية من اسم «علم النفس والاجتماع»، وحدس العلوم الأخرىٰ، فإن فيه تفريقًا وتمزيقًا لوحدتهم، وتشكيكًا في قيمهم، ونسفًا لعقيدتهم الأصيلة، ومن ثم لم يستطع واحد منهم أن يجمعهم علىٰ مذهبه بعد أن فرقهم، بل لم يستطع واحد منهم أن يقدم البرهان الحاسم علىٰ صدق مذهبه، حتىٰ ماج بعض أتباعهم في بعض، وبغىٰ بعضهم علىٰ بعض، وأصبح علمهم المادي أداةَ فُرقةٍ وفساد وانحلال، وصار كل مجرم يجد سندًا له في تبرير جرائمه من ميادين علم النفس المزعوم، الذي يقلب الحقائق، فيسمي ما نص عليه الدين فضيلة: بالنقص، أو عدم النضوج، ونحو ذلك من أنواع التسفيه، ويدعو إلىٰ تعطيل حدود اللَّه التي هي رحمة بالجاني والمجني عليه وبالمجتمع، تؤدب الجاني وتُهذب نفسه، أو تقتص منه في الدنيا، ليكون كفارةً له من عذاب الآخرة، وتشفي صدر المجني عليه بأخذ حقه، فلا يبقىٰ في قلبه عليه شيء ولا علىٰ أسرته، وتطهر المجتمع من آثار الجريمة وتستأصل جذورها منه، فتهبه الأمن في الحياة، ولا حياة بدون أمن.

هذه الحدود ـ حدود اللَّه العليم الحكيم ـ يسميها أفراخ اليهود

وتلاميذهم: أحكامًا وحشيةً قاسيةً، لقد جعلوا اللَّه ليس رحمانًا ولا رحيمًا ولا عليمًا ولا حكيمًا، وطواغيت علم النفس من «فرويد» اليهودي وأشكاله، وتلاميذهم من المحسوبين علىٰ الإسلام أعلم وأحكم وأرحم من اللَّه!! فأي إلحاد في أسماء اللَّه أعظم من هذا؟!!.

تاللَّه إن مبتكرات هؤلاء الطواغيت جعلت تلاميذهم - الذين تولوا وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة وقصص وتمثيليات - يهدمون العقيدة والأخلاق بالتصاوير الخليعة والقصص والتمثيليات الماجنة، أو المحرضة علىٰ الجريمة، ونشرهم في الإذاعات والتلفزيون للراقصات والمغنيات، وأحاديث الحب، وتأوهات المغرمين والمغرمات، وتماوت المتهالكين والمتهالكات، وما أحدثوه من تفكيك الأسر، وفرضهم لأنفسهم سلطةً قامعةً لسلطة الوالدين بتنفيذ تصرفاتِهما وتصويرهما أمام أبنائهما بالرجعيين المتزمتَينِ الجامدينِ اللذين يجب رفض قولهما، ونبذ تربيتهما والسخط عليهما، والتمرد علىٰ تعاليمهما، وإغراء الفتيات علىٰ طرح الحياء، ونبذ الحشمة، وإظهار لحومهن، وعرض مفاتنهن؛ مما غدت به الفتاة كسلعة مبتذلة، لا كإنسانة مصونة مكرمة، إلىٰ غير ذلك من القشور والسفاسف التي هي من الثمار الحنظلية لوحي شياطين الإنس والجن.

وإذا أُقصي دين اللَّه عن ميدان التربية، وصار سلوك الناس ليس تابعًا لعبودية اللَّه ولا نابعًا منها؛ تفاوت سلوكهم، واختلفت مفاهيمهم وقيمهم بحسب معادنهم، وما يحصل لبعضهم من الغنىٰ المُطغي أو الفقر المُنسي، أو الامتياز العلمي أو السياسي، وصار لهم تصورات جديدة من أحد المعسكرين: اليهوديين الرأسمالي، أو الشيوعي، أو كليهما، فاستُبدل لبنُ وحيِ اللَّه الصافي بالقيح والدم والصديد، ولا طريقة للناس بعده سوىٰ هذين، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

بقاء الدول المادية الكبرى موقوف على تخلي المُسلمين عن القيادة وعدم حملهم للرسالة:

من المؤسف أن كثيرًا من الناس يرىٰ أن القوة هي الحصول علىٰ العدة الضخمة من العتاد الحربي، أو كثرة الصناعات التي تغمر الأسواق، أو ثروة المحاصيل الأرضية من منتوجات أو معادن، فهذا هو قياسهم، ويرون أن الذي يحصل علىٰ ذلك هو القويُّ الغالب الذي لا يُصرَع، ولكن الحقيقة بخلاف ذلك، فإن الدول والأمم لا تسود بالحديد والنار، ولا تعلو بالمال والصنائع، إلا علىٰ أشكالها من الماديين، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۢ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية].

وإنما السؤدد الصحيح والقوة التي لا تُغلب، تكون بالخُلُق الصالح المتين، بالتماسك الذي يجمع أهله، ويشد بعضهم إلىٰ بعض في هدف رباني سماوي، وذلك لا يكون إلا بالدين الصحيح الخالص الصادق، الذي تتجلىٰ فيه عبوديةُ اللَّه بمعانيها ومبانيها، فإنه هو الذي يجمع أهله علىٰ التوادد والتَّراحم، ويجعل بعضهم يعطف علىٰ بعض، ويشد بعضهم إلىٰ بعض، ويقيهم مما طُبعت عليه النفوس من الشح والهوىٰ، ويمنع عنهم عناصر الفرقة، من حمل رسالته وقمع المفتري عليه، وتوزيع أنوار هدايته، والزحف بدينه المقدس ذات اليمين وذات الشمال، فيفجر طاقاتهم في ذلك، ويجعلهم يبذلون النفس والنفيس، ويتعشقون الشهادة في سبيل اللَّه؛ فيكون حرصهم علىٰ الموت أشد من حرص أعدائهم علىٰ الحياة.

ثم بصدق نياتهم مع اللَّه، وإخلاصها للَّه، وطهارة جوارحهم، وصلاح أعمالهم، يستمطرون رحمة اللَّه بمدد السماء وحصانته التي لا يغلبها غالب أبدًا، وهذه الحقيقة لا يفهمها إلَّا حَمَلَةُ الرسالة، وقليل من المؤرخين ذوي الفكر الصريح المستقل، أما كثير من الناس فإنه تبهره ضخامة الدول المادية، وينضبع بها ولا يهضم كلامنا؛ لأنه لم

يحمل ما حمله أصحاب العقيدة، ولم يمتلئ قلبه من تعظيم اللَّه بدلًا من تعظيم المادة، فتعظيمه للمادة جعله يستصغر دينه، ويكفر بذاته أمامهم، ولا يثق بربه أولًا ثم بنفسه ثانيًا؛ لأنه نسي اللَّه فأنساه اللَّه نفسه، ولو رجع إلىٰ أسلافه الصحابة وجدهم ـ علىٰ قلتهم وضعفهم المادي ـ صالوا صولة الأسود علىٰ أضخم دول الأرض في كثرة العدد وقوة العُدة الحربية، ووفرة المال والكنوز، فحطموها دون أن يستعينوا ببعضها علىٰ الآخر، أو يتملقوا لبعضها ضد بعض؛ بل صالوا علىٰ الجميع في وقت واحد بقوتهم الروحية المستمدة من السماء لا من الأرض، وكذلك القلة القليلة بمادتها التي غزت أسبانيا والبُرتغال والمغرب الأقصىٰ وما وراءه، لو كانت نظرتها كنظرة المسلمين المعاصرين والمحسوبين علىٰ الإسلام ـ نظرةً ماديةً ـ لما فكرت في غزو هذه الأمم، ولكنها غزتهم بالنظرة الروحية والقوة الروحية التي لا يصمد أمامها الماديون.

والتاريخ يقرر أن الدول الكبيرة لا تَضمُر ولا تَذوي ولا تنكمش، ولكنها تنهار كما ينهار عمود الخشب الضخم، الذي نخر السوسُ لُبَّه، فبهذا المثل انهارت الدول الكبرىٰ أمام ضعفاء المسلمين في المادة، فمفاسد الأخلاق، والانغماس في التَّرف، والتمادي في الأنانية، هو الذي يجعل صورهم كالأشباح لا حقيقة تحتها، قشور لا لب فيها، وهذه الدول التي أجلبت علىٰ الناس، وبَهرت عقولهم بقواها المادية الضخمة، بقاؤها موقوف علىٰ انعدام من يحمل الرسالة ويعيد الزحف الإسلامي المقدس الخالص لوجه اللَّه؛ ذلك الزحف الذي يقذف اللَّه أمامه الرعب في قلوب أعدائه مسافة شهر، فيجعلهم يستسلمون دون استخدام قوتهم.

تاللَّه إن جولة الماديين في الأرض كجولة الجرذان في موقع خالٍ ممن يفترسها.

إذاخلا الجوُّ للجرذانِ في وطنٍ استأسدت لا تبالي بالقراقيعِ

إن اليهودية العالمية تعلم أنه لا مرتع لها إلَّا في التربية المادية، والأفكار الإلحادية التي صاغتها علىٰ أيدي «دارون، وفرويد، وماركس، وإنجلز، وتروتسكي»، وغيرهم من ملاحدة الوجودية؛ ليكون سير المعسكرين الشرقي والغربي في صالحها، وتكون هي الفائزة مهما انتصر أحدهما علىٰ الآخر؛ لأنهما أبناؤها قد تغذوا بلُبانها، وهي التي تسيِّرهم وفق ما تريد، وتوقفهم عند ما تريد، وهي المحرك الوحيد لهم بوساطة عملائها الذين يقبعون خلف «الكواليس»، وما الحكام والرؤساء البارزون إلَّا كواجهات لهم يدفعون بها كيف شاؤوا.

ولم تبق هذه الأوضاع سائرة علىٰ مخطط اليهود، ولن تبقىٰ إلَّا باستمرار الناس علىٰ إعراضهم عن عبادة اللَّه بالمعنىٰ الصحيح، فما داموا هكذا فسيبقون مسخرين لجميع أنواع الوجود، وأرقاء للمتحكمين فيه ممن وصفناهم، أما في الوقت الذي يراجعون فيه دينهم، أو يقوم فيهم شعب ـ فضلًا عن أمة ـ يرفع لواء الإسلام ويعيد سيرته الأولىٰ، فإن جميع ما أمامه لا يستحق أكثر من وصف الجرذان.

ولا يهولنك ـ أيها القارئ ـ مظاهرهم وتضخم قوتهم المادية، فإنها لا تتجاوز الأشباح الصورية أمام الحقيقة النبوية، والقرآن يقص علىٰ أتباعه خبر الناكلين عن دخول القرية ونصيحةَ الرجلين المسلمين لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة]، ولم يبق أهل القرية علىٰ جبروتهم وغطرستهم المادية إلَّا بسبب موقف الجبن ومعصية اللَّه من مقابليهم الذين قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

وموقف المنتصبين علىٰ القيادات الإسلامية أمام الصور اليهودية وحديدها قريب من هذا الموقف ـ إن لم يكن أتعس منه ـ، فعسىٰ اللَّه

أن ينور بصائرهم ويبعث قيادةً تجدد مجدنا وتعيد تاريخنا، فإنه لا يخيف اليهود سوىٰ ذاك ولا يقمعهم غيره، ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [إبراهيم]، واعتبر بالثورات التي يقوم بها نكرات، فينجحون ضد من تحميه الدول الكبرىٰ؛ لأن المغامرة تحول مجرىٰ السياسة، ولكن الثورات يأكل بعضها بعضًا، وتشقىٰ بجحيمها الشعوب؛ لكونها تسير وفق المخطط المادي اليهودي، فما بالك بانتفاضةٍ إسلامية يؤيدها اللَّه ويحفظها من كيد أعدائها؟ إنه في الوقت الذي يقيض اللَّه للعالم انتفاضةً إسلاميةً سالمةً من الأنانية، خالصةَ المقصد لوجهه الكريم، ترىٰ العجب العجاب، ولكن لا يرفع النفوس من هاوية السقوط التي أوقعتها اليهودية فيه إلَّا تحقيقُ عبودية اللَّه وفق طريقة نبيه ﷺ.

اختيار اللَّه لعباده هذا الشعار العظيم المبارك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليتدرعوا به، وينحصر عملهم وإخلاصهم له، وتدوم صلتهم معه، فينجون من عار الإباق وعظيم عقوبته وسوء نتائجه وآثاره؛ لأن الإنسان لا يكون عبدًا للَّه المستحق العبودية إلا إذا كان ملازمًا له، قائمًا بطاعته في جميع أمره ونَهيه، فإنه يكون بذلك مخلصًا صادقًا وفيًا، مع اقتران هذه بالمحبة والتعظيم والتشرف والتسليم والاعتراف بفضل اللَّه عليه، والتقصير منه في جانب مولاه، وإذا نقصت طاعته للَّه واختل امتثاله؛ كان عاصيًا بحسب ذلك، وتتضخم معصيته علىٰ قدر كبرها أو الإصرار عليها، فيكون عبدًا للَّه تارةً، وعبدًا للهوىٰ تارة، وبذلك يكون فيه هروب عن اللَّه الرَّحمن الرحيم إلىٰ عدوه الشيطان الرجيم بسبب نفسه الأمارة بالسوء، الجانحة للشهوات العاجلة القاتلة.

وإذا كانت المخالفة والمعصية مذمومةً من الإنسان لإنسان مثله ممن يرتبط فيه بحكم أو وظيفة، فكيف بمخالفته لربه مالك الملك؟! وإذا كان الجندي الهارب من سيده خائنًا مذمومًا مستحقًّا للعقوبة؛ لأنه هرب من مربيه الذي علمه وأبرزه علىٰ غيره، فكيف بمن هرب عن اللَّه الذي رباه بجميع النعم، وبوأه المرتع في ملكه، ويتخوض في

نعمه؟ لا شك أن خيانته أعظم، وجريمته أفظع، وعقوبته أشد.

إنه حرام عليه وعار عليه أن يلتفت إلىٰ غير اللَّه، أو يتلذذ بغير ذكر اللَّه، أو يتغنىٰ بغير كلام اللَّه، أو يخضع لغير عظمة اللَّه ممن سرقوا الجاه والسلطان في الأرض، حرام ـ واللَّهِ ـ عليه، وعار عليه أن يلتمس نورًا من غير نور اللَّه أو يسلك غير صراط اللَّه الذي ارتضاه له، حرام عليه ونقص في عقله أن يطمع في خير من دون اللَّه، أو يثق أو يطمئن إلىٰ وعد غيره، أو يخلط خدمة اللَّه بخدمة غيره، أو يدنس نفسه بطاعة غيره.

حرامٌ وعارٌ وشنارٌ علىٰ من حل بأرض اللَّه ورتع في ضيافته أن يحب غيره، أو يعظم غيره، أو يطيع غيره فيما لا يرضاه، حرام وعار علىٰ من سكن حَرَمَ اللَّه أن يتعرض لمحارمه، حرام عليه وعار عليه أن يحب أعداءه أو يبغض أولياءه أو يخذلهم ويوالي أعداءهم، حرام عليه ونقص في عقله أن يتعرض لسخطه.

حرام عليه وخيانة منه ألا يغار لدينه، ولا يغضب من أجله، أو لا يتفانىٰ في سبيله، حرام عليه وعار عليه أن يشغل قلبه بغير اللَّه، أو يحرك شيئًا من جوارحه لغير اللَّه، وأفظع من هذا وأشد عارًا من يستعمل نعم اللَّه المتنوعة أو بعضها في معصيته، إنه لو لم يكن هناك جنة ولا نار في الآخرة ولا عقوبات شرعية أو قدرية علىٰ هذه الأمور في الدنيا، لكانت عارًا وحرامًا، ونقصًا في العقل، وخيانةً في المعاملة، وإباقًا[١] عن مالك الملك الحق، فكيف وعلىٰ ذلك يترتب الجزاء الدنيوي والأخروي؟!.

لهذا ضراعة عباد اللَّه المؤمنين إليه بهذه الآية الكريمة اختيار منه لهم، فمن لم يحققها بصدق العلم كان آبقًا هاربًا، وإذا كان إباق العبد من سيده المخلوق كبيرةً من كبائر الذنوب، فكيف بالإباق من

---

(١) **الإباق**: الفرار.

السيد الأكبر والمالك الأكبر.

قال البيتوشي في نظم الكبائر:

كـذلك الآبـقُ مـن العبـيدْ	إذ هـو كفـرٌ جـاء في الوعـيدْ
وأيُّ عـبدٍ مـات في إباقِـهْ	لابـد في العقبىٰ مـن احتـراقِهْ
ذا في إباق العبد ممن خُلِقَا	فكيف بالإباق ممن خَلَقا؟
حـتَّامَ عـبدَ اللَّـه في الإبـاقِ	والبعدُ عن سيدك الخلاق؟
إلامَ تلهو في المعاصي وتَنِي	عـن أمره ومُعظَمُ العُمرِ فَنِي؟
حسبُك ما ضاع من الأزمانِ	في اللَّهـوِ والإباقِ والـذفانِ
فعُـدْ إلـىٰ مـولاك بالمـتابِ	ونـادِ بالـذل علىٰ الأعـتابِ:
يا رب قد شِبتُ ولست أَرحـمُ	شـيبي فارحَمْـه فأنـت أرحـمُ

✍ **حاجة الإنسانية إلى تحقيق عبودية اللَّهِ أعظم من كل حاجة:**

تحقيق المسلمين للقيم بمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ هو الذي يضبط المعالم الصادقة، والاتجاه الصحيح عن الانزلاق في متاهه المعالم الكاذبة، والشعارات الزائفة، التي تجعلهم تبعًا لغيرهم، فيسندون كل ثورة، ويؤيدون كل زعيم، وينخدعون بكل دجال ماكر، فتصبح نتيجة جهادهم، وثمار بذلهم وكفاحهم غنيمةً باردةً لأعداء اللَّه وأعدائهم من عملاء المعسكرين الكافرين خدام اليهود، كما حصل عليهم في هذا العصر، الذي كانوا فيه هم الطليعة في البذل والجهاد، فلم يظفروا بالقيادة التي يتسنىٰ لهم بها إقامة الحكم الإسلامي وتجديد العصر بأنواره، بل لما انحسر الكافر المحتل عن بلادهم، افترس الحكمَ أفراخٌ له قد هيأهم لهذا الأمر بشتىٰ الأحابيل، يحملون أشنع الضغائن علىٰ المسلمين، ويبالغون في قتلهم وتعذيبهم وتشريدهم، والتشهير بهم، وإلصاق كل تُهمة كاذبة بهم.

كل هذا بسبب التربية الماسونية المخالفة لوحي اللَّه والمناقضة

لعبوديته، مما جعل أبناءهم ومواطنيهم يتقمصون الشعارات اليهودية الكافرة، المصطبغة بالألقاب المادية، وتفترس القيادة من المسلمين، فينعكس الأمر إلىٰ ما حصل.

ولكن بتحقيق المسلمين لمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يسدون عليهم الطرق والمنافذ، فيظفرون بنيل ثمرات بذلهم وجهادهم، ويعيدون حكم الإسلام الذي يريح البشرية، ويصون دماءها، ويحفظ كرامتها، ويقمع كل أفاك أثيم، وجبار عنيد، بخلاف ما هم عليه الآن، مما جعلهم يدفعون الثمن الغالي بالأموال والدماء، ويكون قطفُ الثمار لأهل الجاهلية الجديدة والوثنية الجديدة، لعدم مراعاتهم مدلول هذه الآية، وإعطائها حقَّها الكامل، من النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، فلو رعوها حق رعايتها ـ كما يطلب اللَّه منهم في القرآن ـ لما حصل عليهم ما حصل، وإنما حصل عليهم ذلك بسبب تطفيفهم مع اللَّه ومعاملتهم له كما يريدون ـ لا كما يطلبه منهم ـ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت].

إن من الظلم والبخس للإنسانية حصر المعالم والاتجاهات في قومية أو وطنية تحصر كل فريق منها بحدودٍ وسدودٍ وعِرقٍ ولون، وتجعل كل فريق يتعصب لمذهب أو زعيم، ويعادي ما سواه، بل يطمع في خيرات غيره خدمةً لوطنه وثروته القومية، وما إلىٰ ذلك من المنتحلات الماسونية، التي أبعدتهم عن عبودية اللَّه الصحيحة، إلىٰ عبادة المادة والأشخاص، فصاروا يتقلبون في الثورات الفاتكة التي جعلتهم كالقطعان المسوقة، بدلًا من هداية العالم كله وقيادته بحكم اللَّه في أوسع نطاق، وأفسح مجال، وأقوىٰ صمود، وأرحم حكم، وأرفع تربية، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

إن الاتجاهات البشرية إلىٰ الأهواء ـ وخصوصًا بشعاراتها الحديثة المنبثقة من اليهود وأتباعها ـ غير واضحة المعالم، مهما أظهر أصحابها من المظاهر والتفسيرات، ولذا نراهم لا يقفون عند غاية، ولا يثبتون

علىٰ تفسير، فلا ضابط لمعالم الإنسانية، ولا واقي لها من تخبطها في متاثه أولئك إلا اتجاهها لتحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بمدلولها الذي يطلبه اللَّه.

تحقيق عبودية اللَّه وحصر الارتباط والتعلق به دون ما سواه يحصل به راحة البشرية، وأمنها وسلامتها من القلق والاضطراب الموجب للثورات، التي صار منها في كثير من البلدان حمامات للدم، وفتك وبطش وإهدار للكرامة بشتىٰ التهم الكاذبة، والأغراض الانتهازية، حتىٰ من إخوانهم وأبناءهم، بسبب عدم التربية الدينية التي ينطبعون فيها بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإن حاجة الإنسانية إلىٰ ذلك أشد من الطعام والشراب والدواء الحسي؛ لأنها هي الغذاء المعنوي والدواء الروحي، الواقي من جميع الشرور والمآسي، وهي التي تربي الروح وتنميها أعظم من تنمية الجسم والعقل بالطعام الحسي والعلم المادي، فلا تتهذب الطباع وتنصقل الأرواح وتكتمل إلَّا بما اختاره اللَّه لها من معرفته، والأنس بحبه، ولذة طاعته وذكره، ورجاء ما عنده، فتسلم من جميع الشرور والأزمات.

الصادق مع اللَّه بتحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا يضره كيد الكائدين، ولا مكر الماكرين، ولا يقدر أن يَفرُطَ عليه أي جبار عنيد أو يطغىٰ؛ لأن اللَّه يحيطه بمهابة تلجم أفواه الطغاة وتزلزل قلوبهم؛ فلا يقدرون أبدًا علىٰ تنفيذ ما يتوعدون به، أو يُهمُّون به من نيل عباد اللَّه بأي سوء، مهما أوتوا من البطش والعظمة والقوة، ينسيهم اللَّهُ استعمالها، ويُفتت معنوياتهم ويفقدهم قوة التنفيذ، بل يخسرهم[١] علىٰ الأمر به، ويحبط مكرهم، مهما بلغوا من الكيد والتفكير.

ولذا قص اللَّه علىٰ عباده في كتابه الكريم ـ بعدما وجههم لحسن

---

(١) كذا في المطبوع، ولم أتبينها.

السير إليه بهذه الأمة[1] في عدَّةِ سور منه ـ قصص عدد من المؤمنين، الذين انهارت قوة الطغاة أمامهم، وهم أفراد ضعفاء إلا من الإيمان، كالنبي هود عليه السلام أمام قومه عاد الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فتحداهم وهو فرد، مع زعمهم أن أصنامهم التي يعبدونها قد أصابته بسوء، وقال لهم: ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود]، لا تمهلوني ولا لحظةً واحدةً، هاتوا ما عندكم من الكيد والعقوبة بكل سرعة؛ فإني لا أبالي بكم جميعًا أنتم وآلهتكم.

فانظر ـ أيها القارئ والسامع ـ إلىٰ ما وهبه اللَّه عباده الصادقين الصالحين من القوة المعنوية، وما أحاطهم به من الحصانة الخفية، التي لا يغلبها غالب، كيف وقف هذا العبدُ الفردُ بين الأمة العظيمة القوية هذا الموقف الذي أشهد به اللَّهَ أولًا علىٰ براءته من دينهم ومما هم عليه، وجاهرهم بمخالفته، وبالبراءة من آلهتهم التي يعادون عليها ويوالون، ويتفانَون في نصرتها، ثم أعلن استهانته بهم واحتقاره لهم وازدراءه لقوتهم، وتحداهم أن يجتمعوا كلهم علىٰ كيده وشفاء غيظهم منه بكل عجلة دون إمهال، وهو ثابت وحده بلا جزع ولا فزع؛ من قوة ثقته باللَّه وجزمه بنصره!.

فموقفه يتضمن إعلانه بقوته عليهم، وأنهم أعجز وأضعف من أن ينالوا منه شيئًا، ثم يقرر دعوته أوضح تقرير وأحسنه؛ مبينًا لهم أن اللَّه ربه وربُّهم، وأنه متوكل عليه فقط، لا علىٰ غيره، وأن نواصيهم ونواصي جميع الخلائق بيده، فيقول: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]، فالذي هو آخذ بنواصي العباد قادر علىٰ نصر أوليائه وأهل طاعته مهما ضعفوا ضعفًا حسيًّا، يُجبِرهم بقوة معنوية وحصانة سماوية، ويشل حركة أعدائه، ويكفُّهم عن عباده الصادقين، ويجعلهم لا ينتفعون بقوتهم مهما كثرت وعظمت.

---

(١) كذا في المطبوع، ولم أتبينها ـ أيضًا ـ.

وكونه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقتضي انتقامه ممن خرج عنه، وعمل بخلافه، ونصرة من سلك نَهجه ـ ولو كان فردًا واحدًا ـ علىٰ أكبر عدد وأقواه، وقد ينتقم ممن يزعم الإسلام وهو مخالف له بمن هو كافر، ليطهر دينه من المنافقين، ويمحص بذلك قلوب المؤمنين، وينشئ لدينه من ينصره فيديل دولة الكفر به حسب حكمته في كونه، وقد أجراه كثيرًا في عدة عصور، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وقد نصر اللَّه إبراهيم أعظم نصر لم يعرف له التاريخ مثيلًا، وكرر اللَّه علينا قصة موسىٰ مع فرعون، لما فيها من عظيم العبرة، فموسىٰ الذي خرج من فرعون هاربًا يترقب، يرجع إليه رسولًا نذيرًا يخاطبه بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء]، ويدخل عليه مع هارون بسلطان من اللَّه الذي قال له: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص]، فيصمدان أمام طغيانه، ويبارزانه بالقوة المعنوية من رب العالمين، وكذلك مؤمن آل فرعون الذي خاطبه بدون مبالاة.

وقد أرانا اللَّه من نصرة المؤمنين، بعد مبعث محمد ﷺ في زمنه وبعد زمنه ما هو عبرة للناظرين، وتأييده سبحانه لأهل بدر ومن علىٰ شاكلتهم من هذا النوع، وخذلانه لمن خرج عن طاعته، أو فَضَّل الدنيا علىٰ الآخرة تأديبًا.

فاللَّه أرشد بني الإنسان إلىٰ ما يحييهم حياةً طيبةً سعيدةً من تحقيق عبادته، ويقيهم بها من شرور شياطين الجن والإنس حفظًا ونصرًا، و[1] إلىٰ الصدق في حصر الاستعانة به والتوكل عليه، مع الأخذ بالأسباب التي هي من كمال التوكل والعبادة؛ لأن ذلك هو طريق تسديده وتأييده ونصره، الذي لا يقدر أحد علىٰ مجابَهته.

فأهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أهل القوة والمنعة والعزة

---

(١) أي: وأرشدهم.

والزحف الذي لا يوقف في وجهه، وهم أهل التكبير الصادق المرجف لقلوب الأعداء، والمزلزل لحصونهم، وهم الذين يتحدون غيرهم، ولا يقدر غيرهم علىٰ تحديهم مهما قلُّوا.

ولم تستعل الدول المادية في هذه الأزمنة إلا علىٰ الذين يتولون بعضهم ويعتمدون عليها، هذا يعتمد علىٰ الدولة الفلانية، وهذا علىٰ الدولة الأخرىٰ، وفريق يعتمد علىٰ القبر الفلاني، وفريق علىٰ مجاورة فلان، أو علىٰ سكنىٰ البلد المقدس عنده، أو علىٰ جوار حرم اللَّه، وهو متلبس بمعاصيه غير محقق لعبوديته علىٰ الوجه المطلوب، بل مشابه للذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

أما في كل وقت يقيِّض اللَّه به قومًا يحبهم ويحبونه بالمعنىٰ الصحيح، ويعبدونه بالمعنىٰ الصحيح، ويجاهدون في سبيله، لا يخافون لومة لائم، ويأخذون بالأسباب غير متعلقين بها، ولا معتمدين عليها، بل هم معتمدون علىٰ اللَّه متعلقون به، جازمون أن اللَّه مولاهم، قاصرون ولايتهم عليه، ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال]، لا يستنصرون بغيره أبدًا، فإنه يتحقق لهم ما قلناه من التأييد والنصر والتمكين، كما وعدهم به اللَّه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء].

إن القرآن الكريم يشمخ برؤوسنا في عالم السياسة إلىٰ أسمىٰ مدارج الكمال، وهو وحده الذي يرفع رؤُوس أهله، ويهيب بهم ألا يستعينوا بغيرهم في دفع أي عادية، أو ردع أي عدو، أو قمع أي ظالم، أو إخراج أي متعصب، بل يعتمدون علىٰ اللَّه ثم علىٰ أنفسهم بعد الأخذ بالأسباب، وإعداد القوة الموجبة عليهم في قتال كل باغٍ وظالم مستعينين باللَّه وحده، بنية خالصة، وألسنة صادقة لإعلاء كلمته، وبجوارح طاهرة من معصيته، وقلوب محشوة بمحبته وتعظيمه، سليمة من محبة ما يبغضه، وموالاة من يعاديه.

وبذلك ينالون مدده وحصانته ونصره علىٰ أعدائهم مهما كانوا،

كما أجرىٰ سنته بذلك، حيث قال في أوليائه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

بتحقيق عبودية اللَّه وفق مدلول هذه الآية يتحقق كيان المسلمين بين الأمم، ويكون لهم هدف صحيح ناجح نصب أعينهم، يفرضونه علىٰ من سواهم، وتكون حركاتهم منوطةً به، وإنفاقهم المال في سبيل نصرته والزحف به لوجه اللَّه، ولا ريب أن من ليس له هدف في الحياة يفقد كيانه بين الأمم، ويكون عولًا عليهم أو علىٰ بعضهم.

ولذا أرشد اللَّه عباده المؤمنين إلىٰ هذا الهدف السامي الذي يبرزون فيه بين الأمم، ويتفوقون عليهم، ويتميزون منهم، بالطموح والشموخ عن كل خوف أو تقليد؛ لأن اللَّه العليم الحكيم خط لهم الخطة الروحية بصراطه المستقيم بين سائر أهل الأرض، من الماديين عباد الأشخاص، وعباد الشهوات، وعباد الهوىٰ والدرهم والدينار.

وأصحاب المبادئ العصبية والمادية عُبَّادُ الفرد، أصحاب العواطف والتصفيق، الذين تميل بهم الأهواء والشهوات إلىٰ تقديس هذا تارةً، وإلىٰ لعنة ذاك تارةً والولوع بغيره، وتجعلهم الأنانية يعيشون في دوامة من التقلبات، ويدورون في حلقة مفرغة من التجارب المخفقة، ويشقىٰ معهم من يدور في فلكهم بالتقليد الأعمىٰ.

فوضع اللَّه صراط السلامة لعباده المؤمنين من شقاوة هؤلاء وحظوظهم الدنيئة، وارتفع بمستواهم إلىٰ هدف رفيع، متسع الأفق، سامي المقاصد، لا يقبل عبادة الفرد ولا خسة الشهوة، ولا خنوع الخوف، ولا استسلام الذل، ولا طمع المادة، ولا عار التقليد، الذي لا يحس به غيرهم.

ذلك أنهم لا يلتقون مع عدوهم بهذا الهدف، ولا يستوردون منه أي نظام أو فكرة، بل جميع أفكارهم وتصوراتهم نابعة من معاني هذا

الهدف العظيم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فسلوكهم السياسي والاجتماعي منحصر علىٰ مدلول ذلك، ومنهلهم الثقافي منبثق من ينبوعه، وجميع ارتكازاتهم في سائر نواحي الحياة عليه، واتجاهاتهم شاخصة إليه، يعتقدون الكفاية التامة في وحي اللَّه، والنقصَ والخسران فيما سواه، ويعتبرون غيرهم مفلسًا ضالًّا كافرًا، مستعبَدًا لغير اللَّه من بعضه البعض، نشوان بسكر الهوىٰ والعماية؛ ذلك السكر المعنوي الذي لا تحصل إفاقة أهله من طريقهم، فيسعون لرفع إفلاسهم الأرضي بالتجارة السماوية، وإلىٰ هدايتهم من الكفر والضلال بها، وإلىٰ تحريرهم من عبودية بعضهم لبعض إلىٰ عبودية اللَّه وحده، ويفيقونهم من سكرهم بحشو قلوبهم بذكر اللَّه وحبه وتعظيمه، مع محبة رسوله ﷺ وتعظيمه، وإنارتها بنور الوحي المطهِّر للضمائر، والمصلح للأعمال، موجبين علىٰ أنفسهم أن يكونوا أهل التصدير للهداية إلىٰ جميع المعمورة، متنزهين عن الاستيراد من أحد، باذلين في ذلك أقصىٰ مجهودهم، ومرخِّصين أموالهم وأرواحهم.

هكذا أصحاب الهدف الرباني الصحيح الذي تمليه هذه الآية الكريمة علىٰ أهلها، والذي فهمه الصحابة منها والتابعون لهم بإحسان، ممن انحازوا وتميزوا به عن غيرهم، وقطعوا لتحقيقه الفيافي والقفار، وركبوا متون البحار شرقًا وغربًا، وخاطب قائدهم البحر أمامه بما معناه: لو نعلم أن أناسًا وراءك لمخرناك[1].

بهذا الهدف الصادق نالوا المجد، وصاغوا الأجيال، وصنعوا المعجزات حتىٰ إذا فترت همتهم[2] وقف زحفهم، وتسلطت عليهم الأعداء بأنواع الغزو العسكري والفكري.

العقيدة ومظاهرها وآثارها في الحياة:

تحقيق القيام بعبودية اللَّه كما أمر، يقي أهله القائمين به من

---

(١) مخرناك: خضناك. (٢) يعني المنتسبين للإسلام.

الهزيمتين الفظيعتين المُرديتين، الجاعلتين أهلهما في مصاف البهائم المسيَّرة طيلة الحياة، بل أحط من ذلك وأنكىٰ، وهما الهزيمة النفسية والهزيمة الفكرية، فإنهما أخطر وأفظع من كل هزيمة عسكرية، ذلك أن الهزيمة العسكرية تدمي قلوب الرجال، وتذكي فيهم روح النقمة، وتكشف لهم ما في صفوفهم من خليط النفاق، ومرض الجبن والإرجاف، إذا سلمت نفوسهم من سكر الشهوة والهوىٰ، وسلمت عقولهم من مؤثرات الإيهام والتضليل، وقلب الحقائق، وفساد التصور الناشئ من الغزو الفكري الذي هو دعامة الحراب اليهودية وأعوانها من شياطين الإنس ودجاجلتها وجلاديها، ولا تسلم عقولهم من ذلك حتىٰ تطهر من محبة أولئك وتتخلص من تسلطهم الفكري، وهذا لا يكون إلَّا بصدقهم في عبادة اللَّه واجتناب الطاغوت بأي صفة من صفاته، وحسن قصدهم لوجه اللَّه، وابتعادهم عن حظوظ النفس وشهواتها الظاهرة والخفية، وقد أرشد اللَّه سبحانه صحابة نبيه ﷺ بعدما رباهم في وقعة «أُحد» إلىٰ أسباب الهزيمة وعوامل النصر، وجههم إلىٰ ما يصونُهم، ويرفعهم عن الهزيمة النفسية والفكرية، وذلك في سورة آل عمران من آية (١٢٩ ـ ١٦١)، ومن آية (١٦٥ ـ ١٧٤)؛ تلك الآيات التي ينبغي للمسلم المؤمن أن يتدبرها ويقف عند كل آية منها متأملًا معانيها، وأن يستحضر ما قاله المفسرون قديمًا وحديثًا فيها.

إن اللَّه أجرىٰ سنته الكونية علىٰ أمور لا تمضي جزافًا، يُجري فيها عاقبة المكذبين ـ مهما أمهل لهم ـ، ليزدادوا إثمًا، ويداول الأيام بين الناس، فيجعل الحرب سجالًا كي ينكشف النفاق الذي لا ينكشف لو دام النصر واليسر، ويبتلي عباده لتمحيص سرائرهم، وامتحانهم علىٰ مدىٰ الصبر في الشدائد، ويؤكد استحقاق النصر للمؤمنين الصابرين، والذلة والسحق للكافرين، ويبين أن ما يصيب المؤمنين من هزيمة مؤقتة أو تنكيل من أعدائهم إنما هو بسبب مخالفتهم أمر اللَّه ورسوله ﷺ، حتىٰ لا يحصل الإصرار واللامبالاة، تجد هذا واضحًا في قوله تعالىٰ:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران]، وفي قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وفي قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، لا يُؤَجِّلُ الموتَ جُبنٌ، ولا تقدمه شجاعة، فالمتدبر لهذه الآيات يجد القرآن يربط ماضي البشرية بحاضرها وحاضرها بماضيها؛ لأن النظام القَبَلي الذي كان العرب يعيشون في ظله لا يقودهم إلىٰ ربط بعضهم ببعض، فضلًا عن ربطهم بسكان المعمورة قديمًا وحديثًا، فهو:

أولًا: ينقلهم من عزلة القبيلة وقَصْرِ التفكير إلىٰ رابطة البشرية واتساع الأفق والنظر، ليعتبروا فيما أصاب غيرهم من المخالفين، ويعرفوا أنهم ليسوا بِدْعًا من الناس، وأنه ليس لهم ميزة عن سواهم إذا اختل إيمانهم أو ضعف، فإن سنة اللَّه في خلقه لا تتخلف.

ثانيًا: يرفع من معنوياتهم ويشمخ برؤُوسهم فيقول لهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]، أي: لا يدبَّ فيكم الوهن والضعف بما أصابكم، ولا تحزنوا علىٰ ما فاتكم، وأنتم الأعلون بعقيدتكم التي هي أعلىٰ وأسمىٰ من عقيدة غيركم، فأنتم موصولون بالخالق وبضاعتكم سماوية شريفة، وعدوكم عبد للمخلوق يسيِّره ببضاعة أرضية خاسرة، وأنتم الهداة لجميع البشر والأوصياء عليهم، وهم الشاردون عن هداية اللَّه المتبعون لأنواع الطواغيت، وأنتم ترجون من اللَّه ما لا يرجونه؛ لأن اللَّه وعدكم وراثة الأرض والتمكين فيها، فالعاقبة الحسنة لكم وليست لهم.

ثالثًا: يواسيهم اللَّه ويخفف من آلمهم بقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، يذكر المسلمين أنهم انتصروا بادئ الأمر وأنكوا عدوَّهم بالسلاح، حتىٰ عصىٰ الرماة أمر الرسول ﷺ

الذي هو من أمر اللَّه فأراد اللَّه تأديبهم في نهاية المعركة علىٰ اختلال إخلاصهم وطمعهم في الغنيمة التي لا يجوز للمجاهد تغليبُ حبها والانشغال بها عن نكاية الكفار والإثخان بهم لإعلاء كلمة اللَّه، كما أنه ـ أيضًا ـ قد أصاب عدوهم قرح في غزوة بدر، فأصبح هناك موازنة وتعادل في حساب الحرب؛ لا يجعل الخسران في كفتكم دون الآخرين.

رابعًا: يبين اللَّه الحكمة في هذه التربية لعباده، وهي أن يُظهر علمه الأزلي الغيبي في عالم الشهادة بينهم، فيتبين المؤمنون الذين صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه من المنافقين المستترين الانتهازين، فإن اللَّه يعلم الصنفين، ولكن لا يكشف حقيقتهم إلا الشدة بعد الرخاء، والهزيمة بعد النصر، فذلك الذي يكشف عن خفايا النفوس ويبين معدنها، ولذا قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران].

خامسًا: مداولة الأيام، بحيث لا يدوم الرخاء، وتتوالىٰ الفتوح دون شدة وانتكاسة، فهي من سنن اللَّه التي لا تتخلف، والمحك الصادق للاختبار علىٰ الصبر وثبات الإيمان، فكم من أناس يجولون في الرخاء ويختفون في الشدة، وبالعكس فكم من أناس لا يصلحون إلَّا في الشدائد، أما الرخاء فيميعهم ويحللّهم، فتربية اللَّه لعباده في سنته الكونية تضبط توازنهم في حال الشدة والرخاء، لما يحصل من تهذيب نفوسهم، وحصر اتجاهها إلىٰ اللَّه الذي هو غاية المؤمنين.

سادسًا: اختيار اللَّه منهم من يكرمه بالشهادة، ويختصهم لجواره بسببها، تلك الشهادة التي يتطلع إليها المؤمنون غير كارهين للحياة، ولكنهم متشوقون لجنة عرضها السماوات والأرض، يزهد فيها سواهم من المنافقين الذين أخبر اللَّه عنهم أنهم قالوا لإخوانِهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦].

سابعًا: قضية التمحيص الناشئة من انكشاف حقيقة المؤمنين والمنافقين كما أسلفناه في رابع الإرشادات، فإن بهذا يحصل تمييز

الخبيث من الطيب، وفرزُ المؤمن من المنافق الذي كشفته الأحداث.

ثامنًا: تحقيق ما كانوا يتمنونه من الموت قبل أن يلقوه؛ لاشتياقهم إلىٰ القتال، ورغبتهم في الجنة، ولا تجدي الأماني دون الصدق في التضحية وحبس النفس علىٰ المكروه، إذ بذلك يتحقق الصبر والجهاد، فلا يطلقون الأماني جزافًا، ولا يندفعون بغير توازن وتروٍّ، ويشير إليه قول اللَّه تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران]، والصادق في تمني الموت لا يترك الثغر ـ الذي أوصاه رسول اللَّه ﷺ بالتزامه والمرابطة فيه ـ للطمع في الغنيمة الذي هو مخالف لما تمناه.

تاسعًا: توصيتهم بالصمود علىٰ المبدأ والثبات علىٰ الإيمان ـ مهما تأزمت الحالة وتحرج الموقف ـ، بل حتىٰ لو مات قائدهم أو قُتل، أيًّا كانت شخصية ذلك القائد من رسول أو تابع له، وقد تضمنت هذه التوصية تأنيبهم علىٰ الهلع والجزع الذي أصابهم من ظنهم فَقْدَ رسول اللَّه ﷺ؛ لأن رسول اللَّه كغيره من الرسل السابقين ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء]، فالموت محتم له، ولا يجوز لأتباعه الارتداد من بعده بالنكوص عن مجاهدة الكفار الذي هو من لوازم الإيمان؛ بل ينبغي أن يزداد غيظهم وحماسهم انتقامًا من أعدائه، وأخذًا بثأره، وثباتًا علىٰ تعاليمه، فإن الإيمان لا يتمثل خارج القلوب في أشخاص تموت، كما هي عقيدة القوميين في الأشخاص الذين تتمثل فيهم قوميتهم ممن يحتكرون لهم الإخلاص والتعظيم، وإنما تبرهن الأعمال الخارجية علىٰ صدق وطهارة الضمائر الداخلية، وقد ذكَّرهم اللَّه بصالحي الأمم قبلهم؛ حيث قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، إلىٰ أن قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران]، محمد ﷺ كغيره من رسل البشر يموتون، ولكن العقيدة باقية ما بقيت السماوات والأرض؛ لأنها

مرتبطة باللَّه، لا يتخلىٰ عنها إلا الذي قطع صلته باللَّه، ولا يفضل عليها راحلته أو ماله أو حياته، إلَّا ضعيف الإيمان، قليل الحب للَّه.

عاشرًا: تصوير اللَّه لهزيمتهم بالارتداد الحسي؛ لأن الذي ساورهم من الإحساس بعدم جدوىٰ القتال ـ حين ظنوا موت الرسول ﷺ ـ يعتبر ارتدادًا نفسيًّا لظنهم انهدام الدين بموته، وهذا مخالف للعقيدة.

الحادي عشر: اقتلاع اللَّه من نفوس المؤمنين الخوف من الموت بإبعاد عوامل الفزع والجزع؛ بتقريره أن لكل نفس أجلًا لن تموت حتىٰ تستوفيه؛ ليستيقنوا أن الأعداء مهما تضخمت أسلحتهم وعظم فتكها لا تقتل أبدًا إلا من دنا أجله، وانقطعت لقمته من العيش، وأن الجبن والفرار لا يزيدان في الأجل، والشجاعة والصمود لا ينقصان منه، فما أمامهم إلا اختيار إحدىٰ الحياتين، حياة الدنيا البهيمية تحت ذل الأعداء وإرهاقهم، وضنك المعيشة في الحروب الباردة والكاوية مع الماديين وأشكالهم، أو الحياة الأخرىٰ التي يحصل صاحبها علىٰ إحدىٰ الحسنيين.

الثاني عشر: تعليم اللَّه لهم ضراعة الأتقياء الأبرار من أتباع الرسل السابقين الذين صمدوا أمام عدوهم، ولم يخافوا غير ذنوبهم التي يحسونها من خشية اللَّه فيعدونها إسرافًا، ويستمطرون مدد اللَّه وحياطته بالاستغفار والدعاء الدائمين لجوءً إلىٰ القوة الغيبية وعدم اغترار منهم بما عندهم، بل انحصرت حالتهم بقول اللَّه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران]، فما أبعد الفرق بينهم وبين القوميين الماديين في حربهم مع اليهود! حيث لم نسمع منهم سوىٰ الإقسام بعواصمهم وشخصيات زعمائهم ومذاهبهم الماركسية من الأصنام الناطقة، فلم يذكروا اللَّه طرفة عين، حتىٰ جاءهم بأسه علىٰ أيدي أراذل خلقه، واللَّه غالب علىٰ أمره.

إن اللَّه وصف لنا طريقة الرِّبيين بصفة عامة من أتباع كل نبي، ورسم لنا صورتهم الظاهرية والباطنية، فمن صورتهم الظاهرية أنهم ما ضعفوا وما وهنوا أمام البلايا والكروب وشدة النزال والإثخان في القتال، ولم تلن قناتهم عن الاستمرار في المصابرة والجهاد، ولم يستكينوا فيستسلموا لأعدائهم، بل مثلوا الصورة الحقيقية للذي يدافع عن عقيدة وهدف سماوي، ثم أوضح لنا صورتهم الباطنية في صدق مشاعرهم وأدبهم مع اللَّه وعدم ذهولهم عنه في أحرج المواقف وأشد أنواع الهول، بل عظموا جنابه، وانحصر طلبهم في نيل رضائه، فكانت ضراعتهم إليه سبحانه طلبًا للمغفرة بادئ ذي بدء لا طلبًا للنصر، ثم سألوه التثبيت ليربط علىٰ قلوبهم ويلهمهم الصبر، حتىٰ كان النصر آخر دعواهم، وهذا هو المثل الأعلىٰ لطهارة القلوب وإخلاصها، واللَّه يطلب من عباده المتقين أن يكونوا علىٰ هاتين الصورتين باطنًا وظاهرًا، ولكن التربية الماسونية اليهودية للقوميين الماديين أبعدتهم عن ذلك، حتىٰ صاروا من كسبها ـ والعياذ باللَّه ـ، وقد نال الربيون ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، نالوا النصر والتمكين في الدنيا، فوق ما لهم من الدرجات العلىٰ في جنان الخلد من اللَّه المحب للمحسنين، أعطاهم أفضل ما يتمناه السائلون، حيث لم يطلبوا لأنفسهم شيئًا؛ لصدقهم في العمل وإحسانهم الأدب.

الثالث عشر: تحذير اللَّه لعباده المؤمنين من طاعة الكافرين وأذيالهم من المنافقين المتستِّرين تحذيرًا تامًّا في كل زمان ومكان، جدده اللَّه بهذه المناسبة؛ لأن كارثة «أُحد» صارت مجالًا لدسائس الكفار وأذيالهم، وتخويفهم عاقبة الثبات مع النبي ﷺ، وتصوير مخاوف الجهاد، وتهويل شأنه؛ ليزعزعوا نفوسهم، فشدد اللَّه في تحذيرهم، ليدفع معنوياتهم، ويصونهم من الهزيمة الروحية والفكرية، وأوضح لهم سوء عاقبة الإصغاء لأقوال الكفار وأذيالهم، وهي مشاركتهم في الكفر والخسران، وحرمانهم مما ناله وينال الربيون من

ربِّهم، وذلك لأن المصغي إلىٰ أقوال ضده في الدين والواثق برأيهم ومشورتهم يصبح متنازلًا عن عقيدته في أول وهلة، ولا يبقىٰ معه إلَّا مجردُ الاسم وهيكل الصورة، إذ تذوب عقيدته، وتزول حقيقته، إذا تبلورت أفكاره بدجل أعدائه، وهمساتهم المسمومة، فيبقىٰ في هزيمة روحية أخطر من نكبته الحسية، ويظل في انهيار طيلة حياته بما خططت الماسونية لذلك لضعفاء العقيدة أو فاقديها من الماديين، ولذا يقوِّي اللَّه سبحانه عزائم عباده؛ فيذكرهم أنه مولاهم وناصرهم ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران]، ليس لهم مولىٰ راحم سواه، ولا نصير جابر غيره، فلا يجيز لهم الاعتماد علىٰ غيره، ولا التلقي من غير طريق رسوله ﷺ، فالمؤمن الصادق يستغني بمورد عقيدته الصافي من اللَّه، ويتكيف به دون التفات لما سواه، حتىٰ لا يختلط عقله بزبالات الغش من أعدائه.

الرابع عشر: تجديد اللَّه وعده الصادق لعباده بإبقاء الرعب في قلوب أعدائهم تقوية لمعنويتهم وتثبيتًا: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران]، فانصرفوا إلىٰ غيره مما تهواه نفوسهم، فعبدوا الهوىٰ واعتمدوا علىٰ أصنام لم يمنحها اللَّه قوةً ولو يودع بها نفعًا، وهكذا خَلَفُهم من العصريين الماديين أصحاب النزعات والمذاهب الوطنية والماركسية ممن اتخذوها أربابًا لهم وأصنامًا ناطقة.

الخامس عشر: أن اللَّه صدقهم وعده، فأجرىٰ لهم النصر بادئ الأمر لما كانوا جميعًا علىٰ مقصد واحد حسن، هو إرادة وجه اللَّه، فاستمر القتل بالمشركين حتىٰ أدبروا وتركوا رحالهم غنيمةً، ولكن بعدما اختلت مقاصد بعضهم وفضلوا الغنائم علىٰ طاعة الرسول ﷺ ابتلاهم اللَّه بمكروه الهزيمة بعد فرح النصر؛ تأديبًا لهم وتربية في المستقبل، ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ﴾، أي: تقتلونهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ

عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

السادس عشر: من تربية اللَّه لهم أن أصابهم بغمٍّ يملأ صدورهم جزاءً علىٰ ما أنزلوا في نفس رسول اللَّه ﷺ من الغم بفرارهم عنه، ليستشعروا شؤم ما فعلوه، فيستصغروا كل ما حصل منهم من أذًىٰ وفوات غنيمة ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران].

السابع عشر: أنزل اللَّه سكينته في نفوس المؤمنين بإلقاء نعاس يغشاهم أمنةً منه تُخالج أحاسيسهم وجوارحهم، بخلاف الذين تَزعزَعَ إيمانُهم، فقد أهمتهم أنفسهم، وظلوا في قلق وفزع كشأن من لم يرتبط بعقيدة صحيحة يعرف طريقه علىٰ ضوئها، بخلاف المرتبط باللَّه الراضي بقضائه، وقد صورت الآية (٣/ ١٠٤) حالة الفريقين[١].

الثامن عشر: نَهْي اللَّه وتحذيره للمؤمنين من مشابهة الكفار الذين يحكمون علىٰ ما ظهر لهم من الملابسات أنها علل وأسباب للموت والقتل والهزيمة، ذلك في آية (١٥٦: ١٥٨)[٢]؛ فإن قول الكفرة يكشف عن فساد عقيدتهم وجهلهم بحقيقة الحياة وأحداثها، فهم دائمًا في تشاؤم وتطير، أما المؤمن فهو مطمئن بعقيدته إلىٰ ما يجريه اللَّه من الأحداث؛ لاستيقانه أن لن يصيبه إلا ما كتب اللَّه له أو عليه، فلا يجزع للضراء ويتطير، ولا يزهو بالسراء ويفخر، ولا يخيفه شيء سوىٰ ذنوبه التي تحول دون رحمة اللَّه، فيؤكد اللَّه لهم أن الموت لا يقدمه الخروج للعدو، بل ولا البُروز للقتال، وأنه لا يأتي قبل الأجل الذي حدده اللَّه، ويقول: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ويخبر عما يساورهم من سوء الإحساس أنه زيادة عقوبة: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، وأن رحمته

---

(١) يقصد من سورة «آل عمران».

(٢) أي: من سورة «آل عمران» ـ أيضًا ـ.

بالمقتولين خير من حياة المنافقين المقطوعين الصلة باللَّه، وأن الجميع سيحشرون إلىٰ اللَّه، فيَخسر عنده مَن بخل عليه بنفسه أو ماله.

التاسع عشر: تعليم اللَّه لنبيه ﷺ - الذي رباه علىٰ اللين والسماحة - أن يعفو عن المخالفين لأمره، والواهنين عن نصرته، وأن يستغفر لهم تأليفًا وجبرًا لقلوبهم، وتدعيمًا لمحبته في نفوسهم.

العشرون: أمر اللَّه بمشورتهم مع كونه يتولاه ويُعلِّمُه ما لا يَعلَمُه، ولكنه تقرير عام لمبدأ الشورىٰ في حكم دين اللَّه، وقد أطلق كيفيتها لعلمه تعالىٰ باختلاف الأحوال والبيئات؛ لتكون حسبما يلائم مصلحة المسلمين، وقد أثبتت الوقائع أن اتساعها يحدث الفوضىٰ، ويفسح المجال لأعداء الإسلام لشراء الأصوات والضمائر، فلا يبعد أن يكون إيجابها من باب العام الذي أريد به الخصوص.

الحادي والعشرون: تثبيت اللَّه لقلوب المؤمنين، وحصر اتجاههم إليه بالقوة في الأخذ بالأسباب والقذف بها، وأنه لا ناصر لهم سواه، فليتوكلوا عليه وحده، ويصدقوا معه، ويضرعوا إليه، فإنه لا يعطي النصر إلا لمن يستحقه، ولا يهزم إلا من يستحق الهزيمة، وقد ينصر الكافر نكايةً بكافر مثله، أو بعصاة المسلمين، أو بالمنافقين المسيطرين عليهم، ثم يقلب نصره للكافر عقوبةً عليه إذا استيقظ المغلوب ورجع إلىٰ اللَّه بصدق وإخلاص.

الثاني والعشرون: تأكيد اللَّه لعباده أن الغلول لا يمكن حصوله من نبي أبدًا، لأن طمع الرماة في الغنيمة، وتركهم الثغر الذي أمرهم الرسول ﷺ أن يتمركزوا فيه، سببه خوفهم عدم الإعطاء منها؛ لكونهم لم يشاركوا المقاتلين فيها، لا سيما وقد غشهم بعض المنافقين باختفاء بعض مغانم بدر كعادتهم في دس الكذب، فسمىٰ اللَّه ذلك: غلولًا، وبرأ نبيه وإخوانه منه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١].

الثالث والعشرون: تذكير اللَّه لهم ومنته عليهم بأعظم نعمه وأشرف

مكرمة، وهي بعث نبي اللَّـه ﷺ فيهم من أنفسهم خاصةً يهديهم من الضلال، ويرتفع بمستواهم الذي هبطت به الوثنية، ويشمخ برؤوسهم التي أخضعتها طواغيتها، فهي نعمة لا يعدلها جميع ما في الدنيا، فعليهم أن يرعوها حق رعايتها بصدق متابعة الرسول ﷺ، وأن يكون أحب إليهم وأغلىٰ عليهم من أنفسهم، فيجعلونها وقاءً له وفداءً هي وأموالهم وأهليهم في حياته، ولسُنته بعد مماته.

الرابع والعشرون: تكرير المواساة من اللَّـه لهم علىٰ ما أصابهم وتوضيحه للسبب بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فيذكرهم اللَّـه أنهم قد أصابوا من عدوهم أضعاف ما أصاب منهم، ولكن طبيعة العدو تجسيم الحقير من المكاسب وتغطية أعظم الخسائر، فيجب أن يزن المؤمنون مكاسبهم وخسارتهم بالمعيار الصحيح، ويحاسبوا أنفسهم علىٰ النقص؛ كما أسلفنا في الوجه الثالث.

الخامس والعشرون: إخبار اللَّـه المؤمنين عن المنافقين بأوصافهم لا بأشخاصهم، فهداية القرآن اقتضت ذلك؛ لأن الأوصاف تطَّرد في كل مناسبة علىٰ مَرِّ الأزمان، وأنهم هم الذين لما قيل لهم: ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وهم ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران]، يأيها الدعاة إلىٰ القعود عن القتال خشية الموت والمتمادون في إشاعة الإرجاف.

السادس والعشرون: إخبار اللَّـه عن حسن المصير والحياة الطيبة عنده للشهداء الذين قتلوا في سبيل اللَّـه؛ لإخلاص قصدهم في إعلاء كلمته، وأن حياتهم لا تنقطع بالموت الحسي من قتل وغيره، كما تنقطع حياة الجبناء والمنافقين الباخلين علىٰ اللَّـه إذا ماتوا علىٰ الفراش كالحيوان في مربطه، بل الجزاء من حسن العمل، فالذين وهبوا أنفسهم

للَّه أبدلهم بحياة لا يعلم مدىٰ طيبها وجمالها إلا هو: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران]، حياة جديدة كريمة، ورزق عند ربهم لا يقدر أحد قدره، وفرح بما نالوه من وعده لا يتصوره متصور، وتطمين لهم علىٰ إخوانهم الذين خَلَّفوهم مِن خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لتقر أعينهم ويكمل نعيمهم فهم يستبشرون بذلك.

وقد أخبر الرسول ﷺ عن بعض معاني هذه الحياة التي لا نعلم كنهها بقوله عن شهداء «أُحد»: «**جَعَل اللَّهُ أرواحَهم في جَوفِ طَيرٍ خُضرٍ، تَرِدُ أنهارَ الجنة تأكلُ من ثمارها، وتأوي إلىٰ قناديلَ من ذهبٍ معلَّقةٍ في ظل العرش، فلما وجدوا طِيبَ مأكلِهم ومَشربهم ومَقيلهم قالوا: مَن يُبلِّغُ إخواننا عنا أننا أحياءٌ في الجنة؛ لئلا يزهدوا في الجنة، ولاينكُلوا عند الحرب؟ فقال اللَّهُ: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل:** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ...﴾ إلىٰ آخر الآيات». رواه أبو داود[١]، ورواه مسلم بأطول من هذا.

وبهذا الأمل العظيم قويت معنويات المؤمنين، واشتدت رغبتهم في الجهاد حتىٰ توسعت فتوحهم، بخلاف المنطق القومي والبعثي الذي يربي الجنود علىٰ خدمة عَلَم الوطن الذي يحكم بغير ما أنزل اللَّه، ويتبجح البعثيون بأنهم يخلقون عَربيًّا لا يؤمن باللَّه ورسله ونعيمه وناره - نعوذ باللَّه -، فلأي شيء يموت الجندي ما دام لا يؤمن بالجنة ولا يرجوها؟!! أيضحي بنفسه في سبيل أدعياء العروبة والاشتراكية؟!!.

متى يتكامل بناء الإنسانية؟:

بتحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يحصل تكامل بناء الإنسانية،

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٦٥)، وأبو داود (٢٥٢٠).

فإن الإنسانية لا يبنيها نموها المادي الحاصل بالطعام والشراب، ولا «الفيتامينات» المجهَّزة في العقاقير الطبية، بل ولا يشفيها من أمراضها المعنوية تلك الوصفات المادية من طبيب الجسم، وإنما يتكامل بناء الإنسانية بالتوازن الحقيقي للتربية الروحية مع التربية الجسمية والعقلية، بحيث يُتبع هذا بهذا علىٰ أكمل وجه.

وذلك لا يتحقق إلا بتطبيق مدلول هذه الآية الكريمة، فإن الذين شردوا عنها، أو استهانوا بحقها، أو احتقروا تأثيرها، لجؤُوا إلىٰ تربية عقلية مادية من صنع الماسونية اليهودية، فالتقطوا من زبالات أفكارها ما يشرد بعقولهم عن سلوك صراط اللَّه، ويجعلهم يهيمون في مهاوي الإلحاد ومتاهات الحيرة والقلق، بسبب نظريات «فرويد» و«يونغ» و«بافلوف» وأفراخهم ممن هم من بني جلدتنا وينطقون بلغتنا، فابتُلوا بمجانين الجنس وفلاسفة المراهقة، وكُتَّابِ أدب الفراش ونحوهم، ممن تحركه الأيدي الأثيمة في الخفاء، وممن أبرزتهم الثقافة الاستعمارية، حسب الخطط الماسونية بالأفكار المفسدة لسير الإنسانية في جميع ميادين الحياة، واللَّه سبحانه يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فجميع الأفكار إما أن تكون نابعةً من عبودية اللَّه، ومستقاةً من وحيه، فتكون صحيحةً سليمةً يتكامل بها بناء الإنسان بتوازي تربيته الروحية مع تربية جسمه وعقله، فلا ينمو البعض بدون الآخر، وبذلك تحصل الحياة الطيبة والأمن الصحيح، وإما أن تكون الأفكار نابعةً من الهوىٰ والمادة، فتكون مختلةً معتلةً تسيِّر الإنسان بها سيرةً بَهيميةً نفعيةً بحتةً، فيعم شقاؤها، وتزداد شرورها.

ومهما حاول العقلاء الماديون التخفيف منه؛ فإنهم لا يزيدون القضايا إلا تعقيدًا؛ لأن هذه طبيعة الأفكار المادية؛ بخلاف الأفكار الروحية المرتكزة علىٰ الإيمان باللَّه واليوم الآخر، والتزام تنفيذ حكم اللَّه فيما أنزل، فإنها هي التي تُهذب الطباع، وتصقل الأرواح، وتكتمل بها التربية المفيدة لبني الإنسان، ولذا أرشدهم اللَّه إلىٰ حصر غايتهم علىٰ

عبادته والاستعانة به، وتكفل لهم بالهداية التامة والنصر المبين.

وقد تحقق ذلك من اللَّه لمن صدق معه في ضراعته بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فنالوا القيادة والسيادة في الأرض، واختلت حالة المخلطين في أعمالهم والمطففين مع اللَّه، الذين لم يعاملوه بمقتضىٰ مدلول هذه الآية، وحلت الكوارث الشنيعة بالذين أبعدوا دين اللَّه عن الحكم، أو نادوا بطرحه وجعله في متاحف التاريخ، فحل بهم الخزي علىٰ أيدي اليهود الذين لم يكتب لهم التاريخ عزةً علىٰ غيرهم، وذهبت ثغور بلادهم واستحكاماتهم، وما اللَّه بظلام للعبيد.

إن الذين شردوا عن عبادة اللَّه، أو أنكروه وأنكروا ما جاء عنه بالكلية، ابتلاهم اللَّه بعبادة الطواغيت، وأي طواغيت؟ طواغيت من ركائز الماسونية اليهودية، أمثال «لينين» الذي يركعون عند قبره، ويقيمون الأعياد لتذكاره، وهو يوصي بتدعيم دين اليهود لأجل سيطرتهم علىٰ فلسطين، علىٰ الرغم من معاداته للأديان، فقد قال في وصيته المشهورة عام (١٩١٧م) ـ بعد مهاجمته للأديان ـ، قال:

«أما الخرافات اليهودية ـ وإن كانت لا تختلف عن باقي الأديان ـ، ولكن بقاءها لليهود البؤساء أمر ضروري للمحافظة علىٰ يهوديتهم، حتىٰ ينالوا حقهم، اليهود إذا نبذوا دينهم حينئذٍ يتيهون في الأقوام المجاورة لهم، وبمرور الزمن يفقدون إسرائيليتهم، ولمحافظة إسرائيل كمجموعة كاملة ومتحدة، فالدين أمر ضروري، فلم يجمع بني إسرئيل غير الدين، ومحافظة الدين اليهودي أمر ضروري لحياة الشعب اليهودي المختار ريثما ينالون حقوقهم».

وهذا ما دفع روسيا في بداية حكمها الثوري إلىٰ إصدار جملة قرارات بالتأييد الكامل لحق اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين ـ كما نشرت ذلك مجلة «فرنسا القديمة» عدد (١٦٠) مجلد عام (١٩٢٠م) ـ، وقد حرم الشيوعيون في جميع الاتحاد السوفيتي تعليم

الدين بكل أنواعه إلا الدين اليهودي، فالشاردون من العرب والمسلمين عن اللّه وما أنزله ظلوا يقدسون هذا الطاغوت ورفاقه، حتىٰ جعلوهم أربابًا من دون اللّه بقبول كلامهم وتطبيقه عمليًّا، وجعلوا لكلامهم أعظم من قداسة الوحي المنزل علىٰ نبينا محمد ﷺ، بحيث لا يصح منهم النطق بالشهادتين مهما كرروهما ـ والعياذ باللّه ـ؛ بل جعلوا لقول كل ملحدٍ أثيم قداسةً عمليةً في كل ما تُبرزه الماسونية بلقب «دكتور أو فيلسوف» يتهجم علىٰ الإسلام وأهله، ويسمي تشريعاته: «طقوسًا وتقاليدَ ورجعيةً»، ويسمي ما يدعو إليه من الإلحاد والتحلل والتعري والتبرج والاختلاط وقلة الحياء: «تقدمية»!!.

وأي تقدمية في دور الملاهي والمسارح والأفلام السينمائية ونحوها مما يقذف به عملاء اليهود والمنخدعون بهم؟! وأي تقدمية في إباحة الخمور وتعميم الفساد وتشريع القوانين المبيحة للزنا ـ بحال الرضا ـ، أو المُعفِية لمرتكبه من إقامة حدود اللّه تطاولًا علىٰ سلطانه في الأرض؟! وأي تقدمية في تَهتُّك المرأة ومشيها في الأسواق شبه عارية، ودخولها «الاستيريو» بكل حرية، وهم يعلمون أن «الاستيريو» ماخورة[١] تستباح فيه العفة والفضيلة والشرف، وتنتهك فيها الأعراض؟!!.

كلَّا؛ إن جميع هذه الأمور ليس فيها تقدمية إلا إلىٰ أقبح صور الجاهلية الأولىٰ، بل إنها هي الرجعية الحقيقية إلىٰ تلك الجاهلية باسم العلم المزيف الكاذب، وإنها هدم للإنسانية بالتحلل والتفسخ، وإعطاء النفس هواها كالحيوان، وإنها ذهاب الغيرة وفساد الأخلاق والرضا بالدياثة أو تعميمها، وإنها العودة الصريحة الوقحة إلىٰ كفر الأمم السابقين، المصادمين لرسل اللّه والمجاهرين بعداوتِهم.

إن الانطلاق بالشهوات العارمة، وإعطاء الأنفس ما تهواه ليس تقدميةً قط، وإنما هو رجوع إلىٰ الوراء السحيق الذي حاربه الإسلام، وجميع

---

(١) **الماخور**: مكان العهر والفساد.

رسل اللَّه وإنه الهدم للإنسانية، وإنه قرة عيون اليهود بصهيونيتها المزعومة التي استطاعت بمكرها أن تؤسس الحركة الماركسية، لتتم السيطرة اليهودية علىٰ العالم بالتحويل الاشتراكي، وأن تقيم قيادات ثورية اشتراكية، وتسميها بالطلائع التقدمية، مخادِعةً لجميع العالم ـ شرقيه وغربيه ـ، وضرب بعضه ببعض تارة، والتظاهر بخلافات كاذبة تارة، وهي في أعماق الزعماء «تكتيكًا مرحليًا» تتطلبه الخطة الهادفة لمصلحتهم، ولكنهم يخادعون الشعوب بهذه الخلافات.

إن اليهودية العالمية تعلم تمام العلم أنها لا تحصل علىٰ مطلوبها إلا بنشر الإلحاد ومفاسد الأخلاق، والقضاء علىٰ التعاليم النبوية، وإزالة كل وازع ديني من البشرية، كي تتكامل وسائل الهدم الذي تريده دون عائق، ولذا أنزلوا ثقلهم علىٰ العالم الإسلامي عامةً والعرب خاصةً، فخططوا لهم الغزو الفكري الهائل، وقام بتنفيذه الاستعمار الرأسمالي والشيوعي، حتىٰ جعلوهما يضطربان بثقافات متضاربة وبانتماءات فكرية غريبة، جعلت العرب خاصةً ينقسمون إلىٰ شيع متحاربة ومتعادية عداوةً ضارية، مزقت وحدتهم، وأضعفتهم أمام الشرذمة القليلة الغازية، وخفضت رصيدهم في الوزن الدولي، وجعلتهم أضحوكةً وألعوبةً لمن يتاجرون بالسِّلْم ظاهرًا، وهو لمصلحة أعدائهم باطنًا؛ لأنهم فقدوا تماسكهم الصحيح، بشرودهم عن هداية اللَّه وعبادته، ذلك الشرود الذي يفقدهم مسوِّغ وجودهم بين الأمم، فضلًا عن قيادتهم لها.

فاللَّه أرشدهم إلىٰ ما يحقق مقومات حياتهم، ويضمن لهم بناء الإنسانية جميعًا لا بناء أنفسهم فقط، وقد تسنىٰ لهم ذلك علىٰ عهد أسلافهم الذين وضعوا اللبنات التي غيرت وجه التاريخ، وصنعوا حضارةً عظيمةً خالدةً كسبوا بها أغلب المعمورة، وعاشت الشعوب الأوربية علىٰ فتاتها ردحًا من الزمن، ولا تزال متأثرةً بها في الطموح عن عبادة الإنسان.

إن القرآن الكريم هو الذي صنع من العرب تلك المعجزة بعد أن

لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ولو شمخ هؤلاء برؤوسهم من جديد إلىٰ بضاعة السماء، ورفضوا البضاعة الأرضية الملتقطة من المزابل اليهودية فحققوا عبادة اللَّه واستعانتهم به بكل معانيهما ومبانيهما، لأعادوا مجدهم، وكانوا هم المعسكر الأول الصحيح الذي يعيد بناء ما هدمته اليهودية العالمية، من مقومات الحياة الإنسانية، بدلًا من أن يتعاونوا معها علىٰ الهدم العام، وعلىٰ تخريب بيوتهم بأيديهم، فإن المستجيب لهم بالنزعات القومية، والمستقبل لنظرياتهم الفكرية ومذاهبهم المادية من شرقية وغربية ـ بل جعل لهم حقوقًا في الرسالة، فأشركهم في رسالة محمد ﷺ ـ، فلا يصح منه النطق بالشهادتين، والمصيبة الكبرىٰ أن معظم المولعين بالثقافة العصرية، والمولين وجوههم شطر المذاهب الماركسية ونحوها يفضلون قول فلاسفة القومية والماركسية علىٰ دين اللَّه وما جاء به رسوله ﷺ.

وهذا تكذيب للَّه في أن صراطه المستقيم واجب الاتباع، وجعل خطط هؤلاء أقوم صراطًا وأهدىٰ سبيلًا، ولعل هذا من أكبر أسباب خذلان اللَّه لهم وجعلهم في شقاق بعيد، وتسليط بعضهم علىٰ بعض، وتقتيلهم لرجالاتهم الذين خسروا في تربية كل واحد منهم آلاف الجنيهات، مما هو هدم فظيع للإنسانية، ولا يمكن إعادة بنائها إلَّا بتحقيقهم لـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الأصالة الفكرية والهوية الروحية:

هذا الإرشاد من اللَّه لعباده بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه الأصالة الفكرية والهوية الروحية، للمسلمين عامةً والعرب خاصةً؛ لأن فيه الاستقلال الفكري الرائع الذي لم يلتقط من أفكار شرقية ولا غربية، ولا يمكن أن يختلط بشيء من الأوضاع البشرية والبضائع الأرضية، بل ولا يمكن أن يلتقي مع شيء من ذلك أدنىٰ التقاء، أو ينهزم أمام أي شيء منها أدنىٰ هزيمة عقلية؛ لأنه فكر مرتكز علىٰ الحس الديني،

يستمد جميع تصوراته ومفاهيمه من المعاني العميقة لعبودية اللَّه والاستعانة به، فالأفكار النابعة من ذلك والمستقاة منها أفكارٌ أصيلةٌ حرة نبيلة، تنظم حياة الفرد الدينية، وتنظم حياة المجتمع في السياسة والاقتصاد والثقافة وسائر مرافق الحياة، فهي أفكار أصيلة كاملة، فيها من الشمول ما ينظم الدين والدولة في جميع الشؤون والميادين، ولذلك قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة]، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة]، ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة].

وهذه الأصالة الفكرية تضمن الوحدة الروحية والثقافية لمن تمسك بها وقدرها حق قدرها، وكانت جميع تصوراته ومقاصده نابعةً منها، ومرتكزةً عليها، وهي ليست ثقافةً قوميةً ضيقةً كما تريدها اليهود لغيرها، ممن تسميهم تارة بـ«الأمميين» وتارة بـ«حميرها»، وإنما هي ثقافة روحية إنسانية عالمية هادفة للصلاح والإصلاح، تقوم علىٰ أساس عدم العبودية لغير اللَّه، وعدم الخوف إلا من اللَّه، وعدم الاستمداد من سواه، أو الاستعانة بغيره، وتجعل حب الإنسان وعواطفه مرتبطةً باللَّه لا يحب إلا ما يحبه اللَّه، ولا يوالي إلا أحباب اللَّه وأهل طاعته، ولا يبغض إلا ما يبغضه اللَّه ولا يعادي إلا المبتعدين عن طاعة اللَّه وعبادته، تعني[1] ألا يكون له في سلوكه السياسي أغراض نفسية، ولا في سلوكه الاقتصادي مطامع انتهازية، يبتز بها المال الحرام أو يبخل به عن أداء الحقوق، ولا في سلوكه الثقافي أو الاجتماعي شذوذ يشط به عن التزام حكم اللَّه والوقوف عند حدوده، ولا يسلك في النواحي السياسية مسالك العصريين الذين أعادوا الجاهلية الأولىٰ، فأخذوا ينتصرون للعصبية والأغراض النفسية، فيوالون الكافرين، ويسندونهم ضد المسلمين، للاشتراك معهم في جنسية أو نفعية، أو يسكتون عن المؤذين للمسلمين، نظرًا لمناصبهم الشخصية، أو مصالحهم الوطنية، بل يتقيدون في ذلك

(١) الأمانة الفكرية.

بما يحبه اللَّه ويرضاه.

والمسلمون ـ وعلىٰ الأخص العرب ـ لما استمسكوا بأصالتهم الفكرية وهويتهم الروحية؛ كانوا مرهوبي الجانب علىٰ أوسع مدىٰ من الحدود والنفوذ والقوة والسلطان، وقصة «وامعتصماه» مشهورة لا ينساها التاريخ، ولم نجد من يجددها أمام كوارث المسلمين في كل مكان؛ لفقدانهم تلك الأصالة الفكرية والهوية الروحية؛ لأن الماسونية اليهودية خططت لتفتيت ذلك وإطفاء شعلته في عقر دارها، بما عملته من الغزو الثقافي المتنوع بمكره وشره علىٰ أيدي المستعمرين والمبشرين، المستترين باسم الدكتوراه والفلسفة والاستشراق، مما أحدثت به الفصل بين الدين والدولة.

ذلك الفصل الذي لا يجوز ولا يصح إلَّا للدين المسيحي المزعوم، الذي أحدثت به اليهود ما لا يصلح للحياة، وجعلت الجيل المعاصر تائهًا تمام التيه بين الثقافات المتنازعة، وضائعًا بين المذاهب المادية من شرقية وغربية، لا يكاد يكون له وجود حقيقي كامل بمعنىٰ الكلمة، بل وجود مشوه ينكره تاريخه، وينكره من عرف مجد آبائه ومثلهم العالية؛ فأصبح الجيل متعدد الثقافات الدخيلة، تتحكم فيه المعسكرات المادية التي حوله، لفقدانه أصالته الفكرية وهويته الروحية الاستقلالية، وأصبح لا يعرف من الاستقلال إلَّا اسمه.

وبديهي أن الأمة إذا فقدت أصالتها الفكرية الاستقلالية فقدت معها كل شيء؛ لأنها تصبح بلا محتوىٰ فكري، ورصيد روحي يحفظ خصائصها، ويدفع عنها شر التيارات المجاورة التي تعمل علىٰ محقها وسحقها بشتىٰ أنواع الكيد والمكر، حتىٰ تفقد كيانها.

فإن قال قائل: إن الثقافة العصرية اتسعت آفاقها، وأصبحت ملكًا مشاعًا لكل الأمم، ولم تبق فائدةٌ للثقافة الروحية التي تزعم أصالتها.

قلنا: هذا اعتراضُ منهزمٍ هزيمةً عقليةً، وجاهلٍ بالفرق العظيم بين

كنه الثقافتين، فالثقافة الروحية الأصيلة مرتكزة علىٰ الإيمان بالغيب، الذي يجعل من ضمير الإنسان رقيبًا باطنيًّا يراقبه في كل عمل ويخيفه من عقوبات اللّٰه العاجلة والآجلة، ويجعله مخلصًا في مقاصده، صادقًا في أقواله، صالحًا مصلحًا في أعماله، كما كان أسلافنا أصلح الخلق، وأنفع الخلق للخلق، وأرحم الخلق بالخلق، لا يسكتون علىٰ باطل، ولا يعتدون علىٰ أحد، ولا يطمعون في عرض أحد أو ماله، ولا يسيرون مع الهوىٰ في أي شأن من شؤونهم.

أما الثقافة العصرية التي تزعمونها عالمية، فلا نجد فيها ما يمنع أهلها بالوجدان من الاعتداء علىٰ أحد، أو الطمع في ماله أو عرضه، وليس فيها ما يردع مثيري الفتن والأحقاد ومفاسد الأخلاق، ويردهم إلىٰ رشدهم، وليس فيها ما يلزمهم بالعدل بين الناس؛ لأن نظرتهم نفعية صرفة، ولذا تمادىٰ اليهود في ظلمهم للعرب وتشريدهم، والتمادي في احتلال بلادهم بلا قاهر ولا رادع، لما تحمله هذه الثقافة المادية من الأنانية البشعة المتفاقم شرها.

فما أبعد الفوارق بين الثقافتين!! وما أجهل من يرخص أصالته الفكرية، ويتنازل عنها، فيكون تابعًا لغيره!! إن هزيمته أعظم من كل هزيمة حربية؛ لأن الهزيمة الحربية ـ مع صحة الأفكار الأصيلة وسلامة العقيدة ـ قد يكون منها أعظم الحوافز والاستعداد لأخذ الثأر، ولكن الهزيمة العقلية تتحول بها القيم وتنعكس بها المفاهيم، فيتميع بها الإنسان في أخلاقه، ويتمعمع[1] في سلوكه وأفكاره في شتىٰ ميادين الحياة، لفقدانه أصالته الفكرية، ومقوماته الروحية فيذهب ضحيةً للتخريب الفكري في ميدان السياسة والثقافة والاقتصاد، الذي يقوم به عدوه وعملاء عدوه ممن يختارهم ـ غالبًا ـ من بني جلدته.

وقد أخبرنا اللّٰه عن المنافقين المذبذبين، فاقدي العقيدة والأصالة

---

(١) يتخبط ويضطرب.

الفكرية، أنهم لا يتعظون بالمحن والأحداث، حيث قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة]، وها نحن نرىٰ ورثتهم من قومنا تتوالي عليهم المحن والفتن في عقر دارهم ممن يسمىٰ «إسرائيل»، وهم في طغيانهم يعمهون، لم يكفروا بالجبت والطاغوت في الناحية التربوية فيرفضوا المناهج التعليمية الماسونية، من غربية وشرقية، ويعودوا إلىٰ تربية محمد ﷺ، ويتركوا التربية المادية المائعة السائرة علىٰ تقليد أعدائها في كل ميدان، ولم يكفروا بالجبت والطاغوت في النواحي السياسية، فيرسموا خطةً إسلاميةً صحيحةً سليمةً، تربطهم بجميع المسلمين، الذين يشكلون أعظم عدد وأضخمه بين الأمم، ويكونوا يدًا واحدةً علىٰ أعدائهم.

بل استمروا في مناهجهم التعليمية علىٰ الخطط السابقة التي رسمها لهم أعداؤهم، ولم يلتفتوا إلىٰ التربية الدينية ويكيفوا المناهج بها، بدلًا من تكييفها بالإلحاد، كما استمروا علىٰ إبعاد الدين الإسلامي عن الحكم، وطمس تشريعاته، ومعاداة المسلمين والتنفير عنهم بشتىٰ الأساليب، وموالاة الدول العلمانية التي أقصت الدين عن التشريع مثلهم، تماديًا منهم في نبذ ملة إبراهيم ونقض عهد اللَّه الذي يربطهم بهم، وقطع لما أمر اللَّه به أن يوصل من إسنادهم.

ولم يكفروا بالجبت والطاغوت في النواحي الاجتماعية التشريعية، فيعيدوا الحكم بشريعة اللَّه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويطهروا مجتمعهم ووسائل إعلامهم من لهو الحديث المتنوع، والمجون والمسارح والمراقص، وسائر الملاهي والخمور، والتبرج والتهتك، ولم يصدقوا التوبة للَّه بتحريم ما حرمه اللَّه وإقامة حدوده في كل شيء، بل استمروا علىٰ ما خططته «اليونسكو» وغيرها في التربية، وما خططوه في وسائل الإعلام ونحوها، ومن اللَّهو والطرب.

واستمروا في استحسان كل منكر باسم التقدم والتطور، بل استمروا في محاربة اللَّه ورسوله، بإباحتهم ما حرماه من الخمور والربا، والقمار والزنا، وتشريعهم القوانين الديوثية المعفية للزناة من إقامة حدود اللَّه، وتشريعهم سائر الأنظمة المخالفة لشريعة اللَّه والمعلنين فيها عن إلحادهم في أسماء اللَّه بقولهم عن أحكامه: إنها قاسية لا تصلح لهذا العصر، ولا تساير التمدن والتطور، مما هو كالتصريح بأن اللَّه ليس عليمًا ولا حكيمًا، ولا رحمانًا ولا رحيمًا.

ومع ذلك لم يتوبوا ولم يتذكروا أمام هذه المحن والفتن، حتىٰ هزيمتهم النكراء أمام جرذان الخليقة من اليهود في شهر حُزيران[1] عام (١٩٦٧م)، لم تحفزهم علىٰ الرجوع إلىٰ اللَّه وتحكيم دينه، وحمل رسالته، بل تمادوا في الشرود عنه، وهذا شيء أخطر من نكبة حزيران - بل من كل نكبة -، وسببه انعدام القلوب السليمة، والأفكار الصحيحة الاستقلالية، التي لو وجدت لغيرت أحوالهم رأسًا علىٰ عقب.

ولكن أنىٰ يوجد هذان بدون تمحيص الصدق مع اللَّه في تحقيق الوفاء بمدلول الضراعة إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ذلك الشعار الروحي العقائدي الذي بقوة تحقيقه تتحقق الأصالة الفكرية، ويرتفع أهلها عن كل تميع وتقليد، واللَّه المستعان.

من صُور الرِّق المَعنوي:

بتحقيق العمل بمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ينجو الإنسان ويسلم من الرق المعنوي الذي هو أفظع وأنكىٰ من كل رق حسي؛ لأن الرق الحسي يشعر به صاحبه فيتمنىٰ انتهاءه، ويسعىٰ لإزالته والتخلص منه حسب مجهوده، ولكن الرق المعنوي لا يشعر به صاحبه، بل علىٰ العكس ينقلب تصوره له تحررًا وتقدمًا، فيتمادىٰ باستحسان حالته دون أن يخالجه أدنىٰ شيء من الامتعاض والإحساس.

---

(١) يونيو.

وكل من لم ينشغف وينشغل بعبادة اللّه، ويحصر اتجاهه عليها واستعانته به جَلَّوَعَلَا؛ فإنه لابد من أن يبتلىٰ بنوع ـ أو أنواع ـ من الرق المعنوي المذيب لشخصيته من حيث لا يشعر، فمنهم من تسترقه شهواته وتجعله عبدًا لمرذول أو مرذولة، لا يرضىٰ هو أن يكون من عبيده لو كان متحررًا من الرق المعنوي، مستبصرًا بالبصيرة الفطرية، ولكن الرق المعنوي يجعله مغرمًا بهذا أو هذه أو بهما جميعًا، فيكون منشغفًا بقشر الجمال الذي سلب عقله، واسترق أحاسيسه وجوارحه، يتغنىٰ بأوصافه، ويفديه بنفسه وروحه التي لا تعدلها الدنيا جميعها ثمنًا لو عرف قيمة نفسه، بل يجهد نفسه في تحصيل الرضا أو طلب الوصال ممن يجب بغضه أو الابتعاد عنه، لو ملك العقل الفطري الذي يرفعه عن الرق المعنوي، وأحوال هذا القسم ظاهرة للعيان من أقدم العصور إلىٰ أحدثها، تشهد عليهم اعترافاتهم في أشعارهم، كما قال قائلهم:

بنفسي أَفدي خَالَهُ فوقَ خَدِّه ومَن أنا بالدنيا فأفديهِ بالمالِ

وكما قال الآخر:

بنفسي مَن لو مَرَّ بَرْدُ بَنانهِ علىٰ كَبِدي كانت شفاءً أناملُه

وكما قال الآخر:

ولستُ أَلَذُّ العيشَ حتىٰ أراكمو ولو كنتُ في الفردوسِ أو جنةِ الخُلدِ

وكما قال الشريف الرضي في غلامه التركي:

أُملِّكُه عِتاقي وهو رِقِّي وأَفديه برُوحي وهو ساقي

إلىٰ غير ذلك من أقوال السادرين في السكر المعنوي، والواقعين في فخاخ الرق المعنوي الذي يكون صاحبه بعيدًا عن عزة النفس، فضلًا عن تحريرها.

وكيف يحرر نفسه من يعلن أنه يفدي بها في سبيل معشوق قد يكون من أخس الناس، وقد يكون من أرذل الناس، وقد نال منه ما نال؟! إنه

الرق المعنوي الناشئ من عَمَىٰ بصيرةٍ الذين نسوا اللَّه فأنساهم أنفسهم ـ عياذًا باللَّه من ذلك ـ.

وقسم آخر من ذوي الرق المعنوي قد استرقتهم الأصوات الحسنة، والأشعار والأغاني التي فيها التشبيب بالخمر والجمال، ولو لم يكن لهم غاية في وصل حرام، ولكن هذه الأصوات والأغاني قد استعبدت أدمغتهم وأخذت من عقولهم أي مأخذ، فكسبت قلوبهم وأشغلت أوقاتهم بالأصوات الشيطانية التي قال اللَّه عنها: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤]، فأصبح تصورهم تصورًا فاسدًا لا يبصرون فيه الحرية الصحيحة، ولا يشمون ريحها؛ لأنهم هربوا عن حب اللَّه الذي يستعملهم في الخير، وينجيهم من عبادة غيره واسترقاقه لأنفسهم، فابتلوا برق الهوىٰ والشيطان، وضاع عليهم أعز ما عندهم من أوقات أعمارهم النفيسة في اللَّهو واللعب، ومطالب الشهوات الخسيسة.

وقسم ثالث أوقعتهم الأطماع المادية وسائر الشهوات النفسية في الرق المعنوي لركونهم إلىٰ الدنيا وتكاثرهم فيها، وتفاخرهم بها، وتنافسهم عليها، وقصر نظرهم علىٰ كثرة العمارات، وضخامة الملك، وتزايد النقود، وقوة الجاه، وحسن المتاع، وما إلىٰ ذلك مما هو ديدن الكفار، وغاية قصدهم خلاف ديدن المسلمين المؤمنين ومقاصدهم، وهذا القسم ممن وصفهم المصطفىٰ ﷺ بأنه عبد للدرهم، عبد للدينار، وعبد للخميصة والقطيفة ـ تعبيرًا عن المتاع ـ ذلك أن المرء عبد لما أحب، وقد دعا الرسول ﷺ بدعواته المتقبلة من رب العرش العظيم حيث قال: «**تَعِسَ عبدُ الدرهم، تَعِسَ عبدُ الدينار، تعسَ عبدُ الخميصة، تعِس عبدُ القطيفة، تعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انتُقش. طوبىٰ لعبدٍ آخذٍ بعِنان فرسِه**[1] **في سبيل اللَّه**»[2].

(١) **العِنان** ـ بالكسر ـ: اللِّجام.
(٢) رواه البخاري (٢٨٨٦).

ففي هذا الحديث دعاء عليهم، وتصوير لسوء حالهم ومصيرهم المشين الذي لا ينفكون منه ما داموا عبيدًا لمحبوباتهم الدنيوية، فأما دعاؤه ﷺ فهي تكراره التعاسة: « **تَعِسَ عبدُ الدرهم، تَعِسَ عبدُ الدينار، تعس...، تعس وانتكس...**»، والتَّعسُ في اللغة هو: الهلاك، والعثار، والسقوط، والبعد، والشر والانحطاط، ومن تدبر أحوال الماديين وجدهم يتخبطون في جميع هذه الأحوال الرديئة.

وأما تصويره لواقعهم السيئ ومصيرهم المخزي فهو قوله: «**وإذا شيك فلا انتقش**». وهذا تصوير بديع للهزائم النفسية والذل المعنوي الذي يتخاذلون به عن انتقاش شوكة العار، واقتلاع ما يضعه العدو في جسمهم من قاعدة أو عنصر غريب لا يستطيعون له تحويلًا.

ومن شواهد هذا التصوير وظهور صحته للعيان: أنهم في هذا العصر الذي يسمونه «عصر النور»، ويتبجحون فيه بدعوىٰ التقدمية والتحرر، ويخادعون الناس بدعوىٰ طردهم للاستعمار، قد عجزوا عن اقتلاع أصغر شوكة في جسمهم ـ قد اتفق الاستعمار الغربي والشرقي علىٰ غرزها فيه ـ، وهي ما يسمىٰ بدولة إسرائيل التي انتَزعت منهم قطعةً عظيمةً عزيزةً علىٰ المسلمين، ولو نجح أحد طرفي الاستعمار معهم وصدق في معونته لهم باقتلاعها، لانتفخوا انتفاخة الهر علىٰ العالم بشتىٰ أنواع الغرور والتهريج، ولكنهم مع حالتهم المشؤومة التي صاروا بها ألعوبةً للغرب والشرق لم يخجلوا من دعاويهم التي يريدون أن يُحمدوا فيها بما لم يفعلوا، ولم تحفزهم النكبات علىٰ توحيد صفوفهم والرجوع إلىٰ ربهم للاستعانة علىٰ حرب عدوهم؛ لأن الأنانية تمنعهم من ذلك وتبعدهم عنه.

ولاشك أن الإنسان عبد لما أحب، فالمتعلق بحب الشهوات، هو للهوىٰ والشهوات رقيق لها دائمًا، والمتعلق بحب المال والمتاع هو عبد لصنوف المال والمتاع، يعيش منهومًا لا يشبع، وسكران لا يفيق، تسترقه وتستعبده مطامعه المسعورة المتكررة، كما قال الشاعر:

أطعتُ مَطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعتُ لكنتُ حرًّا

وأصحاب هذا القسم من الرق المعنوي قد شابَهوا الكفار الذين وصفهم اللَّه بقوله: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد]؛ لأنهم لا هدف لهم سوىٰ المادة والشهوات، يتكاثرون ويتفاخرون في الحياة الدنيا، همهم نيل المزيد من العمارات والنقود، وارتفاع الغلَّة وطيب المأكل، وأناقة اللباس والأثاث، وتربية الأولاد حسبما يهوون، لا حسبما أمر اللَّه تعالىٰ، فإن فُرض أن الرجل من المصلين فأولاده لا يصلون؛ لأنه لم يصنعهم علىٰ عين إسلامية تطبعهم طبعةً روحيةً، بل وكلهم إلىٰ التربية الماسونية الحديثة، يصنعهم أرباب علىٰ عينهم بطبعة مادية، وإذا ناقشه أحد في ذلك قال: «إني أريد تأمين مستقبل عيالي، هكذا يتطلب العصر، أتريدني أن أتركهم جهلة؟»، إلىٰ غير هذا من التعليلات المادية التي تؤدي بصاحبها إلىٰ الشرك ـ والعياذ باللَّه ـ؛ لأن هذا منطق فاقد التوكل والاعتماد علىٰ اللَّه ولو نظر في حالته وتساءل في نفسه عمن عمل علىٰ تأمين مستقبله، لعرف أن تأمين المستقبل ليس بما رسمته الماسونية اليهودية من العلم المادي المنحرف، الذي جعلته لا يلتقي مع العلم الذي جاءت به رسل اللَّه.

وحياته في هذه الحالة وجميع مجهوداته ليست لدينه وعقيدته، بل لشهواته وأنانيته، ثم حياة أولاده أتعس، فليس في حياتهم نفع لدينهم وعقيدتهم ولا نفع له ـ أيضًا ـ، وإنما حياة الجميع لخدمة الجسم والطين، لا لخدمة الروح والدين، وثمرة عاقبة هذه الحالة وهذه التربية تكون لصالح اليهودية العالمية عاجلًا أو آجلًا، للابتعاد عن الحياة الطيبة الربانية التي فرضها علىٰ أتباع رسله المتمثلة في هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وقد وصف وحي اللَّه ما يترتب علىٰ الدين من الضرر البالغ بسبب حرص المرء علىٰ المال والشرف بقوله ﷺ: «**ما ذِئبانِ جائعانِ أُرسلا ـ أو أُدخِلا ـ في زريبةِ غنم بأفسدَ لها مِن حرص المرءِ علىٰ المالِ والشرفِ**

لدينه»[١].

فانظر إلىٰ هذا التصوير البديع والتمثيل الرائع؛ لتعلم أني مقتصد غير مبالغ فيما أقوله؛ إذا لاحظت ما يعمله الذئبان الجائعان الظافران بزريبة غنم من الفتك والإفساد، حيث إنهما لا يقتصران علىٰ إهلاك العدد الذي يشبعهما ويكفي نَهمتهما، بل يتعدىٰ إفسادهما بهذه الزريبة إلىٰ الفتك بجميع الغنم وإهلاكها، فإذا لاحظت هذا فلاحظ الحكم الصادر من النبي ﷺ ـ الذي لا ينطق عن الهوىٰ ـ بأن حرص المرء علىٰ المال والشرف أفسد لدينه مما يفسده الذئبان الجائعان في زربية الغنم، خصوصًا إذا ضممت إلىٰ هذا القسم الرابع من ذوي الرق المعنوي؛ وهم الذين غايتهم طلب شرف الحكم والرئاسة بشتىٰ الوسائل والأساليب، دون مبالاة بما يدفعونه ثمنًا لذلك من بيع الدين وهدم الضمير، وما يدفعه غيرهم ثمنًا لاستعلائهم، ونيل مطالبهم وأغراضهم، فإن هذا النوع من الناس يكلفون الأمم والشعوب أبْهظ الأثمان، من القتل والفتك والغرامات والحبس والتنكيل، ويجعلونهم شيعًا متناحرةً في سبيل نصرة الأشخاص أو مبادئهم ومذاهبهم، كما جرىٰ ويجري في كل زمان ومكان ممن ابتُلوا بالسكر المعنوي والرق المعنوي، ولا سيما في هذا الزمان الذي تفاقمت فيه شرورهم، وادلهمت ظلمات دجلهم وتضليلهم، فإن أهل هذا القسم الرابع من ذوي الرق المعنوي أشد الناس عبوديةً لأغراضهم النفسية وأنانيتهم البشعة، لا يعرفون دينًا ولاخلقًا، بل يأبىٰ عليهم رقهم المعنوي من الارعواء إلىٰ الرشد، فلا ينتقلون من شر إلا إلىٰ شر منه؛ لأن أغراضهم النفسية التي استرقتهم أفقدتهم رشدهم، وأعمت بصيرتَهم، وجعلتهم يتباهون بالتبعية لكتلة في سبيل عداوة كتلة أخرىٰ، أو في سبيل التمذهب بمذهب ضد مذهب، فيضعون بأنفسهم الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أرجلهم، بل تحملهم

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٣/٤٥٦)، والترمذي (٢٣٧٦).

العبودية المعنوية علىٰ تقديس أخبث الكفرة من الملاحدة الأموات، فيركعون عند قبورهم، ويضعون عليها أكاليل الزهور، مما لا يبقىٰ معه إيمان ولا إسلام.

ولولا هذا الرق المعنوي المعمِّي للبصيرة لما استساغ أحد مثل هذا التقديس حتىٰ الكافر، فكيف بالمسلم أو من يدعي الإسلام؟!!.

ولكن الماسونية اليهودية بثقافتها الوثنية وأفكارها المادية، قد أركستهم في ذلك الرق المعنوي لتجعل حياتهم لصالحها، ومجهوداتهم في سبيلها، لا في سبيل اللَّـه؛ لأن جهودهم للطمع وكسب المنصب والجاه، فينتج الفرقة والشقاق بدل الوحدة والاتفاق، وينتج زيادة التبعية والعبودية لأفراخ اليهود وتلاميذهم، فمهما خدعوا أنفسهم أو خادعوا غيرهم بدعوىٰ محاربة اليهود، فإن جهودهم تنعكس لصالح اليهود، كما انعكست نياتهم عن قصد الإخلاص لوجه اللَّـه والجهاد لإعلاء كلمته، ولذا ترىٰ رقهم المعنوي قد جعلهم يصرون علىٰ محاربة الصهيونية فقط، ومقاومة الاستعمار أو الاستغلال فقط، لا محاربة اليهود وغيرهم من سائر الكفرة، تحقيقًا للبراء الذي يطلبه اللَّـه منهم، بل يعلنون أُخوَّتهم لليهود كأخوتهم لكل كافر وملحد باسم القومية والوطنية تارةً، وباسم الإنسانية تارةً، وينادون بالسلام كإعلان منهم لاطراح رسالة اللَّـه ورفض الاستجابة له؛ لأن الرق المعنوي سيَّرهم للاستجابة إلىٰ غيره من سائر أعدائه؛ عياذًا باللَّـه من سوء الحال والاستقبال.

ولا منقذ لهم ولا محرر لنفوسهم من هذا الرق المعنوي إلا الفرار إلىٰ اللَّـه بتحقيق عبادته كاملةً في جميع شؤون حياتهم، وحصر سيرهم في طريق واحد هو صراطه المستقيم، بالتزامهم لوحيه ومتابعة رسوله ﷺ، وإلَّا فسيظلون يحملون نير العبودية من سائر الأصناف؛ ليس في أعناقهم ولكن في أرواحهم، وسينقادون لجميع أصناف الرق المعنوي

بلا نخاس[١]؛ فيكونون أفظع وأحط ممن يقودهم النخاس في رقابهم أو آذانهم، لأن النخاس كامن في قلوبهم ودمائهم.

ومن عجيب أمر هذا النوع الرابع من ذوي الرق المعنوي أنهم غلاظ شداد علىٰ الأحرار المؤمنين باللَّه إيمانًا حقيقيًّا، يدينون ببغضهم وعداوتهم، ويتطوعون لحربهم والتنكيل بهم، ويصادقون من يؤذيهم، لما زرعته الثقافة الماسونية اليهودية في قلوبهم من كل ما هو معاكس لملة إبراهيم ﷺ، ولأنهم يبغضون ويعادون من لا يشاركهم في الرق والتبعية.

والمسلم المؤمن الصادق لا يرتبط ـ في جميع أحوال سيره ـ بعجلة أحد ولا تبعية أحد، لسلامته من الرق المعنوي بإخلاص مقاصده للَّه وكونه مستعينًا به فقط، فلا يخشىٰ من أي قوة، ولا يستعين بكتلة علىٰ كتلة أخرىٰ، حتىٰ لا يصغي إلىٰ ما تميله.

وأصحاب الرق المعنوي يعادون الحر الذي علىٰ هذه الشاكلة بدافع من طبيعتهم السافلة، أو بإملاء من أسيادهم الذين يركنون إليهم، ولا سبيل لتطهير قلوبهم من ذلك إلَّا بما يحرر أرواحهم من القيام بتحقيق مدلول ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فتحقيق مدلولها هو المطهر للقلوب، والمحرر للأرواح، والخاذل لأعدائها من أصناف اليهودية العالمية، وهو المصلح للمجتمعات، والموحد لها تحت راية بضاعة السماء، وفقنا اللَّه لذلك.

النجاة من مجتمع الضعف والضعفاء:

في التطبيق العملي الكامل الصحيح لمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تنجو الأفراد والمجتمعات الإسلامية من الضعف بجميع أنواعه، سواء الضعف الحسي أو الضعف النفسي المعنوي، ويربأ العابد الصحيح بنفسه أن يندمج أو ينصهر في أي مجتمع من مجتمعات

---

(١) **النخاس**: بائع الدواب. ويطلق علىٰ بائع العبيد.

الضعفاء الذين تملي عليهم الإرادة من طاغوت متسلط، أو من دجاجلة يغشونهم باسم جمهورية وهمية أو جمهورية حقيقية.

ولكن اليهود يلعبون دورهم الكبير في انتخاب من يريدونه للتمركز فيها والنيابة، كما ابتلىٰ اللَّه بهم الأمم المادية المنصرفة عن عبوديته، بل الرافضة لدينه الصحيح، فإنهم جميعًا قد وقعوا في الضعف المعنوي الذي لا تنفع معه القوة الحسية، بحيث لم يرتفعوا بكثرتهم الهائلة، ولا بمعلوماتهم الزاخرة، ولا بوعيهم المادي الخالي من الوعي الروحي عن تسلط نكرات من أولادهم، تسوقهم إلىٰ ما تريد، وتجعلهم أسوأ حالةً من الآلات المسيَّرة بأدنىٰ تحريك، حتىٰ أنهم قد فقدوا ذٰلك الإحساس بالضعف، وأخذوا يتبجحون بالقوة والوعي واليقظة، وهم في سكرتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون.

وقد حفظ لنا التاريخ أخبار أجدادنا من السلف الصالح ـ الذين حفظتهم عبادة اللَّه ووقَتهم من الضعف لغير اللَّه ـ، فاندفعوا بالقوة الروحية علىٰ عالم الضعف المعنوي المحيط بهم، والبعيد عنهم وهو عالم لا تقل قوته المادية وعدده المتكاثر عن عالم الضعفاء المحيط بنا والمتسلط علينا في هذا الزمان، إذا قيست قوة أسلافنا المادية بقوتنا المادية الحاضرة، ولكن أسلافنا بددوا ما زحفوا عليه، وفتحوا ما اندفعوا إليه بسرعة خاطفة؛ لنجاتهم من الضعف المعنوي والخواء الروحي، الذي تساوينا فيه مع أعدائنا فتفوق علينا الأعداء بالقوة المادية والتصنيع الذي يعوض لهم أكثر ما يخسرونه.

والمسلمون اليوم يشكِّلون رقمًا هائلًا في العدد بين العالم، ويملكون من ينابيع الثروة ما يقدرون به علىٰ تفجير جميع الطاقات، ولديهم من الأسلحة ما يتمكن بها المهاجم من نكاية عدوه، ولكن أدمغتهم قد عشش فيها الضعف المعنوي، لما انحشت بالأفكار المادية، والنظريات العصرية، التي فسد بها غذاء العقل، فإن العقل لا يكون صريحًا صحيحًا سالمًا من الشوائب والأمراض المعنوية حتىٰ ينحصر غذاؤه علىٰ روح

اللَّه، الذي هو القرآن الكريم والسنة، وكل من امتزج غذاء عقله بغير القرآن، حصل له من الفساد والانحرافات بحسب ما خالطه، فكيف بمن لم يخالط القرآن بشاشة قلبه والعياذ باللَّه؟

إن للأفكار والنظريات تأثيرهما الطيب أو الخبيث في سير الأعمال وحسن نتائجها أو قبحها، والكفرة الذين تغذيهم اليهودية العالمية بقيحها ودمها وصديدها يوقنون بذلك، فلأجله عمدوا إلىٰ الغزو الفكري وعملوا بوصايا أسلافهم علىٰ صد الناس عن وحي اللَّه، وإشغالهم عنه بشتىٰ ضروب اللَّهو واللغو، وإغرائهم بصنوف الغي والشهوات؛ ليقلبوا حقيقة إنسانيتهم إلىٰ البهيمية، فيتفشىٰ فيهم الضعف المعنوي الذي يسوقونهم به إلىٰ ما يريدون، أو ما تريده اليهودية العالمية، ذلك الضعف النفسي الذي لا ينفع معه أي قوة أو سلاح.

فإننا نرىٰ الذين نجحوا في أعلىٰ التدريب العسكري، ونالوا في ذلك الميدان درجاتٍ وألقابًا رفيعةً، وحازوا علىٰ أسلحة حديثة فتاكة قد جرهم الضعف المعنوي إلىٰ الخضوع لكتلة بعد ما تخلصوا من كتلة أخرىٰ، لأنهم في الأصل لم يتخلصوا من سيدهم الأول، إلا بركون للسيد الثاني، لما أشربت قلوبهم من الضعف المعنوي، الذي يجعلهم يلتفتون إلىٰ البشر، ويفتقرون إليه من دون اللَّه، وما ذلك إلا لقحط قلوبهم وإقفارها من وحي اللَّه، وكونها تَهيم في الخواء الروحي الذي تريده لها اليهودية العالمية أخذًا بوصية أسلافهم القائلين: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]، الغوا فيه، أي: اشغلوا الناس عنه بشتىٰ أصناف اللَّهو والمغريات من سائر أنواع المجون والترفيه البرئ وغير البرئ، فإنهم يعلمون أنهم لا يغلبون المسلمين ولا يسيطرون علىٰ أدمغة أولادهم حتىٰ يصرفوهم عن وحي اللَّه إلىٰ غيره من وحي الشياطين وأصواتِهم؛ لأن من تشرَّب قلبه بالقرآن وانحشىٰ صدره به، وخالط دمه في عروقه؛ صار فيه ميزتان من بين البشر:

إحداهما: أنه محفوظ بنور اللَّه؛ فهو في حصانة عقلية عن تقبل الأفكار والمذاهب المادية؛ لحمله بضاعة السماء، واكتفائه بها - بل استغنائه بها -؛ فليس في قلبه متسع لغزو شياطين الإنس ببضائعهم الفكرية الأرضية، ولا يستطيعون إغراءه علىٰ الانزلاق في حظيرتهم.

وثانيتهما: أنه يكتسب قوةً معنويةً لا تعرف ضعفًا ولا لينًا ولا خورًا، ولا تكترث بالشدائد والصعاب، ولا يقف بالنكسة أو النكبة مستهولًا وقوعها أو ممعنًا في ذكراها، بل يضرب الذكر عنها صفحًا كيلا تحز في صدره، وتورثه حسرةً، شأن الضعفاء الماديين، فهو لا يكبو إلا لينهض، ولا ينهض إلا ليثب في المقاومة، ولا يثبت إلا ليجاهد محتسبًا في نصرة دين اللَّه وإعلاء كلمته، ولا يتقهقر إلا لأجل تقدم ينحرف إليه، أو لإسناد فئة ينحاز إليها كما أوجب اللَّه عليه[1].

فانحشاء صدره بوحي اللَّه وتحقيق جوارحه وأحاسيسه لعبوديته، يجعله جمرةً حمراءَ وشعلةً تَلَظَّىٰ، لا تزيده الأحداث إلا قوة ونشدانًا للتفوق والاستعلاء، فلا يتأخر خطوةً واحدةً إلا ليقفز خطواتٍ بعيدةَ المدىٰ، هكذا يكسبه القيام الحقيقي بمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ويجعله قويًا باللَّه غنيًا به عما سواه، لا يبتغي العزة من غيره، ولا يخيفه شيء أبدًا، سوىٰ ذنوبه التي يداويها دائمًا بالتوبة والاستغفار، مراقبًا اللَّه ﷻ في حركاته وسكناته.

وهو بهذا ينال مدد اللَّه ونصره، فيُحصِّنُ اللَّهُ جَوَّه وأرضه، وينصره بالرعب مسيرة شهر، ويُمده بالريح وبالملائكة، وبما لا يحيط به غير اللَّه من شل حركة أعدائه ومصنوعاتهم، أو إفساد مفعولها وتأثيرها، كما أفسد مفعول النار المحرقة علىٰ إبراهيم، وكما أيد اللَّه بنصره لأنبيائه وأوليائه المحققين لعبادته ممن قبل إبراهيم وممن بعده، حتىٰ

---

(١) كما في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال].

جاء دور أسلافنا الذين قاموا بعبادته وحمل رسالته، فأنجاهم من جميع أنواع الضعف والوهن، وأكسبهم قوةً معنويةً جعلت قوادهم يتبادرون إلىٰ مقدمة الجيش ليكونوا له أسوةً صالحةً، ويعلموه الفداء والتضحية في سبيل اللَّه، ويتسابقون معه للاستشهاد حبًّا للقاء اللَّه وشوقًا إلىٰ جناته من جهة، وثقةً بوعده للنصر من جهة أخرىٰ، بحيث علمهم قرآنهم أن يقولوا لعدوهم: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة].

وصارت أفرادهم تعمل عمل القواد؛ بحيث لا يكترثون بمقتل قائدهم ولا بمرضه، لانطباعهم بهذه العقيدة، وحملهم لهذا الشعار، وعدم إيثارهم الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، مما يجرهم إلىٰ الالتفات لأغراضهم النفسية والاستعانة ببعض أعدائهم، كشأن خلوف المسلمين الذين نسوا حظًّا مما ذكروا به، وكشأن المحسوبين علىٰ المسلمين ممن أبرزتهم المخططات الماسونية والاستعمارية لاحتلال الصدارة في ميدان الحكم والتسلط.

وكشأن القوميين وحملة الشعارات المادية الإلحادية؛ التي جرت إليها القومية من كل من لا يراقب اللَّه، ولا يعتمد علىٰ قوته الغيبية، بل يقصر نظره علىٰ المحسوس، فيجره ذلك إلىٰ تبديل ملة إبراهيم بمحبة ما يبغض اللَّه وموالاة أعداء اللَّه، حتىٰ علىٰ حساب المسلمين، كما هو المشاهد الملموس في عالمنا الحاضر من هؤلاء؛ كيف ابتلاهم اللَّه بالضعف المعنوي؟! ودلت التجارب والأحداث علىٰ تبعيتهم لكتلة شرقية أو غربية، واستحيائهم ما تمليه من إقدام علىٰ شيء أو إحجام عنه؛ بحيث لم يجرؤوا علىٰ مبادرة بني إسرائيل بالقتال استجابةً لإملاء المرتبطين به من الشيوعية أو غيرها؛ حتىٰ ظفر عدوهم بزمام المبادرة وغلبهم، ويستُرون ضعفهم المعنوي، ويعللون هزيمتهم ويسوغونها بعدم التغطية الجوية، كما يزعمون!!!.

ولو أمهلناهم طوال العمر للاستعداد بالتغطية الجوية، لما تفوقوا بها علىٰ اليهود؛ لأن اليهود ـ لعنهم اللّٰه ـ يحصلون علىٰ أضعاف ما يحصلون عليه منها ومن غيرها، واليهود ـ وإن كانوا متساوين معهم في الضعف المعنوي الذي كتبه اللّٰه عليهم وعلىٰ كل من تشبه بهم، أو اقتبس من أفكارهم ونظرياتِهم ـ، إلَّا أن اليهود يحصلون علىٰ حبل من الناس ـ أي: سبب وقوة ـ ينتصرون بها، وهؤلاء يلعب عليهم الناس المسيَّرون من اليهود؛ فلا يحصلون منهم علىٰ سبب كاف، قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقد انقطع عنهم حبل اللّٰه لكفرهم؛ فعمدوا إلىٰ حبل من الناس يستنصرون به، وقومنا لا ينجيهم من هذه الورطة إلَّا العمل علىٰ تحصيل حبل اللّٰه الذي لا غالب له؛ وذلك بتحقيق عبادته في غاية الصدق والإخلاص ـ كما قدمناه في أوائل الوجوه السابقة ـ؛ فإن الصدق مع اللّٰه، والإخلاص له، يحصل حسن العبادة والولاية للّٰهِ، فيتحول الضعف المعنوي إلىٰ قوة معنوية لا تقهر، ولا يشوبها الوهن ـ بإذن اللّٰه تعالىٰ ـ، والشواهد علىٰ هذا كثيرة ـ بحمد اللّٰه ـ من أقدم العصور إلىٰ أحدثها، فرسول اللّٰه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ تحدىٰ قومه أجمعين، وهو فرد واحد، وقال لهم ـ كما قص اللّٰه عنه في الآية (٧١) من سورة يونس ـ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس]، فتحداهم جميعًا وشركاءَهم المألوهين لهم من دون اللّٰه، ثم طلب منهم أن يبادروا ولا يمهلوه، فيا لها من قوة صارمة جبارة فوق مستويات العقول!!.

ثم جاء بعده رسول اللّٰه هود، فأعاد نفس القضية، وتحدىٰ قومه أجمعين ـ وهو فرد ـ قائلًا لهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود]، كما في الآيات (٥٤، ٥٥، ٥٦) من سورة «هود»، ثم إبراهيم مُكسِّر الأصنام، والصابر الفادي بنفسه، ثقةً بوعد اللَّه، حتىٰ جعل اللَّه النار العظيمة المتأججة بردًا وسلامًا، ثم موسىٰ الذي هرب من فرعون خائفًا يترقب، لما كان متربيًا في نعمته ودلاله رجع لما صنعه اللَّه علىٰ عينه في مدين إلىٰ فرعون صابرًا متوكلًا متحديًا له بقوله: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء]، خاطبه بهذا المنطق البشع، لما أكسبه اللَّه من القوة المعنوية، وهكذا إلىٰ دور سيدنا محمد ﷺ القائل لعمه: «**لو وَضعُوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي**»[1]، ودور خلفائه والصادقين من أمته، كيف اكتسبوا القوة المعنوية التي لا تعرف الوهن والكلل أمام قوىٰ الشر المتكالبة المتكاثرة؟

ولا يزال اللَّه يرينا تأييده للصادقين في عبادته، ويرينا عكس ذلك فيمن ينتسب إلىٰ الإسلام، وهو ممزق للقرآن تمزيقًا معنويًّا، بعزله عن التشريع وإقصائه عن الحكم، كيف لعبت عليهم شرذمة اليهود مع كثرة عددهم وقوة عدوهم، لما حل بهم من الضعف المعنوي الذي لا يزول إلا بالرجوع إلىٰ اللَّه!!.

هذا وقد ذكرت الحبلين من قريب: ﴿ بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، لئلا يقول قائل: كيف انتصر اليهود وهم أكفر من غيرهم؟ مع أن هذا السؤال فيه من المغالطة ما فيه، فعلىٰ المسلمين أن ينطبعوا بعبادة اللَّه، ويتكيفوا بوحيه، ويحققوا عبادته، ليعودوا إلىٰ القوة المعنوية، ويسلموا من الضعف المعنوي، وأن ينخلعوا هم والعرب من هذه الجاهلية الجديدة التي جددتها الأفكار اليهودية، وروجها الاستعمار الشرقي والغربي؛ ليحصلوا علىٰ الاستقلال العقلي والحياة الروحية الطيبة، التي لا يغلبهم معها غالب بإذن اللَّه، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ [يوسف: ٢١].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/١٠١).

✍ حينما يتم الصفاء لجوهر الدين:

تعليم اللَّه لنا بتكرار الضراعة إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يكشف لنا عن فضيحة غش يعلمه اللَّه، فأولًا: إن شياطين الإنس من اليهود يوحون به إلىٰ أوليائهم من الملاحدة والشيوعيين ونحوهم، يقصدون به تحريف الدين، وقلب حقائقه ومعانيه باسم «تجلية جوهره»، أو يزعم أنه «ثورات»، أو تسمية جوهر رسالته بـ«الإقناع الحر» الذي يقصدون به تفشي الإلحاد، وإبعاد سيطرة الدين عن النفوس، كما تنص مواثيقهم الوطنية بشأن الدين، تلك المواثيق المطبوخة طبخةً يهوديةً، والتي من أجلها شط ملاحدة الكُتَّاب في تفسير الدين تفسيرًا طبقيًّا وثوريًّا، وإخضاع نصوصه وتشريعاته للفكر الماركسي اليهودي، بل جعل تاريخ أمته يدور عليه.

إن كل ما جرىٰ مما يعلم اللَّه وقوعه، قد كفانا إياه بكل وضوح، في هذه الآية الكريمة، فهي توضح لنا:

أولًا: أن الدين كله عبادة خالصة للَّه، واستعانة به فقط.

وثانيًا: أن العبادة لا تكون عبادةً بمعناها الصحيح، حتىٰ تكون ناشئةً عن حب صحيح، وإخلاص صادق، وتعظيم كامل للَّه تعالىٰ ورسوله ﷺ، وذلك يستلزم معاملة اللَّه ورسوله ﷺ معاملة المحب لحبيبه، مِن كامل النصح والصدق والإشفاق، وبذل النفس والنفيس في سبيل مرضاته.

وثالثًا: حصر التلقي لجميع أنواع العبادة والسلوك من وحيه تعالىٰ ـ كتابًا وسنةً ـ، والتكيف بهما دون تكييفهما وإخضاع نصوصهما للأهواء، بل بإدراك معانيهما بحسن التصور المستمد من ذاتهما، لا من مصدر آخر، أو من مقولات يفتعلها بنفسه، أو يقلد بها غيره فيجعلها ميزانًا لما أنزل اللَّه، كشأن المنطقيين أو المعاصرين اللاحقين، ممن يستمدون تأويل وحي اللَّه وتحريفه من مقررات سابقة أو لاحقة؛ لأن هذا عين

الضلال، والمشاقة للَّه ورسوله، والتقديم بين يديهما، عياذًا باللَّه من ذلك.

ورابعًا: أن عبادة اللَّه لا تكمل إلا بكمال طاعته، واجتناب نواهيه، والتزام حُكمه، وحفظ حدوده، في جميع شؤون الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، دون أن يجعل الإنسان لنفسه الخيرة في أي شيء كان، بل يكون مرتبطًا بشريعة اللَّه نصًّا ومعنىٰ؛ لأن من جعل لنفسه الخيار فيما يهواه، كان خارجًا من عبادة اللَّه إلىٰ عبادة الهوىٰ والشيطان، وأعظم جرمًا منه من جنىٰ علىٰ النصوص بتأويلها وفق ما يشتهيه أو وفق رغبة من يقلده؛ لأنه متبع لليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، فجريمته تتضاعف لجمعه بين اتباع الهوىٰ وتحريف النصوص بسببه، وما أكثر أهل هذا النوع ممن غشهم اليهود طيلة القرون إلىٰ يومنا هذا، وإلىٰ يوم القيامة، بشتىٰ المذاهب والأحابيل!!.

وخامسًا: أن هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ـ التي يكرر المسلم المؤمن ضراعته بها للَّه، ويجدد عهده بها معه ـ، آية تفسر كينونته في الأرض، حسب إرادة اللَّه الأزلية السرمدية، وعلمه المحيط الأبدي وحكمته الشاملة لجميع تطورات العصور واختلاف البيئات، فالإنسان مخلوق ـ بطبيعته الحادثة الناقصة، وإدراكه الضيق الذي مهما توسع فإنه محدود قطعًا بحسب طبيعته أولًا، ثم هو محدود بوظيفته لرب العالمين ثانيًا، وظيفة الخلافة في الأرض ـ لتحقيق جميع معاني العبادة التي تقتضيها هذه الآية نصًّا ومعنىٰ، من التزام حكم اللَّه بلا نقص ولا زيادة، وقصر النظر في معنىٰ وحيه عليه، وانحصار التلقي منه وحده، أي مما أنزل علىٰ محمد ﷺ فقط ـ دون غيره من الأنبياء ـ، فضلًا عن أقوال غيرهم من الملاحدة والدجاجلة أفراخ اليهود.

فهذه الآية الكريمة تقرر له العقيدة الربانية، التي تربطه مع اللَّه بتوجيه الربوبية والألوهية، وتفسر له ما حوله، كما تفسر له مكانه،

وتضبط وظيفته بضوابط لا تتغير ولا تتأثر بملابسات العصر والبيئة، لأنها من وضع علام الغيوب العليم الحكيم بمصالح عباده علىٰ الدوام، وهي واضحة في غاية الصفاء لا يعتريها ما يحتاج إلىٰ تجلية، كما يزعمه المبطلون المغرضون، الذين لا يرضون من موظفيهم تعطيل قوانينهم أو تحريفها بحجة تجلية جوهرها، ونحو ذلك مما جعلوا لأنفسهم منزلةً أعلىٰ من اللَّه ورسوله.

وسادسًا: أنها توجب علىٰ المسلم المؤمن صدق البيعة مع اللَّه بالنفس والمال، بدون توقف ولا تخلف، لتكون كلمة اللَّه هي العليا، وحكمه النافذ المقام في كل أرض يحلها المسلمون بحيث لا يحكم فيها بغير شريعة اللَّه، ولا يفتن فيها أحد عن دينه بدعوة إلىٰ غيره من أي ملة، أو نحلة، أو نظرية، أو مذهب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وهذه البيعة مع اللَّه، ليس فيها للمسلم المؤمن تخلف ولا خيار؛ لأن اللَّه لم يقل بصيغة المضارع: إن اللَّه يشتري، ولكنه بصيغة الماضي القاطعة لكل خيار المبطلة لكل تعليل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، فالمتخلف عن بيعة اللَّه ناقض عهده الذي يجدده مع اللَّه في كل ركعة بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لم يصدق مع اللَّه في عبادته بطاعة أوامره، ولم يصدق اللَّه في كفايته ونصره له، فيحقق الاستعانة به في صدق الجهاد في سبيله، والاستخفاف بما عداه، بل ينصبغ بقوة أعدائه وإخافته بهارجهم(١) وتهويلاتهم، ولم يوقن تمامًا بأن اللَّه كافٍ عبده وناصره ومنجيه، وأنه لن يجعل للكافرين علىٰ المؤمنين سبيلًا، وأنه مولانا، ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال]، وأنه ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ [الأنفال].

---

(١) **البهارج**: التضليلات والتلبيسات.

بل ضعفت عقيدته وخارت قواه الإيمانية، وانهزم هزيمةً عقليةً جعلته يستمد العون من أعداء اللَّه وأعدائه، أو يتوقف عن قتال الجميع، تعللًا بضعفه، أو عدم إنجاد قومه، أو عدم حصوله علىٰ التغطية الجوية المادية؛ ناسيًا حصانة السماء لمن تدرع بالقوة الروحية، ومعللًا خيانته للَّه، بانتظار وحدة قومه، أو تحصيل قوة مادية، ناسيًا أنه مهما حصل عليها، فأعداؤه يحصلون علىٰ أضعافها، فلا تجديه مادياته مع تضاعف ماديات عدوه، إذا لم يقترن مع قوته المادية قوة روحية، كما يطلب اللَّه منه.

وسابعًا: أن هذه الآية الكريمة توجب علىٰ المسلم المؤمن أن يكفر بما يناقضها من الأوضاع البشرية كافةً، فيكفر بجميع أنواع الطاغوت، من سائر المسميات الشخصية والمذهبية، يبغض كل معبود من دون اللَّه، ويكفر به، ويبغض كل مشرع من دون اللَّه، ويكفر به، ويبغض كل مذهب أو مبدأ أو نظرية مخالفة لدين اللَّه تقتضي تحكيم غيره، أو العمل لغيره، من قومية، أو وطنية، أو أي مذهب مادي نبشته اليهودية العالمية من مزابلها الفكرية، كالشيوعية وفروعها المزعومة بالاشتراكية، فيعادي جميع ذلك ويحاربه بلا هوادة، ليحقق مدلول هذه الآية، ويكون مخلصًا للَّه، صادقًا معه لا يلتقي مع أعدائه في أي عقيدة أو فكرة أو خلق أو سلوك، ليحصل علىٰ قيمة حياته، ويجني ثمرة جهاده وبذله.

أما من ساير الركب المادي الذي تحركه اليهودية العالمية وتسيره، فإنه بعيد عن عبادة اللَّه، شارد عن نصره ومدده، حارم نفسه من الحرية التي وهبه اللَّه إياها، ورابط لها بحبال الرق المختلفة الأسماء والألوان، حسب المعسكرات الشرقية والغربية، فما أبعده من الوفاء مع اللَّه!! وما أحرمه من نيل التقدم الصحيح، والعز الصحيح، والحرية الصحيحة، والحياة الطيبة الفاضلة!! بل هو أضل ممن يسير مع السراب.

وثامنًا: أن هذه الآية الكريمة التي ضمنها اللَّه جميع معاني وحيه،

ومعاني الحكمة، التي خلق بني الإنسان من أجلها، جميع مدلولاتها صافية صفاء لا يشوبه أي غموض ولا اشتباه، ولا يعتريه أي صدأ أو غبار، فلا يحتاج أهل هذه الآية إلىٰ زعنفة ملحد تبرزه اليهودية العالمية بمذاهبها وأفكارها، وأحابيل مكرها، فيزعم أن الدين يحتاج إلىٰ تجلية جوهره، بل إن الدين الصحيح المستمد من مدلول هذه الآية واضح كل الوضوح، صافٍ كل الصفاء لا يعوزه إلَّا من يحمله بصدق وإخلاص، وقوةٍ ومبالغة في التضحية الواجبة للَّه تعالىٰ؛ بخلاف الأديان المزعومة الأخرىٰ من يهودية ونصرانية ومجوسية وغيرها، فإنها مجرد افتراء علىٰ اللَّه، وأغلبها من مكر اليهود وغشهم، ومع ذلك فمهما حاولوا تجليتها، فإنهم كمن يغسل الدم بالدم؛ لأنهم يعالجون الباطل اليهودي بباطل يهودي جديد.

أما الدين الإسلامي، فلو لم يكن فيه إلَّا هذه الآية، لكفت أهلها بوضوح معانيها، وصفاء جوهرها، اللغوي والمعنوي، بحيث لا تحتاج إلىٰ تأويل خارج عن وحي اللَّه، بل يكون ذلك التأويل تحريفًا يهوديًّا، وجنايةً إلحاديةً، تكون جريمة صاحبها أعظم من جريمة الزاني والسارق والقاتل، لأن الفتنة: فتنة الناس عن دين اللَّه الحق ﴿أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، و﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فما أجلىٰ هداية اللَّه وأبلغها لنا بهذه الآية الكريمة، التي يجب علينا أن تكون غاية هدفنا، ومنتهىٰ أملنا، ومبلغ علمنا، ومنتهىٰ قصدنا، وأن نحصر جهودنا في تحقيق معانيها، ونبذل النفس والنفيس لحمايتها من كل محرف دسَّاس، وأن يعتبر كل واحد منا نفسه أنه علىٰ ثغر من ثغور الإسلام، فيعمل جاهدًا ويقف ليثًا صائلًا، حتىٰ لا يؤتىٰ الإسلام من قبله، ومن كان مع اللَّه كان اللَّه معه.

وكيف يحتاج الدين الإسلامي إلىٰ تجلية جوهره، كما يريده ملاحدة اليهود والشيوعيين وتلاميذهم، وآية واحدة من كتاب اللَّه وهي هذه ـ جمع فيها ما هو موجه إلىٰ الظاهر والباطن:

الظاهر: قول اللسان اعترافًا وضراعةً.

والباطن: تحقق القلب بجميع مقتضياتها ولوازمها.

وجمع فيها بين الخضوع والانقياد باطنًا وظاهرًا، والصدق والإخلاص التام للَّه بجميع حقوق الدين في كافة شؤون الحياة وملابساتها.

فهذه الآية تملأ قلوب العازمين الصادقين أمنًا وإيمانًا ويقينًا وهدايةً وتعبدًا للَّه وتألهًا له، طبقا لأوامره، ووفق ما يحبه، كما تملأ القلوب إنابةً إليه، ومراقبةً له في كل الأحوال، ولجوءً إليه في كل النوازل والمهمات، وتحشوها وجلًا من ذكره، وطمأنينةً بمعرفته، وتوجب للعبد قوة التوكل، وتمام الاعتماد علىٰ اللَّه، والاستعانة به، في مزاولة جميع الأعمال: الدينية والدنيوية.

وكلما ضعفت إرادته، أو وهنت قوته في محاولة أي مهمة، أمدته هذه الآية بقوة قلبية، تجعله يستهين بالمصاعب، ويستخف بما أمامه من القوىٰ المادية الشريرة، وكلما أحاطت به المخاوف، كان إيقانه بهذه الآية حصنًا حصينًا يلجأ إليه، فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه، لقوة إيمانه بأن اللَّه ناصر المؤمنين ومنجيهم؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد]، كما مدح اللَّه أسلافنا، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران]، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

وكلما انطبع المؤمن بهذه الآية، وتكيف بها، فقصر منهله علىٰ وحي اللَّه، واتجاهه إلىٰ اللَّه؛ اكتسب العزة والقوة والشجاعة القولية والفعلية؛ لقوة يقينه أن اللَّه هو: النافع، الضار، المعطي، المانع، وأن من اعتز به فهو العزيز، ومن اعتز بغيره فهو الذليل، فلا يرجو غيره، ولا يخاف سواه، وبذلك يتم له التحرر من رق المخلوقين، ويشمخ برأسه عن الخضوع لأعلىٰ قوة أرضية، أو الخوف منها أو التعلق بها،

عكس الذين يزعمون التحرر، وهم قد انتقلوا من رق إلىٰ رق، وارتبطوا بعجلة بدل عجلة، أو صاروا تبعًا لمعسكر بدل من معسكر آخر، بل يكون مرتبطًا باللَّه، متعلقًا به وحده، فيتم له من كفاية اللَّه، وتيسير أموره في جميع الشؤون، ونصره في جميع الملمات، ما لا يتم لغيره، ممن يسير علىٰ غير هذه الآية.

كما أن من ثمرات هذه الآية، تسلية أهلها عند المصائب، وتَهوين الشدائد عليهم، وكونهم لا ينتابهم جزع ولا هلع؛ لأنهم منطبعون دائمًا بوحي اللَّه، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، إلىٰ غير ذلك مما يسلي القلوب ويقويها، ويجعلها تستهين بالمصائب، ولا تبالي بالنوائب، بل تفتش عن ذنوبها التي هي السبب في حصولها، لتعالج الشيء من جذوره، فلا تثبت القلوب عند المزعجات، وتطمئن عند المكروهات، إلا بقوة الإيمان، ولا تقنع وتسلم من شرور الأنانية إلا بعدته، ولا تصدق معاملة العبد مع الخالق والمخلوق إلا بسببه، ولا يعصمه من انحلال الأخلاق المفضية إلىٰ الهلاك إلا هو.

المَنطق الشيوعي في تفسير «المادة»:

هذا التعليم من اللَّه لعباده بتكرار الضراعة بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيقاف لهم عند حدهم عن الشرود بفكرهم إلىٰ فلسفات مبتكرة متعجرفة، تطلُب الوقوف علىٰ حقائق الوجود جميعًا، والتعرف علىٰ كنه الخالق، ومعرفة قوانين الخلق جميعها، وتعليل كل منها بعلل مادية وطبيعية ونحوها، مما يسميه الماديون: حتمية التاريخ، إما غلطًا وإما زورًا ومكرًا شنيعًا، فاللَّه أراح عباده بإيقافهم عند حدهم،

وإقرارهم بالعجز، والاعتراف بعدم قدرتهم علىٰ النفوذ إلىٰ أسرار الوجود، وتفسير الكون، لئلا يقعوا في سفسطة المنكرين للحقائق، ويشردوا في متاثه الإلحاد، كما شرد كثير من الفلاسفة قديمًا، والشيوعيين وأتباعهم أخيرًا.

ومن رزقه اللَّه العقل السليم، عرف عجزه عن معرفة كنه نفسه، فلا يطمع في معرفة ما هو أكبر منها وأعم وأشمل، بل يجزم بكل يقين أنه لم يعرف من الحياة إلَّا قشورها دون اللباب، ويرىٰ وجوب الاعتراف بالعجز والتقصير، فيقف حيث أوقفه اللَّه، ويحصر تفكيره علىٰ خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وأن اللَّه لم يخلقهما باطلًا، بل خلقهما بالحق وأجل مسمىٰ، ويعتبر بآجال من يراه من البشر، ويتفكر في آثار الماضين، وكيف كانت عاقبتهم، وهم أشد قوةً وعمارةً للأرض من الآخرين، ويتفكر في أسرار النبات الذي يُسقىٰ بماء واحد، وتمده تربة واحدة، كيف يفضل اللَّه بعضه علىٰ بعض في الأكل، وغير ذلك مما يغرس في قلبه تعظيم اللَّه وإجلاله، وتقديسه وإكباره.

وينظر في ترادف نعمه وتسخيره له كل شيء، فتنفرد محبة اللَّه في قلبه وتزداد، فيكون مشغوفا بحبه، منشغلًا بذكره، قائمًا بأمره منفذًا لشريعته، محترمًا لحدوده، فإن سلطان الدين هو محراب القيم الإنسانية الخيرة المرتبطة بالوجود، يدعوه إلىٰ التأمل والتفكر في مخلوقات اللَّه ونعمه السابغة، فيريح الفكر، ويدخل الطمأنينة علىٰ النفوس العابدة للَّهِ.

وأما عُبَّاد المادة وأتباع شياطين الجن والإنس، فإنهم يلغون ذواتِهم؛ لأنهم لما نسوا اللَّه؛ أنساهم اللَّه أنفسهم، فأخرجوها من رحمة اللَّه إلىٰ عبودية من يخنق مؤهلاتهم الفكرية والعملية، ويسلب حريتهم، ويجعلهم كالآلات المدارة، أرقاء لطواغيت النزوات، وعبيدًا لأحط النزعات والشهوات، فكأنما هم مقادون إلىٰ حتفهم، مساقون

إلىٰ مصارعهم بتأثير العوامل الاقتصادية.

ولما أسلموا وجوههم لغير اللّـه، مسخت المادة منهم أقدس الجوانب الإنسانية التي هي الجانب الروحي، ولم يبق منهم سوىٰ آثار الصلصال الفخار، وصاروا يسيرون وراء السراب والأفق الماركسي المضحك، الذي جعله الشيوعيون كقواعد لجدلهم الإلحادي مما أسموه: «قانون الترابط والتفاعل الشامل»، «وقانون التحول والنمو المستمر»، «وقانون التحول النوعي»، «وقانون نضال الأضداد، المعتبر كدافع لكل تحول»؛ مما يريدون به قصر الإيمان علىٰ السببية دون المسبب، ودون الاعتراف بما يؤول إليه هذا الترابط من الحقيقة الحتمية الشاهدة بوجود الخالق، باعث الحياة، والمسيِّر الأول لكل شيء، وإنما يريدون من الترابط والتفاعل مجرد الاعتقاد بوحدة العالم، معارضةً لفكرة الخلق، وفضل الخالق واجب الوجود، وخالق الموت والحياة.

والعلم الصحيح يسلِّم ـ حتمًا ـ بأن الكون فيه من الاستقلال الذاتي ما قد يكون معه مرتبطًا أو ليس مرتبطًا بغيره، بحسب طبيعة الوجود والمكان والزمان، ومن يعرف الشيء البسيط عن الإنسان، يراه بداهةً أنه مخلوق مستقل فكريًّا، وعاطفيًّا، وعقليًّا، وإن انعكس عليه أثر الوسط الخارجي، قال بعض الخبراء: وإن تشريح الجملة الدماغية للإنسان، يوقفنا علىٰ خصائص كل جزء، بل كل خلية من خلايا الدماغ، فهناك منطقة الذاكرة، ومنطقة الرؤية، ومنطقة الذكاء، وبالرغم من وجودها ككل، فكل مركز من مراكز الدماغ يشرف علىٰ عمل ذاتي يؤديه مستقلًّا، وإن أي تخريب يحدث في مركز من المراكز، فسيؤدي إلىٰ فقدان الوظيفة القائم عليها، دون أن يسبب أي خلل في باقي المراكز!

هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ، فإن استقلال التفكير والشخصية الفردية، ترينا أن من المستحيل أن نجد مخلوقين يفكران بطريقة واحدة، ويتصرفان بأسلوب واحد، ويصلان إلىٰ هدف بعينه، دون اختلاف ضمني

ذاتي، وستبقىٰ فكرة الترابط والتفاعل ـ بالطريقة المعطاة من قبل الفلسفة الماركسية ـ أعجز من أن تحقق الهدف الذي أريد لها.

وهٰكذا نجد فكرة الاستقلالية الموجودة في حقائق كل جوهر وعنصر من عناصر الأشياء، والقائمة في كل مدار كل ذرة من ذرات الكون، تشكل استقلالًا ذاتيًا معقدًا، لم يبلغ الإنسان ـ علىٰ ما بلغ من التطور ـ النفوذ إلىٰ كنهه، مما يجعل مبدأ الترابط، إدانةً لأفكار مبدعي الماركسية، القائمة علىٰ مغالطة الفكر وتضليله بحجج واهية، من اختلاف الخيال الذاهب بعيدًا في تصوراته، ومن ادعاء فكر مريض، يحاول أن ينصب من الأوهام وجودًا حقيقيًا.

وليس هذا فحسب، بل إن فكرته في مبدأ «الترابط والتفاعل» لابد أن يصل إلىٰ نتيجة تعكس حقيقة وجود الخالق «المحرك الأول» و«الباعث الوحيد» لهذه القوىٰ الطبيعية الكونية، كالميكانيكية، والفيزيائية، أو ظواهر علوم الطبيعة والكيمياء، الكامنة في مظاهر الحياة. انتهىٰ.

وأما الذي يسمونه بـ«قانون التحول والنمو المستمر»، فهو منبثق من نظرية «داروين» تلك النظرية التي لا تَطَّرِدُ علىٰ كل شيء، ولكن الشيوعيين تساقطوا عليها لغرض خبيث في نفوسهم، متعامين عن مغايرتها للحقائق، ليَلبِسوا علىٰ الطغام أن كل شيء خاضع للعوامل الطبيعية، وأنها تؤثر علىٰ غيرها ولا تتغير، وهذا مكابرة للحس وخبط وتناقض؛ لأنها إذا لم تتغير، فليس التحول عامًّا كما يزعمون، فهم لم يراعوا أمر المطلق والنسبية، إذ كل شيء نسبي في الحياة، والمطلق لا وجود له علىٰ ظهر هذه البسيطة، ولكنهم لشدة إلحادهم، آمنوا بالمطلق، وعمموا عليه صيغة التحول، وطبعوه بطابع التبدل.

وهذا ـ ولا خلاف ـ إخفاء للحقائق وتشويه للواقع، فالجوامد غير الإنسان، والموت لا يمكن أن يدخل في قانون الأحياء، والمادة هي لا تختلف ولا تتبدل ـ كما هو ثابت في القوانين الكيماوية، وتفاعلاتها

التي جبلها اللَّه عليها ـ، فالحديد لا ينقلب إلىٰ ذهب، والنحاس لا ينقلب إلىٰ قصدير، بل يبقىٰ كلٌّ من هذا وهذا محافظًا علىٰ ماهيته بالوزن والجوهر، مهما طرأ علىٰ صفاته من تبديلات فيزيائية، اللَّهم إلا إذا أدخل في نطاق التفاعلات النووية، فإن ما يحصل من تفاعلاتها لا يدخل تحت الجدل الكاذب في قانون التحول قطعًا.

وإنما تبنىٰ الشيوعيون هذا المبدأ الجدلي بشكله المغاير لحقائق الحياة والمجتمع؛ لأنهم طرحوا الجانب الروحي في المجتمع طرحًا كليًا، هادفين طمس القيم والتعاليم السماوية، فأرادوا التستُّر بذلك الجدل تحت ستار العلم، ليملؤُوا الدنيا ضجيجًا بأن «الكل مادة»، ويقيسوا الإنسان علىٰ الجماد والنبات، ولا يجدوا سائلًا يسألهم: هل تنقلب المادة الجامدة إلىٰ حياة عضوية، وتكتسب روحًا وملكات فكرية؟ وهل يتحول الإنسان إلىٰ مادة جامدة؟ أو أنه سيبقىٰ ذلك الكائن الراقي الذي كرمه اللَّه؟ ولو سئلوا، فهل يفرقون بين التكليف وقوانين التحول؟ أم يغالطون فيسوون بينهما؟ مع أن التكليف هو: حالة من التأقلم مع وسط خارجي، واكتساب بعض معطياته، فشتان بينه وبين التحول في عرف الشيوعيين الجدلي.

وما زعموه من «التحول النوعي» فهو أشد إضحاكًا من الأول، وأعظم جنايةً علىٰ العقل، وخيانةً للعلم بالتلبيس الجدلي، حيث قاسوا المجتمعات الإنسانية علىٰ التفاعلات الفيزيائية، وهذا من أفسد القياس؛ لوجود الفوارق، فضلًا عن الفارق، بل تجنَّوا علىٰ الأرقام الحسابية العددية في علم الجبر ونحوه مما لا يقبل الجدل والمغالطة، تبريرًا لما يأتون به من أفكار خبيثة عدائية للشعوب، وإثارة بعضهم علىٰ بعض، ومن رجع إلىٰ العلوم الرياضية استبان له أخطاؤهم المضحكة، وجناياتهم علىٰ العلم مما لا يسوغ لنا التعرض له في مثل هذا التفسير.

وأما سخريتهم الرابعة بالعقول وهي: نضال الأضداد، فهو محور الفكر الماركسي ومنطق ماديته العرجاء، وهو يرتكز علىٰ أن ماهية

الأشياء تحتوي علىٰ متناقضات داخلية من سلب وإيجاب، وقد سبقهم علىٰ إلحادهم في ذلك الفلسفة الإغريقية من أيام «هرقليطس» الموصوف بفيلسوف التغير وعدم الثبات، وكذلك «الهيجلية» ـ أيضًا ـ، لكن الماركسية وجدت في كلتا الثِّنتين مناطق رجائها وحل عقدتها، فأخذت منها الجانب السلبي طلبًا لغايتها الملعونة من نفي فكرة الخالق؛ لإقناع الغوغائية بأن للمادة قوة ذاتية تحركها وتحولها، علىٰ أساس أن التناقض فيها هو الوجود في حد ذاته، حتىٰ زعموا أن في المادة قوًىٰ دائبةَ التصارع باعتبارها في طبائع مختلفة، ومن هنا يحدث النمو والتطور في الكون والطبيعة والإنسان، لكن تعاموا عن مُودع هذه القوىٰ في المادة.

ثم إنه: هل يقر العقل الإنساني أن بالحجارة ـ مثلًا ـ قوًىٰ تتصارع؟ وهل الحجارة تنمو كالطبيعة الحية، تكبرُ وتتطور؟ والكل يعرف بداهةً أن الحجارة تتفتت، ولكن ليس بفعل عوامل داخلية ذاتية، وإنما بفعل المؤثرات الخارجية من تبدل الحرارة وفعل الرياح والأمطار، والنبات ينمو لكنه لا يملك القوىٰ الداخلية المحركة، وإنما نموه بفعل الوسط الخارجي من تغذية وتنفس وانعكاسه علىٰ النبات بدور التمثل الذي يلعب الدور الأكبر، بتطوير العوامل الذاتية التي تتضمن نمو النبات، وكيف يكون لشجرة «السنديان» وهي تشكِّل وحدةً نوعيةً في تركيبها أن تنتج ـ بفعل عوامل المتناقضات ـ ثمار البلوط؟! علىٰ أن الأمر أشد صعوبة إذا انتقل بالتطبيق إلىٰ دراسة الإنسان الذي اعترف كبار الباحثين بعدم إدراك كنهه وعقله، وإن خلايا المخ ليست هي العقل كما يزعمه المجادلون، الذين لو رجع كل واحد منهم إلىٰ ذاته وإلىٰ النفس البشرية ـ التي هي بعيدة كل البعد عن المادة ـ لانكشف له خطأ مزاعمه، ولما أصر واحد منهم علىٰ أكذوبته من أن العقل هو المادة المفكرة، والفكر نتاج صراع الأضداد.

ولكن أنىٰ يرجىٰ منهم التعقل، وهم مبالغون في المغالطة بقولهم:

إن الرجل الذي يدرس هو جاهل، ويحتاج للمعرفة في نفس الوقت، ويجيبون علىٰ أنفسهم بأنفسهم فيقولون: إن درسه يشمل النضال ويشمل تصارع الأضداد! فما هذا اللعب بالأفكار؟ أين هم من المنطق فضلًا عن الحقيقة؟ فهل الدرس موقوف علىٰ وجود الجهل؟ كيف عَمُوا عن وجود حب المعرفة وعن فعل الهداية، وعن الانطلاقة النفسية الاستقلالية وعن القدرة الذاتية؟! وأي نوع من التناقض ونضال الأضداد يحصل من دراسة الرجل الذي يمثلون به في مخيلاتهم البديعة في الافتراء؟!

والحقيقة أن الباعث المحرك والدافع للتغيير ليس هو مجرد تناقض بين ضدين ـ الإيجاب والسلب ـ؛ وإنما هناك عديد من العوامل الخارجية والداخلية: كالقابلية، والحاجة، والفطرة، والغريزة، والميول، وغيرها من الدوافع؛ كما أن هناك الإمكانات، ولو سلمنا جدلًا وجود صراع بين المتناقضات فإنه لا يوصل دائمًا للغاية التي يقررها هؤلاء الملاحدة، ولا موصل للكمال كما يزعمون، بل قد يكون موصلًا للهلاك بسبب الغلبة في التقاتل والتدمير، وليس عندهم دليل علىٰ تصارع الأضداد سوىٰ الأزمات والأحداث السياسية، وهذا ليس سببها الصحيح كما يزعمونه من تصارع الأضداد، بل هذا تنافس وتشاحن قد يحصل مع القريب والحبيب سببه تفاوت الأفكار أو التنافس علىٰ القوىٰ المنتجة، أو التشويق أو الإعجاب بالقوة والطمع في التوسع.

ومن عجيب ألاعيبهم في الفكر وجنايتهم علىٰ العقول قولهم بوحدة تصرف الأضداد المتصارعة، وهذا إفكٌ يفضحه العلم المادي بالتجارب الفيزيائية، فضلًا عن تصور العقول السليمة، والنظر في الواقع المحسوس، فإن اجتماع المادة بنقيضها يؤدي إلىٰ انفجارهما وتلافيهما جميعًا، وهذا طبق ما يقع في صفوف المجتمع الإنساني.

وإذا كان الماركسيون يؤمنون بوحدة المتناقضات بعد الصراع فكيف يجرون القتل الجماعي والإبادة لمن يضادهم في فكرتهم؟ ألا يمهلون خصومهم للانسجام والوحدة التي لا تنفصم؟ ولكن خطبهم في الهرج

يثبت فساد أفكارهم، وسوء معتقدهم وأخلاقهم.

وهداية اللَّه لعباده في ضبطهم عن الشرود الفكري وإيقافهم عند حدهم، وتوقفهم عند ما خلقوا له هي المسعدة لهم، والحافظة لأوقاتهم وأموالهم وسائر طاقاتهم من الضياع فيما لا ينتج لهم الفائدة التي يطلبونها ويتطلعون إليها تطلعًا أنانيًّا خارجًا عن الفطرة؛ كما حصل للذين هم عن آيات ربهم معرضون.

وقد حمىٰ اللَّه عباده عن الشرود الفكري بإيقافهم عند ما أوقفهم حين سألوا نبيه ﷺ عن الأهلة وعن الروح؛ فقال تعالىٰ: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، وقال ﷺ في النجوم: «**إنها زينةٌ للسماء، ورجومٌ للشياطين**»(١) أي: قفوا عند هذا الحد.

وفي صفات الذات والأفعال للَّه قال عنها: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ]، و﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]، ليقفوا عن البحث والخوض ويؤمنوا بها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل.

وكلُّ مَن شرد بفكره في الذات العلية فأنكرها طالبًا للحس والمادة كالملاحدة من الشيوعيين وغيرهم، اضطربوا واتخذوا آلهةً من البشر زادوا شقاءهم وتعاستهم، وجروا الويلات علىٰ أنفسهم وعلىٰ غيرهم من الشعوب، ومن شرد بفكره في الصفات الإلهية واتبع ما تتلوه شياطين الإنس، أفراخ اليهود، كطالوت ولبيد بن الأعصم معلِّم الجَعدِ بن درهم، وجهم بن صفوان ومن علىٰ شاكلتهما؛ ممن خلطوا الينبوع المحمدي الصافي بقلوط(٢) المنطق اليوناني، وأشركوا فلاسفة اليونان

---

(١) روي هذا من قول قتادة موقوفًا عليه، أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق. باب في النجوم.

(٢) **قلوط**: هو النهر الذي تلقىٰ فيه الأوساخ والقاذورات.

برسالة محمد ﷺ، بل أكثرهم فضل قوانين منطقهم علىٰ وحي اللَّه؛ حيث جعلها تفيد اليقين، والوحي لا يفيده بزعمهم.

فماذا يبقىٰ من الإسلام بعد هذا؟ وقد أحدثوا في الأمة شيعًا ومذاهب كثر بينهم الجدل والشقاق، وأخذوا ينبزون أهل السنة بالألقاب الشنيعة، ففسحوا بذلك المجال للعابثين المغرضين من كل نوع.

حسم الأنانية وكبح النزوات:

تحقيق القيام بمدلولات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقضي علىٰ الأنانية التي ما زالت علة العلل في فساد الأمم وهلاكها؛ لأنها تجر إلىٰ الأثرة والطماعية[1] والحسد والطغيان، وتجعل من جميع الأمم أفرادًا لا يشعرون إلا بمصالحهم الخاصة ـ مهما كانت علىٰ حساب غيرهم ـ، ولا يتجهون بأفكارهم إلا في سبيل مصالحهم الشخصية وأغراضهم النفعية، وما يعود عليهم بالنجاح في تقلباتهم ذات اليمين وذات الشمال، غير مبالين بما يصيب غيرهم في سبيل تحقيق أغراضهم، فهم لا يهتدون سبيلًا غير سبيل الاستعباد للناس واحتقارهم، والاستعلاء عليهم، وابتزاز أموالهم بشتىٰ المذاهب المادية وسائر الأحابيل.

فهذا الطغيان الأناني هو سبب جميع النقائص الاجتماعية، بل هو سبب تفكك الوحدة الإسلامية عامةً، والعربية خاصةً، وهو مصدر جميع الهزائم والنكبات منذ أن وقف المسلمون علىٰ مشارف مدينة «باريس» رافضين نصائح قائدهم المؤمن عبدالرَّحمن الغافقي الأزدي، حتىٰ نكباتهم في الشرق الأوسط علىٰ أيدي التتار أولًا والصليبين ثانيًا، ونكباتهم في الأندلس والمغرب الأقصىٰ والشرق الأقصىٰ وغيره.

كل هذا سببه الأنانية التي استحكمت بسبب عدم تطبيقهم لمدلولات هذه الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والأنانية هي التي تنوء بالحكام

---

(١) **الطماعية**: من مصادر طمع.

عن الوحدة الحقيقية والاتحاد الصحيح، لما يحمل بعضهم علىٰ بعض من الإعجاب والتعالي، وهي التي تحمل الموظف والطبيب علىٰ الرشوة؛ ليقضي كلٌّ من هذا النوع حاجات نفسه من المال الذي لا يمكن أن تشبع منه أبدًا.

والأنانية هي التي تخرس الإنسان عن النطق بكلمة الحق خصوصًا العالم أمام الحاكم، حرصًا علىٰ جاهٍ مزيف يستهويه، أو حريصًا علىٰ وظيفة يسترخص بها نفسه، ويبيع بها دينه، وهي التي تحول المحامي إلىٰ خائن مدافعٍ عن الباطل يجعل ذمته جسرًا لكل خصم ظالم، وهي التي تحول دون الأغنياء ودون تفكيرهم في حال الفقراء والغارمين وهكذا، ويكفيك أنها ذهبت بأكثر البلاد التي فتحها أجدادنا الفاقدون للأنانية المسعورة.

فمن فوائد تحقيق مدلولات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أنها توجه تلك الأنانية توجيهًا صالحًا يجعلها مفتاحًا لعظمة النفوس، وسمو الشخصية، والإخلاص في الطموح، ولا تجعلها تطغىٰ فتحدث هذا التزعزع والتفكك وهذه الهزائم المتلاحقة؛ لأن طغيان الأنانية يكون في نفس كل زعيم ورئيس شعورًا خاطئًا بامتيازه، أو امتياز أمته أو شعبه، كما يكون هذا في الأمم والشعوب بعضها علىٰ بعض، حتىٰ يجعل بعضهم يستعين بأخبث أعدائه علىٰ بعض، وحتىٰ يحمل ذلك بعضهم علىٰ الاعتداء علىٰ أراضي غيره وممتلكاته، فيُحْدِثُ حربًا ضروسًا، ويَهلِكُ عددٌ كبيرٌ من البشر.

فلابد للمسلم المؤمن أن يكون صادقًا مع اللَّه سبحانه في تحقيق مدلولات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فإننا إذا صدقنا مع ربنا في تحقيق ذلك أصبحت فرديتنا قد انصهرت أنانيتها في سبيل المجموع الإسلامي الصحيح، وامتزجت بحاجياته، وانغمرت في صالحه، ولا نحس لعملنا قيمةً إلَّا إذا كان من ورائه نفع لإخواننا المسلمين أينما كانوا وكيف كانوا، ولا نحس لجهودنا ثمرةً أو فخرًا إلا بقدر ما

تجلبه علىٰ المسلمين من إيصال خير أو دفع ضرر.

وهذا التوجيه للأنانية هو الغاية التي عمل لها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأرشدوا إليها؛ بحيث يكون سعي المسلم لعظمة شخصيته، وتحقيق إنسانيته المؤمنة عن طريق البذل والإيثار والتجرد عن كل غاية وهوىٰ، وقلب أنانيته إلىٰ شعور يجعله يجد اللذة في عذابها من أجل سعادة إخوانه المسلمين المؤمنين، ويجد عزتَها في انكسارها من أجل رفعة مستواهم وإعلاء شأنهم في حب اللَّه ورسوله.

لقد شهدت الأرض نماذجَ كثيرةً كبيرةً من هذا النوع علىٰ يد الرعيل الأول؛ الذين تخرجوا في مدرسة رسول اللَّه محمد ﷺ في مسجد الطين والعريش، ثم من الصالحين التابعين لهم بإحسان، ولا يمكن أن يعود إلىٰ الأرض ما فقدت إلا بعودة العقيدة المحمدية الحنيفية، تلك العقيدة التي تجعل من ضمير المسلم المؤمن رقيبًا باطنيًّا يراقبه في كل قول وعمل، ويخوِّفه من عقوبات اللَّه العاجلة والآجلة.

فالعقيدة الحنيفية الحقة هي التي تمحق الأنانية، وتعيد إلىٰ الأمة وحدتها وعزتَها وكرامتها، وتستمطر لها مدد السماء بالعز والنصر والتمكين، فتسترجع فتوحات أجدادها العظيمة بدلًا من عجزها عن قضية فلسطين، وهي التي تحقق الحرية تحقيقًا صحيحًا بدلًا من حرية التسبيح للأشخاص، وإسبال أثواب القداسة علىٰ أفعالهم، والدعاء لكل سفاح وطاغوت فوق منابر المسلمين.

وهي التي تحقق المساواة بالشورىٰ الصحيحة والمناصحة من كل فرد مهما كان، بدلًا من انقلابها إلىٰ «أتون» تحت شعارات تصنيف الرعايا إلىٰ أبناء شعب، وأعداء شعب، وإلىٰ تقدميين ورجعيين وإمبرياليين، وما إلىٰ ذلك من المصطلحات الماسونية اليهودية التي حشيت بها أدمغة المعرضين عن وحي اللَّه، والشاردين عن تحقيق مدلولات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فما أشقىٰ أهل الأرض بأولئك!! وما أحوجهم إلىٰ الوقاية من شرور الأنانية والشهوات بالعودة الصحيحة لتحقيق مدلولات هذه الآية!!.

بين تقدمية صادقة وتقدمية زائفة:

القيام الصحيح بتحقيق مدلولات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يحقق التقدمية الصحيحة للأمة الإسلامية، وعلىٰ الأخص العرب الذين هم حملة لوائها، والذين ربط اللَّه مصيرهم بحمله، وتوعدهم علىٰ تركه بشيئين:

١ ـ الذل المتواصل الذي لا ينزعه عنهم حتىٰ يعودوا إلىٰ حمله.

٢ ـ استبدالهم بغيرهم من الأمم، وألا يكونوا أمثالهم.

فهذه الآية الكريمة من فاتحة الكتاب الكريم مشعرة تمام الإشعار بالتقدمية الصحيحة في جميع مجالات الحياة، أول ضروب التقدمية حصر العبودية بجميع أنواعها للَّه تعالىٰ من حب، وتعظيم، وخوف، وخشية، وطاعة، وإخلاص، وإسلام الوجه له تعالىٰ دون غيره، وكون عبوديته سبحانه تمنع تعبيد النفوس لأي طاغية من طواغيت الإنس والجن وإسلام الوجوه لأي سلطان لم يأذن به اللَّه؛ بل حصر التلقي الذي تتغذىٰ به العقول علىٰ وحي اللَّه؛ دون غيره من الأفكار البشرية التي أغلبها من غش اليهود، كما أن عبودية اللَّه الصحيحة التي يرتضيها لا تسمح لأي نظام كهنوتي أن يتدخل بين البشر وبين اللَّه ـ كما سيأتي توضيح ذلك في موضعه في سورة «آل عمران» ـ؛ بل تجعل الفكر الديني قائمًا علىٰ صلة الناس باللَّه صلةً روحيةً، كلٌّ يتوصل إليه بالأعمال الصالحة المرضية له، ويدعوه ويرغب إليه في حاجاته تضرعًا وخُفيةً؛ دون أي واسطة من الأحياء أو الأموات، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]، وسيأتي تقرير ذلك عند الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وعبودية اللَّه وفق وحيه تقرر عدم اشتراك أحد بخطيئة أحد، ولا

ارتباطه أو تأثره بها، لا خطيئة آدم ـ كما تزعمه الكنيسة المفترية علىٰ اللَّـه ـ، ولا خطيئة غير آدم؛ بل ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فليس في عبودية اللَّـه الصحيحة شيء من مرجعات المفترين علىٰ اللَّـه أبدًا؛ بل هي جديدة توافق المعقول الفطري الصريح غير المتبلور بالغش والدجل.

وعبودية اللَّـه الصحيحة توجب علىٰ أهلها مواصلة الجهاد والزحف المقدس لإنقاذ البشرية جميعًا من استعباد الطواغيت والظلمة، وحشو قلوبهم بالنور الإلهي لإصلاح ضمائرهم وشفائها من مرض الشبهات والشهوات، وكبح طغيان الأنانية المسعورة، وإعلاء كلمة اللَّـه في الأرض؛ حتىٰ لا تتحكم في رقاب أهلها ومصائرهم أي جماعة من البشر الذين يفترسون الحكم بالقوة، ويزعمون أنهم أبناء الشعب وحماة مصالح العامل، الرافعون رأسه، وهم قد رفعوا رجليه ونكسوا رأسه، كما أن عبودية اللَّـه لا تسمح لأحد أن يؤله نفسه بتشريع الأنظمة والقوانين؛ بل تحصر جميع الأحكام التشريعية للَّهِ؛ حتىٰ لا يكون مدخل للظلم والظلام علىٰ البشرية.

ثم إن عبودية اللَّـه فيها القوامة الصحيحة لحفظ جميع دعائم المجتمع التي:

أولها: حفظ الوحدة، وحياطة الاتحاد بوحدة العقيدة، وكونها هي الحاكمة المهيمنة علىٰ الأرواح والجوارح، وإيجابها قتال البغاة والخوارج الذين يحاولون الشغب أو شق عصا الوحدة، وتحريمها الخروج علىٰ ولي الأمر بدون صدور كفرٍ صريحٍ بواحٍ واضحٍ منه لا شبهة فيه، كل هذا حفظًا للوحدة.

وثانيها: صيانة العقيدة من دسائس الإلحاد الذي تقذف به اليهود، وقتل الملحد المرتد والداعية إلىٰ الردة، لأن في ذلك أعظم سبب لشق عصا الوحدة.

وثالثها: حفظ النفوس بمشروعية القصاص؛ حتىٰ لا يطمع أحد في قتل أحد إذا جزم أنه مقتول به، بخلاف استبقائه بأن مصيره سجن يأكل فيه ما يشاء، ويقرأ فيه ما يشاء، أو يدافع عنه محامٍ ظالم؛ فتخفف عقوبته.

ورابعها: حفظ العقول والقلوب بتحريم كل مسكر ومخدر ومفتِّر[١] مهما اختلف نوعه أو اسمه؛ ما دامت هذه صفته، إذ لا عبرة في الدين بالأسماء؛ فهو قد حرم كل ما هذه صفته، وأوجب الجلد علىٰ متناوله ردعًا له وتربيةً يرحمه بها، حيث لم يرحم نفسه ولم يحترمها، بأن سعىٰ إلىٰ هدمها بالجنون أو التخدير.

وخامسها: حفظ الأجسام بتحريم تناول كل ما يضرها في صحتها علىٰ وجه اليقين، أو كراهته إذا كان محتملًا، حتىٰ إنه نَهىٰ عن الإسراف في الأكل والشرب، وأرشد إلىٰ التثليث في ذلك: ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفَس[٢]، مما لو عمل به الناس؛ لقلت العيادات الطبية والصيدليات، ولكن اتباع الهوىٰ يصد عن اتباع الأوامر.

وسادسها: حفظ الأنساب والأحساب، وتطهير البيوت من الفواحش بتحريم الزنىٰ وإقامة حدود اللَّه علىٰ فاعله بدون رأفة؛ لأن الرأفة بالزاني ليست رحمةً، وإنما هي دياثة وقوادة، إذ عرض كل امرة مَزْنِيٌّ بها عرض لكل مسلم يجب أن يغار عليه، وأن يعتبر الرحمة في إقامة الحد لا في إسقاطه، وليس أحد أولىٰ بالرحمة من أهلها المجني علىٰ شرفهم والمهدرة كرامتهم.

فهذه هي التقدمية الصحيحة، لا تقدمية المفسدين في الأرض، المرخصين للأعراض الكريمة الغالية، والناصبين أنفسهم ديوثين

---

(١) **المفتِّر**: الذي يبعث في الجسم الفتور، وهذا كالمخدرات ونحوها.

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٣٢)، والتِّرمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦٧٣٧).

وقوادين علىٰ أعراض الشعوب بتسهيلها لكل فاسق، وإرخاصها بتشريع القوانين المُعفِية للزناة من إقامة حدود اللَّه، فهؤلاء رجعيون في الحقيقة، قد أرجعوا أنفسهم وأحوالهم إلىٰ الغابرين الذين وصفهم اللَّه بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة]، ورحمتهم بالزناة أخس من رحمتهم للقاتل الذي أيتم أولادًا، وأَيَّمَ نسوةً، وفجع أسرة أو عدة أسر يجب أن يكونوا أولىٰ بالرحمة منه، ولكن العقول المارجة[1] بما اجترمه من حشائش الأباطيل الاستعمارية لا تنصر الحقيقة علىٰ وجهها.

وسابعها: وقاية الأمة من اقتراف الفواحش؛ بتحريم التبرج وإظهار المفاتن من الجسد أو الزينة الجذابة، وإيجاب الاحتشام في اللباس، ومنع الاختلاط، بل منع نعومة الكلام من المرأة حتىٰ لا يطمع بها من في قلبه مرض، وهذا شي يسلِّم به كل عاقل عقلًا فطريًّا ويوجبه؛ لأن الوقاية خير من العلاج، لا يحيد عن هذه القاعدة عاقل صحيح، وأما الذين تحجرت عقولهم فقد مرج تفكيرهم، وحادوا عن هذه القاعدة الأساسية؛ تقليدًا للغربيين تقليدًا يقدح في أصل عقيدتهم؛ بل يزيل شخصيتهم المعنوية بحيث لا يبقىٰ معهم منها بين الأمم سوىٰ الاسم الصوري بلا حقيقة، ولا ريب أن التقليد وصمة عار عند من لا يعقل عقلًا فطريًّا؛ لأن فيه تشتمل التبعية الممقوتة، فصاحبه تابع لكل جبهة وطرف، منسلخ من أصالة العقيدة وحرية التفكير واستقلال الاتجاه، فبالتقليد يكون الإنسان منحط الشخصية، مستعمَرًا في عقله وتفكيره ـ خصوصًا المسلم ـ، ولهذا نرىٰ المجتمعات الإسلامية ـ أو المحسوبة علىٰ الإسلام ـ كقطعان تابعة للناعق الأوربي الكافر الذي تقوده الماسونية اليهودية، بحيث لا تجد فرقًا بين العائلة المنتسبة للإسلام والعائلة الغربية في إظهار المفاتن والزينة وترك الاحتشام، مما هو

---

(١) **المارجة**: المختلطة المضطربة.

مجلبة للفوضىٰ الاجتماعية والفساد الخلقي بين الجنسين، بل مما يجعل المرأة في هذا العصر جنسًا ثالثًا؛ لخروجها عن حقيقة أنوثتها الصحيحة باسم «التطور»، الذي هو رجوع إلىٰ أخس ضروب الجاهلية، وهروب عن التقدمية الصحيحة بالمعقول الفطري السليم.

ثامنها: حفظ السمعة وشرف الأعراض بتحريم القذف والسباب، ومشروعية إقامة الحد علىٰ القاذف بثمانين جلدة، ليرتدع كل إنسان عن جرح الآخر من ذكر أوأنثىٰ بما يسيء إلىٰ شخصيته أو شرف بيته وأسرته، فكل قاذف يكلَّفُ بإقامة بينةٍ مضاعفةٍ من أربعة شهود علىٰ صدق ما قاله، وإلا تناله عقوبة القذف! فيا له من تحصين لكرامة الإنسان يحفظها من كل جارح!! ولم يوجد هذا التحصين في أي تقدمية مزعومة إلَّا في التقدمية الإسلامية الصحيحة.

تاسعها: حفظ المجتمع الإسلامي من التفكك الذي سببه العداوة والبغضاء الناشئة من لمز بعضهم لبعض، أو اغتياب بعضهم لبعض، أو النميمة من بعضهم علىٰ بعض، فقد شدد اللَّه من شأنها، وبالغ في النهي عنها وبيان سوء عاقبتها، وذلك في الآيات (١١، ١٢، ١٣) من سورة الحجرات، التي هي كدستور عميق للإسلام والمسلمين.

وقال ﷺ ما معناه: «**لا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا ـ عباد اللَّه ـ إخوانا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم علىٰ المسلم حرام دمه وماله وعرضه، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يحقره...**» إلخ[١] في أحاديث كثيرة.

وقال: «**لا يدخل الجنة قتاتٌ**»[٢]، أي: نمام.

وقد تكاثرت الأحاديث في تحريم الغيبة والنميمة ونحوها؛ بل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

بلغت حياطة المجتمع الإسلامي بتطهير قلوب أهله، وحسن معاملة بعضهم لبعض، وتحقيق أخويتهم المعنوية: أن حرم البيع والسوم والخطبة علىٰ بيع الأخ المسلم أو سومه أو خطبته، حتىٰ يعيشوا في إخاء ووئام لا يتسرب إليه شيء من دواعي التفكك؛ فيا لها من تقدميةٍ صحيحةٍ لا يحظىٰ بها أدعياء التقدمية الكاذبة!!.

عاشرها: الضوابط الاقتصادية التي تقتضيها عبودية اللَّه والاستعانة به حسب مدلول الآية، إذ جعل الشارع اكتساب المال من طرقه المشروعة شُعبةً من شعب الإيمان، وإنفاقه في مستَحقِّه شعبة من الإيمان ـ أيضًا ـ، فشريعة اللَّه تفسح المجال الكامل للتنافس في اكتساب المال بشتىٰ أنواع الحلال؛ من جميع صنوف التجارة والمضاربة وشركة العنان المساهمة، أو شركة الوجوه، أو شركة الأبدان، أو شركة المفاوضة الجامعة للثلاث، والاتجار بجميع العروض والأراضي، والقيام بسائر أنواع الحرف والصنائع والتصنيع، ودون مصادرة شيء من ذلك أو التسلط عليه بالتأميم القاضي علىٰ الحرية، والقاضي علىٰ التنافس النافع للمستهلك مما أحدثته الماسونية اليهودية بمذاهبها الاقتصادية المصمَّمة لفقر الشعوب وبؤسها، والرابطة أرزاقها بأيدي طِغمةٍ مفترسة للحكم بالخيانة والتسلط، ومخبطة لأدمغة الناس بصنوف الدجل والتضليل؛ حتىٰ إنهم يصفون فعلهم الساحق الماحق بالتقدمية، وسواه بالتخلف والرجعية؛ قلبًا للحقيقة، وجنايةً علىٰ العدل والإنصاف بل مسخًا لهما.

ثم إن شريعة اللَّه تحرم علىٰ عباده جميع طرق الغش والتدليس والتلبيس قولًا أو فعلًا، كما تحرم عليهم الغبن في المعاملة وأخذ الربا صراحة أو تحايلًا، وأوجب عليهم رده اكتفاءً برأس المال: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة].

ونص علىٰ لعنة خمسة فيه؛ حيث قال ﷺ: «**لعن اللَّه آكل الربا**،

ومُوكِلَه، وكاتبه وشاهديه»[١].

وأوجب عليهم استغلال الأراضي وعمارتها ـ بزرع أو غرس أو بنيان ـ ليعم الانتفاع بها، ولا يقتصر علىٰ المالك الذي يقصد التكاثر وربط صحة الإقطاع[٢] علىٰ ذلك بتحديد مدة يقوم المقطع فيها بذلك أو يبطل إقطاعه.

فضوابط الاقتصاد في الشريعة كفيلة بسعادة المجتمع ورفاهيته وحصوله علىٰ التقدمية الصحيحة الفعالة، لا التقدمية الكذابة التي يزعمها الدجالون المفسدون المنتهبون للأموال ومصادر الخيرات بضروب الإرهاب والكبت وقتل خيرة رجال الشعب من ذوي الفن والسياسة والخبرة العسكرية، حتىٰ إنهم بأنفسهم يأكل بعضهم بعضًا؛ كما هو المشاهد من حال الثوريين في كل مكان.

ثم إن الشريعة ـ بضوابطها لاكتساب المال ـ قد جعلت ضوابط لحفظه تمنع من الجناية عليه وذلك:

أولًا: بمشروعية قطع يد السارق خلسة، أو قطع يد المنتهب ورجله من خلاف.

وثانيًا: تحريم صرفه في البذخ والإسراف أشرًا وبطرًا، والتشديد في تحريم صرفه علىٰ المعاصي والفواحش وسائر الملاهي المفسدة للقلوب، والمغرية علىٰ اقتراف الفواحش، وينشأ من ذلك الدعامة:

الحادية عشرة: وهي حصر صرف المال في صالح المسلمين، الذي

---

(١) رواه مسلم (١٥٩٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله». قال: قلت: وكاتبه وشاهديه؟ قال: إنما نحدث بما سمعنا.

(٢) **الإقطاع**: منح الإنسان قطعة أرض لحرثها وزراعتها والانتفاع بها، علىٰ شرط إتقان ذلك القيام بحق الشريعة في الزكاة، دون أن يتعدىٰ هذا الإقطاع إلىٰ ملكية العمال والفلاحين فيها. وهذا يخالف تمامًا الإقطاع الذي عرفته الحضارة الأوربية التي لا تعرف عدالة الإسلام ورحمته.

من أعظمه سدانة[1] الإسلام والدفع به إلىٰ الأمام، فيصرف فيما يقتضيه هذا السبيل من: نشر الدعوة بإمداد الدعاة، والصرف للمؤلفة قلوبهم، والاستعداد بجميع المستطاع من أنواع القوة ـ حسب مقتضيات العصر ـ مهما تطورت الصنعة من وسائل القوة الحربية، ووسائط النقل البرية والبحرية والجوية، وتمهيد الطرق بما يصلح لناقلات العصر، وطبع ما تحتاجه الدعوة، والقيام بقمع من يقف دونها، من ذلك الدعامة:

الثانية عشرة: وهي التحرك المتواصل لتوسيع رقعة الإسلام، وإقامة حكم اللّٰه في الأرض، ورفع كلمته فيها دون إكراه أحد علىٰ اعتناق العقيدة، ولكن بإلزام الجميع لحكم الإسلام، ورفض حكم الطاغوت، فالدين الإسلامي تقدمي حركي بجميع معانيه، وليس مسؤولًا عن التخلف الذي حصل علىٰ أهله نتيجة استسلام قدري أو تواكل يعكس معنىٰ التوكل المطلوب، أو ارتكاس في تقليد، ونحو ذلك من ضروب الغزو الماسوني المتنوع الذي هدفه التنويم تارةً، وقلب المفاهيم تارةً أخرىٰ.

ولقد برهن الإسلام علىٰ أيدي أهله العارفين بمقتضاه حقيقةً علىٰ أنه دين الفتح والتحرير والزحف المقدس، والنافع المنقذ لأهل الأرض من الظلم والاستعباد، والمصلح لأخلاقهم والمفجر لطاقاتهم؛ فأنعم وأكرم بما فيه من تقدمية صادقة صحيحة نافعة، بخلاف ما يزعمه دجاجلة العصر وتلاميذهم المصبوغون بهم من التقدمية الكاذبة، تقدمية الفسق والفجور والملاهي والبلاجات وغيرها، مما هو خروج للإنسانية عن حقيقتها، وانحطاط بها إلىٰ مستوىٰ البهائم، تقدمية الجلادين لشعوبهم بسائر أنواع الفتك والإرهاب، تقدمية المسخ والرق المعنوي الذي هو أفظع من كل رق سبق.

وكل من صدق مع اللّٰه في ضراعته إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

---

(١) تقدم.

كان حظه التقدمية الصحيحة التي يحيا بها حياةً طيبةً في الدنيا والآخرة، وما عداه فإنه تنعكس أموره ويرتكس في جحيم الدجالين ووعودهم الكاذبة، وصدق اللَّه العظيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس].

خطر التسويف وعلاجه:

الصدق الصحيح مع اللَّه في الضراعة بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقي صاحبه أخطار التسويف العظيمة المضرة في دينه ودنياه، ذلك أن جميع الأخطار في الميادين السياسية والاقتصادية والحربية والاجتماعية ناشئة من التسويف، الذي يجعل الإنسان يتردد في الفعل حتىٰ يؤخره عن وقت نفعه أو ينعدم، إذ في الميدان السياسي يضطره التسويف إلىٰ مهادنة أعداء اللَّه من الكفار أو المنافقين ومصادقتهم، مهادنة ومصادقة تضره أعظم إضرار؛ حيث يتقوىٰ بها العدو، وينشر أحابيله ويبث دعايته، حتىٰ يكسب البعض من قومه وإخوانه، بل من أولاده.

وقد يزيد ضرر ذلك باطمئنان يجعله يترك الحذر والتسلح وإعداد القوتين المادية والمعنوية، بل قد يخسر القوة الروحية إن هو ألقىٰ إليهم بالمودة، وخالف أمر اللَّه في إظهار العداوة ونشر البغضاء والغيظ في بلدهم ضدهم، فيجره التسويف إلىٰ هدم العقيدة أو تفتيتها، ولا شك أن الأعداء يكسبون بتسويفه الاستجمام، وينطلقون في التنظيم الداخلي والخارجي؛ بل يفقدونه ثقة أصدقائه به، كل هذا نتيجة تسويفه بعبادة اللَّه في هذا الميدان الشائك الذي لا تبيح له العبادة الحقيقية شيئًا من التساهل فيه.

وأما تسويفه في الميدان الاقتصادي؛ فيجعله يهمل أو يقلل من الاكتساب والاستثمار والتصنيع، وتسخير المواهب والقوىٰ، فيغلبه مقابله في المنافسة، أو يضربه في المسابقة علىٰ ذلك، فيكون قد سمح لخصومه أو بارك لهم أن يصفعوه، ويكون مهملًا لشعبة من

شعب الإيمان يحاسبه اللَّه علىٰ تركها، ويعجل له العقوبة في الدنيا بغلبة مقابله له، زيادةً علىٰ ما يناله في الآخرة من عقاب علىٰ حسب المقاصد والبواعث التي لا تخفىٰ علىٰ العليم الخبير جَلَّ وَعَلَا.

وأما تسويفه في الميدان الحربي؛ فهو مندرج في تسويفه في الميدان السياسي ـ كما أشرنا إليه ـ؛ حيث يسمح لأعدائه بالتفوق عليه في الحرب الباردة والكاوية.

وأما تسويفه في الميادين الاجتماعية، فيجلب عليه الخسائر الداخلية المتشعبة، والفوضىٰ الخطيرة التي لها أسوأ التأثير في الميادين السابقة مما يكون به عاصيًا للَّه، غير صادق في تحقيق مدلول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

حتىٰ إن تسويفه في التربية والتأديب لأولاده وأولاد من يلي أمرهم من المسلمين؛ يجعلهم كسبًا لشياطين الإنس بالشرود عن أمر اللَّه، والخروج عن طاعته والتمرد عليه هو، فيزداد عصيانه وتفريطه في جنب اللَّه.

فإذًا لا يجري التسويف من صادق مع اللَّه في ضراعته بهذه الآية الكريمة عارف بمدلولاتها العظيمة، إذ هي تنادي بمحاربة كل تسويف في أي ميدان من ميادين الحياة؛ لأن عبودية اللَّه الصحيحة شاملة لجميع تلك الميادين، توجب عليه أن يكون قويًا نشيطًا ملتزمًا لحكم اللَّه فيها؛ لا يعتريه التسويف في شيء منها، فضلًا عن كلها ـ والعياذ باللَّه ـ.

فضراعة المسلم الصادقة بهذه الآية توجب عليه أولًا تحقيق الجهاد النفسي الداخلي للَّه رب العالمين، فيجاهدها علىٰ ترك المنهيات، ويصبِّرها علىٰ أقدار اللَّه الشرعية والكونية، ويجاهدها علىٰ فعل المأمورات القلبية، وترك المنهيات القلبية، كمحبة المؤمنين، والنصح لهم، والشفقة عليهم، وعدم حسدهم أو الغل عليهم إيثارًا لنفسه أو

انتصارًا لها، وكبغض الكافرين والمنافقين والفاسقين وعداوتهم، وحمل الغيظ لهم، كل علىٰ حسبه من ذلك، وعدم الركون إليهم والشفقة علىٰ أحد منهم ـ ولو كان أقرب قريب ـ؛ دون أن يعتريه أي تسويف في تحقيق هذه الأعمال القلبية من أمر ونَهي.

ويجاهد نفسه علىٰ فعل المأمورات البدنية الظاهرة؛ من طهارة البدن والثوب، وإقامة الصلاة وأدائها في جماعة وإحاطتها بالنوافل وألا يسوف بتأخير شيء منها، أو يؤثر عملًا ماديًا عليه، وألا يغلبه سلطان النوم أو شهوته علىٰ صلاة الفجر المشهودة من ملائكة الليل والنهار، ويكون خاشعًا فيها ضارعًا إلىٰ اللَّه، متكيفًا بالتكبير الصادق، لا يحمله أي عمل أو طمع علىٰ ترك ذلك، وأن يكون مؤديًا زكاة ماله، وباذلًا في سبيل اللَّه ما استطاع، لا يعوقه التسويف، أو ينتابه الشح الذي يحرمه الفلاح في الدارين.

وأن يتطوع بصوم النوافل زيادةً علىٰ الصوم الواجب ـ ولو قليلًا ـ ليهذب نفسه ويربيها علىٰ تقوية الإرادة وصدق العزيمة، حتىٰ لا يسوِّف أبدًا في ترك شيء من مألوفاته المخالفة للشريعة، أو التي تضر بصحته وتزيد في نفقته بلا طائل؛ مما يكون تناوله محرمًا أو مكروهًا، فإن صيام النافلة أكبر دليل علىٰ الاحتساب، الذي ينتفع به صاحبه انتفاعًا محسوسًا، بخلاف ما يتكلفه من واجب دون وعي واحتساب؛ فإنه لا يمنعه من التسويف في ترك المألوفات المضرة إلىٰ غير رجعة من أقوال أو أفعال أو مطعوم أو مشروب كما نشاهده من حال أغلب الصائمين لرمضان؛ دون مراعاة لحكمته أو تأمل في عواقبه.

ثم إن الصدق مع اللَّه في الضراعة إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توجب عليه عدم التسويف في ترك المنهيات البدنية، وعدم التسويف في التوبة مما ارتكبه منها، فصدقه مع اللَّه يخلصه من أحابيل الشيطان الذي يغريه عليها بحجة الشباب، أو يطمعه في المغفرة، أو في تكفيرها بشيء آخر، كزيارة أو طواف، أو يقنعه بأن وقت الابتعاد

عنها هو الشيب، كان حياته مضمونة إلىٰ المشيب.

فهذه الأحابيل الشيطانية لا يُخلِّصُ المسلمَ منها إلَّا قوة صدقه مع اللَّه بتطبيق مدلولات ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وما أخطر التسويف في التوبة النصوح مما غلبه الشيطان علىٰ فعله من معصية! وللَّه در الشاعر القائل:

ولا تَقُلِ: الصبا فيه امتهالٌ وفكِّر كم صبيٍّ قد دَفَنتا

وعبودية اللَّه توجب علىٰ أهلها العزم الصحيح علىٰ مواصلة الجهاد والتصميم في تطبيقه، تنفيذًا لأمر اللَّه فيه، وصدقًا معه في البيعة عليه بالنفس والمال دون تسويف في ذلك، لأن المسوف ذنبه عظيم، وخطره جسيم، فكيف بالمعطل للجهاد بالكلية؟ إن المسوف فيه مماطل مع اللَّه في بيعته وفاسح لعدوه في المجال والفرصة لضربه وخبطه علىٰ رأسه، كما حصل ذلك في مواطن كثيرة، ليست واقعة (حزيران ١٩٦٧م) أولها ولا آخرها.

فالمسوف متعرض لغضب اللَّه من جهة، وإيقاع الهزيمة به من جهة أخرىٰ، أما تارك الجهاد أو الحاصر له علىٰ نقطة معينة حسب مذهب يتبناه مخالفًا لوحي اللَّه، فهذا مخرج نفسه من الإيمان، ومتعرض للوعيد الشديد من مقت اللَّه، وإنزال الذل الذي لا يرفعه اللَّه عنه حتىٰ يراجع دينه، وكل من التسويف والترك يجعلانه يفرط في إعداد القوة أو في المزيد منها، ويقلبان قوته المعنوية إلىٰ تصدع شخصي وانهيار عصبي يجره للرق المعنوي الذي يُذعن بسببه للحماية أو الاستسلام الفاضح المكشوف، والحماية فيها استسلام مقنع للجهة الحامية؛ فما أبعد صاحبها عن تحقيق عبودية اللَّه؛ بل إن عدم تحقيق عبودية اللَّه بحصول التسويف جعله عبدًا لغيره.

ثم إن إعداد القوة حسب المستطاع من واجبات الدين ولوازم إقامته، فالعابد الصحيح للَّه لا يعتوره التسويف في هذا ـ فضلًا عن تركه أو

التساهل فيه ـ، وأيضًا فالعابد للّٰه المصمم علىٰ الجهاد في ذاته يكون منفذًا للغيلة[1] في أئمة الكفر من دعاة الإلحاد والإباحية، وكل طاعن في وحي اللّٰه، أو مسخر قلمه أو دعايته ضد الدين الحنيف؛ لأن هذا مؤذٍ للّٰه ورسوله؛ لا يجوز للمسلمين في جميع بقاع الأرض ـ من خصوص وعموم ـ أن يَدَعوه علىٰ قيد الحياة؛ لأنه أضر من «ابن الحُقيق» وغيره ممن ندب رسول اللّٰه ﷺ إلىٰ اغتيالهم.

فتَركُ اغتيال ورثتهم في هذا الزمان تعطيل لوصية المصطفىٰ ﷺ، وإخلال فظيع بعبودية اللّٰه، وسماح صارخ شنيع للمعاول الهدامة في دين اللّٰه، لا يُفسَّرُ صدورُه إلَّا مِن عدم الغيرة لدين اللّٰه، والغضب لوجهه الكريم، وذلك نقص عظيم في حب اللّٰه ورسوله وتعظيمهما، لا يصدر من محقق لعبودية اللّٰه بمعناها الصحيح المطلوب.

فصدقك ـ أيها المسلم ـ مع اللّٰه بضراعتك إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ينجيك من أخطار التسويف في تنفيذ أوامر اللّٰه ووصايا رسوله، فضلًا عن تعطيلها الذي لا يصدر إلَّا من شارد عن اللّٰه بشعور أو غير شعور ـ كما سبق إيضاحه في مباحث السكر المعنوي والرق المعنوي، وكما سيأتي مزيد له في السفه المعنوي ـ، واللّٰهُ الهادي.

المُنافسة العامة في الإسلام:

إن الضراعة الصادقة إلىٰ اللّٰه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تستلزم المنافسة العامة بين عباد اللّٰه فيما يصلح دنياهم وآخراهم، يتنافسون في نيل الدرجات العلا في الحياتين، يتنافسون أولًا: بتلاوة القرآن حق تلاوته بحفظ ألفاظه وتدبر معانيه، ويتنافسون في فهمه من جميع النواحي، ثم يتنافسون في الانطباع به والتأثر حتىٰ يتشرب في قلوبهم، ويتغلغل ذلك في شرايينهم، ويتنافسون في الاقتداء بسنة نبيهم ﷺ، ثم يتنافسون في حمل الرسالة بالدعوة والتبليغ، وتوزيع هداية اللّٰه وتصدير

---

(١) القتل.

أنواره في مشارق الأرض ومغاربها، وتعميم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وكل ما يقتضيه موجب التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وهذا التنافس في هذه الميادين يحملهم علىٰ مزاولة الأعمال الحرة من جميع ضروب الاكتساب، فكلٌّ منهم يتوجه إلىٰ حرفة ملائمة له فيتقنها ويتفنن فيها، ليصون وجهه عن الحاجة إلىٰ غيره من جهة، ولا يكون مرتبطًا بمن يعوقه عن التنافس في أمر دينه ـ فضلًا عمن يخرسه عن النطق بالحق، أو يقعده عن حمل رسالات ربه ـ من جهة أخرىٰ، فلا يسترخص نفسه بنيل وظيفة تجره إلىٰ هذه الحالات أبدًا، ولا يقبل الوظيفة قطعًا إلا إذا رأىٰ أنه يكون فيها ركيزة صادقة للمسلمين، أو يرىٰ فيها معونة صحيحة علىٰ التنافس الواجب نحو اللَّه جَلَّوَعَلَا، فيكون معاكسًا للمخطط الماسوني اليهودي الماكر بالناس عامة، والمسلمين خاصةً.

والتنافس في الأعمال الحرة يرفع الرؤُوس، ويحرر النفوس، ويكسبها العزة والكرامة، كما يرفع من شأن البلاد، ويجعلها عامرةً مزدهرةً مصدِّرةً لا مستوردة؛ لأن مدلول هذه الآية الكريمة يوجب حسن المعاملة للخالق سبحانه وللمخلوق، فيكون الضارع بها صادقًا ناصحًا في معاملته، مخلصًا أمينًا في عمله، مجتنبًا الغش والتدليس والبخس والكذب والتلبيس، وبذلك يكون المسلم مثلًا أعلىٰ مرغوبًا علىٰ غيره، مفضلًا عمن سواه؛ لحسن معاملته وجودة صنعته.

ومن جهة أخرىٰ ينشط في حرفته ـ أيًّا كانت ـ؛ ليظهر أثر عمله، ويزداد إنتاجه، ويبدع في الاختراعات واستثمار القوىٰ والطاقات، بدافع التنافس الذي يفرضه عليه دينه، ويمليه عليه وجدانه حسب قوته في تنفيذ مدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيتوسع عملُه، ويشتد عضده بأنواع المشاركات الشرعية من شركة عنان وشركة وجوه وأبدان، وشركة مضاربة ومفاوضة ومساهمات علىٰ وفق المشروع، كل

هذا لتحقيق هدفه الرباني في هذه الحياة.

وكما أن تنافسه في طاعة ربه وحمل رسالته يحفزه علىٰ التنافس في الأعمال الحرة المدنية من سائر أنواع الاتجار والتصنيع فإنها تحمله ـ أيضًا ـ علىٰ التنافس في القوتين الحربيتين: القوة الحسية المادية، والقوة المعنوية الروحية؛ لأن تصميمه علىٰ التنافس في حمل رسالة ربه وتوزيع هدايته يدفعه أعظم دفع إلىٰ الاستعداد التام بجميع المستطاع من قوة رادعة وقامعة لعدوه الذي يحول بينه وبين ما أوجب اللَّه عليه في الأرض.

وقيامه بهذا الاستعداد يحمله علىٰ التنافس ـ أي: علىٰ منافسة أعدائه بما عندهم وبما يقومون به من استعداد ـ حتىٰ يحصل له التفوق عليهم ولا يدع لهم فرصة ولا مجالًا، بل ينافسهم جدًّا علىٰ تسخير واستثمار ما بثه اللَّه في هذه الأرض ـ مما علىٰ وجهها أو في جوفها أو أجوائها ـ من دابة أو مادة، قاصدًا بذلك وجه اللَّه لإعلاء كلمته وتنفيذ شريعته في الأرض، ثم يستعين باللَّه علىٰ ما يعجز عنه، ويجبره بزيادة القوة الروحية التي لا يغلبها غالب؛ فإن التنافس الصحيح في القوة ليس مقصورًا علىٰ الحديد كما يتصوره العصريون الماديون، وإنما هو بمعناه الشامل يعني القوة الحضارية: قوة السلاح والمعدات اللازمة للحرب، وكل ما يتطلبه المجهود الحربي من سائر اللوازم والحاجيات، وقوة العلم النافع الموصل إلىٰ اللَّه؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقوة الأخلاق والأدب، وقوة الجيش بالروح المعنوية الدينية والتدريب العسكري الذي يتطلبه الوقت، وقوة العقيدة الروحية التي تحصل بها وحدة الصف، وحسن البلاء، وصدق الإيثار، والتساند الكامل.

فالتنافس مفروض علىٰ أبناء الأمة الإسلامية بجميع هذه المعاني لدعم كيانها في الداخل، وجعله مرهوبًا، ثم لتفجير طاقاتهم للغزو الخارجي المتواصل، وذلك لحمل رسالة اللَّه وإعلاء كلمته، ونشر حكمه

الديني في الأرض، والذي لا يتنافس في هذه الأمور السابقة المهمة يعتوره الضعف من الداخل فلا يتأهل لما أوجب اللَّه عليه من الزحف المقدس، بل تصيبه الذلة والاستكانة، ويطمع فيه كل طامع، ويكون مزحوفًا عليه بدلًا من كونه زاحفًا برسالته، ويكون مسخوطًا عليه من ربه؛ لعصيانه إياه في تنكُّبه عن سنن الحياة التي سنها لخلقه من كونية وشرعية، ولكونه قد ألقىٰ بنفسه في التهلكة؛ لتركه لذلك، وعدم عزمه وتصميمه علىٰ الجهاد.

وبالجملة: فالصدق مع اللَّه بتحقيق الضراعة إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يحمل المسلم المؤمن علىٰ القيام بجميع أنواع المنافسة الدينية والدنيوية، فيتنافس المسلمون المؤمنون بالقيام بأنواع المعاملات الحرة، وينشطون بالاتجار والضرب في الأرض لذلك؛ مقرونًا بحمل الرسالة وإظهار الدين، وينشطون في الاستيراد والتصدير، مجتنبين ما يضر المجتمع مما حرم اللَّه استيراده أو تصديره أو مزاولته بأي نوع، كما ينشطون بتفنن في كل صنعة وتأسيس الشركات وتدشين المصانع المختلفة لهذا الغرض الذي يغنيهم عن الاستيراد من عدوهم أو من غيره، ويجعلهم أمةَ التصدير للإنتاجات الصناعية، كما أنهم أمة التصدير للهداية الروحية بين البشر، بل هدفهم الكامل بالتصدير الأول هو تحصيل التصدير الثاني.

وهذه المنافسة في جميع المعاملات الحرة تنعش الأمة، وتجلب لها الرخاء بكثرة الاستيراد والإنتاج، فترخص أسعار جميع الحاجيات الضرورية والكمالية، ولا يكون للمحتكر مجال أبدًا؛ لأن المنافسين يضربونه ذات اليمين وذات الشمال؛ لأن ما قلناه يستلزم المنافسة في الأسعار، فينقطع دابر الاحتكار والاستغلال الذي يتعلل به المغرضون من ذوي المذاهب الهدامة والمنخدعون بدعاياتهم، وهذا شيء معلوم بالضرورة، واستقراء أحوال كل من البلاد الحرة في الأعمال، والبلاد التي ابتليت بالتأميمات والقضاء علىٰ حرية التجارة والتصنيع ـ مما

هو في الحقيقة تحريم لما أحل اللَّه من ضروب الاكتساب، ورفض لما حض اللَّه عليه من المنافسة فيه ـ، مع مراعاة حسن القصد في هذه المنافسة، وذٰلك بأن تكون مقاصد المسلمين منحصرةً في ابتغاء الحلال من الرزق دون غش أو كذب أو غبن أو إنفاق للسلع بالأيمان الكاذبة، أو قمار أو رِبًا، أو ترويج ما يضر بالمجتمع من مطعوم أو مشروب من مسكر ونحوه.

وأن يكون هدفهم في ذلك الاستعانة علىٰ طاعة اللَّه وحمل رسالته، وصيانة الوجوه عن التسول أو التسكع، وأن يتنافسوا غاية الإمكان في حمل الرسالة، وتوزيع الهداية، والسخاء في سبيل اللَّه، وأن يتنافسوا في إنفاق المال في وجوه الخير لسد حاجة كل ذي حاجة من الناس والأمة، كما يتنافسون في تحصيل القوىٰ الحربية بجميع أنواع القوة حسبما يتطلبه الوقت لا يقتصرون علىٰ قوة الحديد؛ بل يتنافسون بجميع أنواع القوة كما أسلفناه.

ويتنافسون في كل لحظة من لحظات نفوسهم بطاعة اللَّه وابتغاء مرضاته؛ من أخذ القرآن بقوة ـ بجميع أنواع القوة اللفظية والمعنوية والعملية ـ، فيتنافسون في تلاوته بحسن تدبره وفهمه، ثم بالانقطاع والتأثر به، ثم بالعمل بأوامر اللَّه فيه ووصاياه، واجتناب ما نَهىٰ اللَّه عنه، كما يتنافسون في حفظه عن ظهر قلب، ويدفعون الجوائز السخية لأولادهم وأولاد فقرائهم علىٰ حفظه، ويتنافسون في الخشوع والبكاء عند تلاوته، ثم يتنافسون في حمل رسالته وتوزيع هدايته في ربوع الأرض بكل جد ونشاط، وكل بذل وسخاء، وكل تخطيط يتطلبه الوقت لهذه الغايه النبيلة التي هي وظيفة عباد اللَّه الصالحين من أنبيائه وأتباعهم في الأرض إلىٰ يوم الدين.

هذا ما يقتضيه مدلول ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ من التنافس الصحيح في الحياة، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين].

النجاة من الانحطاط:

إن تحقيق بني الإنسان صدقهم في ضراعتهم إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقيهم من الانحطاط عن مستوىٰ الإنسانية الحقيقي، ويكسبهم مقامهم اللائق في الحياة وذلك لأمور:

أحدها: إن الإنسان ـ بل النوع الإنساني ـ ضائع في هذا الوجود إذا أضاع المعنىٰ الأصيل الذي أوجده اللَّه من أجله؛ لأن اللَّه اختاره في الأرض خليفةً، فلابد له من ارتباطه بموجده ارتباط المربوب بالرب، ارتباطًا يجعله حاصرًا للتأله به وإليه بجميع معانيه ومبانيه؛ ليكون خاضعًا لسلطانه، منفذًا لأحكامه علىٰ نفسه أولًا، وعلىٰ من يلي أمرهم ثانيًا، وإلا فما قيمة الخليفة؟ بل ما هو المعنىٰ لوجوده؟ زيادةً عن تسخير اللَّه له كل شيء وتمليك اللَّه له جميع الأشياء، ولهذا كان الكافر لا يستحق ذلك؛ بل يؤول حكم اللَّه فيه إلىٰ الاسترقاق والصغار، وتكون جميع الأشياء ملكًا لعباد اللَّه الصادقين الصالحين، كما قال تعالىٰ في الآية (١٠٥) من سورة «الأنبياء».

ثانيها: إنه يعجز عن تكوين العلاقات الصحيحة المطردة بينه وبين محيطه ـ فضلًا عن مجاوريه ـ، بل يكون مهزومًا في نفسه الداخلية في جميع حالاته.

ثالثها: إن العقيدة الدينية هي الضابطة لنوازع النوع الإنساني المجبول عليها كمتحرك بإرادته وقدرته، فمهما استبدل بها غيرها من النظريات الشيطانية؛ فإنه لا يقدر علىٰ ضبط نزعاته التي تسيء إليه وإلىٰ غيره، مع أن تلك النظريات تحرمه من التحليق في الكون الفسيح، وتحرمه من تعميق علاقاته بذلك، قاصرةٌ نظره علىٰ إقليمه أو عشيرته، أو علىٰ نفعيته، والعقيدة الدينية المحمدية الصحيحة هي التي تعمق علاقاته بجميع الكون وتوثقها به، وترهف شعوره بمسؤوليته عن جميع هذا الكون وما يصدر فيه، ولهذا خاطب بعض قواد المسلمين «البحر

الأطلسي» قائلًا: «لو نعلم أن وراءك ـ أيها البحر ـ قومًا؛ لعبرناك إليهم». ولا يوجد هذا قطعًا في أهل أي عقيدة أو نظرية غير ما جاء به الإسلام مما هو منحصرٌ في آية العبودية العظيمة المعاني، فهي التي تشمل الكون كله، وتحيط بالزمن علىٰ طول مداه.

رابعًا: إن بني الإنسان إذا اختلت عقيدتهم باللَّه ـ فضلًا عن تلاشيها، اختلت جميع أمورهم، وكانوا من جهة مستعبدين للهوىٰ والشهوات، ومن جهة ثانية مستعبدين لبعضهم بعضًا، ومن جهة ثالثة تمرح عقولهم بما يغزوها من دجل المغرضين وأوهام المبطلين، وهنالك تفسد تصوراتهم في كل ميدان من ميادين الحياة؛ كما نرىٰ حالتهم في الميدان السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون]، فيكونون علىٰ أسوأ حالة من الانحطاط في كل شيء.

ففي الميدان السياسي تجد انحطاطهم بارزًا في تقديس الأشخاص، واحتلالهم منهم مكانةً في القلوب لا يحظىٰ بها اللَّه رب العزة والجلال، وخشيتهم والخوف منهم، وتعليق الآمال عليهم، وتقبُّل ما يصدر منهم، وإسلام الوجه لهم كاملًا من دون اللَّه، وتصديقهم حتىٰ فيما تسخر منه العقول السليمة البدائية، وهم قد عرفوا من علم المعقول وتثقفوا بالثقافات العصرية التي فرحوا بها واطمأنوا إليها؛ بل يتبجحون بها وهم يصفقون لكل دجال علىٰ ما تنزه هذا التفسير المبارك عن ذكره، مما لو سجل في تاريخ تقرؤه الأجيال المقبلة لكان مضحكًا، أو معدودًا من ضروب الفكاهة والخزعبلات، ولا يزالون سائرين وراء سرابهم، مع انكشاف إفلاس مبادئهم ومذاهبهم، وانكشاف خزيهم في هزائمهم أمام اليهود.

أما في الميدان الاقتصادي فهم ينتقلون من إقطاع واستغلال في كل ثورة وانقلاب إلىٰ إقطاع من نوع جديد واستغلال أفظع من سابقه، فكما أنهم ينتقلون من حكم ملك واحد إلىٰ حكم ملوك كثيرة، بل إلىٰ

سيطرة وبطش من هم أظلم وأفسد من كل ملك عرفه التاريخ، وتلك الملوك تتمثل في الضباط الحربيين، ومن هم في صف ضباط، وفي القواد ونائبي القواد ومن علىٰ شاكلتهم ممن يفترسون الحكم، فكذلك يلعبون في اقتصاديات الشعوب ومقدراتهم، ويحاطون بهالة التعظيم، وتضفىٰ علىٰ ألاعيبهم أثواب القداسة، ويكممون الأفواه عن النقد؛ بل يجعلون من لم يخضع لألاعيبهم خائنًا وعميلًا، أو رجعيًّا من بقايا الحكم البائد.

وهكذا يوزعون الألقاب حسبما يريدون، وتكون الطبقة المفترسة للحكم هي طبقة الأحرار، وهي المتصرفة المطلقة التي لا تسأل عما تفعل، ومن عداها فهو ممقوت مخذول، إلا الذي يسترخص نفسه لهم، ويخدم رغباتهم، ويحمدهم في كل ما يفعلون، فذلك هو المواطن المتحرر في مصطلح توزيعاتهم للألقاب، فأعظم به من انحطاط مروع، بل سقوط مفجع!!.

وأما في الميدان الثقافي: فهو انحطاط لا تقبله الطبيعة الحيوانية التي فطرها اللّٰه عليها، فإن أي حيوان - حتىٰ من الحشرات - لو صرفته عن وجهته التي يريدها وأزحته عنها ثم تركت له السبيل ولاحظته؛ لوجدته يعود إلىٰ هدفه ولا ينساه، ولكن علىٰ العكس نجد أغلب البشرية اليوم قد لعبت به الأفكار اليهودية، وأصبح سائرًا فيما تهواه هي لا فيما يهواه هو، وذلك لأسباب:

أحدها: أن الذي يضل عن سبيل اللّٰه، أو يشرد عنه، تستهويه شياطين الإنس الذين تكون فتنتهم أعظم بكثير من فتنة شياطين الجن؛ لما يملكونه من وسائل الإعلام والإغراء؛ كما هي سنة اللّٰه فيمن تنكب عن سبيله.

ثانيها: الغزو الفكري المتنوع الذي تفاقم شره في ميدان الثقافة وأصبح بأيدي من أبرزتهم الأيدي الخفية التي تعمل في الظلام؛ لتنشر الثقافة الغربية المرتكزة بجميع معانيها ومبانيها علىٰ المادة، والتي

أحدثت ـ وستحدث ـ خَواءً روحيًّا تخدم به الشيوعية واليهودية العالميتين.

ثالثها: فقدان الوعي الصحيح والوجدان بسبب انحصار ما يبث في ميدان التربية والتعليم، وما ينشر في وسائل الإعلام علىٰ مقاصد وأغراض كل فئة حاكمة للأمة، أو الشعب الذي تسعىٰ في تربيته وحشو مسامعه فيما تريده منه وتسيره إليه، وعلىٰ هذا فمن أين يحصل الوعي أو يدب الوجدان؟! أمن التربية التي خططتها الفئة الحاكمة لتصنع أولاد رعاياها علىٰ عينها لا علىٰ أعينهم؟! أم من الصحف وسائر وسائل الإعلام المُأَمَّمة والمستعملة في قلب الحقائق تارةً، وتارةً في كتمانها؟

لا جرم أن الوعي مستحيل؛ لأن النظر مقصور علىٰ بصيص إلىٰ ناحية واحدة، هي الناحية التي يريدها الحكام المشار إليهم ممن افترسوا الحكم حسب المخطط الآنف الذكر، فلا عجب أن تبلغ البشرية في انحطاطها مستوًىٰ دون مستوىٰ الحيوان أو الحشرات؛ لأنهم بسبب ما قدمنا أصبحوا فاقدي الهدف بالكلية أو جاهلين به، متجهين اتجاهًا عكسيًّا كما تريده الشيوعية واليهودية العالميتان، ومع هذا ففيهم نفخة غرور جعلتهم يتبجحون بالوعي وهم عنه في مكان قد امتلأ سرابًا.

وأما انحطاطهم في الشؤون الاجتماعية: فحدث عنه ولا حرج، ذلك لفساد تصوراتهم بما أحدثوه في الميدان الثقافي والإعلامي من حشائش الأباطيل التي تبلورت بها أدمغتهم؛ حتىٰ صاروا يستحسنون القبيح، فأصبح المنكر عندهم معروفًا والمعروف منكرًا، فجنَوا علىٰ العقول والصدور بما أباحوه من المسكرات التي حرمها اللَّه الحكيم لحفظها، وبثِّ جميع أنواع الميوعة المُذهِبة للشهامة والقاتلة للرجولة، والعمل الدائب علىٰ إفساد الأخلاق والتحلل من الفضيلة؛ بإنشاء المسارح والمراقص والبلاجات الخليعة وحانات الخمور، والاختلاط في العمل والتدريس بين الجنسين، وإرخاص الأعراض بإباحة الزنا

حالة الرضا، وتشريع الأنظمة الديوثية المعفية للزناة عن إقامة حدود اللَّه، والإغراء علىٰ الفواحش بإباحة التبرج وإظهار الزينة بل إظهار المفاتن، مما يعتبر تشجيعًا للفسقة وفتنةً لغيرهم... إلىٰ غير ذلك مما هو انحطاط ـ بل سقوط وتسفل ـ بالإنسانية إلىٰ مستوىٰ البهيمية وشرود عن تزكيتها المحققة للفلاح بجميع معانيها، ورغبة ملحة في الخيبة العامة في جميع شؤون الحياة، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس].

فتزكية الإنسانية وتحقيق شرفها ورفقها هي بتطبيق هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الموجبة رعاية أمانة اللَّه والوفاء بعهده في تحقيق الجهاد النفسي الداخلي والخارجي الحربي، وحمل رسالة اللَّه، وتوزيع هدايته، ليكون أهل هذه الآية هم أهل القوامة علىٰ الأرض؛ فيشمخوا عاليًا عن كل تسفل تريده لهم اليهودية العالمية؛ فيحصلوا علىٰ الوعي الصحيح الذي يقيهم من كل انحطاط، وباللَّهِ التوفيق.

✍ نحو الصراط المُستقيم:

وإذا كانت عبودية اللَّه عميمة الشمول، تتعمق إلىٰ جميع نواحي الحياة، وتتطلب من العبد بذل المجهود، وتكريس جميع أوقاته في مرضاة ربه، وتسخير كل شيء لإعداد القوة التي يردع بها كل عائق يعوقه عن سلوك مرضاة ربه، وكان السبيل إلىٰ ذلك طريقًا واحدًا؛ من سلك سواه من الطرق التي يحبذها ويدعو إليها شياطين الإنس والجن؛ فقد ضل وغوىٰ، وذهبت أعماله خسرًا وهباءً منثورًا، استوجب ذلك أن يردف ابتهاله إلىٰ اللَّه بكامل الضراعة لما يحقق؛ سائلًا هدايته إلىٰ ما يحقق عبوديته علىٰ الطريق الموصل إليه والوجه الذي يحبه قائلًا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، الذي لا عوج فيه ولا لصاحبه غاية سوىٰ اللَّه، ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الذي سلكه ويسلكه من أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

[الشورىٰ: ٥٣]، الطريق الذي طلب اللَّه من أنبيائه ورسله وأتباعهم علىٰ الحق سلوكه وفق شريعته من أمر ونَهْي وحدود؛ لأنه لا يرضىٰ أن يُعبد إلا بما شرع، فمن عبده علىٰ خلاف شرعه فهو من الأخسرين أعمالًا، ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف].

كما أن من عبده وفق شرعه في المأمور والمحظور ـ لكنه أهمل حدوده، أو أشرك بربه في حبه وتعظيمه لبعض البشر الذين عطلوا حدود اللَّه وشرعوا أنظمةً وقوانينَ جزائيةً مخالفةَ لحكمه وحدوده ـ، فإن عبادته لا تنفعه ما دام مواليًا لطواغيت البشر بالحب والتعظيم وهم يحكمون بغير ما أنزل اللَّه؛ لأن من شروط تحقيق التوحيد: الكفر بالطاغوت.

فالمقدس له بالحب والتعظيم، وقبول ما يصدر عنه استحسانًا يكون من جملة من قال اللَّه فيهم: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾ [الغاشية]، وقد حصر اللَّه الضلال فيما سوىٰ الحق الذي شرعه ـ كما قدمنا توضيحه ـ، فمن لم يتبع ما شرعه اللَّه ابتدع ضلالات لا يعلم مدىٰ ضررها وأضرارها إلىٰ اللَّه.

قال الشيخ ابن تيمية: إن كل من سلك إلىٰ اللَّه ﷻ علمًا أو عملًا بطرق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة وأئمتها؛ فلابد أن يقع في بدعة قولية أو عملية، فإن السائر إذا سار علىٰ غير الطريق المتهيع[1] فلابد أن يسلك بنيَّات الطريق، وإن كان ما يفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهدًا فيه مغفورًا له خطؤه، وقد يكون ذنبًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون كفرًا بخلاف الطريقة المشروعة في العلم والعمل، فإنها أقوم الطرق، ليس فيها عوج، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

---

(١) طريق متهيع: أي طريق واضح واسع بين. «لسان العرب» (٨/٣٧٩).

وقال عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه: خط رسول اللَّه ﷺ خطًّا، وخط خطوطًا عن يمينه وشماله ثم قال: «**هذا سبيلُ اللَّه، وهذه سُبلٌ، علىٰ كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعُو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»(١).

وقال الزهري: «كان من مضىٰ من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة». انتهىٰ.

ومنه تعلم أن البدعة ليست منحصرةً في العمل فقط، وإنما هي داخلة في العلم ـ أيضًا ـ، فمن تعلم علمًا مخالفًا لما جاء به محمد ﷺ ومن تبعه، وفرَّع عليه أصحابه والتابعون لهم بإحسان، فعلمه لا شك أنه يجلب الضرر عليه وعلىٰ من تأثر به من الخلق، لأن كل علم لا يقرب صاحبه من اللَّه ورسوله لابد من أن يقربه من أعدائهما.

وكل علم لا يحبب لصاحبه الإيمان الشرعي ويغرسه في قلبه؛ لابد أن يحبب إليه الكفر والفسوق والعصيان والركون إلىٰ أهل ذلك ومجانبة أهل اللَّه وازدراءَهم، كما هو المشاهد في هذا الزمان ممن تعلموا علمًا ماديًّا علىٰ أساتذة الكفر الذين ودُّوا أن يردونا عن الإسلام، فأدخلوا من تتلمذ عليهم من أبناء المسلمين في دركات الكفر والإلحاد والتشكيك، وجعلوهم يستسيغون المنكر باسم «التقدم والمدنية»، ويعتبرون العفة والحصانة وأكثر ضروب المعروف تخلفًا عن ركب الحضارة المزعوم، الذي هو في الحقيقة ركب دعارة وخلاعة وجناية علىٰ جميع مقومات الإنسانية؛ حتىٰ أفقدوهم شخصيتهم الحقيقية، وأضاعوا مقوماتهم الدينية والخلقية؛ فازدوجت شخصيتهم بأولئك ازدواجًا لا تتخلص منه إلَّا بالرجوع إلىٰ صراط اللَّه.

وانصهرت آدابهم وأخلاقهم الطيبة في بوتقة من تتلمذوا عليه واحتسوا من قيحه ودمه وصديده، وأصبحوا صورةً سيئةً لأولئك في عقيدتهم

---

(١) تقدم.

وأخلاقهم ونظمهم في الأسرة والحكم، وفي تفكيرهم الذي غلبت عليه نظريات ومبادئ أولئك، فأصبحوا مغلوبين علىٰ عقولهم، متبلورةً أفكارهم بما يقذف به أعداؤهم، فصدق عليهم قول اللَّه سبحانه: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

وأي نسيانٍ للمرء نفسه أشنع من قبوله لمصادرة عقله؟ لأنهم استسلموا لغير اللَّه من كل ملحد وطاغوت؛ فوقعوا في الشرك المنافي لعبودية اللَّه الصحيحة، والمجانب لصراطه المستقيم؛ فمرجت عقولهم، وكان أمرهم فُرطًا في كل ميدان.

ومن شاهد أحوال الأمم المعرضة عن صراط اللَّه في هذا الزمان والمقلدين لها من أدعياء الإسلام، ورأىٰ ما هم فيه من قيل وقال، وإضاعة للأموال، وخضوع للنساء، وعكوف علىٰ الشهوات؛ عرف كيف أنساهم اللَّه أنفسهم بما اجترحوا، وتحقق سوء مآلهم بكونهم طُعمةً للفتن، وعبيدًا للمجرمين، وعرف حكمة اللَّه ولطفه بعباده حيث أرشدهم بعد تكرار العهد معه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلىٰ تكرار الضراعة إليه بقولهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وهو الذي لا عوج فيه ولا اشتباه، من سلكه فهو معصوم من الضلال والالتباس، ومن حاد عنه وقع في كثير من المتاهات المهلكة له هلاكًا معنويًّا، يعيش به في رق معنوي لا يرتجىٰ تحريره منه، وسكر معنوي لا ترجىٰ إفاقته منه، وسفه معنوي مطبق لا يرتجىٰ معه رشدٌ أبدًا.

وعلىٰ هذا فالعبد مضطر غاية الاضطرار دائمًا إلىٰ أن يهديه اللَّه إلىٰ صراطه المستقيم، حتىٰ لا يقع في هذه الأوحال التي وقع فيها معظم البشرية في هذا الزمان ممن أطاعوا سادتهم وكبراءهم فأضلوا السبيل، ومن وقع في شراكهم قسرًا فحجبوا عنه الأنوار، وجعلوه يتخبط في ركام من ظلمات دجلهم وأوهامهم، فقد وقعوا في تيه معنوي أفظع من تيه بني إسرائيل الحسي في «سينا».

فلما كان العبد مضطرًا إلىٰ هداية اللّه؛ أرشده إلىٰ الابتهال والضراعة الصادقة بالسؤال أن يهديه صراطه المستقيم، وفرض عليه قراءة الفاتحة في كل ركعة من صلاته؛ لاشتمالها علىٰ السؤال العظيم الذي تتوقف السعادة في الدارين علىٰ حصوله.

وقد يقول قائل: إن المسلم قد اهتدىٰ وعرف الإسلام وعمل به، فكيف يكون محتاجًا إلىٰ أن يسأل الهداية إلىٰ صراطه في كل ركعة وفي كل حالة؟!.

والجواب: أنه قد اهتدىٰ هدايةً مجملةً بأن الإسلام حق، والرسول حق، والدين حق، وتشريعاته حق، ولكن هذه الهداية المجملة تحتاج إلىٰ هداية مفصلة في كل ما يأتيه وما يذره، وما يطرأ عليه من الشؤون: السياسية، والاقتصادية، والثقافية والاجتماعية؛ هذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ: فإن العبد هَمَّامٌ يتحرك بالإرادة لِتَجدُّدِ حوائجه ورغباته ونزعاته في تلك الشؤون جميعها، وكذلك تجري عليه أحداث في نفسه وفي بيئته وخارج بيئته، فلابد له من التأثر بها إن لم يكن علىٰ بصيرة من أمره، فكان في جميع الأحوال محتاجًا إلىٰ معرفة حكم اللّه ومرضاته في جميع هذه الأمور؛ ليفعل في كل وقت ما أمر اللّه به، وينتهي فيه عما نَهىٰ عنه، فهو محتاج في كل وقت وكل شأن إلىٰ أن يعلم، ويعمل بما علم من فعل المأمور وترك المحظور، ومحبة ما يحبه اللّه من كل ما أحدثته الحركات السياسية أو أبرزته أو قذفت به الثقافة المعاصرة؛ فيحب من ذلك ما يحبه اللّه، ويعامله كما يطلبه اللّه، ويبغض من ذلك ما يبغضه اللّه، ويعامله بما يطلبه اللّه منه من البغض والعداوة أو المحبة والموالاة، هكذا الحكمة من مشروعية الضراعة إلىٰ اللّه بالهداية إلىٰ صراطه.

وحاجة الإنسان إلىٰ سؤال ربه هذه الهداية حاجة ضرورية في جميع نواحي الحياة؛ ليحصل بها علىٰ السعادة والنجاة، فهو أحوج إليها من

الرزق الذي ينقطع بالموت، وهو مضمون له قبله؛ لأنه إذا اهتدىٰ كما يطلب اللَّه منه؛ كانت حياته خيرًا ورشدًا ونصرًا له ولمن اتبعه، وكان الموت أو القتل له من تمام النعمة؛ لأنه إن مات كان موته موصلًا له إلىٰ السعادة الأبدية، وإن قتل كان شهيدًا حائزًا ما لا يحوزه غيره من صنوف النعيم المقيم، بل بحصول الهداية له يكون محوطًا بأنواع النصر من اللَّه، فيعيش قائدًا لا مقودًا، وسيدًا لا مسودًا، ومرفوع الرأس لا مرفوع الأرجل، كما حصل لكثير من الشعوب المنحرفة عن صراط اللَّه متبعةً سُبلَ البشر، ومطمئنةً لوعود شياطين البشر؛ حتىٰ أصبحت مرفوعةَ الأرجل منكوسة الرؤوس نكسًا معنويًا، وأكثرهم لا يشعرون؛ لأنهم ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٠﴾ [الأعراف].

والصراط المستقيم هو السبيل الموصل إلىٰ مرضاة اللَّه ونيل وعده في الدارين، ولا يهتدىٰ إليه إلا بمعرفة وحيه حق المعرفة وسلوكه حق السلوك، ولذا فسروه بالإسلام وبالقرآن؛ لأن طريق العبودية لا يمكن سلوكه إلا بتحقيق إسلام الوجه للَّه بصدق وإخلاص ـ وفق مدلول وحيه من كتاب وسنة ـ؛ لأن من أراد الوصول إلىٰ اللَّه من غير طريق الإسلام والوحي كان مفتريًا علىٰ اللَّه مغضوبًا عليه من اللَّه، أو ضالًا غاويًا أسوأ من حال البهيمة التي لا تميز بين الراعي والجزار، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، والمغضوب عليهم: كل مجانب للحق بغيًا وعنادًا كاليهود ومن قلدهم، أو سار في أي خطة من خططهم ونِحلةٍ من نحلهم، فإنهم هم الذين أغروا ـ ويغرون دائمًا ـ بالمادة، والطمع بالشهوة والرئاسة، فيؤسسون المذاهب المادية المختلفة المتناقضة؛ ليبثوا في الناس روح التنافر والشقاق، ويصرفوهم عن تعاليم الدين وتقديسه، إلىٰ تقديس الطين وعبادة المادة والهوىٰ، وهم الذين ضربوا الأمة الفارسية بالمذهب المزدكي الشيوعي ـ في عهد الأكاسرة قبل الإسلام ـ علىٰ يد «مزدك» اليهودي بتعليم وتحضيض

منهم، كما لبسوه في هذا القرن علىٰ يد «كارل ماركس» وأتباعه من اليهود، وهم الذين أولعوا الناس في القديم بالقوميات المختلفة، ووجهوهم إلىٰ عبادة الأصنام المختلفة؛ حتىٰ سعوا في عهد «خزاعة» إلىٰ تبديل ملة إبراهيم ﷺ، وبجلب الأصنام والخمور من «الأردن» علىٰ يد عمرو بن لُحَيٍّ الخزاعي.

وقد كان العرب قبل ذلك مسلمين علىٰ ملة إبراهيم، لم يعرفوا شركًا ولا وثنيةً، نعم إنهم كانوا مسلمين قبل أن يكونوا عربًا عكس ما يزعمه المصريون من القوم المنخدعين بأفراخ اليهود ـ كما سنفصله عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾، من سورة الشعراء ـ إن شاء اللَّه ـ، وهم الذين نبشوا القوميات من جديد في هذا الزمان، وساعدهم أفراخهم من ضالي النصارىٰ والمنخدعين بهم، وهم الذين أنشؤُوا البدع المختلفة في الإسلام، مبتدعين منها باستحقاق الخلافة النبوية، وتأليه بعض آل محمد ﷺ، وتقديس بعضهم بصنوف المفتَريات، ثم بتأسيس طرق ومذاهب في التعبد وفي الإلهيات، حصل من جرائها فتن ومحن عظيمة علىٰ المسلمين.

ولا يزالون يعيثون في العالم بشتىٰ أنواع التخريب الفكري والعسكري كما تشهد عليهم قرارات محافل ماسونيتهم، ووصايا «حاخاماتِهم» وتقارير حكمائهم الملعونة، مما ليس هذا موضع تفصيله.

أربع هدايات يطلبها المُؤمن:

وفي إرشاد اللَّه لعباده بالضراعة المتكررة إليه أن يهديهم الصراط المستقيم: رد سرمدي قاطع قامع لكل غوي يريد إبعاد الناس عن دين الحق وصرفهم إلىٰ المبادئ والمذاهب العصرية، أو يريد تلاقي المسلمين باليهود والنصارىٰ وصنوف الملاحدة المشركين، زاعمًا في تضليله أن الناس كلهم عباد اللَّه، وكلهم سالك إليه سبيلًا من الطرق، والغاية واحدة!! كما يزعمه بعض الدكاترة الذين أبرزتهم الثقافة

الماسونية ورشحتهم للقيادة الفكرية؛ لأن الغاية الصحيحة إلىٰ اللَّه لا تنال إلا من طريق واحد وهو صراط اللَّه المستنير سبيله بوحيه المبارك، وما عداه ضلال وفرقة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]، أي: لعلكم تأخذون لأنفسكم وقايةً من الضلال والمهالك التي تجعلكم في فرقة وشقاق بعيد، وتجعل مجتمعكم طافحًا بأنواع الشرور من الفوضىٰ ومفاسد الأخلاق والأنانية المسعورة التي تذهب بأمن الحياة وخيرها، كما هو حاصل في هذا الزمان لمن سلك غير صراط اللَّه، ولو كان كل طريق يوصل صاحبه إلىٰ اللَّه لما أرسل اللَّه الرسل وأنزل الكتب إلىٰ أقوام صرحوا عن تعلقهم بالأصنام الصامتة والناطقة بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فإذا كان هذا قصدهم، فكيف يرسل اللَّه إليهم الرسل بالكتاب والسيف، ويبيح دماءهم وأموالهم ونساءهم؟ فهذه الأكذوبة القبيحة مفضوحة بوحي اللَّه لمن تدبره، ولكنها راجت علىٰ من أعرض عن ذكر اللَّه واتبع همزات شياطين الإنس من اليهود ومقلديهم.

وأيضًا: ففي هذه الآية الكريمة رد علىٰ كل مبتدع من أي بدعة كانت في سائر الشؤون السياسية والثقافية والاجتماعية وغيرها، فالمفضِّل للكافر من جنسيته علىٰ المسلم من غير جنسيته بالرفد[١] والولاء فهو شارد عن عبودية اللَّه سالك غير صراطه المستقيم، مفضل صراط المغضوب عليهم والضالين علىٰ سبيل عباد اللَّه المؤمنين.

وكذلك المتلقي ثقافةً مخالفةً لوحي اللَّه فهو من هذا النوع، والسالك في الشؤون الاقتصادية سبيلًا مخالفًا لحكم اللَّه فهو من هذا القبيل، والمبتدع في الشؤون الاجتماعية إباحة ما حرمه اللَّه من التبرج والاختلاط والسكر أو الزنا أو سائر أنواع الفواحش بحجة التطور والمدنية أو

---

(١) الرفد: العطاء.

بحجة مسايرة الزمن وإرضاء الأقليات غير المسلمة... وما إلىٰ ذلك من كل مبتدع في الدين، فإن جميع هؤلاء يلتحقون بالمغضوب عليهم وبالضالين؛ لاختيارهم سبلًا غير صراط اللَّه الواجب اتباعه وتكرار الضراعة إلىٰ اللَّه بالهداية إليه.

والهداية في اللغة: الدلالة بلطف علىٰ ما يوصل إلىٰ المقصود، وقد لطف اللَّه بالإنسان؛ فمنحه أربع هدايات يحصل بها علىٰ سعادته:

أحدها: الهداية الطبيعية بالإلهام الفطري، وتحصل هذه منذ الطفولة.

ثانيها: هداية الحواس والمشاعر، وهي متممة للهداية الفطرية، وعامة للإنسان والحيوان، وهي التي قال اللَّه عنها: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه].

ثالثها: هداية العقل؛ لأن الهدايتين السابقتين لا تكفيان لحياة الإنسان الاجتماعية، فأمده اللَّه بالعقل الذي يميز به بين الأشياء، ويتميز به علىٰ جميع المخلوقات سواه؛ لأن العقل يكون مصححًا لغلط الحواس والمشاعر؛ بل يكون مانعًا وحاجزًا من ذلك؛ ولهذا حرم اللَّه الجناية علىٰ العقل بشرب أي مسكر أو مخدر، وشرع فيه العقوبات الرادعة.

رابعها: هداية الدين، ولابد منها أبدًا لبني الإنسان، إذ لا يكتفىٰ بالهدايات السابقة عنها، وهي لا تدرك بالعقل ولا بالحواس؛ بل قد يهمل الإنسان عقله واستعمال حواسه عند ثورة شهوته والشغف بنيل مآربه وأنانيته، فلا حاجز له ولا رادع إلا الهداية الدينية؛ فلذا كان الإنسان أحوج إليها من طعامه وشرابه؛ لأنه بدون الهداية الدينية توقعه أحاسيسه ومشاعره في مزالق الخطأ والرذيلة، بل تستعبده الشهوات والمطامع والأهواء التي لا حد لها، بل قد تجعله يتطاول إلىٰ ما في يد غيره ويتطلع إلىٰ أعراض غيره؛ فيحصل للناس من هذه

النزوات ما يكدر صفو عيشهم من التنازع والتخاذل والتقاطع والتجادل والتلصص والانتهاب وقتل النفوس، مما يسبب مجازر بشرية، وخرابًا ودمارًا علىٰ البلاد.

فلذلك كانت حاجتهم إلىٰ الهداية المرشدة للخير والمنورة لهم في أوساط ظلمات أهوائهم التي تغلب علىٰ عقولهم حتىٰ تجعلها في سكر معنوي أفظع وأبطأ من كل سكر حسي، وهذه الهداية هي التي نبه اللَّه عليها بقوله: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولهذا كانت هذه الهداية هي أكبر نعمة من اللَّه علىٰ عباده من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهنا فوائد:

الأولى: قد قرأ الأكثرون: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾، بالصاد المهملة، وقرأ بعضهم بالسين، وبعضهم بالزاي، وبإشمام الزاي، ولعل هذا الخلاف ناشئ من اتفاق هذه الحروف الثلاثة في صفة «الصفير» ـ لا سيما الصاد والسين ـ، لكن من قرأ بالسين فلكون أصل «الصراط» بالسين من «السرط» وهو: اللقم؛ ولذلك يسمىٰ الطريق: «لقمًا»؛ لأنه يبتلعه أو كأنه سالكه، ومسترط الطعام ممره، وهو في العرف الشرعي: الصراط المستقيم الوسط، المستقيم بين طرفَيِ الإفراط والتفريط في كل الأخلاق والأعمال والسلوك.

الفائدة الثانية: إطلاق طلب الهداية يقتضي عموم جميع أنواع الهداية في جميع نواحي الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية؛ لأن الإنسان قد يزل وترد عليه الخواطر الفاسدة في كل شأن من هذه الشؤون مهما كان متدينًا مراقبًا للَّه فكيف مع الغفلة؟! فعباد اللَّه مأمورون أن يسألوه الهداية إلىٰ صراطه المستقيم في جميع شؤون حياتِهم، ليثبتهم علىٰ دينه ويديمهم عليه، ويعطيهم زيادات

الهداية التي هي من بعض أسباب الثبات وأن يحرسهم عن استغواء الغواة، واستهواء الشهوات، ويعصمهم من الشبهات، فيزيدهم استنجاحًا لما وعدهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد]، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، فيعلمهم العلم الحقيقي المنور لقلوبهم والمسبب لهم الخلاص من كل ضلال وغضب، ويوفقهم للجنة بسلوك طريق المنعم عليهم الذين يورثهم اللَّه إياها.

الفائدة الثالثة: قد يتساءل البعض فيقول: كيف يأمرنا اللَّه باتباع صراط من تقدمنا من النبيين، وفي ديننا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم قد كملت بها شريعتنا، وصارت أصلح لزماننا من شريعتهم؟

والجواب: أن القرآن صرح بأن دين اللَّه واحد لجميع من سبقنا من الأمم، وأن الخلاف في الفروع التي تختلف باختلاف الأزمنة، وأما الأصول فمتحدة لا خلاف فيها، كما قال تعالىٰ في سورة «الشورىٰ»: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، فالإيمان باللَّه واليوم الآخر وفعل الخيرات وترك القبائح أمر متفق عليه؛ كالوصايا العشر المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، من سورة الأنعام، يشترك فيها دين جميع الرسل، وقد أمرنا اللَّه بالتفكر فيما كانوا عليه، والاعتبار بما صاروا إليه؛ لنقتدي بهم في القيام بأصول الدين، وأما تفصيل الأحكام فقد اختصت شريعتنا فيه بأوفر نصيب.

الفائدة الرابعة: إطلاق الاستعانة باللَّه ليتناول كل مستعان فيه؛ لأن حذف المتعلق يدل علىٰ العموم، كما أن في ذلك سرًّا آخر متضمنًا لنفي الحول والقوة عن نفس العبد المستعين، والانقطاع بالكلية إلىٰ اللَّه عما سواه، فهو أولىٰ بمقام العبادة، وأيضًا فإن طرق الضلالات التي يستعاذ منها وتستثنىٰ بغير المغضوب عليهم ولا الضالين كثيرة لا نهاية لها، وباستعانة المرء بربه يتخلص من مهالكها.

الفائدة الخامسة: يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول في ختامها: «آمين»، يعني: اللَّهم استجب، وليست آيةً منها ولا من القرآن قطعًا.

وقيل معناها: «أو كذلك فليكن أو كذلك فافعل»، ويستحب الجهر بها في الصلاة لما رواه البخاري في صحيحه باب (١١١) جهر الإمام بالتأمين حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا أمَّن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر اللَّه له ماتقدم من ذنبه**»(١).

ورواه مسلم في كتاب الصلاة من حديث أبي موسىٰ الأشعري، وآخره: «**فقولوا: آمين؛ يؤمنكم اللَّه**»(٢).

وروىٰ الترمذي وأبو داود والإمام أحمد في التأمين أحاديث حسنة(٣).

الفائدة السادسة: صراط اللَّه المستقيم يوجب علىٰ أهله المؤمنين به مخالفة أصحاب الجحيم؛ من كل كافر ومنافق سلك خلافه من سبل الشياطين، فإن الذي يصدق اللَّه في أن صراطه مستقيمٌ لابد له من سلوكه، وسلوكه الصحيح يقتضي مخالفة السالكين سواه وعدم الموافقة لهم أو التشبه بهم أو الالتقاء معهم في أي مسلك أو مبدأ أو مذهب؛ لأن من لم يخالفهم يكون مستحسنًا لشيء من خططهم، أو في قلبه ميل إليهم، وبقدر ما يستحسن من خططهم وأذواقهم أو يلتقي معهم في أخلاقهم وعاداتهم؛ فيقلدهم في أزيائهم أو أخلاقهم أو أعيادهم، يبتعد عن صراط اللَّه علىٰ حسب ذلك، ويدخل إلىٰ قلوبهم السرور بذلك، عكس ما يطلبه اللَّه منه.

أما محبتهم أو محبة بعضهم بحجة وطنية أو عصبية فهي شرود عن صراط اللَّه بالكلية، وهدم للدين، خصوصًا إذا انتقص المسلمين الذين

---

(١) رواه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠).

(٢) رواه مسلم (٤٠٤).

(٣) انظر جمعها في: «نيل الأوطار» للإمام الشوكاني، كتاب: «صفة الصلاة».

ليسوا من جنسه أو وطنه أو فضل الكفار عليهم لأجل ذلك؛ كما هو الركن الأصيل الذي ركزته الماسونية اليهودية لأهل المبادئ العصبية والوطنية، فمشابهة الكفار أو الالتقاء معهم في أي مذهب وسلوك عن قصد ورغبة مخالفٌ لسلوك صراط اللّه؛ حتىٰ إن النبي ﷺ لما هاجر إلىٰ المدينة وجد عند الأنصار أعيادًا قوميةً يتذكرون فيها أيامهم التي يعتزون بها؛ فقال لهم ﷺ: «**إن اللّهَ قد أبدلكم عنها بعِيدينِ: عيد الفطر، وعيد الأضحىٰ**»[1].

كل هذا من حمايته ﷺ لجناب التوحيد؛ بإبعاد أمته عن كل ملاقاة مع عوائد الجاهلية.

وكم أحدث المسلمون والمحسوبون علىٰ الإسلام أعيادًا بدعيةً باسم الدين، كعيد مولد النبي، وعيد مولد الولي، أو كالأعياد القومية من عيد نَهضة وجلاء واستقلال، وغير ذلك مما لا يجوز تسميته عيدًا، ولا البُروز بشيء فيه مخالف لغيره من الأيام؛ لأن في هذا مشابهةً وتقليدًا، بل والتقاء مع الكفار المبتعدين عن صراط اللّه، بل نَهىٰ ﷺ عن الذبح في موقع تتخذه الكفار عيدًا، ونَهىٰ عن بناء القبر وتشييده أو إسراجه أو الصلاة إليه أو في المقبرة، ونَهىٰ عن بناء المساجد علىٰ القبور، أوعن شد الرحال إلىٰ غير المساجد الثلاثة... إلىٰ غير ذلك، سدًّا لأبواب الشرك، وحمايةً لجانب التوحيد، حتىٰ إنه نَهىٰ عن دعاء اللّه عند قبر رجل صالح، والبحث في هذا مطول جدًّا.

فعليك ـ أيها القارئ ـ لهذا الموجز بالرجوع إلىٰ كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» للشيخ ابن تيمية إن كنت راغبًا في المزيد.

الفائدة السابعة: فيما اشتملت عليه سورة الفاتحة المباركة إجمالًا: فقد اشتملت علىٰ توحيد الربوبية، وأن اللّه يستحق جميع المحامد من العالمين؛ لأنه رباهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وفي هذا رد علىٰ كل

---

(١) رواه أحمد (٣/١٠٣)، وأبو داود (١١٣٤)، والنسائي (١٥٥٦).

الملاحدة والفلاسفة ـ قديمًا وحديثًا ـ ممن ينكر اللَّه، أو ينكر تأثيره في الأكوان والكائنات، واشتملت علىٰ توحيد الصفات التي لا يماثلها شيء، وفي ذلك رد علىٰ أهل الكلام والمبتدعين التابعين لهم في إنكار الصفات أو تأويلها بقياسهم الفاسد لصفات الخالق علىٰ صفات المخلوق ـ كما سنوضحه إن شاء اللَّه ـ.

وإن اسم «اللَّه» تنبثق منه جميع الأسماء الحسنىٰ التي يجب علىٰ البشر أن يعاملوه بمدلولاتها العظيمة القويمة، ثم اشتملت علىٰ تركيز الإيمان بالغيب والحشر والجزاء في يوم لا ريب فيه، كما اشتملت علىٰ توحيد الألوهية الذي هو توحيد العبادة الذي جاءت الرسل ونزلت الكتب من عند اللَّه لأجله، واشتملت علىٰ تقرير القضاء والقدر، وأنه من اللَّه؛ فالأمر بيده، والهداية بيده، والاستعانة محصورة به ومنه جَلَّ وَعَلَا، كما اشتملت علىٰ تقرير النبوات بحصر الهداية علىٰ اللَّه ومن وحي اللَّه وكون صراطه وحده هو الصحيح المستقيم، وما عداه فهي سبل الشياطين الذين وصفهم المصطفىٰ ﷺ في حديث صراط اللَّه الذي خط فيه لأمته الصراط[1]، ولهذا اشتملت هذه السورة المباركة علىٰ تعليم اللَّه لنا تكرار الضراعة إليه بتجديد العهد المؤكد معه علىٰ حصر العبودية له والاستعانة به والتوكل عليه، وعلىٰ سؤاله الهداية إلىٰ صراطه دائمًا، فكان نظم هذه السورة في غاية البداعة والجمال، ذلك أن العاقل بالبصيرة القلبية يعرف نعم اللَّه التي أسبغها عليه وجعلها أعدل شاهد له، فيبتدئ بالبسملة له تبركًا باسم ربه واسترواحًا واطمئنانًا لذكره.

ثم ينتقل إلىٰ حمده وشكره اعترافًا بنعمه وفضله، فيقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ويرىٰ نعمه مبسوطةً علىٰ خلقه واضحةً، آثارها شاهدة بربوبيته عليهم أجمعين، فيقول: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

---

(١) تقدم.

ثم يرىٰ شمول فضله ورأفته بالمربوبين وسعة رحمته ولطفه فيقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ويرىٰ تقصير الناس في شكره بعصيانهم لأوامره وافتئاتهم علىٰ حدوده مع عدم معاجلتهم بالعذاب؛ مع ما يرىٰ من ظلمهم بعضهم البعض، فيعلم أن هناك يومًا يعاقبهم اللَّه فيه علىٰ العصيان والتفريط، وينتصف فيه من بعضهم لبعض؛ لتحقيق رحمته وعدله وفضله فيقول: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

ولقوة خشيته من الخزي في ذلك اليوم وطمعه بالفوز فيه يكرر العهد مع ربه بصدق وإخلاص ضارعًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، معتمدًا علىٰ ربه بإعانته علىٰ أداء واجبه الثقيل.

وتتمثل له شؤون حياته ومطالبه المتجددة التي لا يضبطها إلَّا عصمة ربه وهدايته له، فيقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ سائلًا ربه التوفيق له والثبات عليه ليجعله من عباده الذين اصطفاهم لقربه بحمل رسالته والجهاد في سبيله؛ وليبعده عن طرائق أهل الغضب والضلال، ويرزقه اجتنابهم فيقول: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ ملتزمًا الصدق في ذلك بمخالفتهم في كل شيء، وعدم الالتقاء معهم في أي شيء، فلا عجب إذا سميت هذه السورة بـ«أم القرآن»، فإنها اشتملت علىٰ أصول التوحيد والعبودية الصحيحة الصادقة التي علمها اللَّه عباده بكرمه وفضله.

وقد اشتملت هذه السورة المباركة علىٰ أحد عشر نوعًا من أنواع الفصاحة والبلاغة:

أحدها: حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال بابتدائها بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فإن الثناء عليه بما هو أهله ووصفه بالصفات العليا من أحسن ما يفتتح به الكلام.

ثانيها: المبالغة في الثناء لعموم «أل» في «الحمد» التي هي لاستغراق جميع المحامد.

ثالثها: تلوين الخطاب؛ فإنه ذكر «الحمد» بصيغة الخبر ومعناه الأمر.

رابعها: الاختصاص باللام في «اللَّه»؛ لاقتضائها أن جميع المحامد مختصة به وصائرة إليه سبحانه.

خامسها: الحذف، وهو حذف المتعلق في﴿ ٱهْدِنَا ﴾ وغيره، وهو للإشعار بالتعميم كما تقدم.

سادسها: التقديم والتأخير في قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾، و﴿نَسْتَعِينُ ﴾ و﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ليقوىٰ بذلك التناسب.

سابعها: التفسير أو التصريح بعد الإبهام؛ وذلك في بدل: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ ﴾ من ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ثامنها: الالتفات، وهو في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؛ كما سبق توضيح الحكمة من ذلك.

تاسعها: طلب الشيء بقصد دوامه لا قصد حصوله.

عاشرها: سرد الصفات لبيان خصوصية في الموصوف أو مدح أو ذم، وذلك في قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلىٰ آخرها.

حادي عشرها: التسجيع، ففي هذه السورة المباركة من التسجيع المتوازي وفي اتفاق الكلمتين الأخيرتين في الوزن والروي بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

ثاني عشرها: براعة الختام.

فهذه من ضروب البلاغة التي يعلمنا اللَّه إياها في السورة القصيرة.

✍ وحدة المُؤمنين في السَّير إلى الهدف:

وهنا مباحث مفيدة نختم بها بلالتنا[1] من تفسير هذه السورة المباركة:

أوَّلها: سر تقدم الضمير علىٰ الفعلين في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فقد ذكروا له وجوهًا سبق ذكرها، وهي الدلالة علىٰ الحصر والاختصاص،

---

(١) **البلالات**: التنبيهات والإشارات.

فمعناها: لا نعبد غيرك، ولا نستعين إلا بك، هو حقيقي، والمقصود منه البراءة من الشرك والتعريض بالمشركين، وتقديم ما هو مقدم في الوجود، فإنه مقدم علىٰ العابد والعبادة ذاتًا، فلذلك جرىٰ تقديمه في وضع الخطاب؛ ليوافق الوضع حقيقة الحال. وفيه ـ أيضًا ـ تنبيه للعابد ـ بادئ ذي بدء ـ علىٰ أن المعبود هو اللَّه الحق سبحانه، فلا يتكاسل في تعظيمه وإسلام الوجه إليه، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، والاهتمام بذكره حال العبادة، فإن ذكره تعالىٰ مطردة للشيطان.

وفيه التصريح من أول وهلة بأن العبادة له سبحانه فهو أبلغ في التوحيد، وأبعد عن احتمال الشرك، فإنه لو أخر الضمير علىٰ الفعلين احتمل أن تكون العبادة لغيره. وفي ذلك التقديم ـ أيضًا ـ إشارة إلىٰ حال العارف، وأنه ينبغي أن يكون نظره إلىٰ المعبود أولًا بالذات، ثم إلىٰ العبادة؛ لكونها موصلةً له ومطيةً إليه، فيبقىٰ مشغوفًا بمشاهدة أنوار جلاله.

ثانيها: سر قول ﴿نَعۡبُدُ﴾ دون «أعبد»؛ وذلك لعدة أسباب:

أحدهما: الإشعار بوحدة عباد اللَّه المؤمنين، وأن الفرد منهم مطالب بذكر صيغة الجمع إعلامًا بالرابطة الدينية، فقد أكثر القرآن الكريم إطلاق النفس بصيغة الجمع تنبيهًا منه علىٰ أن رابطة الإسلام تجعل المسلم أخَ المسلم، كنفسه، وذلك في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٤]، ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]، إلىٰ غير ذلك مما مر توضيحه في الوجه الخامس عشر بعد المئة من تفسيري المختصر هذا، والوجه الستين بعد المئة من تفسيري الطويل.

ثانيهما: احتقار العبد نفسه أن ينفرد بمخاطبة الحق سبحانه وهو لابد له من التقصير في العبودية؛ فلذا خلط عبادته بعبادة غيره من المسلمين العابدين؛ لاتحادهم معه في هدف السير إلىٰ رب العالمين، فما أجمل تعليم اللَّه له بذلك!!

ثالثها: تقديم العبادة علىٰ الاستعانة؛ لأن العبادة مما يتقرب بها إلىٰ اللَّه والاستعانة ليست كذلك.

رابعها: أن العبادة وسيلة فتقدم علىٰ الحاجة؛ ليكون هذا أقرب للإجابة.

خامسها: أن العبادة مطلوب اللَّه من العباد، والاستعانة به مطلوب منه، فتقديمهم لمطلوب مولاهم منهم أدل علىٰ صدق عبوديتهم من تقديمهم مطلوبهم علىٰ مطلوب مولاهم.

سادسها: أن العبادة واجبة حتمًا لا مناص منه، حتىٰ جعلت كالعلة أو كالسبب لخلق الجن والإنس فكانت أحق بالتقديم.

سابعها: أنها أشد مناسبة بذكر الجزاء والاستعانة أقوىٰ التئامًا بطلب الهداية.

ثامنها: أن مبدأ الإسلام التخصيص بالعبادة والخلوص من الشرك، فالتخصيص بالاستعانة لا يصح إلا بعد الرسوخ.

تاسعها: أن في تأخير فعل الاستعانة توافق رؤوس الآي وتحسين نظمها.

عاشرها: أن أحدهما إذا كان مرتبطًا بالآخر لم يختلف التقديم والتأخير.

حادي عشرها: أن مقام السالكين ينتهي عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وبعده يطلبون من اللَّه تمكينهم من تحقيقه، فإن العبد إذا أثنىٰ علىٰ ربه وتعلق بذكره زكت نفسه وصفا قلبه، فإذا استنار بأنوار العبادة وتلذذ بطاعة رب العالمين، خشي من الانقطاع عنه، فسأله الإعانة كي يستقيم قلبه، فهذه درجات العارفين أجملها اللَّه في سورة الفاتحة، واللَّه ولي التوفيق.

تتمة على بعض فضائل سورة الفاتحة:

ومما صح في فضلها من الآثار:

ما رواه البخاري في «صحيحه» عن أبي سعيد بن المعلىٰ ﵁ قال:

كنت أصلي في المسجد، فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه فقلت: يا رسول اللَّه، إني كنت أصلي، فقال: «**ألم يقُل اللَّه:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟»، ثم قال لي: «**لأعلِّمنَّك سورةً هي أفضلُ السور في القرآن قبلَ أن تخرجَ من المسجد**»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت: يا رسول اللَّه، ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أفضل سورة في القرآن؟ قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **هي السبعُ المثاني، [والقُرآنُ العظيمُ] الذي أُوتيتُه**»(١).

وروىٰ الإمام أحمد والتِّرمذي - بإسناد حسن صحيح - عن أبي هريرة نحوه، غير أن القصة مع أُبي بن كعب وفي آخره: «**والذي نفسي بيدِه ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلُها، إنها السبعُ المثاني**»(٢).

فيجمع بين الحديثين أنه ﷺ علَّم أبا سعيد بن المعلىٰ في وقت ما، ثم علم أُبي بن كعب في وقت آخر، فلا تعارض بينهما قطعًا.

وقد استدلوا بهذين الحديثين وأمثالهما علىٰ تفاضل بعض الآيات والسور علىٰ بعض، وهو المحكي عن كثير من العلماء.

وروىٰ البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: كنا في مسير لنا فنزلنا حيًّا، فقالت امرأة: إن سيد الحي سليم(٣)، وإن نفرنا غَيبٌ، فهل منكم راقٍ؟ فقام رجل منا ما كنا نأبه برقيه، فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاةً وسقانا لبنًا، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن الرقية؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب، فقلنا: لا تحدثوا شيئًا حتىٰ نأتي ونسأل النبي ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**وما يُدريكَ أنها رُقيةٌ؟! اقسِموا واضرِبوا لي بسهم**»(٤)، وهكذا رواه الإمام مسلم وأبو داود.

وروىٰ مسلم والنسائي عن ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٢) رواه أحمد (٥/ ١١٤)، والتِّرمذي (٣١٢٥)، والنسائي (٩١٤).

(٣) **سليم**: ملدوغ.

(٤) رواه البخاري (٥٧٣٦)، ومسلم (٢٢١٠).

النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال: «هذا بابٌ في السماء فُتح اليومَ ـ لم يُفتح إلا اليوم ـ، فنَزل منه مَلكٌ فقال، هذا مَلكٌ نَزل إلىٰ الأرض لم يَنزل قط إلا اليوم، فسلَّم وقال: أبشِرْ بنورين قد أوتيتَهما لم يؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحةُ الكتاب، وخواتيمُ سورة البقرة، لم تقرأ بحرفٍ منهما إلا أُوتيتَه»[١].

وروىٰ مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**مَن صلىٰ صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداجٌ، فهي خداج، غير تمام**»، قيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**قال اللَّه تعالىٰ: قَسَمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدِي نِصفين، ولِعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال اللَّهُ: حَمِدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال اللَّه تعالىٰ: أثنىٰ عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجَّدني عبدي ـ وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي ـ، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**»[٢].

ولنقتصر علىٰ ذلك، وأي فضل أعظم منه؟! وباللَّهِ التوفيق.

✍ قوةُ العزم والتصميم:

المسلمون الذين يكررون عهدهم مع اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يجب أن تكون عندهم الغاية القصوىٰ من غليان النفس وعمق الشعور الصادق، ما يجعلهم يفتحون أنفسهم، ويسبِرون أغوارها ودخائلها قبل فتح الأرض، ويحكمون ذواتهم، ويسيطرون علىٰ شهواتهم، ويملكون إرادتهم قبل أن يحكموا الأمم ويسيطروا عليها، وهم مؤمنون غاية الإيمان ومقتنعون غاية الاقتناع برسالتهم السماوية التي اصطفاهم اللَّه

---

(١) رواه مسلم (٨٠٦).
(٢) تقدم تخريجه.

لحملها من بين الأمم، ومستيقنون بأن كل إصلاح أو تقدم لحياتهم ليس منبثقًا من عقيدتهم ومندفعًا من بضاعتهم السماوية، فإنه ليس تقدمًا ولا إصلاحًا بالمعنىٰ الصحيح، وإنما هو تعلل بشيء سطحي صغير بسيط، تنخدع به دهماؤهم كنجاح موهم يعجز عن توحيدهم ورفعهم إلىٰ المستوىٰ الذي ناله أجدادهم السلف، الذين غلبت الروح علىٰ مجتمعاتهم دون المادة، وغلب الجوهر علىٰ المظهر، والذي كانت به حياتهم صدًىٰ للصوت السماوي الذي سمعوه بواسطة نبيهم محمد ﷺ.

ذلك الوحي المبارك الذي هو روح يقوي أخلاقهم كلما لانت، ويحفز نفوسهم كلما طفت علىٰ السطح؛ لأن اللَّه العليم الحكيم جعل في رسالته للأمة المحمدية تكامل شخصيتها ونضجها وإشعاعها حتىٰ تصل إلىٰ درجة التأثير والتوجيه وإثارة الإعجاب، فتكون جديرةً باستلام القيادة العالمية؛ لأن تلك الرسالة أخرجتها من نطاق المادة والأنانية، وارتفعت بها إلىٰ مستواها اللائق بها بين الأمم من كونها مرشدةً وقائدةً للإنسانية.

إن رسالتهم ليست نظرية ولا أماني، وإنما هي فعلية يجب أن ينطبع بها كل فرد وينفعل بها، وتتحقق صورتها وحقيقتها فيه كما تتحقق البطولة في الأبطال ـ في كل من يتمنىٰ البطولة ـ وعلىٰ هذا فمن واجب الأمة الإسلامية التي تكرر العهد مع ربها بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ألا تتنازل عن مرتبتها ومكانتها الأصلية التي اصطفاها اللَّه لها، بل تصر كل الإصرار علىٰ أنها هي هي مهما اجتاحتها الظروف، وعضتها النوائب نتيجة تقصيرها في جنب اللَّه، إنها إذا انحرفت عن الرسالة المحمدية، وتلاشت عزيمتها عن تحقيق خيريتها بين الأمم فإنما ذاك لمرض في قلوبها يجب عليها علاجه، أو يزيدها اللَّه مرضًا ويسلط عليها أخس أعدائها.

ففكرة الرسالة والإيمان الصادق بها تقودان الأمة حتمًا إلىٰ تكوين

نظرة عميقة للماضي وعلاقته بالحاضر والمستقبل، بخلاف المذاهب الأرضية المعاصرة، فإنها تتنكر للماضي وتشوه تاريخه بالزور والبهتان، كما أنها نظريات تحصر كل شعب بمكانه، وتجعله يتغنىٰ بكيانه دون غيره من الأمة أو شعوبها الآخرين، فتفكيراته ضيقة في حدود مصطنعة من أساليب الكفرة الغزاة الفجرة، ويحصر جلب النفع عليها دون مبالاة بغيرها.

وهذه أشنع عودةً إلىٰ الجاهليات الأولىٰ، أما رسالتها السماوية الخالدة فقد حققت لهم وحدةً إسلاميةً أكبر مما ينشدونه من وحدة عربية مئات المرات، حيث انصهرت فيها جميع العناصر والأمم والشعوب، وانطبعوا بطابع الإسلام عن حب ورغبة.

إن رسالة اللَّه للمسلمين تجعلهم مرتبطين بالسماء، حاملين بضاعة السماء، ليملكوا الأرض ويورثها اللَّه إياهم، وكلما تنكبوا عن بضاعة السماء وتعلقوا بالبضائع الأرضية الملتقطة من المزابل اليهودية خسروا من الأرض بقدر ما أضاعوه من بضاعة السماء؛ ولا يعود لهم ما خسروه إلَّا بعودتهم لحمل بضاعة السماء وتشوقهم إلىٰ رب السماء؛ لينالوا وعده في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ [الحج: ٤٧]، إنهم كلما اقتصروا علىٰ طلب الأرض خسروها وخسروا السماء.

فعلىٰ المجتمع الإسلامي أن يجاهد نفسه ويغالبها ويراغم شهوتها وشياطينها، ليحقق شخصيته التي يوجب اللَّه عليه أن تكون أهلًا للجهاد الخارجي والزحف المقدس، وأن يدفع الثمن الذي طلب اللَّه منه في آية شرائه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، ذلك الثمن الغالي الذي يتحقق ببذله ما هو أغلىٰ منه وأعلىٰ في الدنيا والآخرة.

إن المجتمع الإسلامي يعيش في مستوىٰ هابط من الروح قد سبب فتورًا وخمولًا؛ يجب أن يعالج بانطلاقةٍ إيمانية روحية عميقة، تحدث حرارةً لاهبةً تطهر النفوس وتفتح المواهب، وتفجر الطاقات والبطولات، حرارة جمرة الإيمان الصحيحة المشتعلة من حب اللَّه وتعظيمه، والغيرة

لدينه، والغضب لحرماته.

فيجب علىٰ كل مسلم مؤمن أن يغوص في أعماق نفسه، ويحاسبها علىٰ ما فرطت في جنب اللَّـه، فيستأنف حياته من جديد بالعودة الصحيحة إلىٰ اللَّـه شامخًا برأسه إلىٰ بضاعة السماء، رافضًا كل بضاعة أرضية ومترفعًا عنها، إذ أن المسلمين ما داموا غافلين عن اللَّـه فهم ناسون أنفسهم، أو جاهلون بها كليًّا؛ لأن من عرف نفسه معرفةً حقيقيةً؛ عرف قيمتها العظيمة التي لا تعدلها الدنيا جميعها ثمنًا، فلم يسترخصها باللَّهو واللعب، ولم يبعها بثمن من لذائذ الدنيا وزينتها، بحيث يكون تابعًا لدجال أو طاغوت، أو عبدًا لأي مخلوق مثله.

وليس شيء يُعرِّف الإنسان بنفسه سوىٰ صدق الإيمان الذي يلهب الروح، ويفتح الفكر، ويقوي المشاعر، ويهذب الخلق ويقومه، ويحصل من جرائه معرفة الحق والإخلاص له، والصدق في تحقيقه بالعمل الدائب والتضحية الصحيحة، التي بسببها يكون لوجود صاحبه معنىٰ صحيح حق في الحياة، فإن كل تساهل وانحراف في حمل الرسالة وتطبيق الشريعة يهدد الأمة بالتجزئة والتناثر، ويعطي أعداء اللَّـه سلاحًا عليهم؛ ذٰلك أن رسالة الدين رحمة من اللَّـه ترفع الظلم والفساد عن أهل الأرض، وتحررهم من كل استعباد يريده لهم الدجاجلة والطواغيت، فعندما فسد علماء اليهود والنصارىٰ، وأحدثوا في دين اللَّـه ما أحدثوه؛ صارت مجتمعاتهم في حالة سيئة من الظلم والفساد؛ لأنهم يُضفُون أثواب القداسة علىٰ الظلمة والانتهازيين، وكلُّ من فسد من علماء المسلمين ففيه شبه من أولئك إلا أنه ممقوت مفضوح.

ولهذا كان من مميزات المسلمين فضيحة الفاسد، وإباحة غيبته، ووجوب عزله عن كل المناصب، بخلاف أولئك، فالإسلام يحرم السلبية من كل ناحية، ويأمر بمزجها بالإيجاب في كل ناحية من نواحي الحياة؛ لأن ذلك هو سنة اللَّـه الكونية، وفساد العلماء والعُبَّاد في الدين اليهودي والنصراني المفتَرىٰ علىٰ اللَّـه هو سبب ثورة أهل أوروبا علىٰ الدين

المكذوب المفترىٰ علىٰ اللَّه، لما فيه من تعطيل العقل وحرمان العلم والنور، ومقاومة الإبداع والاختراع، وتشجيع الظلم والاستعباد.

فعلىٰ المسلمين أن يَصدُقوا في عهدهم الذي يكررونه مع اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بتطبيق حكم اللَّه فيما أنزل، بأن يطبقوه علىٰ أنفسهم أولًا، ثم علىٰ سائر مجتمعاتهم، طالبين رضا اللَّه في ذلك؛ لِتحُفَّهم حصانة اللَّه إذا زحفوا به علىٰ غيرهم؛ كما أوجب اللَّه ذلك عليهم، وتوعدهم بأشد العقوبات الدنيوية والأخروية إن هم تخلفوا عن هذا الواجب المقدس.

ولا يشك عاقل صريح في أن معيار الإنسان في صدقه وإخلاصه هو عمله، وليست أقواله أو كتاباته المعيار لذلك، بل يستطيع أن يزعم بلسانه أو بكتابته أنه مؤمن مخلص، وأن الإيمان بالقلب، أو أن الإيمان هو الحب، ولكن أفعاله وجهاده هي المُعبِّرة الصادقة عما في ضميره من صدق وإخلاص أو دجل ورياء، فمن فضَّل مراد اللَّه علىٰ مراد نفسه، وفدىٰ الرسالة المحمدية بروحه وماله؛ فقد برهنت أعماله علىٰ ما في ضميره من صدق مع اللَّه وإخلاص له ومحبة صحيحة للَّه ولرسوله، ومن عكس الأمر فقد كشفت لنا أعماله عما في قلبه من دجل ونفاق، وأنه ليس من الموقنين بعهد اللَّه عياذًا باللَّه من ذلك.

✍ خلاصة عامة:

تحقيق عبودية اللَّه، وحصر الارتباط والتعلق به دون ما سواه يحصل به راحة البشرية وأمنها، وسلامتها من القلق والاضطراب الموجب للثورات التي صار منها في كثير من البلدان حمامات للدم، وفتك وبطش وإهدار للكرامة بشتَّىٰ التهم الكاذبة، والأغراض الانتهازية، حتىٰ من إخوانهم وأبنائهم!! بسبب عدم التربية الدينية التي ينطبعون فيها بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فإن حاجة الإنسانية إلىٰ ذلك أشد من الطعام والشراب والدواء الحسي؛ لأنها هي الغذاء المعنوي والدواء

الرُّوحي، والواقي من جميع الشرور والمآسي، وهي التي تربي الروح وتنميها أعظم من تنمية الجسم والعقل بالطعام الحسي والعلم المادي، فلا تتهذب الطباع وتنصقل الأرواح وتكتمل إلا بما اختاره اللَّه لها من معرفته، والأُنس بحبه، ولذة طاعته وذكره، ورجاء ما عنده، فتسلم من جميع الشرور والأزمات.

الصادق مع اللَّه بتحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا يضره كيد الكائدين، ولا مكر الماكرين، ولا يقدر أن يَفرُطَ عليه أي جبار عنيد أو يطغىٰ؛ لأن اللَّه يحيطه بمهابة تلجم أفواه الطغاة وتزلزل قلوبَهم، فلا يقدرون أبدًا علىٰ تنفيذ ما يتوعدون به، أو يُهمُّون به، من نيل عباد اللَّه بأي سوء، مهما أوتوا من البطش والعظمة والقوة، ينسيهم اللَّه استعمالها، ويفتت معنويتهم، ويفقدهم قوة التنفيذ، بل يخسرهم[1] علىٰ الأمر به ويحبط مكرهم، مهما بلغوا من الكيد والتفكير.

ولذا قص اللَّه علىٰ عباده في كتابه الكريم - بعدما وجههم لحسن السير إليه بهذه الأمة[1] في عدة سور منه - قصص عدد من المؤمنين، الذين انهارت قوة الطغاة أمامهم، وهم أفراد ضعفاء إلا من الإيمان، كالنبي هود عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام قومه عاد الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فتحداهم وهو فرد - مع زعمهم أن أصنامهم التي يعبدونها قد أصابته بسوء -، وقال: ﴿أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود]، لا تمهلوني ولا لحظةً واحدةً، هاتوا ما عندكم من الكيد والعقوبة بكل سرعة، فإني لا أبالي بكم جميعًا أنتم وآلهتكم.

فانظر - أيها القارئ والسامع - إلىٰ ما وهبه اللَّه عباده الصادقين الصالحين من القوة المعنوية، وما أحاطهم به من الحصانة الخفية، التي لا يغلبها غالب، كيف وقف هذا العبد الفرد بين الأمة العظيمة

(١) كذا في المطبوع، ولم أتبينها.

القوية هذا الموقف الذي أشهد به اللَّه أولًا علىٰ براءته من دينهم ومما هم عليه، وجاهرهم بمخالفته لهم وبالبراءة من آلهتهم التي يعادون عليها، ويوالون ويتفانون في نصرتها، ثم أعلن استهانته بهم، واحتقاره لهم وازدراءه، وتحداهم أن يجتمعوا كلهم علىٰ كيده وشفاء غيظهم منه بكل عجلة دون إمهال، وهو ثابت وحده بلا جزع ولا فزع؛ من قوة ثقته باللَّه وجزمه بنصره!.

فموقفه يتضمن إعلانه بقوته عليهم، وأنهم أعجز وأضعف من أن ينالوا منه شيئًا، ثم يقرر دعوته أوضح تقرير وأحسنه؛ مبينًا لهم أن اللَّه ربه وربُّهم، وأنه متوكِّلٌ عليه فقط، لا علىٰ غيره، وأن نواصيهم ونواصي جميع الخلائق بيده، فيقول: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]، فالذي هو آخذ بنواصي العباد قادر علىٰ نصر أوليائه وأهل طاعته، مهما ضعفوا ضعفًا حسيًّا يَجْبُرُهم بقوة معنوية وحصانة سماوية، ويشل حركة أعدائه، ويكفهم عن عباده الصادقين، ويجعلهم لا ينتفعون بقوتهم مهما كثرت وعظمت.

وكونه علىٰ صراط مستقيم يقتضي انتقامه ممن خرج عنه وعمل بخلافه، ونصرة من سلك نَهجه ـ ولو كان فردًا واحدًا ـ علىٰ أكبر عدد وأقواه، وقد ينتقم ممن يزعم الإسلام وهو مخالف له بمن هو كافر، ليطهر دينه من المنافقين، ويمحص بذلك قلوب المؤمنين، وينشئ لدينه من ينصره، فيديل دولة الكفر به حسب حكمته في كونه، وقد أجراه كثيرًا في عدة عصور، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وقد نصر اللَّه إبراهيم أعظم نصر لم يعرف له التاريخ مثيلًا، وكرر اللَّه علينا قصة موسىٰ مع فرعون، لما فيها من عظيم العبرة، فموسىٰ الذي خرج من فرعون هاربًا يترقب، يرجع إليه رسولًا نذيرًا يخاطبه بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء]، يدخل عليه مع هارون بسلطان من اللَّه الذي قال له: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص]، فيصمدان أمام طغيانه، ويبارزانه بالقوة المعنوية من رب

العالمين، وكذلك مؤمن آل فرعون الذي خاطبه بدون مبالاة.

وقد أرانا اللَّه من نصرة المؤمنين بعد مبعث محمد ﷺ في زمنه وبعد زمنه ما هو عبرة للناظرين، وتأييده سبحانه لأهل بدر ومن علىٰ شاكلتهم من هذا النوع، وخذلانه لمن خرج عن طاعته أو فضَّل الدنيا علىٰ الآخرة تأديبًا.

فاللَّهُ أرشد بني الإنسان إلىٰ ما يحييهم حياةً طيبةً سعيدةً من تحقيق عبادته، ويقيهم بها من شرور شياطين الجن والإنس، حفظًا ونصرًا، وإلىٰ الصدق في حصر الاستعانة به والتوكل عليه، مع الأخذ بالأسباب التي هي من كمال التوكل والعبادة؛ لأن ذلك هو طريق تسديده وتأييده ونصره، الذي لا يقدر أحد علىٰ مجابَهتِه.

فأهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أهل القوة والمنعة والعزة والزحف الذي لا يوقف في وجهه، وهم أهل التكبير الصادق المرجف لقلوب الأعداء، والمزلزل لحصونهم، وهم الذين يتحدَّون غيرهم، ولا يقدر غيرُهم علىٰ تحديهم مهما قلوا.

ولم تستعلِ الدول المادية في هذه الأزمنة إلا علىٰ الذين يتولون بعضهم ويعتمدون عليها، هذا يعتمد علىٰ الدولة الفلانية، وهذا علىٰ الدولة الأخرىٰ، وفريق يعتمد علىٰ القبر الفلاني، وفريق علىٰ مجاورة فلان، أو علىٰ سكنىٰ البلد المقدس عنده، أو علىٰ جوار حرم اللَّه وهو متلبس بمعاصيه غير محقق لعبوديته علىٰ الوجه المطلوب، بل هو مشابه للذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

أما في وقت يقيض اللَّه به قومًا يحبهم ويحبونه بالمعنىٰ الصحيح، ويعبدونه بالمعنىٰ الصحيح، ويجاهدون في سبيله لا يخافون لومة لائم، ويأخذون بالأسباب غير متعلقين بها، ولا معتمدين عليها، بل هم معتمدون علىٰ اللَّه متعلقون به، جازمون أن اللَّه مولاهم، قاصرون ولايتهم عليه، فهو نعم المولىٰ ونعم النصير، لا يستنصرون بغيره أبدًا، فإنه يتحقق لهم ما قلناه، من التأييد والنصر والتمكين، كما وعدهم به

اللَّـه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء].

إن القرآن الكريم يشمخ برؤوسنا في عالم السياسة إلىٰ أسمىٰ مدارج الكمال، وهو وحده الذي يرفع رؤوس أهله، ويهيب بهم ألَّا يستعينوا بغيرهم في دفع أي عادية، أو ردع أي عدو، أو قمع أي ظالم، أو إخراج أي مغتصب، بل يعتمدون علىٰ اللَّـه، ثم علىٰ أنفسهم بعد الأخذ بالأسباب، وإعداد القوة الموجبة عليهم في قتال كل باغٍ وظالم، مستعينين باللَّـه وحده بنية خالصة، وألسنة صادقة لإعلاءً كلمته، وبجوارح طاهرة من معصيته، وقلوب محشوة بمحبته وتعظيمه، سليمة من محبة ما يبغضه، وموالاة من يعاديه.

وبذلك ينالون مدده وحصانته ونصره علىٰ أعدائهم مهما كانوا، كما أجرىٰ سنته بذلك، حيث قال في أوليائه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

بتحقيق عبودية اللَّـه وفق مدلول هذه الآية يتحقق كيان المسلمين بين الأمم، ويكون لهم هدف صحيح ناجح نصب أعينهم، يفرضونه علىٰ من سواهم، وتكون حركاتهم منوطةً به، وإنفاقهم المال في سبيل نصرته والزحف به لوجه اللَّه، ولا ريب أن من ليس له هدف في الحياة يفقد كيانه بين الأمم، ويكون عولًا عليهم أو علىٰ بعضهم.

ولذا أرشد اللَّـه عباده المؤمنين إلىٰ هذا الهدف السامي الذي يبرُزون فيه بين الأمم، ويتفوقون عليهم، ويتميزون منهم بالطموح والشموخ عن كل خوف أو تقليد؛ لأن اللَّه العليم الحكيم خط لهم الخطة الروحية بصراطه المستقيم بين سائر أهل الأرض من الماديين عُبَّاد الأشخاص، وعباد الشهوات، وعُبَّاد الهوىٰ والدرهم والدينار.

✍ حياةُ المُسلم بين جهادين:

تكرار الضراعة من المؤمن الصادق مع اللَّـه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه تصميم جازم علىٰ القيام بالجهاد النفسي، الذي يحصل

بتحقيقه الصلاح والفلاح، لا للفرد فقط بل لسائر المجتمع الإسلامي، إذ بالتغلب علىٰ شهوات النفس ونزواتها وكبح جماحها، وإيقافها عند حدود اللَّه في كل شيء، وتسييرها وتصبيرها علىٰ طاعته وأقداره، والتزام عبادته في جميع نواحي الحياة، يسلم الفرد والمجتمع من شرور الأنانية وجماح الشهوات، وغوائل الحقد، وسورة الأطماع؛ فيصبح كل واحد منهم نقيًّا، محبًّا لأخيه المسلم مثل ما يحبه لنفسه، ويغار علىٰ عرض أخيه كما يغار علىٰ عرضه، فيعيشون عيشة الإيثار، لا عيشة الأثرة، فلا تجد الماسونية اليهودية فيهم مدخلًا باسم الشيوعية ولا غيرها.

وبهذه الحالة لا يؤثرون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، بل يسترخصون الحياة في سبيل الشهادة، ويحبون الموت كما يحب غيرهم الحياة، ذلك أن اللَّه جعل حياة المسلم دائمًا في جهادين، وفي صراعين: جهاد وصراع داخلي باطني، وجهاد وصراع خارجي، جهاد نفسي وصراع داخلي، مع شهوات النفس وأنانيتها ووساوس شياطينها، وهمزات قرنائها من الجن والإنس وجهاد وصراع خارجي مع شياطين الإنس المتمردين علىٰ وحي اللَّه، والمتطاولين علىٰ سلطانه في الأرض، وكل من نجح في الامتحان النفسي وانتصر في الجهاد الداخلي العظيم، فإنه ينتصر في الجهاد الخارجي علىٰ أعداء اللَّه وأعدائه - بإذن اللَّه ومدده وتوفيقه -، والعكس بالعكس.

أما من هزمته نفسه وصرعته أهواؤه وشهواته؛ فإنه ينصرع في الجهاد الخارجي، وينهزم أمام أعدائه مهما كانت خستهم، كما انهزم العصريون في هذا الزمان أمام اليهود الذين لم يكتب لهم نصر ولا عز إلا علىٰ أمثال هؤلاء، وقد أخبرنا اللَّه عما امتحن به قومًا غيرنا في سورة البقرة بنوع واحد من الجهاد النفسي، انصرع به أكثرهم وغلبته نفسه، فانهارت معنويتهم، ونكصوا علىٰ أعقابهم حينما شاهدوا عدوهم من بعيد، ولم يقابله إلا القلة التي نجحت في الامتحان، وصبرت علىٰ أمر اللَّه ووقفت عند حدوده، فكانت هي الغالبة في الجهاد الخارجي.

ها هم قوم طالوت الذين سألوا نبيهم بكل إلحاح أن يبعث لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل اللَّه فلما بعث اللَّه لهم طالوت وأيده بما يطمئنهم علىٰ قبول رئاسته ـ كما سيأتي توضيحه في محله إن شاء اللَّه ـ ساروا إلىٰ عدوهم بغرورهم وخيلائهم، وأمانيهم العريضة، كأن العدو لقمةٌ سائغة يبتلعونها، ولكن اللَّه جلَّت قدرتُه أراد امتحانهم بشيء من الجهاد النفسي؛ ليميز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، فأسال عليهم نَهرًا باردًا عذبًا، وقال لهم: لا تشربوا!! ما هذا الامتحان؟ يا له من امتحان!! قوم سفر شعث غبر، طال بهم السفر علىٰ الجمال، وتحملوا المشقة والآلام يعترضهم مثل هذا النهر، فيُمنَعون من شربه، إنه اختبار واحد بنوع واحد من الجهاد النفسي فقط، فكيف لو اختُبروا بكثير؟ إنه نوع واحد رسب أكثرهم فيه وسقط، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ماذا كان حال القوم؟ أكثرهم خارت عزيمته وانهارت معنويته، وصرعته شهوته وغلبته نفسه، قال اللَّه عنهم: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ثم ماذا كانت عاقبة هذه الأكثرية التي انهزمت في الجهاد النفسي؟ يخبرنا اللَّه عنهم أنهم لما جاوزوا النهر سائرين إلىٰ عدوهم واقتربوا منه: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هذه عاقبة الهزيمة الداخلية النفسية، انهزام قبيح وشرود فاضح في الجهاد الخارجي، وإلا فهم لم يخرجوا إلا طالبين جهاد عدوهم، ومتعطشين إليه، ولم يكن أمره خافيًا عليهم، ولكن الهزيمة النفسية هذه بعض عواقبها السيئة، أما الفئة القليلة ـ وكثيرًا ما يكتب اللَّه الخير في القليل ـ الفئة القليلة التي صبرت علىٰ طاعة اللَّه وصبَّرت نفسها علىٰ قضائه، ووقفت عند حدوده، فلم تشرب سوىٰ غرفة ماء واحدة، فإنها هي التي ثبتت للقتال قائلة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ

ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فليتصور المسلم هذا الامتحان الذي هو يسير وعظيم وليعتبر به؛ من جهاد نفسي سقط فيه الكثرة الكثيرة، ونجحت فيه قلة فازت بالنصر والظفر علىٰ عدوهم المتفوق عليها كثيرًا، كل هذا سببه تحقيق الجهاد النفسي الداخلي؛ ليعتبر المسلم فيمن عصىٰ اللَّه بشربة ماء، وغلبته نفسه فلم يصبر علىٰ ما حدّه اللَّه له، كيف انهارت نفسه في الجهاد الخارجي، ولم يثبت للقاء عدوه لحظةً واحدةً.

فإذا كانت هذه حالة العاصي بأخف شيء، فكيف بمن عصىٰ اللَّه بشرب الخمور واقتراف كبائر الذنوب والفواحش؟ كيف بمن حادَّ اللَّه ورسوله ونازع اللَّه في ألوهيته وسلطانه برفضه تشريعاته وجعله لنفسه حق التشريع والتقنين؟ كيف بمن يزعم الإسلام، وينطق بالشهادتين تلفظًا لا يجاوز حناجرهم؟ وهم لم يصدِّقوا اللَّه في أن صراطه مستقيم فيسلكوه ولم يجعلوا محمدًا ﷺ قدوتهم فيتبعوه، بل جعلوا صراط الغربيين والبلاشفة هو المستقيم، فاتبعوه وعضوا عليه بالنواجذ، وأرغموا شعوبهم علىٰ اتباعه؟.

كيف بمن انصرف عن وحي اللَّه، وصرف الناس عنه بما يبثه عليهم من لهو الحديث المتنوع غناءً ماجنًا، وصورًا خليعة، وأقاصيص وتماثيل فاجرة، ينفِّذ في كل هذا خطة الكفرة الفجرة الذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، أي: اشغلوا الناس عنه؟ كيف يرجىٰ ثبات أهل هذه الأصناف أمام أعدائهم من اليهود ونحوهم، فضلًا عن انتصارهم عليهم؟ حقًّا، إن هزائمهم أمام اليهود سببها انصراع نفوسهم بالشهوات، فهم صرعىٰ الأطماع والأنانية وحب الرئاسة، وهم صرعىٰ اللَّهو والشبهات، وهم صرعىٰ الأهواء المسعورة، التي جعلتهم - دائمًا - في سكر معنوي أفظع من كل سكر حسي ومن كل صرع شيطاني، فاللَّه أرشد عباده لما يحميهم من الصرع المعنوي الجالب للهزيمة النفسية المسبب للهزيمة الخارجية، وتسلط الأعداء

من شياطين الجن والإنس، أرشدهم إلىٰ الصدق معه، والإخلاص له، والاستقامة علىٰ عبادته دونما سواه؛ ليحققوا حصرهم الضراعة إليه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيلتزموا عبادته وطاعته في جميع شؤونهم السياسية، وذلك بحصر المحبة والولاء لوجهه الكريم، والبغض والمعاداة من أجله سبحانه فقط، فيحب ما أحبه اللَّه من الأعمال والأشخاص مهما كانت جنسيته، ويوالي المسلمين ويساندهم ولا يجعل أحدًا منهم عرضةً للنوائب، ولا يسلمه أو يخذله أبدًا، ويبغض ما يبغضه اللَّه من الأعمال والأشخاص ـ ولو كان أقرب قريب ـ، ويعاديه؛ بل يعادي كل من أبغض المسلمين أو شمت فيهم، أو سخر منهم أو آذاهم، فكيف بمن حاربَهم؟!

والتزام عبادة اللَّه في الشؤون الثقافية، وذلك بحصر التلقي من مشكاة النبوة ـ الذي هو وحي اللَّه ـ ليحصر مَورده علىٰ ما أراده اللَّه لشفاء صدره من مَرضَيِ الشبهات والشهوات، ولا يمزج بضاعة السماء بالبضائع الأرضية التي هي من غش اليهود، ويلتزم عبادة اللَّه في الشؤون الاقتصادية فيحصر اكتسابه للمال من الطرق المشروعة، مجتنبًا ما حرمه اللَّه من أكل الربا والسحت، ويحصر إنفاقه للمال علىٰ الحقوق المشروعة، مبتعدًا عن البذخ والإسراف، وتبديد هذه الطاقة العظيمة فيما لا يدفع بالرسالة؛ ولا ينفع العقيدة، بل هو إسالة المال إلىٰ الأعداء كما هو شأن العصريين المتشدقين بخلاف ما يعملون.

ويلتزم عبادة اللَّه في الشؤون الاجتماعية، فيراقب اللَّه في جميعها بتحليل الحلال وتحريم الحرام، لا يحاول تحريم شيء مما أحله اللَّه أو إباحة شيء مما حرم اللَّه فيكون مفتريًا علىٰ اللَّه، ولا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون فاقد الحب للَّه أو عديم الغيرة للَّهِ؛ لا يغضب لدينه ولا يغار لحرماته، بل يكون وقافًا عند حدود اللَّه، محاذرًا جميع معاصيه، مجتنبًا ومطهرًا مجتمعه من جميع دواعي الزنا

والمغريات عليه من السفور والتبرج وإظهار الزينة والمفاتن، والتصاوير والتمثيليات والأفلام والمسارح، والبلاجات التي يحصل منها ما يثير الغرائز ويقضي علىٰ الحياء والحشمة، ومجتنبًا ومطهرًا مجتمعه من جميع المسكرات والمُفتِّرات[١] التي فيها جناية علىٰ العقل والروح المعنوية، وجميع ما فيه ذريعة إلىٰ فساد الأخلاق كاختلاط الجنسين والرقص، ومسابقة الجمال ونحو ذلك، مما يحرص الكفرة أعداء اللَّه علىٰ شيوعه في المجتمعات الإسلامية لإفسادها وانحلالها.

وبمراقبة المسلم للَّه تعالىٰ في جميع شؤون حياته السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية يكون قد قام بالجهاد النفسي الداخلي، فإن هو استقام وثابر وصبر وصابر مخلصًا نيته للَّه من كل شائبة؛ أعانه اللَّه علىٰ تحقيقه؛ لأن اللَّه يهدي إليه من أناب، ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورىٰ].

فعلىٰ المسلم أن يتدبر مدلول ضراعته إلىٰ اللَّه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ التي أرشده اللَّهُ إلىٰ تكرارها عشرات المرات في صلوات الليل والنهار، ليخلص للَّه ويصدق معه في تحقيقها؛ لينجح في الجهاد النفسي نجاحًا يؤهله للجهاد الخارجي تأهيلًا يجعله لا ينهزم، ولا يقهر.

وإلا فما قيمة حياته إذا توالت عليه الهزائم من أعدائه، كما توالت علىٰ العرب المعاصرين هزائم من أخس أعدائهم، لاعتمادهم في شؤون حياتهم السياسية والتربوية ونحوها علىٰ ما خططه أولئك الأعداء، وشرودهم عما خط اللَّه لهم في وحيه المبارك.

نسأل اللَّه أن يهدي الضال ويرجع بالشارد؛ فإنه لا منجىٰ ولا ملجأ إلا إليه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف].

❁ ❁ ❁

---

(١) **المفتِّرات**: التي تبعث علىٰ فتور الجسد وتسبب له البلايا، كالمخدرات ونحوها، وقد سبق بيان هذا المعنىٰ.

فهرس الموضوعات